

مجموع الغزالي

# فتاوى السيرة

تمتاز هذه الطبعة بمراجعة أحاديث السيرة  
ونقد أسانيدها ومتونها ونحيص قيمتها العلمية

يطلب من  
دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفي عامر  
١٣ شارع الجمهورية بعابدين تليفون ٩١٦١٠٧

---

الطبعة السادسة

ديسمبر ١٩٦٥

---

خرّج أحاديث الكتاب  
محدّث الديار الشامية العلامة  
محمد ناصر الدين الألباني

# بسم الرحمن الرحيم

## مقدمة

هناك عطاء كثيرون ، يقرأ الناس قصص حياتهم ليتعلموا من عناصر النبوغ فيها ، وليتابعوا بإعجاب مسالكها في الحياة وواقفها بإزاء ما يعرض لها من مشكلات وصعاب ، وقد تكون هذه القراءة المجردة هي الرباط الفذ بين أولئك العطاء ومن يتعرف عليهم ، وربما تطورت فأصبحت دراسة عميقة أو صلة إنسانية وثيقة .

وأبادر إلى القول بأنني لم أكتب عن صاحب الرسالة العظيمي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفي نفسي هذا المعنى المحدود .

فأنا رجل مسلم عن علم ، أعرف لماذا آمنت بالله رب العالمين ؟ ولماذا صدقت بنبوة محمد ؟ ولماذا اتبعت الكتاب الذي جاء به ؟ بل لماذا أدعو الآخرين إلى الإيمان بما سكنت إليه نفسي من هذا كله .

وقد سبق لي أن نشرت في السيرة فصولاً متنوعة وهل ابتعدت عنها في شيء مما كتبتة ؟ إن الرسائل التي عالجتها فيها بحوث العقيدة والخلق والمعاملة والحكم اعتمدت على سيرة النبي الكريم في كيانها وسياقها ولذلك يصح أن أقول :

إن هذا الكتاب ليس صلة محدثة برسول الإسلام ، ولا جملة من الدلائل على صدقه ، ولا لمحات تكشف المؤلف عن عبقريته وسناء دعوته ..

فإن ذلك قد استفاض به الكلام في مواضع أخرى ! ولكنني توفرت على إخراج هذا الكتاب وأمامي غاية معينة أرجو أن أكون بلفظي .



إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشوراً خفيفة ، لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم ، وهم يعظمون النبي وصحابته عن تقليد ، وورث ومعرفة قليلة ، ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان ، أو بما قلت مؤنته من عمل .

ومعرفة السيرة على هذا النحو القافه تساوى الجهل بها . إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة . ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أكفان الموتى ، إن حياة محمد ليست — بالنسبة للمسلم — مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقد محايد ، كلا كلا . إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها ، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها . فأى حيف في عرض هذه السيرة ، وأى خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه .

وقد بذت وسعى في إعطاء الفارىء صورة صادقة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجتهدت في إبراز الحكم والتفاسير لما يقع من حوادث ، نهم تركت للحقائق المجلوة أن تدع آثارها في النفوس دون افتعال أو احتمال .

وقد استفدت من السير التي كتبتها القدامى والمحدثون استفادة حسنة .

إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التعليل والموازنة وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك . وذاك أحسن ما في طريقهم . . .

والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار ، وتمحيص الأسانيد ، وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والشئون . وفي هذه المحفوظات الكثيرة نفائس ذات خطر لو أحسن الاستشهاد بها وإيرادها في مواضعها . .

والعلى هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد ، يجمع بين ما في كليهما من خير ، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشد أجزأؤه روح واحد . نهم وزعت النصوص والمرويات الأخرى بحيث تتسق مع وحدة الموضوع وتعين على إتقان صورته وإكمال حقيقته .



وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئاً ينسب الإيمان ويُنزكي الخلق  
ويلهب الكفاح ، ويفري باعتناق الحق والوفاء له . ويضم ثروة طائلة من الأمثلة  
الرائعة لهذا كله .

إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده ، أو تابع عن سيده ،  
أو تلميذ عن أستاذه ، ولست — كما قلت — مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن  
يكتب عنه .

ثم إنني أكتب وأمام عيني منظر قائمة من تأخر المسلمين العاماني والفكري .  
فلا عجب إذ قصصت وقائع السيرة بأسلوب يوميء من قرب أو بعد إلى حاضرنا  
للؤسف ، كما أوردت قصة جعلتها تحمل في طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة  
الفكر وجلال العمل ، كي أعالج هذا التأخر المثير .

. . .

ومحمد ليس قصة تتلى في يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن . ولا التنويه به يكون  
في الصلوات المخترعة التي قد تضم إلى ألقاظ الأذان ولا إكنان حبه يكون بتأليف  
مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون ، ويتأوهون أو لا يتأوهون !  
فرباط المعلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملققة المكذوبة على  
الدين ، وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير — في الإبانة عن تعلقهم بنبيهم —  
إلا يوم أن تركوا الباب المليء وأعيام حمله ، فاكثفوا بالمظاهر والأشكال . ولما  
كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة في الإسلام ، فقد افتنوا في اختلاق صور  
أخرى ! ولا عليهم ! فهي لن تكلفهم جهداً ينكصون عنه ، إن الجهد الذي يتطلب  
العزمات هو في الاستمسك بالباب المهجور ، والعودة إلى جوهر الدين ذاته فبدلاً  
من الاستماع إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم ، ينهض المرء إلى تقويم نفسه



وإصلاح شأنه حتى يكون قريباً من سنن محمد صلى الله عليه وسلم في معاشه ومعاده ،  
وحر به وسلمه ، وعلمه وعمله ، وعاداته وعباداته . . .

إن المسلم الذى لا يعيش الرسول فى ضميره ، ولا تتبعه بصيرته فى عمله  
وتفكيره لا يغنى عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة فى اليوم واليلة .

وأريد هنا أن أنبه إلى ضرورة الفصل بين الجد والمزىل فى حياتنا . ولا بأس  
أن نجعل للهو واللعب وتما لا يعدوه ، وللجد والإنتاج وقتاً لا يقصر عنه .

فإذا أراد أحد أن يغنى أو يستمتع إلى غناء فليفعل أما تحويل الإسلام نفسه  
إلى غناء فيصبح القرآن ألحاناً عذبة ، وتصبح السيرة قصائد وتواشيح ، فهذا  
ما لا مساغ له وما لا يقبله إلا الصغار العاقلون . وقد تم هذا التحويل على حساب  
الإسلام فانسحب الدين من ميدان السلوك والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب . وحق  
فيمن فعلوا ذلك قول الله عز وجل : « وَذَكَرَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لُحُوءاً  
وُغُرَّتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . . » .

وتحول القرآن إلى تلاوة منغومة فحسب ، يستمتع إليها عشاق الطرب هو الذى  
جعل اليهود والنصارى يذيعونه فى الآفاق ، وهم واثقون أنه ان يُحيى موتانا  
وتحول السيرة إلى قصص وقصائد غزل ( ١ ) وصلوات مبهمه جعل الاستماع إليها  
كذلك ضرباً من الخلل النفسى أو الشذوذ النائىء - فى نظرى - من اضطراب  
الغرائز وفساد المجتمع .

وخير من هذا كله أن يستمتع طلاب الغناء إلى اللهو المجرد والألحان الطروب  
فإذا ابتغوا العمل الجاد المهيىب طلبوه من مصادر المصفاة : قرآننا يأمر وينهى ليفعل  
أمره ويترك نهيه وسنة تفصل وتوضح لئلا يسار فى هديها وينتفع من حكمها ، وسيرة  
تنفع روادها بالأدب الزكى ، والقواعد الحصيفة ، والسياسة الرشيدة .

وذلك هو الإسلام . . .



بدأت أكتب هذه الصحائف وأنا في المدينة المنورة ، في الجوار الطيب الذي سعدت به حيناً ، وأعانني على إتمام دراسات جيدة في السنة المطهرة والسيرة العطرة .

ولله المنة على ما أولى من نعمة . ولعله — جل شأنه — يجعلني ممن يحبونه ومحبون رسوله ، ولما كنت لا أحسن القول والعمل إلا في نطاق الصراحة ، فلا بد أن أشير إلى أن البون بعيد بين المسلمين ورسولهم . مهما أكنوا له من حب وأدمنوا من صلوات . لقد رأيتهم يزورون الروضة مشوقين متلهفين ، ويعودون إلى مواطنهم ليجدوا من يفتطمعهم على حفظهم . ويود لو ظفر بما نالوا . أما أن محبة رسول الله واجبة فهذا مالا يمارى فيه مؤمن . وما يفيض حبه إلا من قلب منافق جحود .

ولكن أن تكون هذه العاطفة مظهر الولاء له . — فها ما يحتاج إلى تهذيب وبيان .

إن يثرب من ناحية العمران العام أقل منها يوم كانت موطناً للأوس والخزرج في الجاهلية الأولى وما يزرع اليوم من أرضها عشر ما كان يزرعه العرب قديماً وجمهور السكان من رواسب المواسم المزدهجة بالحجيج والزوار . وهم يؤثرون الجوار العاقل على العودة للعمل في بلادهم ! ويسمون ذلك هجرة . فهل ذلك إسلام أو حب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . أذكر أنه قابلني نفر من أهل المغرب يزعمون أنهم قدموا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن ، فأفهمتهم أنهم فارّون من الزحف ، لأن إخوانهم يقاتلون الفرنسيين الغزاة . وهم مجرمون بتركهم المجاهدين يحملون وحدهم عبء هذا الكفاح (١) .

---

(١) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وفرنسا تحتل أقطار المغرب الثلاثة وغيرها من ديار الإسلام .



إن هذا الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم غير مفهوم ، وهذه الهجرة لمدينته غير متقبلة . وصلة نبي الله بعباد الله أمدٌ وأحكم من أن تأخذ هذه السبيل الشاردة الملتوية .

إن أعداء الإسلام تمسكوا — في غفلة أهله — أن يصدعوا بناءه ويجعلوه أنقاضاً . فكيف يترك تراث محمد نهباً للعوادي ؟ وكيف يمهّد للجاهلية الأولى أن تعود ؟ وكيف يقع هذا التبدل الخطير في سكون ؟ بل في مظهر من الحب لرسول الله ؟

فليفقه المسلمون سيرة رسولهم العظيم .  
وهيات أن يتم ذلك إلا بالفقه في الرسالة نفسها والإدراك الحق لحياة صاحبها ،  
والالتزام الدقيق لما جاء به .

إلا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، وأغلاه عندما يكون قدوة وذماماً !

\* \* \*

إنني أعتذر عن تقصيري في إيفاء هذا الموضوع حقه . فشأن رسول الله كبير  
والإبانة عن سيرته تحتاج إلى نفس أرق وذكاء أفتد .

وحسبي أن ذاك جهدي .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم  
وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك  
حميد مجيد ؟



## حولُ حَديثِ هَذَا الكِتَابِ

سرّني أن تخرج هذه الطبعة الجديدة بعد أن راجعها الأستاذ المحدث العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، وقد أثبت فيها كل التعليقات التي ارتأها على ما قلت في هذه للسيرة من آثار نبوية ..

وأرجو أن أكون معيناً على إبراز الحقيقة العلمية وضبط الوقائع التاريخية بإثبات هذا النقد ، وشكره لمن تطوع به ..

إن آفة المؤرخين للسيرة الشريفة وغيرها من أحداث الناس وأطوار الزمان قلة التثبت وضعف التحصيل .

وقد وقع كثير من الأقدمين والمحدثين في هذا الخطأ ، على تفاوت بينهم في دقة المأخذ وحدة الانتباه .

وعندما شرعت أكتب سيرة لسيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهدت أن ألزم المنهج السوى ، وأن أعتمد على المصادر المحترمة ..

وأظنى بلغت في هذا المجال مبلغاً حسناً ، واستجمعت من الأخبار ما تطمئن بإليه نفس العالم البصير .

اسكن القارىء سيري في تعقيبات الشيخ ناصر الدين ما يبعث ريبته في هذا الظن .

وهنا أرانى مكلفاً بشرح المنهج الذى سرت عليه .

قد يختلف علماء السنة في تصحيح حديث أو تضعيفه ، ويرى الشيخ ناصر — بعد تمحيصه للأسانيد — أن الحديث ضعيف ، وللرجل من رسوخ قدمه في السنة



ما يعطيه هذا الحق ، أو قد يكون الحديث ضعيفاً عند جمهرة المحدثين ، لكننى أنا قد أنظر لمتن الحديث فأجد معناه متفقاً كل الاتفاق مع آية من كتاب الله ، أو أثر من سنة صحيحة « فلا أرى حرجاً من روايته ، ولا أخشى ضرباً من كتابته .

إذ هو لم يأت بجديد فى ميدان الأحكام والفضائل ، ولم يزد أن يكون شرحاً لما تقرر من قبل فى الأصول المتيقنة ،

خذ مثلاً أول حديث حكم الأستاذ بتضعيفه : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبوني بحب الله » .

وقد يرى الأستاذ المحدث أن نحسين الترمذى وتصحيح الحاكم لاتعويل عليهما فى قبول هذا الحديث ، وله ذلك .

بيد أنى لم أجد فى المطالبة بحب الله ورسوله ما يحملنى على التوقف فيه ولذلك أثبتته وأنا مطمئن .

وفى الوقت الذى فسحت فيه مكاناً لهذا الأثر - على ما به - صددت عن إثبات رواية البخارى ومسلم مثلاً للطريقة التى تمت بها غزوة بنى المصطلق .

فإن رواية الصحيحين تشعر بأن الرسول صلى الله عليه وسلم باغت القوم وهم غارون (١) ما عرضت عليهم دعوة الإسلام ، ولا بدا من جانبهم نكوص ، ولا عرف من أحوالهم ما يوافق . !

وقتل يبدؤ المسامون على هذا النحو مستنكر فى منطق الإسلام ، مستبعد فى سيرة رسوله .

ومن ثم رفضت الاقتناع بأن الحرب قامت وانتهت على هذا النحو .

وسكنت نفسى إلى السياق الذى رواه ابن جرير . . . فهو - على ضعفه -

---

(١) أخذهم على غرة



الذى كشفه الأستاذ الشيخ ناصر — يتفق مع قواعد الإسلام المتينة ، أنه لا عدوان إلا على الظالمين .

أما الغارون الوادعون فإن اجتياحهم لا مساغ له . . . .

وحديث الصحيحين في هذا لا موضع له إلا أن يكون وصفاً لرحلة ثانية من القتال ، بأن يكون أخذ القوم من غرة جاء بعد ما وقعت الخصومة بينهم وبين المسلمين ، وأمسى كل للفريقين يبيت الآخر ، ويستعد للنيل منه .

فانهز المسلمون فرصة من عدوهم — والخرب خدعة — وأمكنهم الغلب عليهم وهم غارون .

وفي هذه الحالة لا بد من التمهيد لرواية البخاري ومسلم ، بكلام يشبه ما نقله ابن جرير ووهنه فيه الشيخ ناصر .

ولست بدعاً في تلك الخطوة التي اخترتها . . . فإن أغلب العلماء جرى على مثابها في مواجهة المرويات الضعيفة والصحيحة على سواء .

وقرروا أن الحديث الضعيف يعمل به مادام ملتماً مع الأصول العامة ، والقواعد الجامعة .

وهذه الأصول والقواعد مستفادة — بداهة — من الكتاب والسنة .

وعلى ضوء هذا النظر المنصف حكيت استشارة رسول الله عليه الصلاة والسلام للحجاب في موقعة بدر — وإن وهن المحدثون سندها — لأنها تدور في نطاق الفضائل التي أمر بها الله ورسوله ، وليس في سؤقها ما يمحذر قط .

ذلك بالنسبة إلى الأحاديث الضعاف .

أما الصحاح فإن في تفاوت دلالتها مجالا رحباً للترجيح والرد . كما يعلم أستاذ الحديث .

وما من إمام فقيه إلا ردُّ بعض ما صح ، إبتاراً لما ظهر أنه أصح .

ومعاذ الله أن نشغب على السنة ، فهي الأصل الثانى للإسلام يقيناً .

بيدَ أنى إذا اتبعت السنن فعرفت أنها — فى جملتها — تتفق مع القرآن الكريم فى أنه لا حرب إلا بعد دعوة وإعذار وتعرف مشرق لا تبقى معه شائبة غموض ، فكيف أقبل ما يوهم غير هذا ؟

الله جل شأنه يأمر نبيه فى قرآنه الكريم ( قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؕ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ؕ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مِمَّا تُوعَدُونَ ) .

بعد هذا الإعلام الذى يستوى فى الإحاطة به الداعون والمدعوون ، وبعد أن سار النبي عليه الصلاة والسلام فى مغازيه ، وسار الخلفاء فى معاركهم على هذا النحو من توضيح الدعوة ، وإتاحة الفرصة للناس كي يقبلوا أو يرفضوا .

بعد هذا لأرى أن يلزمنى أحد بقبول ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عون ، قال : كتبت إلى نافع رحمه الله أسأله أن الدعاء قبل القتال . فكتب إلى أنما كان ذلك فى أول الإسلام ( ١ ) وقد أغار عليه الصلاة والسلام على بنى المصطلق وهم غارثون ، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم ، وأصاب يومئذ جويرية ..

قال : حدثنى به عبد الله بن عمر ، وكان فى ذلك الجيش « ..... »

وكما تجاوزت هذا الحديث ، تجاوزت عن مثله أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه وأعلمهم بالفتن ، وأصحابها ، إلى قيام الساعة ..

فقد صح من كتاب الله وسنة رسوله أنه لا يعلم الغيوب على هذا النحو المفصل

الشامل المجيب .



آثرت هذا المنهج في كتابة السيرة ، فقبلت الأثر الذي يستقيم مقنه مع ما صرح  
من قواعد وأحكام ، وإن وهى سنده ..

وأعرضت عن أحاديث أخرى توصف بالصحة ، لأنها — في فهمي لدين الله ،  
وسياسة الدعوة — لم تنسجم مع السياق العام ...

ولا أرى مكاناً لبسط وجهة نظري في أمور كثيرة خالفت فيها  
الأستاذ المحدث .

ولكني أرى المكان متسعاً لتسجيل تعقيباته كلها على ما أوردت من  
نصوص ، فإني عظيم الخفاوة بهذا الاستبحار العلمي ، وهو يمثل وجهة نظر محترمة  
في تمحيص القضايا الدينية .

وأعتقد أن من حق القارئ على أن يعرف رأى أحد المحققين المتشددين في  
الرويات التي أحسبها هنا ، سواء خالفته أم وافقته .

وشكراً لله له جهده في المحافظة على تراث النبوة ، وهذا ناجحاً سواء السبيل





( ١ )

رسالة وإتمام

## الوثنية تسود الحضارة القديمة

إن تاريخ الحياة مؤسف .

منذ هبط آدم وبنوه في الأرض ، ثم بعد أن شبَّ بهم الزمن واطَّرد العمران  
وتشعبت الحضارات وأدبرت أجيال وأقبلت على أنقاضها أخرى ، منذ ذلك الحين  
السحيق والناس أخلاط متنافرون ، لا تستقيم بهم السبل يوماً إلا شردت أياماً ،  
ولا يشيرون بوارق الحق حيناً إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحياناً .

ولو تقصَّينا تاريخ البشر - على ضوء الإيمان بالله والاستعداد للقاءه - لوجدنا  
العالم أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه ، أو بمحموم غاب عنه -  
في سورة الألم - رشده ، فهو يهذى ولا يدرى . .

وقد كان في تجارب الناس مع أنفسهم ودنياهم مزدجر يزغ عن الشر ويردُّ إلى  
الخير ، بيد أن الهوى الغالب لا تجدى معه معرفة .

كم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يظهر محمد صلى الله عليه وسلم ؟  
لقد مرت عليها قرون طارال أفادت فيها علماء كثيراً ، ووعت تجارب خطيرة ،  
ونمت آداب وفنون ، وشاعت فلسفات وأفكار .

ومع ذلك فقد غلب الطيش ، واستحكم ، وسقطت أمم شتى دون المكانة  
المنشودة لها .

فماذا كان مصير الحضارات في مصر واليونان ، وفي الهند والصين ، وفي  
فارس وروما ؟ لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم ، بل من ناحية  
العاطفة والعقل .

إن الوثنية الوضيعة اغتالتها ، وفرضت عليها السقوط في هذه الوهدة الزرية .  
فأمسى الإنسان الذي استخلقه الله ليكون ملكاً في السموات والأرض ،  
أمسى عبداً مسخراً لأدنى شيء في السموات والأرض .



وماذا بعد أن تقدس المجول والأبقار ، وتعبد الأخشاب والأحجار ، وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة ؟

إن الوثنية هوان يأتي من داخل النفس لآمن خارج الحياة ، وكما يفرض المحزون كآبته على ماحوله ، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحاً جائمة كذلك يفرض المرء للمسوخ صفار نفسه وغباء عقله على البيئة التي التي يحيا فيها ، فيؤثره من جمادها وحيوانها ما يشاء .

ويوم ينفصح القلب الضيق ويشرق الفكر الخامد ، وتثوب إلى الإنسان معانيه الرفيعة ، فإن هذه الانعكاسات الوثنية تنزاح من تلقاء نفسها .

ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الإنسان نفسه ، فلو ذبحت المجول المقدسة ، ونكست الأصنام المرموقة ، وبقيت النفس على ظلامها القديم ، ما أجدى ذلك شيئاً في حرب الوثنية ! صيبحث العبياد المفجوعون عن آلهة أخرى غير ما فقدوا ، يوفضون إليها من جديد ! وما أكثر الوثنيين في الدنيا وإن لم يلتفتوا حول نصب وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق ، وربّه الأعلى ، والجري وراء وهم جديد . . . !!



والخرافة لا تأخذ مجراها في الحياة وهي تعلن عن باطلها أو تكشف عن هرائها . كلا ، إنها تدارى مجونها بثوب الجدد ، وتستعير من الحق لبوسه المقبول وقد تأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجه ، ثم تنزين بعد ذلك المخدوعين .

وكذلك فعلت الوثنية ! لقد أغارت على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة ، لا كما يغير النحل على أزهار الربيع ، بل كما تغير الديهان وأمراب الجراد على الحقائق الغناء ، فتحويلها قاعاً بلقماً . . .

وهي إذا أفسدت ، أتركت لم تصلح ما أخذت ، وإن كان ما أخذته خيراً قبل أن تتصل به ، لقد أصبح شرّاً بعد ما تحول في جوفها إلى سموم .  
وهذا هو السر في أن الوثنية التي لا تعرف الله تزعم أنها بأصنامها تتقرب إليه وتبغى مرضاته ... !!

جزء من الحق ، في أجزاء من الباطل ، في سياق يصرف الناس آخر الأمر من الله ، ويبعدهم عن مساحته ... !!

وأعظم نكبة أصابت الأديان إثر عدوان الوثنيات عليها ، ما أصاب شريعة عيسى ابن مريم عليه السلام من تبدل مروع ، ردها ليلاً وسلامها وبلاً ، وجعل الوحدة شركة ، وانعكس بالإنسان ، فعلق همته بالقرابين ، وفكره بالألغاز المعماة .

إن خرافة الثلاث والفداء تجددت حياتها بعد ما أفلحت الوثنية الأولى في إقحامها إقحاماً على النصرانية الجديدة : وبذلك انتصرت الوثنية مرتين ، الأولى في تدعيم نفسها ، والأخرى في تضليل غيرها .

فلما جاء القرن السادس لميلاد عيسى عليه السلام ؛ كانت منارات الهدى قد انطفأت في مشارق الأرض ومغاربها ؛ وكان الشيطان يذرع الأقطار الفحيح فيرى ما غرس من أشواك قد نما وامتد ..

فالجوسية في فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشي في الهند والصين ، وبلاد العرب وسائر المجاهيل ..

والنصرانية التي تناوىء هذه الجبهة قبست أبرز مآثرها من خرافات الهنود والمصريين القدماء ، فهي تجعل لله صاحبة وولداً ؛ وتقرى أتباعها في « رومة » ومصر والقسطنطينية بلون من الإشراك أرقى مما ألف عباد النيران وعباد الأوثان شرك مشوب بتوحيد يحارب شركاً محضاً !!! .

ولكن ما قيمة هذه النقائص التي جمعت النصرانية بين شتاتها ؟



« قالوا : اتخذ الله ولداً \* سبحانه هو الغنى \* له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا \* أتقولون على الله ما لا تعلمون \* قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون \* متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم \* ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

وبظهر أن آصرة الشرك بين المجوسية والديانات السماوية المشوهة هي التي جعلت هذه الأحزاب إلهاً على المسلمين يوم بدأوا يقيمون جماعتهم على عبادة الواحد الحق وقد نبأ الله هذه الأمة بأن الأذى سوف ينصب عليها من عبدة الأصنام ، ومن أهل الكتاب فى آن . ووصاها أن يتذرع بالصبر أمام هذا التحامل . « لتبْلُوْنَ فى أموالكم وأنفسكم \* ولتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً \* وإن تصبروا وتمنعوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

\* \* \*

والظلام الذى ران على الأئمة والعقول فى غيبة أنوار التوحيد طوى فى صواده أيضاً تقاليد الجماعة . وأنظمة الحكم فكانت الأرض مذابة يسودها الفتك والاغتيال ، ويفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة .

وأى خير يرجى فى أحضان وثنية كفرت بالعقل ، ونسيت الله ، ولانت فى أيدي الدجالين ؟ .

لا غرابة إذا رفع الله عنها يده كما جاء فى الحديث « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقهم ، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » (١) .

وهذه البقايا هي التي ظلت مستعصية على الشرك برغم طوفان الكفر الذى طم البقاع والتلاع .

(١) من حديث طويل رواه مسندى سلم صحيحه .

لقد شملت الدنيا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بحيرة وبؤس . فاءت  
بهما اليكواهل .

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم  
فعاهل الروم يطغى في رعيته وعامل افرس من كبر أصم عمى  
حتى تأذن الله ايحسمن هذه الآثار ، وليسوقن هدايته السكبرى إلى الأمام  
فأرسل إلى الأمة محمداً عليه الصلاة والسلام .

### طبيعة الرسالة الخاتمة

وتمتاز بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها عامة ودائمة :  
والله عز وجل كان يستطيع أن يبعث في كل قرية نذيراً ، ولكل عصر  
مرشداً .

وإذا كانت القرى لا تستغنى عن النذر ، والأعصار لا تستغنى عن المرشدين ،  
فلم استعيض عن ذلك كله برجل فذ ؟ .  
الحق أن هذا الاكتفاء أشبه بالإعجاز الذي يحصل المعنى الكثير في اللفظ  
اليسير ، وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانت عوضاً كاملاً عن إرسال جيش من  
النبیین يتوزع على الأعصار والأمصار ، بل إنها سدت مسد إرسال ملك كريم إلى  
كل إنسان تدب على الأرض قدماءه ، ما بقيت على الأرض حياة ، وما تطلعت عين  
إلى الهدى والنجاة . . . ! !  
ولكن كيف ذلك ! .

في المزالق المتلفة قد يقول لك ناصح أمين : أغض عينيك واتبعني ، أو  
لا تسألني عن شيء يستثيرك ؟ وربما تكون السلامة في طاعته . فأنت تمشي وراءه  
حتى تبلغ مأمنك . إنه في هذه الحل رائدك المعين ، الذي يفكر لك ، وينظر لك  
ويأخذ بيدك . فلو هلك هلكت معه .



أما لو جاءك من أول الأمر رجل رشيد فرسم خط السير ، وحذرك مواطن الخطر ، وشرح لك في إفاضة ما يطوى لك المراحل ويهون للتعب . وسار معك قليلا ليدربك على العمل بما علمت . فأنت في هذه الحال رائد نفسك ، تستطيع الاستغناء بتفكيرك وبصرك عن غيرك .

إن الوضع الأول أليق بالأطفال والسذج وأما الوضع الأخير فهو المفروض عند معاملة الرجال وأولى الرأي من الناس .

والله عز وجل عندما بعث محمداً عليه الصلاة والسلام لهداية العالم ، ضمن رسالته الأصول التي تفتح للألباب منافذ المعرفة بما كان ويكون .  
والقرآن الذي أنزله على قلبه هو كتاب من رب العالمين إلى كل حي ، ليوجهه إلى الخير ويلهمه الرشيد .

لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام إماماً لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه ، فلما انتهى ذهبوا معه في خبر كان ، بل كان قوة من قوى الخير ، لها في عالم الحاني ما لاكتشاف البخار والكهرباء في عالم المادة . وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور في الوجود الإنساني ، كان البشر قبلياً في وصاية رعايتهم أشبه بطفل محجور عليه ، ثم شب الطفل عن الطوق ورشح لاحتمال الأعباء وحده . وجاء الخطاب الإلهي إليه — عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم — يشرح له كيف يعيش في الأرض ، وكيف يعود إلى السماء . فإذا بقي محمد صلى الله عليه وسلم أو ذهب فلن ينقص ذلك من جوهر رسالته . إن رسالته تفتح الأعين والآذان ، وتجلية البصائر والأذهان ، وذلك مودع في تراثه الضخم من كتاب وسنة .

إنه لم يبعث ليجمع حول اسمه أناساً قلوا أو كثروا إنما بعث صلة بين الخلق والحق الذي يصبح به وجودهم ، والنور الذي يبصرون به غايتهم .

فمن عرف في حياته الحق ، وكان له نور يمشي به في الناس فقد عرف محمداً صلى الله عليه وسلم واستظل بلوائه وإن لم ير شبهه ويعيش معه .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيَدْخِلُكُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

\* \* \*

فإذا رأيت بعض الناس يتناسى دروس الأستاذ ، ويتشبث بثيابه وهو حي ، أو يتعلق برافته وهو ميت ، فاعلم أنه طفل غريب . ليس أهلاً لأن يخاطب به العالم الرسالة بله أن يستقيم على نهجها .

في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة رأيت حشداً من الناص يتلمس جوار الروضة الشريفة ويود أن يقضى العمر بجانبها .

ولو خرج النبي حياً على هؤلاء لأنكر مرآهم وكره جوارهم .

إن رثاثة هيئتهم وقلة فقههم ، وفراغ أيديهم ، وضباع أوقاتهم ، وطول غفلتهم تجعل علاقتهم بنبي الإسلام أوهى من خيط العنكبوت .

قلت لهم : ما تفيدون من جوار النبي ؟ وما يفيد هو نفسه منكم ؟

إن الذين يفقهون رسالته ويحيونها وراء الرمال والبحار أعرف بحقيقة محمد صلى الله عليه وسلم منكم . إن القرابة الروحية والعقلية هي الرباط الوحيد بين محمد عليه الصلاة والسلام ومن يمتون إليه .

فأني للأرواح المريضة والعقول السكيلة أن تتصل بمن جاء ليودع في الأرواح والعقول عافية الدين والدنيا ؟

أهذا الحوار آية حب ووسيلة مغفرة ؟

إنك إن تحب لله إلا إذا عرفت أولاً الله الذي تحب من أجله ! ! فالترتيب الطبيعي أن تعرف قبل كل شيء : من ربك ؟ وما دينك ؟ فإذا عرفت ذلك — يعقل نظيف — وزنت — بقلب شاكر — جميل من بلغك عن الله وتحمل المعت من



أجلك : وذلك معنى الأثر « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني بحب الله .. » (١) ومعنى الآية « قل : إن كنتم تحبّون الله فاتبعون محبّكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » .

ثم إن نبي الإسلام لم ينصب نفسه « بابا » يهب المغفرة للبشر ويمنع البركات ، إنه لم يفعل ذلك يوماً ما ، لأنه لم يشتغل بالدجل قط ١١٠ .

إنه يقول لك تعال معي ، أو اذهب مع غيرك من الناس لنقف جميعاً في مساحة رب العالمين نناجيه « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . فإذا رضى عنك هذا النبي — دعا الله لك . . . وإذا رضيت أنت عنه ، ووقر في نفسك جلال عمله وكبير فضله فادع الله كذلك له ! فإك تشارك بذلك الملائكة الذين يعرفون قدره ويستزيدون أجره « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً »

وليس عمل محمد عليه الصلاة والسلام أن يجرك بحبل إلى الجنة ، وإنما عمله أن يقذف في ضميرك البصر الذي ترى به الحق . ووسياته إلى ذلك كتاب لا يأتية

(١) هذا حديث ضعيف الاسناد أخرجه الترمذى ( ٨ / ٣٤٣ - ٣٤٤ بشرح التحفة ) والحاكم ( ٣ / ١٥٠ ) وأبو نعيم في « حلية الأولياء » ( ٣ / ٢١١ ) والخطيب في تاريخه ( ٤ / ١٦٠ ) من طريق هشام بن يوسف عن عبد الله بن سليمان النوفلى عن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً به وقال الترمذى : « حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه » وقال الحاكم « صحيح الاسناد » ووافقه الذهبي . وهذا من تساهلهم جميعاً لاسيما الذهبي فقد أورد النوفلى هذا الحديث في « ميزان الاعتدال » في نقد الرجال « وقال فيه . « فيه جهالة . ما حدث عنه سوى هشام بن يوسف » ثم ساق له الحديث فأتى له الصحة ؟! وقد تفرد به هذا المجهول ، ولم يوثقه أحد ، ولذا قال فيه الحافظ ابن حجر في « التريب » ، إنه « مقبول » يعنى عند المتابعة فأتى المتابع له ؟ ! ولذلك فقد أصاب ابن الجوزى حين قال ، « هو غير صحيح » كما نقله المناوى في « فيض القدير » وتعقبه بما لا طائل تحته ! يقول : ومع نقد الأستاذ لهذا الحديث فنحن نقبله لأن معناه يوافق الآية ولأنه في الفضائل .

الباطل من بين يديه ولا من خلفه مُبَيَّنٌّ لذكره ، محفوظ من الزيغ . وذلك  
مر الخلود في رسالته .

\* \* \*

فلننظر كيف عالج الرسول عليه الصلاة والسلام البيئة التي ظهر فيها على ضوء  
هذه الطبيعة المفروضة في رسالته ، ولننظر قبل ذلك إلى أحوال هذه البيئة  
نفسها .

### العرب حين البعثة

كان أهل مكة ضعاف التفكير أقرباء الشهوات :  
إذ لا صلة بين نضج الفكر ونضج العزيمة ولا بين تخلف الجماعات من الناحية  
العقلية وتخلفها من ناحية الأهواء والمطامع .  
إن عِرام الشهوات الذي نسمع عنه في « بارس » و « هوايود » لا يزيد  
كثيراً عما وعته القرى والحالية من مفساد الإنسان على ظهر الأرض .  
وتقدم الحضارة لا أثر له من هذه الناحية إلا في وسائل زيادة الاغراء فحسب .  
أما الشهوات نفسها فهي من قبل الطوفان ومن بعده الأثرة والجشع والرياء  
والنهارش والحقد ، وغير ذلك من ذمم الخصال ، ملأت الدنيا من قديم ، وإن  
تغيرت الأزمان التي ظهر بها على مر العصور .

وإن الإنسان يرى في القرية العاقلة ، وهي القبيلة الساذجة ، من التنافس على  
المال والظهور ما يراه في أرق البيئات وكثير من الناس تفوتهم أنصبة رائعة من  
العلم والنضل ولكن لا تفوتهم أنصبة كبيرة جداً من الاحتيال والتطلع والدس :  
وقد تستغرب إذ ترى الشخص لا يحسن فهم مسألة قريبة من أنفه . ومع ذلك  
فهو يفهم جيداً ألا يكون فلان أفضل منه !!

من عهد نوح والحياة تجمع أمثلة شتى لهذا الغباء وهذا العناد .



فعندما دعى قوم نوح إلى الإيمان بالله وحده كانت إجابتهم لنوح لا تتم بموضوع الدعوة قدر اهتمامها بشخص الداعي ، وما سيحرزه من فضل بهذه الرسالة !

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ... » .

ما أ كثر منافذ الهدى إلى الأعمال والأحكام ، وما أعقد مخلفات الهوى في الأخلاق والأفكار ، والسير والسياسات .

وقد كانت « مكة » في عهد البعثة تموج بحركة عاصفة من الشهوات والآثام ، وكان الرجال الذين يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء ، وشلل الأفكار ، أو غمائها في ظن الهوى الجامع وخدمته وحده ...

كفر بالله واليوم الآخر ، إقبال على نعيم الدنيا وإغراق في التشبع منه ، رغبة حميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة ، عصيات طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك ، تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادي والأدبي داخل هذا النطاق المحدود .

من الخطأ أن تحسب « مكة » يومئذ قرية منقطعة عن العمران في صحراء موحشة ، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التي تمسك عليها الرمق . كلا ، إنها شبت حتى بطرت . وتنازعت الكبرياء حتى تطاحت عليها ، وكثر فيها من تغفل الإلحاد في أغوار نفسه حتى عز إخراج منه . فهم بين عم عن الصواب أو جاحد له ، وفي هذا المجتمع الذي لم ينل حظاً يذكر من الحضارة العقلية باغ غرور الفرد مداه ، ووجد من يسابق فرعون عتوه وطغواه .

قال عمرو بن هشام — معللاً كفره برسالة محمد عليه الصلاة والسلام —

زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفر سى رهان ، قالوا : منابني يوحى إليه ! والله لا نؤمن به ، ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه !!

وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ! لأنى أكبر منك سنّاً وأكثر منك مالاً ! وهذه السفاهات العاتية ، لم تنفرد مكة بها . فما كان كفر عبد الله بن أبي في المدينة إلا لمثل هذه الأسباب .

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم — بعد الهجرة — يعود سعد بن عبادة في مرض أصابه قبل وقعة بدر ، فركب حماراً وأردف وراءه أسامة بن زيد ، وساروا حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي . وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود . وفي المسلمين عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر ابن أبي أنفه بردائه ، ثم قال : لا تغبروا علينا . فسلم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ثم وقف ونزل ، فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله : أيها المرء إنه لا أحسن ما تقول ، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ! وارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه . .

فقال ابن رواحة : بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا ، فإننا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثأرون . فلم يزل الرسول عليه الصلاة والسلام يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب وسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم تسمع ما قال أبو حباب — يعني ابن أبي — ؟ قال سعد : وما قال ؟ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : قال كذا وكذا . . . يقال سعد : اعف عنه يا رسول الله ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك ، ولقد اجتمع أهل هذه البهيرة — يعني المدينة — على أن يتوجوه ، ويعصبوه بالعصاة . فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك ، شرّق بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت (١) . .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (١٨٥/٧ — ١٨٦) بشرح فتح الباري ومسلم (١٨٢/٥ — ١٨٣) وأحمد ٢٠٣/٥ من حديث أسامة بن زيد .



إن ابن أبي غص بالإسلام لأنه رآه خطراً على زعامته ، وكذلك فعل أبو جهل من قبل ، ولئن كان هؤلاء قد ازوروا عن الحق بعد ما تبينوه ، إن هنا الوفا غيرهم لا يدركون قيلاً ولا يهتدون سبيلاً ، كرهوا الإسلام وحاربوه .

ووسط هذه الجهالات البسيطة أو المركبة ، والعدوات المقصودة أو المضللة ، وسط نماذج لا حضر لها من الضلال والغفلة ، أخذ الإسلام رويداً رويداً ينشر أشعته ، فأخرج أمة من الظلام إلى النور ؛ بل جعلها مصباحاً وهاجاً يضيء ويهدي ، والدروس التي أحدثت هذا التحول الخطير والتي رفعت شعوباً وقبائل من السفوح إلى القمم ليست دواء موقوتاً أو مخصوصاً ، بل هي علاج أصيل لطبيعة الإنسان إذ التاثت وستظل ما بقي الإنسان وبقيت الحياة تكرم الإنسان وتجدد الحياة .

## رسول معلم

كانت الاشاعات قد فاضت بين أهل الكتاب الأولين أن نبيا قرب ظهوره ، ولهذه الاشاعات ما يبررها ، فإن عهد الناس بالرسول أن يتابعوا فلا تطول فترة الانقطاع بين أحدهم والآخر ، وكثيراً ما تعاصر المرسلون فجمعتهم أقطار واحدة أو متجاورة ولكن الأمر تغير بعد عيسى ، فكادت المائة السادسة تم بعد بعثته ، ولما يأت نبي جديد .

فلما اكنظت الأرض بالمفاسد والضلالات زاد التطلع إلى مقدم هذا المصلح المرتقب ، وكان هناك رجال ممن ينكرون الجهالة السائدة يستشرفون للمنصب الجليل ، ويتمنون لو اختيروا له ! منهم « أمية بن الصلت » الذي حفل شعره بالتحدث عن الله وما يجب له من محامد ، حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه : « كاد أمية أن يسلم » (١) . وعن عمرو بن الشريد عن أبيه : ردت رسول الله

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٤٩/٧) وابن ماجه (٤١٠/٢) من حديث عن أبي هريرة ، وأخرجاه أيضاً من حديث الشريفة وهو تمام الحديث الآتي بعده .

صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : هل معك من شعر أمية بن الصلت ؟ قلت : نعم ،  
قال : هيه فأنشدته بيتاً ، فقال : هيه ، حتى أنشدته مائة بيت (١) .

غير أن القدر الأعلى تجاوز أولئك المتطامعين من شعراء وناثرين ، وألقى  
بالأمانة الكبرى على رجل لم يتطلع إليها ولم يفكر فيها « وما كنت ترجو أن  
يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين » .

إن الاصطفاء للرسالات العظيمة ليس بالأمل فيها ولكن بالطاقة عليها .  
وكم في الحياة من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل ، وكم من راسخين  
يطوبهم الصمت ، حتى إذا كفوا أنوا بالعجب العجيب .

ولا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها ، والذي يربد هداية العالم أجمع يختار للغاية  
العظيمة نفساً عظيمة ، وقد كان العرب في جاهليتهم يرمقون محمداً صلى الله عليه وسلم  
بالاجلال ، ويحترمون في سيرته شارات الرجولة الكاملة ، إلا أنهم لم يتخيّلوا قط  
أن مستقبل الحياة قد ارتبط بمستقبله ، وأن الحكمة ستفجر من ذلك الفم الطهور ،  
تخطو السهوب والجدوب ، وتنب الرهاد والنجاد .

إنهم لا يرون منه إلا ما يراه الطفل من سطح البحر ، تشغله الصفحة الهادئة  
عن الغور البعيد .

كان إصطفاء الله لمحمد مفاجأة لم تلبث روعتها أن تكشفته عنه ، ثم ثبت  
الكاهل الجلد لما ألقى عليه ، ومضى على النهج مسدداً مؤيداً .

ومكث الوحي ينزل ثلاثاً وعشرين سنة ، كانت الآيات تنزل خلالها حسب  
الحوادث والأحوال ، وهذه الفترة الطويلة الحافلة هي فترة تعلم وتعليم .

الله عز وجل يعلم رسوله ، والرسول يتلقى هذه المعارف الحية ، فيديرها في  
نفسه حتى يحيلها جزءاً من كيانه ، ثم يعلمها الناس ويأخذهم بها أخذاً .

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم وابن ماجه .



ونزول القرآن على هذه الوتيرة مقصود للشارع الحكيم ، فإن الزمن جزء من علاج النفوس وسياسة الأمم وتقرير الأحكام .

واتساق القرآن في أغراضه ومعانيه — على طول المدة التي استغرقها تجميعه — يعتبر من وجوه إعجازه فإن خروايمه — بعد ربع قرن — جاءت مطابقة مساوقة لفوائده ، يصدق بعضها بعضاً ويكملها ، كأننا أرسلت في نفس واحد .

وقد تساءل العرب : لم نزل القرآن كذلك ؟ ( قَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِجْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً . وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ) .

إن القرآن يشرح حقيقة الدين عند الله ، وتاريخ هذه الحقيقة ، وهو — في دعوته العامة — يبسط الشبهات العارضة ويفندها ، ويسوق أدلته وهو على بينة من آراء خصومه ، ويتبع أقصى ما يثار ضده ثم يكر عليه بالحجة فيسحقه ، وقد بدأ القرآن بين قوم تشعب الكفر في قلوبهم ، ومرت على الجدل ألسنتهم ، وكان انقدر تخير هذه للميثاق لتكون مجمعا يمثل آخر ما يحيك في القلوب من ريبة ، وآخر ما يبذله الباطل من التعدي ، فإذا أدامح الإسلام في تبديد هذه الريب ، وتذليل هذه العوائق ، فهو على مادونها أندر . . . ! !

والاستئلة التي توجه للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو التي ينتظر أن توجه إليه في مختلف العقائد والأحكام وجدت إجابتها الشافية في القرآن ، باعتبار أن السؤال لا يمثل حاجة صاحبه وحدها ، بل حاجات الناس على مر الأيام .

وفي هذا الجو المليء بالتساؤل استفهاماً أو استنكاراً كان الإلهام يلاحق الرسول صلى الله عليه وسلم : قل كذا ، قل كذا .

وما أكثر الآيات التي صدرت بهذا الأمر إجابة لسؤال ورد أو مفترض .

وَأنت تحس - إذ تقرأ هذه الأجوبة المستفيضة - فيضاً من اليقين ينساب إلى  
قلبك ، كأنها حسمت وساوس عرضت لك أوفى الإمكان أن تعرض .  
والرسالة الخالدة هي التي تصلها بضمائر الناس هذه الأواصر المتينة .  
إن القرآن رسول حي ، تسأله فيجاوبك ، وتستمع إليه فيقنعك .

انظر : كيف يؤسس عقيدة البحث والجزاء ، وينوه بشمول الإرادة والقدرة  
في ثنايا إجابة على سؤال موجه وكيف صغيت المعاني في أخذ ورد ، واعتراض  
ودفع . كأنها حوار سيال ، يتعدى أصحابه حتى يجمع الناس إلى آخر الدهر :

( أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَضَرَبَ  
لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي  
أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرِ الْأَخْضَرَ  
فَارًا ، فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَفَّدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى  
أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ  
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) .

ان هذا مثل الاستدلال القائم على النظر الصائب ، لا يختص به زمان دون  
زمان ولا مكان دون مكان فهو خطاب للعقل العام في البشر أجمعين ، وهو بيان  
لحكمة نزول القرآن منجماً إذ جاءت الآيات للرسول : قل كذا ، ردأعلى  
ماعرض له من أسئلة في أثناء تطوافه هنا وهناك يدعو الى الله ، ثم ثبت السؤال  
والجواب ليكون منها علم - ينفع الناس آخر الدهر .

• • •

وقد استوقف الأمر بـ « قل » نظر العلماء انه تعليم من الله لرسوله ، وتعليم  
من الرسول للناس ، وقد سيقّت بعد هذا الأمر الأقوال التي تضمنت ماشاء الله  
من النصائح والعظات والأحكام .



فعندما أحب المشركون - على عاداتهم - أن ينقلوا ميدان الجدل من حقيقة الدين ، إلى شخص الرسول وأتباعه نزلت الآيات ( قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو ررحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟ قل هو الرحمن آمنّا به ، وعليه توكلنا ، فستعلمون من هو فى ضلال مبين ) .

فانظر كيف يستخلص الباب وسط غبار الجدل ! ما يجديكم تنقص الرسول ومن معه ؟ فكروا فى أنفسكم كيف أهلكتها الخرافات وشردت بها عن الجادة ؟ إنه ليس للرسول الله ومن معه تفكير فى أنفسهم وحظوظها ، إهم دعا الرحمن ، آمنوا به ، وتوكلوا عليه فإن شئتم فالطريق إلى الرحمن ميسرة . . .

وليس من الضروري أى يقع سؤال ما لتأتى الإجابة عليه من لدن الله « قل » !! فربما يحىء السياق على هذا النحو ابتداءً عند عرض أصول الدعوة وآدابها ، وتكون الغاية منه التعريف الإسلام ونبهه تعريفاً مشجعاً مقنعاً يستأصل الريب قبل أن تولد :

( قل : إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل : أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شئ ؟ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . . . ) .

فالخطاب للرسول هنا يتضمن أمراً إلى كل حى وجد فى عهده ، أو يوجد من بعده أن يتدبر - بعقله - ما يلقى إليه ، وأن يحكم - بضميره - على مدى صحته وإخلاصه .

فإذا تعلق بقلبه إيمان فهو إيمان برب كل شئ وعمل الرسول ينتهى عند هذا الحد ، عند وصل العقول والقلوب ببارئها وإيضاح الصراط المستقيم لها ، وعلى كل انسان تحمل تبعته فى فعل الخير أو الشر بعد ذلك .

فليس الرسول صلى الله عليه وسلم وسيطاً يحمل لك خيراً قدمته ، ولا قرباناً يحمل عنك عقاباً استحقته ، لأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . . . وهذا يبدو بعد الشقة بين المسيحية والإسلام .

الإسلام يغالى بقدر الإنسان ، ويعطيه جزاءه الحق على الرفعة والضعة . أما النصرانية فالمرء عندها أنزل قدراً من أن يتصل برب العالمين من تلقاء نفسه لا بد من آخر يحمل قربته ويقبل توبته ، ومن ذلك الآخر ؟ شخص دعى ! فإذا اقترف ذنباً فليس هو الذى يلقى قصاصه ، إن القربان ذبح قديماً من أجل خطيئته تلك ، وعليه أن يصدق بذلك لينجو إن أراد النجاة . . . !

هذا الخبط يحتاج إلى جرارات ثقيلة ! ليسير في الحياة مراغماً للمنطق والعدالة أما الإسلام فإن الله يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام قولاً تفتتح له الأعين والأفهام :

﴿ قل : من رب السموات والأرض : قل : الله . قل : أتتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ .

إن هذه الاستفهامات المترادفة سياط تلزع الباطل ، وتجعل النائم يصحو من سباته ، وتحفز الإنسان إلى اعتناق الحقيقة ، والتسامى بها . وذلك ما يعلنه ويعمل له رسول الإسلام .

• • •

وقد لقي الإسلام مقاومة عنيفة أشد العنف من الوثنية السائدة ، فهي لم تافظ أنفاسها في معركة أو معركة كتين : بل قاتلت يأس شديد على كل شبر من الأرض وكان الظن أن قواها خارت وانماعت عندما أدى لرسول أمانته وذهب إلى الرفيق الأعلى بيد أن الجزيرة انتفضت بأسرها في عهد أبي بكر ، وانحصر المسلمون وسط



طوفان من الردة العمياء شرعوا يكافحونه مرة أخرى فما استطاعوا كسر شوكته إلا بعد ماتكبدوا من الخسائر أكثر مما فقدوا على عهد النبي عليه الصلاة والسلام في مقاتلة أولئك المشركين .

إن الرجال الذين ثبتوا على الحق بعد رحيل نبيهم عنهم هم المسلمون حقاً فإن الإسلام رباط بمبادئ لا بأشخاص ، وقد علم الله نبيه وعلم المسلمين في شخصه أن يلتزموا الحق الذي عرفوا ، وأن يتشبثوا به مهما غولبوا وحواربوا .

والدنيا طافحة بأسباب الزيف ، وهي تحاول أولاً ألا تبقى للإيمان مكاناً بها ، فإذا ظفر بكسب بعد طول عناء حاولت أن تلأينه حتى ينزل عن شيء ويكتفي بشيء ولو أفلحت في إمتدراجها إلى هذه المنزلة لأمكنها الإجهاز عليه ، ولذلك جاءت أوامر الله في كتابه حاسمة تقضى بأن الإيمان كل لا يتجزأ ، وأن منازعة الكافرين على هذه الحقيقة لا يجوز أن تهدأ ، فلا بد من الاستمسك بهذه التعاليم المترابطة ! والحب والبغض عليها ، والمسألة أو المحاربة دونها فإن نصيب العاطفة في خدمة العقيدة ، لا يقل عن نصيب العقل .

والآيات الواردة في ذلك هي أوامر للمسلمين تنزلت في شكل خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم : ( يا أيها النبي اتق الله ، ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ) "وَاتَّبِعْ مَا يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً" ونوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ) .

فليس الرسول صلى الله عليه وسلم مظنة أن تطيع الكافرين والمنافقين حتى ينبيه إلى التحرز منهم ! ولكننا - نحن - المعنيون بهذا الارشاد .

ومن ذلك : ( ادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر ) .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم من بدء دعوته حرباً على الشرك وعلى الآلهة الأخرى . ومنه تعلم الناس هذه الخصومة ويستحيل أن يتوقع منه غيرها .

ومن ذلك : « لا تمدن عينيك إلى مامتئنا به أزواجاً منهم ، ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » .

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً .  
وقل : الحق من ربكم » .

« فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » .

قال المفسرون : خوطبت الأمة في شخص رسولها كما تصدر الأوامر إلى القائد مع أن الجند هم المنفذون .

وقيل : بل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام على طريق الحاجة واستشارة الهمة يقال للقوى البادية العزم : لا تهين . وللعاقل الصحيح الذهن : لا تغفل . وليس يخاف عليهما وهن ولا غفلة ، واسكن الأمر تحريض على استدامة القوة والذكاء . والشجاع يزداد على الموت إقبالا إذا قيل له : لا تجبن ...

وسواء كان هذا أم ذاك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام مناط الأسوة الحسنة ، ومن سلوكه يأخذ الناس مثلهم الأعلى . وقد أمر وأمرنا معه بالتوجس من الضالين ، والتناهي عن خلقهم وعملهم ، وازدراء متاعهم وغرورهم .

وذلك لأن هناك أحياء شتى يضعف فيها الحق ويمز التمسك به ويقوى فيها الباطل وتكثر المغريات على مصادقته ، أو مهادنته .

ومن حق العقائد على أصحابها أن يتشددوا في تدعيم جانبها ، وأن يتنكروا لما يمسها من بعيد .

والأوامر التي تنظم هذه المشاعر لن تنقصها الصرامة ، وماذا بعد أن يقول الله لنبيه « من أشركت لي حبطن عملك ولست تكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » :



إن هذا الخطاب يقرع آذاننا وله مغزاه ، كما قيل : « إياك أعنى واسمى  
باجارة » وقد كان لهذا الأسلوب أثره في تأليب المسامحين على الفساد وترهيبهم من  
الركون إليه ، بله الوقوع فيه .

وأقوال المفسرين التي سردناها تنطبق أيضاً على الآية « فإن كنت في شك  
جما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . . » .

الخطاب للقارىء ، أو السامع ، أو الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه على  
جهة التوبيخ والتعرض كما علمت : إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام لن يقع منه  
شك في أمر نبوته ، والكلام هنا فرض للمستحيل كما قيل في سورة أخرى « قل  
إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أولُ العبادين » . ولكن ما معنى سؤال أهل الكتاب !  
قالوا : المراد الثقات المنصفون منهم ، فهم لن يكتبوا شهادة الحق إذا  
طلبت إليهم .

وعندى أن العدول الصادقين من أهل الكتاب قلة لا يعول على حكمها وما  
أظن الآية تعنى ذلك .

ولكن المرء يزداد بصراً بنفاضة ما عنده من خير إذا رأى ما عند غيره من  
خط ، ولو ارتبت لحظة في أن القرآن من عند الله ، ثم تصفحت كتب العهدين  
القديم والجديد ، لعدت — على عجل — إلى كتابك تتشبه به ، وتحمد الله ألف  
مرة أن هديت إليه !!

وأحسب أن هذا ما يشير إليه الآية ، فإن تبين ما في الإسلام من حق يزداد  
قوة عند اكتشاف ما طرأ على الأديان الأولى من تشويه ، وهذا يتفق مع قوله  
تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من وليٍّ  
ولا نصير » . ويزكى فهمنا هذا في الآية الكريمة ما أخرجه البخارى عن ابن عباس  
سقال : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ؟ وكتابتكم الذى أنزل على  
نبيكم أحدث لا يكتب بالله ، تقرأونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل  
الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من

عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ ولا ،  
والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم » ١ ١

إن الإسلام من الناحية العقلية معرفة للحقيقة ، ومن الناحية العاطفية حب لها  
وإعزاز ، وكرهية للباطل وعداء صريح .

إن هناك أناساً في مشاعرهم برودة يلقون بها الرأي وضده ! وقد يتصور هؤلاء  
في بعض المسائل التافهة . أما أن يتعلق الأمر بالإيمان والإلحاد ، والتجسس  
والعفاف ، فلا ...

إن الله علم رسوله الكتاب ، والإيمان ، فكان من عرفان الرسول صلى الله  
عليه وسلم بهذا الفضل الإلهي أن غالى بإيمانه واعتز بقراءته ، فعاش بهما وعاش لهما ،  
وخاصم وسالم فيهما ، وطالما تمنى عدائه أن يركن إليهم شيئاً قليلاً ولكن هيهات !  
« ودوا لو تدهن فيدهنون » والأمة الجديرة بالانتماء إليه هي الأمة التي تناضل على  
الحق فلا تسمح بانتقاص له ولا حيف عليه ، ومن خصائصها إنها أمة فكرة ومنهاج .  
يقوم كيانها المادي والأدبي على ما تبذل في ذلك من جهد وتثمر من نتاج .

### منزلة السنة من الكتاب الكريم

من حق المسلم أن يرتب المصادر التي يأخذ عنها دينه ، وأن يدرك الوضع  
الصحيح للمحفوظ من قول النبي عليه الصلاة والسلام وفعله إلى جوار السجل  
الثابت للوحي الإلهي الذي خصت به الرسالة الخاتمة .

إن القرآن روح الإسلام ومادته ، وفي آياته الحكمة شرع دستوره وبسطت  
دعوته ، وقد تكفل الله بحفظه فصينت به حقيقة الدين ، وكتب لها الخلود أبد  
الآبدن ، والرجل الذي اصطفاه الله لإبلاغ آياته وحمل رسالته ، كان « قرآناً »



حيًا يسعى بين الناس، كان مثالا لما صورده القرآن من إيمان وإخبات، وسعى وجهاد، وحق وقوة، وفقه وبيان، فلا جرم أن قوله وفعله وتقريره وأخلاقه وأحكامه، ونواحي حياته كلها تعد ركنا في الدين، وشريعة للمؤمنين.

إن الله اختاره ليتحدث باسمه ويبلغ عنه، فمن أولى منه بفهم مراد الله فيما قال؟ ومن أولى منه بتحديد المسلك الذي يتواءم مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة؟ إن تطبيق القانون لا يقل خطراً عن صياغته، وللقانون نص وروح، وعند علاج الأحداث المختلفة لتسير وفق القانون العتيد، نجد فتاوى وتدوين نصائح وتحفظ تجارب وعبر، وثبت أحكام بعضها أقرب إلى حرفية النص وبعضها أدنى إلى روحه.. وهكذا.

والقرآن هو قانون الإسلام، والسنة هي تطبيقه، والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه، وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به ونهى عنه لأنه - في ذلك - لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه، فطاعته هي طاعة الله، وليست خضوعاً أعمى لواحد من الناس.

قال الله عز وجل: «من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن توألى فما أرسلناك عليهم حفيظاً» وقال: «وأنزّلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون» وقال: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنها فانتهوا» على أن الإلهام الأعلى لا يعطل مواهب الإنسان الراقى، فمن الخطأ أن نتصور المرسلين أناساً مسخرين تنطقهم الملائكة أو تسكتهم إنهم لو لم يكونوا أنبياء لكانوا رجالاً يرمقون باحترام، ويقدمون عن جدارة.

إن الوحي لا يصيب الناس اتفاقاً. بل يرشح له أكل الناس رشداً وأسبقهم فضلاً، وأنبلهم خلقاً، وأنضجهم رأياً. وسيرة هؤلاء في الحياة ليست مما ينبذو كلهم ليس مما يهمل فيكيف إذا تأيدت هذه المعرفة بالعصمة. وهذا الدكاء بالتسديد؟

إن السير في ركاب المرسلين هو الخير كله ، ومن ثم كانت سنة محمد عليه الصلاة والسلام مصدراً لشريعته مع الكتاب الذي شرفه الله به وجمهور المسلمين على هذا الفهم .  
إلا أن السنن الماثورة عرض لها ما يوجب اليقظة في تلقيها ، فليس كل ما ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام سنة تقبل . ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه ، أو وضع موضعه !!

والمسلمون لم يؤذوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أؤذوا من الأحاديث التي أسى فهمها واضطربت أوضاعها . حتى جاء أخيراً من ينظر إلى السنن جماعة نظرة ريبة واتهام ، ويتمنى لو تخلص المسلمون منها . .

وهذا خطأ من ناحيتين : إهمال الحقيقة التاريخية أولاً ، فإن الدنيا لم تعرف بشراً أحصيت آثاره ، ونقدت بحذر ، ومحضت بدقة كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله ، فكيف ترمى بعد ذلك في مطارح الإهمال ؟ والناحية الأخرى أن في السنة كنوزاً من الحكمة العالية . لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين ، فلماذا تضيع على صاحبها ويحرم الناس خيرها ؟؟

عندما درسنا تراث محمد عليه الصلاة والسلام في « الأخلاق » وإذا كنا أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل خيل إلينا : لو أن جيشاً من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب لعجز ، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الضخمة ، إلا أن الاشتغال بالسنة — مع هذا — يجب أن يحظر على من لم يستجمع الشروط التي تجعل مثل هذا الاشتغال مفيداً للإسلام والمسلمين .

١ - فلا يجوز أن يشتغل بالسنة من لم يدرس علوم القرآن ويضرب فيها بسهم وافر فإن القرآن هو الدستور الأصيل للإسلام وهو الذي يحدد للمسلم بدقة تامة واجباته ، وحقوقه ويرتب التكاليف المنوطة به ، ويوزع العبادات على حياته ، فلا تطفئ عبادة على أخرى ، ولا تطفئ كلها على عمله للحياة ومكانه فيها .



والمرء الذي يعجز عن تحصيل هذه الحقائق من القرآن لن يعوضه عن فقدانها شيء آخر والصورة التي تستقر في نفسه للإسلام - من غير القرآن - تضرب فيها النسب والألوان، وربما لحقها اختلاف كبير.

ولذلك حرص أئمة الصحابة على أن يُخلوا الطريق للقرآن الكريم ليحتل مكانته الأولى في القلوب، وحرصوا على ألا يزاحمه في موضع الصدارة شيء. روى ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) بأسانيده التي ذكرها، قال:

عن جابر بن<sup>(١)</sup> عبد الله بن يسار قال: سمعت علياً يقول: أعزم على كل من كان عنده نسب إلا رجع فمجاه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علماءهم وتركوا كتاب ربهم وعن الزهري عن عروة<sup>(٢)</sup> أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك، فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً. ثم أصبح يوماً، وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله. وإني - والله - لا أشوب، وفي رواية: لا أنسى كتاب الله بشيء أبداً.

وعن ابن سيرين قال: إنما ضل بنو إسرائيل بكتب ورثوها عن آبائهم. ودخل علقمة والأسود على عبد الله بن مسعود ومعهما صحيفة فيها حديث حسن

---

(١) كذا هو في «جامع بيان العلم» ١/ ٢٦ وهو خطأ من الناسخ أو الطابع، ومثله فيه كثير! والصواب: «عن جابر عن عبد الله بن يسار» وجابر هذا، وهو الجعفي وهو ضعيف جداً، وقد كذبه الجوزجاني وغيره.

(٢) عرواه هو ابن الزبير لم يسمع من عمر بل لم يدركه، فهذا الأثر منقطع ضعيف كذلك رواه الخطيب في (تقييد العلم) (ص ٤٩ - ٥١) من طريق من عروة. اللهم إلا رواية راشد عن الزهرقاني وصله بذكر عبد الله بن عمر بن عروة وعمر وهي شاذة كما أشار إلى ذلك الخطيب نفسه.

فقال عبدالله بن مسعود : يا جارية هاتي بطشت وامسكي فيه ماء ، فجعل يمحوها بيده ويقول : نحن نقص عليك أحسن القصص . فقال له : انظر فيم احديثاً عجيباً ، فجعل يمحوها ويقول : إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره . كانت الصحيفة تضم طرفاً من علوم أهل الكتاب .

وعن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال : خرجنا نريد العراق ، فمشى معنا عمر إلى ( صرار ) ثم قال : أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشيت معنا تريد أن تشيعنا وتسكر منا . فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم . جودوا القرآن وأفلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم . فلما قدم « قرظة » قالوا : حدثنا . قال : نهانا عمر بن الخطاب وعمر وعلى وغيرهما من الأئمة لا يجحدون السنة . ولكنهم يريدون إعطاء القرآن حظه الأوفر من الحفاوة والإقبال . وذلك هو الترتيب الطبيعي فلا بد من معرفة القانون كله معرفة سليمة قبل الخوض في شروح وتفاصيل أبعض أجزائه ، إذ أن هذه التفاصيل والشروح لا يحتاج إليها كل أحد ، وربما شغلت الأذهان فلم تترك بها فراغاً للأصول اللازمة في القواعد الهامة .

وخصوصاً لأن الطريقة التي تروى بها الأحاديث تجمع في صعيد واحد ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام متناثر في أمكنة شتى وأزمنة شتى ولا بساط شتى . عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : ألا يعجبك أبو هريرة ؟ جاء مجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يسمعي . وكنت أمسح فقام قبل أن أنفي سبحتي - أنهى صلاتي - ولو أدركته لرددت عليه . إن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يكن يسرد الحديث كسر دمك<sup>(١)</sup> . . . . .

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما ( وأبو داود ) ١ ( ١١٥ - طبع التازي ) وابن عبد البر ١٢ ( ١٢١ ) .



٢ - ويجيء بعد رسوخ القدم في فهم القرآن - فهم ما يرد من السنن على وجه الحق « فخير لمن فهم السنن أن يحبس لسانه في فيه فلا يقول : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام . ثم يسوق حديثاً لا يعرف ما المقصود منه ؟ وإن كان يفهم عبارته الظاهرة وحدها .

وقد بليت السنة من قديم بمن يحفظ منها الكثير ولا يعي إلا اليسير . وتعجب السيدة عائشة من أبي هريرة حين جلس يروي ليس لأنها تهمة بكذب ، بل لأن أسلوب تحفته يهدر الملاحظات التي قيلت فيها هذه الأحاديث بعد ما طويت طياً في صدره الموصول . وقد روى مسلم في صحيحه أن عمر ضرب أبا هريرة لما سمعه يحدث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ولعل عمر فعل ذلك لأنه وجد أبا هريرة ، يذكر الحديث لمن لا يعي منه إلا أن الإسلام كلمة تقال باللسان ولا عمل وراءها (١) ومنع الحديث - ولوصح - إذا وحى بهذه الجملة أفضل من إباحة روايته . .

وروى ابن عبد البر عن أبي هريرة نفسه قال : لقد حدثكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني عمر بالدرة !!

وقفه عمر في هذا المنع أنه يريد - كما علمت - بناء المجتمع على تعاليم القرآن وشغل الأفكار بتدريها والامتنعاط منها ، فإذا رويت السنن بعدئذ تلقفتها أذهان فيرة ، فلم تعد لها معناها الصحيح . .

يستطيع أبو هريرة - لجودة حفظه - أن يسرد مائة حديث في الصلاة مثلاً وعمر ربما لا يرى حرجاً من سرد هذه السنن في مدرسة خاصة ، ولكنه يكره أن

---

(١) قلت : هذا الاحتمال بعيد بل باطل فإن في الحديث نفسه عن مسلم (١/٥١/٤٥) أن عمر (رض) كان أول من لقبه أبو هريرة وأول من حدثه هذا الحديث فعمل الأستاذ المؤلف بعيد النظر فيه .

يشغل جمهور المسلمين بأمر يكفيهم منه القليل ، ثم ينصرفون بعده إلى عمل أجدى .  
على الإسلام وأهله ...

وذلك سر مطاردته للرواة المكثرين !

لقد روى ابن حزم قرابة ألف صنحة من الأحاديث في الوضوء ولمن شاء أن يتوفر على هذا اللون من العلم ، لكن شغل عامة المسلمين به حق ! فإذا بقي بعد ذلك القرآن نفسه ؟ بل إن شغل المسلمين بالقرآن على هذا النحو ليس من الدين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأوا القرآن ، ولا تغلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به (١) ... ! !

وإن يكن لهؤلاء الحفظ فضل فلأنهم حملوا العلم إلى من يحسن الإفادة منه . على نحو ما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « رب حامل فقه ليس بفقيه ، رب حامل فقه إلى من أفقه منه » (٢) عن أبي يوسف قال : سألت الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير . فأجبت ، فقال لى : من أين قلت هذا يا يعقوب ؟ فقلت بالحديث الذى حدثتني أنت ! ثم حدثته ! فقال لى يا يعقوب ، إنى لا أحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك ، ما عرفت تأويله إلا الآن ... ! !

وقد يبصر أبو يوسف الفقيه ما يغيب عن الأعمش الحافظ ، ولكن المحذور ليس فى الحفظ بلا فهم ، بل أن يفهم الأمر على غير وجهه ..

والترتيب الفنى للسنن - كما دونت وتلقيناها - يجعل ما ورد فى الإيمان بابا وما ورد فى القضاء بابا ... وهكذا ...

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد ( ٤٢٨/٣ . ٤٤٤ ) والطحاوى فى شرح معانى الآثار ( ١٠/٢ ) من حديث عبد الرحمن بن شبل مرفوعاً . وسنده صحيح . وقواعد الحافظ فى الفتح ( ٨٢/٩ ) .

(٢) حديث صحيح رواه ابن عبد البر ( ٣٩/١ ) وكذا أصحاب السنن والدارى وأحمد فى حديث يزيد بن ثابت وسنده صحيح ، وصححه ابن حبان وابن حجر وغيرهم .



ولما كان الإسلام جملة هذه الحقائق . فإن السنة أصبحت كمتجر كبير للملابس وزعت فيه أنواعها على مختلف الجوانب ، هنا أغطية الرأس ، وهنا سراويل ، وهنا قمصان . وهنا حلل سابعة . . إلخ .

والطبيعي أن من يريد كسوة كاملة يمر بهذه الجوانب كلها ليأخذ ما يفيقه من رأسه إلى قدمه ، ولكن يحدث كثيراً أن ترى من يشتري قلنسوتين ويخرج حافياً ، أو من يشتري منديلاً ويخرج عارياً . ١١

إن هذا مثل طوائف اشتغلت بالسنة ، ثم — بعد طول تطواف — خرجت على الناس ، وفي يديها من السنن سواك ، وعمامة مقطوعة الذنب اعتبروها شعار الإسلام ، وسر ذلك أنهم دخلوا المعرض الحافل ثم خرجوا منه بعد أن ظنوا الدين كله في حديث أو سنة محدودة ، فأساءوا بذلك إلى القرآن والسنة جميعاً .

٣ — إن قصر الباع في السنة — على كثرة الاشتغال بها — أضر بتوجيه المسلمين ، وأشاع بينهم طائفة من الأحكام المبتسرة والتقاليد الضيقة ، تذبو عنها روح القرآن والسنة وإن اعتمدت على حديث لم يفهم ، أو أثر لم يفقه . . .

وذلك أن الإسلام — في الشؤون الهامة — جاء بطائفة من الأحكام ، ذكرت في الكتاب العزيز أو وردت على لسان النبي . وهي جميعاً متكاملة يفصل بعضها بعضاً ويوثقه ، فإذا ظهر في دليل منها ما يعارض سائر الأدلة ، بحث في تأويله حتى يتم الجمع بينها كلها ، أو قبل الأرجح سنداً ورد الآخر .

ولذلك يرى المحققون أن سنن الآحاد ترفض إذا خالفت ظواهر الآي ، وعموم النص ، أو خالفت قياساً يعتمد على أحكام القرآن نفسه ، وهم يفرقون بين الأحاديث التي يرويها رجال فقهاء . والتي يرويها رجال حفاظ فحسب .

ولنضرب لك ، مثلاً يكشف عما يصيب الأمم من عقم رضيع نتيجة فهمها الخاطيء .  
لأثر وارد .

كثير من المسلمين يحكمون على المرأة ألا ترى أحداً ولا يراها أحد وفي المدينة  
تسيح النسوة في الطرق يرتدين خياماً مغلقة طامسة . بها خرقان من أعلى لإمكان  
الرؤية . وقد تختفي هذه الخروق وراء قطع من الزجاج أو الباغة ...

وهذا التقليد السائد يعتمد على حديث سمعت إمام الحرم النبوي يردده من  
فوق المنبر في خطبة الجمعة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره النسوة أن يرين  
عبد الله ابن أم مكتوم ، فلما احتججن بأنه أعمى لا يراها ! قال لهما : « أفعمياوان  
أنتما (١) » ؟

وقد استنكرت على الخطيب إirاده لهذا الحديث . فإن علماء السنة تكلموا  
في معناه ، ومن الجهل بالسنة تقريره عند بيان وظيفة المرأة ، وأسلوب حياتها ،  
وقواعد اتصالها بالمجتمع العام ، ولم لا تذكر السنن التي رواها البخاري في ذلك  
وهي أدق وأصح ؟؟

أثبت البخاري تحت عنوان « باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال . . عن  
أنس رضي الله عنه قال : لما كان يوم « أحد » انهزم الناس عن النبي قال : ولقد  
رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنيهما لمشمرتان أرى خدماً سوقهما .

(١) أخرجه أبو داود ( ٢ - ١٨٣ ) والترمذي ( ٤ - ١٥ ) وابن سعد في الطبقات  
الكبرى ( ٧ - ١٢٦ ، ١٢٨ ) والبيهقي ( ٧ - ٩١ ) من طريق الزهري قال : حدثني  
نبهان مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت . كنت عند رسول الله (ص) وعنده ميمونة : فأقبل  
ابن أم مكتوم . وذلك بعد أن أمر بالحجاب فقال (ص) : احتجبا منه ( فقلنا : يا رسول الله  
أليس أعمى لا يبصرنا ولا يفرقنا ؟ فقال : أفعمياوان أنتما ) ألستما تبصرانه ؟  
وقال الترمذي : ( هذا حديث حسن صحيح ) وقوى الحافظ إسناده في (الفتح) ، وفيه  
نظر ( فان نبهان هذا لم يوثقه غير ابن حبان ) وهو معروف بتساهله في التوثيق كما بينه  
الحافظ نفسه في مقدمة (سان اليزان) ولهذا نراه في (التقريب) لم يوثق نبهان هذا بل قال  
فيه : (مقبول) أي عند المتابعة ( وليس له متابع على هذا الحديث ) فكلامه يقتضي أن هذا  
الحديث غير مقبول . وقد قال ابن عبد البر : إنه ليس ممن يحتاج بحديثه ، وإن حديثه هذا  
منكر . كما نقله ابن الترمذي في ( الجواهر النقية ) .



تنقلان القرب على متونهما - ظهورهما - ثم تفرغانه - الماء - في أفواه القوم «  
ثم ترجعان فتملأنها، ثم تجميثان فتفرغانها في أفواه القوم » .

وذكر تحت « باب غزو المرأة في البحر » . . سمعت أنسا رضى الله عنها  
يقول : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على « ابنة ملحان » فانكأ عندها ثم  
ضحك . فقالت : لم تضحك يا رسول الله ؟ فقال : فاس من أمتي يركبون البحر  
الأخضر في سبيل الله . مثلهم مثل الملوك على الأسرة . فقالت : يا رسول الله ، ادع الله  
أن يجعلني منهم . قال : اللهم اجعلها منهم ثم عاد فضحك . فقالت له : مم ذلك ؟  
فقال لها مثل ذلك ! فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ! قال : أنت من الأولين ،  
ولست من الآخرين : قال أنس . فتزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع  
بنت قرظة فلما قفلت ركبت دابتها ، ف وقعت بها فسقطت عنها فماتت . .

وذكر تحت عنوان « باب حمل النساء للقرب ، إلى الناس في الغزو » . . أن  
عمر بن الخطاب قسم مروطاً بين نساء المدينة . فبقى مرط جيد فقال له بعض من  
عنده . يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله عليه الصلاة والسلام التي عندك -  
يريدون أم كلثوم بنت علي - فقال عمر : أم سليط أحق ( وأم سليط من نساء  
الأنصار ممن بايع رسول الله عليه الصلاة والسلام ) قال عمر . فإنها كانت تزفون  
لنا القرب يوم « أحد » أي تخيطها .

وذكر تحت عنوان « باب مداواة النساء الجرحى في الغزو » عن الربيع بنت  
معوذ قالت : كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام نسقي ، ونداوي الجرحى ، ونرد  
القتلى إلى المدينة . . الخ .

والفرض أن البخاري لم يرو هذه الأحاديث الصحيح أمكان حديث العمياوين  
يسلط على المجتمع ، ويحجبه على النساء في دورهن فلا يخرجن من هذا السجن  
أبداً ؟ إن حكما مثل هذا لا يعرف من القرآن . بل إن القرآن يجعل هذا الحكم

بعقوبة لانسوة اللاتي يرتكبن الفواحش ( واللاتي يأتين الفاحشة من نساءكم  
فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن  
الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ) .

لكن المسلمين لما استوعروا سبل التربية المهذبة للذكور والإناث - بسبب  
الخروجهم عن القرآن - لجأوا إلى السجن والاضطرار فكان ما كان .

هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث . .

ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة . .

ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين . .

ثم هجروا المقلدين وتزمتهم إلى الجهال وتخططهم . .

وكان تطور الفكر الإسلامي ، على هذا النحو وبالا على الإسلام وأهله .  
روى ابن عبد البر عن الضم — حاك بن مزاحم « يأتي على الناس زمان يعلق فيه  
المصحف حتى يمش على العنكبوت ، لا ينتفع بما فيه ، وتكون أعمال الناس  
بالروايات والأحاديث » وسبيل الرشd في هذه العماية أن نعود إلى القرآن ، فنجعله  
دعامة حياتنا العقلية والروحية ، فإذا وصلنا إلى درجة التشبع منه ، نظرنا في السنة  
فانتفعنا بحكمة رسول الله عليه الصلاة والسلام وسيرته وعبادته وخلقه وحكمه ،  
ولا يجوز أن يتكلم في السنة رجل قليل الخبرة بالقرآن ، أو قليل الخبرة بالروايات  
أو ضعيف البصر بواقعها ومناسباتها .

## النبى وخوارق العادات

جرت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام - الخاصة والعامة - على قوانين  
السكون المعتادة ، فلم تخرج - في جملتها - عن هذه السفن الدائمة .

هو - من حيث إنه بشر - يجوع وبشبع ، ويصح ويمرض ، ويتعب ويستريح  
ويحزن ويسر ، ولكن الناس أنفسهم ، في هذه النواحي ، صنوف لا تجمعها قاعدة



عامّة منهم المهالك على ضروراته ، فلو نقص حظّ منها قليلاً طاش لبه وخارت قواه .  
ومنها الجلد الصبار يجرّثه النزر اليسير ، ويمضى لغايته رافع الرأس موطن العزم .  
إن الآلات التي تدار بالزبوت تتفاوت : منها الرديء الذي يستهلك أثقال  
الوقود ولا يجدي فتيلاً ومنها الجيد الذي يروع إنتاجه على قلة إمداده .

والبشر كذلك مع أبدانهم وضروراتها ومرفهاتها .

والمطالع لسيرة محمد بن عبد الله يرى من طبيعة حياته الخاصة صلابة العدن الذي  
صيف منه بدنه صياغة أعجزت العباقرة ، وأسكنت صاحبه من أن يحمل أعباء الحياة  
ومشاق الجهاد ، ولأواء العيش ، وهو منتصب مقدام .

نعم . هناك من العباقرة عصى وصم وممودون ومصدورون غير أن العبقرية (١)  
شأن دون النبوة ومن تمام نعمة الله على امرئ ، ما أن يرزق العافية من هذه الأدواء  
كلها لتم بهذه العافية السابغة العناصر التي تصحح نظرتّه إلى الحياة ومسلكه فيها .  
وقد كان محمد عليه الصلاة والسلام — من هذه الناحية — بشراً كاملاً . وكانت  
حياته متسقة مع سنن الله الكونية في البطولات الممتازة .

\* \* \*

أما حياته العامة — رسولا يبلغ عن الله ويربّي المؤمنين ، ويقاوم الكافرين ،  
ويدأب على نشر دعوته حتى تؤتى ثمارها في الآفاق — فلا شك أن القرآن العزيز  
هو مهادها وبنائها .

ومع أن القرآن كتاب معجز إلا أنه يقوم على إيقاظ المواهب العليا في الإنسان  
فهو أشبه بالأحداث الجليّة التي تعرض لك فتحملك على التفكير بأصالة وبصر  
ومن ثم فهو كتاب إنساني يعين الوعي للعالم على النضج والسداد .

« إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » « كتاب فصلت آياته قرآناً  
عربياً لعلهم يعلمون . بشيراً ونذيراً » .

(١) راجع كتابنا « عقيدة المسلم » .

والفارق بين توجيه العرب بالقرآن وتوجيه اليهود بنتى الجبل ، كالفارق بين صوت الارشاد يهذى العاقل إلى الطريق ، وسوط العذاب يوسع الدابة البليدة لتمضى إلى الأمام ، فلا تسير خطوة إلا رمت بعجزها إلى الوراء خطوات .  
وكان عبدالله بن رواحة ينشد :

وفينا رسول الله يتلو كتابه      إذا انشق مكنون من الفجر ساطع  
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا      به موقنات أن ما قال وافع  
بيت يحافى جنبه عن فراشه      إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

° ° °

ومن المحققين من يرى أن القرآن هو المعجزة الفريدة لرسول الله عليه الصلاة والسلام . وهم يلحظون في هذا الحكم التعريف اللفظي للمعجزة من أنها خارق للعادة مقرون بالتحدى ، ولم يعرف هذا التحدى إلا بالقرآن .

وقد ملنا إلى قريب من هذا الرأي (١) ، لا بالنظر إلى التعريف اللفظي للمعجزة بل بالنظر إلى القيمة الذاتية للخوارق الأخرى بالنسبة إلى الأهداف الرفيعة التي جاء بها الإسلام .

على أنه لا صلة للعقيدة ولا للعمل بهذه البحوث ، فالرجل الفاسد لا يغفر له فساد إيمانه بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أظلمته غمامة ، أو كبه جماد . والرجل الصالح لا يغفر مكابته إنكاره لهذه الخوارق ..

فإن هذه البحوث ترجع إلى التقدير العلمى لأدلة الإثبات ، والتقويم المحض لما فى الوقائع نفسها من معان ، وليس للخطأ والصواب فيها مساس بإيمان .

° ° °

وقد سرت فى المسلمين لوثة شنعاء فى نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم ، حتى كادت جمهورهم تقرر بين علو المنزلة فى الدين وخرق قوانين الأسباب والمسببات وحتى جاء من المؤلفين فى علم التوحيد من يقول .

(١) راجع كتابنا (عقيدة المسلم) يبحث النبوات .



وأثبتن للأوليا . الكرامة . ومن نفاها فانبذن كلامه !!

وصلة هذا الإثبات بعلم التوحيد كصلته بعلم النحو أو علم الفلك !! أى أن حقيقة الدين بعيدة عن هذه البحوث ، سواء انتهت بالسلب أو بالإيجاب .

والخوارق التى يتهامس بها المفتونون لأولياهم هى تعبير سيء عن ردائل الكسل والحمق التى تكمن فى طواياهم . كما أن الأحلام الطائشة التى تترى النائم تعبير عن الاضطراب الذى يملأ نفسه ويرهق أعصابه .

هذا فتح الباب الموصد من غير مفتاح ، وهذا طار فى الهواء بغير جناح ، وهذا بال على حجر فاقرب ذهباً وهذا اطاع الغيب واتخذ عند الرحمن عهداً ... !!

وأمثل هذه السخافات كثير . . . . . وهى تدل على جهل بحقيقة الدين وحقيقة الدنيا . وتدل على أن مروجيها أضل عقولا وقلوباً من أن يعرفوا سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام وسيرة أصحابه .

ما كان محمد رجل خيال يتيه فى مذاهبه ثم يبنى حياته ودعوته على الخرافة . بل كان رجل حقائق يبصر بعيدها كما يبصر قريبها . فإن أراد شيئاً هياً له أسبابه . وبذل فى تهيتها - على ضوء الواقع المر - أقصى ما فى طاقته من حذر وجهد ، وما فكر قط ولا فكر أحد من صحابته أن السماء تسعى له حيث يقعد ، أو تنشط له حيث يكسل ، أو تحتاط له حيث يفرط . ولم تكن خوارق العادات ونواقض الأسباب والمسببات أساساً ولا طلاء فى بناء رجل عظيم أو أمة عظيمة .

إن محمداً وصحبه تعلموا وعلموا ، وخلصوا وسالموا ، وانتصروا وانهمزوا ، ومدوا شعاع دعوتهم إلى الآفاق ، وهم على كل شبر من الأرض يكافحون ، لم ينخرم لهم قانون من قوانين الأرض ، ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة ، بل إنهم تعبوا أكثر مما تعب أعداؤهم ، وحملوا المغارم الباهظة فى سبيل ربهم ، فكانوا فى ميدان تنازع البقاء أولى بالرسوخ والنسكين .

وقد لقنهم الله عز وجل هذه الدروس الحازمة حتى لا يتوقعوا محاباة من القدر في أى صدام ، وان كانوا أحصاف رأيا من أن يتوقعوا هذا .

قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ . فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ۚ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۚ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۚ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ) .

فانظر : كيف يكلفون - وهم في الصلاة وبين يدي الله - بأشد الحذر والانتباه ؟ إن الله لم يدع أملا يخامر أنفسهم بأن الملائكة سوف تنزل لعونهم ! إن لم يخدموا أنفسهم فلن يخدمهم أحد ! ذلك هو خطاب الله لمحمد وصحبه ... وعندما ذهل المسلمون عن هذا الدرس في غزوة « أحد » لطموا لطمه موجهة جندلت من أبطالهم سبعين ، وأمضهم خزي الهزيمة ، فوقف زعيم الكفر يومئذ - أبوسفیان - يقول - اعل هُبل ...

وأبلى النبي عليه الصلاة والسلام بلاءاً شديداً لينتقد الموقف ، وقاتل وقتل ، وأصيب في نفسه .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم أحد : « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه هكذا - ويشير إلى ربايعته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله (١) » .

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (٢٩٨/٧) ومسلم (١٨٩/٥) في « صحيحيهما » .



وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج رأسه . فجعل يسلك الدم عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله ؟ . فأنزل الله عز وجل قوله : « ليس لك من الأمر شيء . أو يتوب عليهم . أو يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ <sup>(١)</sup> » .

أرأيت التفريط في أسباب النصر جالب شيئاً غير الهزيمة ؟ أو لو كان الذين انهزموا هم ممثلي التوحيد الحق ؟! أو لو كان الذين انتصروا هم سدة الوثنية المحضة !!



وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد فزوة ورعى غيرها ويقول : الحرب خدعة <sup>(٢)</sup> ، ومع قيامه بالأسباب على ما أوجب الله ، واحترامه للقوانين الطبيعية التي تنظم حياة البشر . مع ذلك فقد استطاعت بعض قبائل العرب أن تخدعه ، وأن تستدرج طائفة من القراء من أفضل أصحابه ليقتلوه عن آخرهم في بئر معونة ، فما دلت على مصارعهم إلا الطيور تحلق في الجو مسرفة على أشلاء الشهداء . . .

إن هؤلاء الرجال الذين ذهبوا ضحية القدر من أحب خلق الله إلى الله ، ومع ذلك فما أذن لأحد منهم أن يطير بغير جناح ، أو يتحول عن هذا القدر المتاح كما يفكر متأخرة المسلمين اليرم .

ولئن كان الحذر والحيلة من سنن النبوة ، إن الإعداد واستنفاد الجهد فيه من آكد هذه السنن ، وماذا تحسب محمداً عليه الصلاة والسلام انتصر على الناس ؟ لقد أنضج رجاله بالإيمان كما ينضج الصيف بلهيه البطيء أطايب ثماره ، فلما

(١) حديث صحيح أخرجه الشيخان فيما تقدم أيضاً

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٤١١/١) بسند صحيح من حديث كعب بن مالك وهو في الصحيحين بنحوه

أرسلهم إلى أنهاء الدنيا طوفانها ، ولهم زئير كزئير العاصفة المكتسحة  
المتحاجة ...

بل إن الإسلام - من يوم بدئه - كان معركة يقودها الوحي ، ولذلك شبه  
بواده الهامية بعاصفة ذات صواعق ورعود :

( أو كصيبٍ من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في  
آذانهم من الصواعق حذر الموت ۝ والله محيط بالكافرين ) (١).

أترى للترخي والتواكل ثغرة في هذه الصفوف المتزاحفة ؟ . ياريل مسلمي  
اليوم من انتظارهم لخوارق العادات في دنيا كشرت عن أنيابها لاستئصال شأفتهم .

نحن لانكر أن هناك عجائب خارقة تقع للناس . بيد أنها تقع للمؤمنين  
والكافرين والبر والفاجر . فلو أن رجلاً سار على الماء دون أن تبتل قدماء ، ما دل  
ذلك على صلاحه ، لأن مناط الصلاح بما شرع الله من عمل وإيمان فحسب ، وإثبات  
هذه الخوارق لأصحابها مسألة تاريخية محتمة لمن شاء تقصى العجائب ، ولا ارتباط  
لها بأصل الإيمان والنكليف ، وذلك - بداهة - غير المعجزات المشاهدة للمرسلين  
بصحة التبليغ عن الله ، على أن النبوات بما قارنها من خوارق قد انتهت مع المضي  
البعيد ، فليس للتحكك بها من جدوى - وقد علمت أن معجزة محمد بن عبد الله  
صلى الله عليه وسلم لم تكن على غرار ما سبقها ، بل كانت معجزة إنسانية عقلية  
دائمة . ثم نظم الله له حياته ودهوته وفق قوانين الأسباب والمسببات كما رأيت .

\* \* \*

ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم يعرف الغيب . كان كأي بشر آخر لا يدري  
ماذا يكسب غداً ؟



ولا ينبغي أن ينتظر منه شيء من ذلك بعد أن انتهى إليه أمر الله : « قل : لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله » \* ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء \* إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون (١) .

وربما اقترب منه من يضر الشر ويضر الود - وهو لا يعلم به - حتى تفضحه التجارب « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » (٢) .

وسيفاجأ يوم القيامة برجال تركهم وهو يعدهم مؤمنين ثابتن ، ثم تكشف الفتن عن سواد باطنهم وسوء عقابهم . فيقول ما قال عيسى من قبل : « وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » (٣) .

وقد إطلعه الله على بعض الغيوب لحكم خاصة . كما جاء في التنزيل الإنباء بهزيمة الفرس أمام الروم بعد النصر الذي سبق لهم أن أحرزوه وسارت بحديثه الركبان ، وشمّت له الوثنيون ، وحزن له المسلمون لمظاهرة منهم لأهل الكتاب .

وقد وردت أحاديث صحاح تحسب على ظاهرها كأن الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف ما يكون مثل ما ورد عن عدى بن حاتم قال : بينما أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل : فقال : « يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ » قلت : لم أرها ، وقد أنبت عنها . فقال : « إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله : قلت في نفسي : فأين ديار طيء الذين سعروا في البلاد ؟؟ « ولئن طالت بك حياة لفتحن كنوز كسرى » قلت : كسرى بن هرمز ؟؟ قال : كسرى بن هرمز !! » .

قال : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله . وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز (١) .

(١) الاعراف : ٨٨ . (٢) التوبة : ١٠١ . (٣) المائدة : ١١٧ ، معنى هذا في

« صحيح البخاري » في « التفسير » من حديث ابن عباس (رض)

(٤) أخرجه البخاري (٦ / ٤٧٧ - ٤٧٩) وغيره عن عدى .

والحق أن هذه الأحاديث وأشباهاها لم تكن إخباراً بغيب<sup>(١)</sup>، إنما كانت تصديقاً لوعده الله بأن المستقبل للإسلام، وبأن هذا الدين سيسود المشرق والمغرب، فكانت تفسيراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الله في كتابه «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله» (٢٨: ٤٨) «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات آيسته خلفتهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا» (٥٥: ٢٤). وفريب من ذلك الأحاديث المنبئة عن الفتن.

إن الرجل الخبير بالأسواق لا يلبث - بعد استعراضه يسير لأحوالها - حتى يصدر حكماً صائباً عليها، والخبير بطوايا النفوس يستطيع من نظرة خاطفة أن يستشف ما وراءها ويستكشف خباياها، ومن ذلك قول الشاعر:

الأمي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع!

وكان محمد عليه الصلاة والسلام خبيراً بالنفوس ومعادنها، والدنيا وأطوارها، والزمان وتقلبه، والأديان الأولى وما عانت وعانى رجالها وهم يشقون طريقهم في الحياة، وعتول الأنبياء من ورأىها فطر مجلوة، وإلهام لماح فكيف بشيخ الأنبياء الذي تعهده القدر من نشأته ليحتمل رسالة معجزتها في أسلوبها وأسلوبها يقوم على ترقية الفطر وتفتيق الأبواب!

إن هذا يجعله أشد الناس تقديراً لموقعه، وانتظاراً لما يفديه، هل يستطيع السائر في مناطق الشمال أن يقدر خلوة الجو من الضباب الداكن، أو هل يستطيع السائر في مناطق خط الاستواء ألا يتوقع عواصف القيظ! فكيف يليق بصاحب دين

(١) بل هي من الإخبار بالغيب بأعلام الله تعالى إياه، والتأويل المذكور لا مبرر له مادام أن المؤلف حفظه الله يسلم بأصل الأعلام كما ذكر آنفاً. وفي هذا الحديث ما يشير إلى ذلك، إذ أنه قال إن طالت بك حياة... فهل هذا التحديد الدقيق للزمان يمكن أن يعرفه «الخبير» إلا بأعلام اللطيف الخبير سبحانه وتعالى.



خطير أن يتنامى الفتن العارضة لتعاليم دينه ولرجالها ، ما قرب منها وما بعد ، ما ظهر منها وما بطن ..

لذلك كثر كلام الرسول عن الفتن ، وليس القصد الإخبار عنها ، بل التحذير منها : تحدث الفتن التي تلحق الأشخاص من اختلاف أديانهم وتنافر أمزجتهم .. وتحدث عن الفتن التي تصيب القلوب من إقبال الدنيا والتحامد عليها ... وتحدث عن الفتن التي تصيب الأمة بعد أن يثوب الكفر من هول الهزائم التي منى بها . ويتماسك مرة أخرى بعدما انحلت هراة .. فكان أن خوف أصحابه من ذلك كله في أحاديث يطول سردها .

\* وأخطر هذه الفتن ما يصيب تعاليم الإسلام نفسها من ذبول واضمحلال .  
\* فالصلاة تفقد روحها ، وهو الخشوع ، ثم يتآكل جسمها فتتحول نقرأ مسخفاً والجهاد ، يفقد روحه وهو الإخلاص ، ثم يتحول انتهاكاً للفنائم واستعباداً للأحرار .  
ثم تفتر حدته ، ثم يبطل ...

\* والصيام ينهى من صبر على الحرمان وتأديب الغرائز المتطلعة إلى استعداد للولائم ومضاعفة للنفقة ...

\* والحكم يتطور من خدمة الجمهور برضاه إلى نأله عليه عن بغى واستكراه ، ثم يسقط ويضيع الحاكم والمحكوم معاً ..

\* وحتى محبة المسلمين لرسولهم تتحول بعد موته إلى سوق حول قبره تضج بالصياح المنكر والمهمة الحائرة .

• • •

عندما زرت المدينة توجهت إلى قبر الرسول الجليل ، وكانت المشاعر التي تنبعث من قلبي تطن في أذني . فلما تبينت لي معالم الضريح يمت شطره وأنا أتضاءل في نفسي ، وكأني كرة قد خرجت تحت أقدام عملاق ...

وسلمت بالعبارة التي شرع ، لم أزد عليها إلا بيتاً من الشعر لم أدر ما وراءه

لما عراني من اضطراب غمغت به شفتاي ولم تسمعه أذناي :

ياخير من دفنت في التراب أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

ثم انصرفت . . .

بيد أن لاحظت أمواجاً لقد فتصرخ بكلام طويل . هذا يقرأ في كتاب وهذا يسمع من حافظ ، وهذا يشوش على ذلك ، والكل يشوش على المصلين ، وتواكب هذه الوفود في هرج ومرج لا ينقطعان .

ألم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يعني تلك الحال عندما قال : اللهم لا تجعل قبري بعدى وثناً يعبد ؟ . . . (١)

وما أن تعرفت أحوال الكافرين في المسجد والبادية . حتى كدت أدع الصلاة فيه ، فإني أكره أشد الكراهية البدع والفوضى والجهل .

وقد ذكرت قصة عروة بن الزبير لما بنى قصراً بوادي العقيق وابتعد عن المدينة ، فقل له الناس : قد جفوت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم !! فقل : إني رأيت مساجدكم لاهية ، وأسواقكم لاغية ، والفاحشة في فجاجكم عالية ، وكان فيما هنالك عما أنتم فيه عافية . وقيل : إنه لما عوتب في ذلك قال : وما بقي ؟ إنما بقي شامت بنكبة ، أو حاسد على نعمة !!

نسأل الله العفو والعافية .

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (١/ ٨٣٦) وابن سعد في الطبقات (ج ٢ ق ٥

٣٦) من حديث أبي هريرة ، وسنده صحيح .



( ٢ )

من الميلاد إلى البعث

ولد محمد صلى الله عليه وسلم من أسرة زاكية للمعدن نبيلة النسب ، جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل ، وترفعت عما يشينهم من أوضاع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » (١) .

وعراقة الأصل لا تتمتع الرجل الفاضل فضلاً ، كالصلب إذا ترك للصدأ يمتدح لا غناء فيه ، أما إذا تعهدته اليد الصناعات فإنها تبذع منه الكثير .

ولذلك لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الناس أكرم ؟ قال : « ... » .  
فمن معادن العرب تسألوني ؟ « قالوا . نعم ، قال « فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » (٢) .

وكان منبت محمد صلى الله عليه وسلم في أسرة لها شأنها ، بعض ما أعد الله لرسالته من نجاح . فالجتماع العربي الأول كان يقوم على العصبية القبلية الحادة ، العصبية التي تفنى القبيلة كلها دفاعاً عن كرامتها الخاصة ، وكرامة من يمت إليها .  
وقد ظل الإسلام حيناً من الدهر يعيش في حمى هذه التقاليد المارعية حتى استغنى بنفسه كما تستغنى الشجرة عما يحملها بعد ما تفلظ وتستوى ...

وكان « لوط » يتمنى شيئاً من هذه التقاليد ، عندما أحس الخطر على الأضياف النازلين به ، ولم يجد عشيرة تدفع أو أهلاً تهيجهم الحمية ، فقال لقومه : « اتقوا

---

(١) حديث صحيح . أخرجه مسلم ( ٥٨ / ٧ ) من حديث وائلة بن الاسود وصححه الترمذي ( ٢٩٢ / ٤ ) .

(٢) صحيح . أخرجه البخاري ( ٤١٢ / ٦ - ٤١٣ ) ومسلم ( ١٨١ / ٧ ) من حديث أبي هريرة .



الله ولا تُخزون في ضيفي أليس منكم رجلٌ رشيدٌ؟<sup>(١)</sup> ثم قال: «لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركنٍ شديدٍ» !!

\* \* \*

لكن محمداً عليه الصلاة والسلام، على كرم محنته، لم يرزق حظاً وافراً من الثراء، فكانت قلة ماله مع شرف نسبه سبباً في أن يجمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات. إن أبناء البيوتات الكبيرة تغريهم الثروة بالسطوة، فإذا فقدوا هذا السلاح، وكانت لهم تقاليد كريمة، بذلوا جهوداً مضنية ليحتفظوا بمكانتهم وشممهم. ولذلك يقول قائلهم:

وإنا — على عض الزمان الذي بنا — نعالج من كره الخاوي الدواهيـا

وربما لا يرى بعض الناس حرجاً من أن يعلن فاقته ويكشف صفحته.

غير أن هناك بعض آخر يطوون همومهم في همتهم ثم يبرزون للدنيا مشمرين،

ومن هؤلاء عبد المطلب . . .

كان عبد المطلب سيد مكة، بيد أن هذه السيادة التي انتهت إليه انتهت به

ولم تستقر في عقبه، إذ اشتد ساعد منافسيهم في زعامة أم القرى، وبدا كأن

الأمر سيؤول إليهم. بل إن هي إلا أعوام حتى تصدرت أسرة عبد شمس، ثم

تمر أعوام أخرى فإذا أبو سفيان يتزعم مكة، وبذلك تنتقل السيادة عن بني هاشم.

و «عبد الله» أصغر أبناء عبد المطلب وله في قلبه منزلة جليلة، وقد زوجه

بأمنة بنت وهب، ثم تركه يسعى في الحياة وحده، فخرج وهو عروس بعد أشهر

من بنائه بأمنة، خرج يضرب في مناكب الأرض ابتغاء الرزق، وذهب في رحلة

الصيف إلى الشام، فذهب ولم يعد... عادت القافلة تحمل أنباء مرضه، ثم جاء

بعد قليل نعيه.

وكانت آمنة تنتظر رجلها الشاب الجلد لتهنأ بحياتها معه ، ولتشعره بأن في أحشائها جنيناً يوشك أن تقر به عينهما . غير أن القدر - الحكمة العليا - حسم هذه الأمانى الحلوة ، فأمست الزوج المحسودة أيتماً .

تعد الليالى لتودع الحياة الموحشة « يتيمها » الفريد . . . .

قال الزهرى : أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمرأ فمات بها ، وقيل : بل كان بالشام ، فأقبل في غير قريش ، فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى بها ودفن في دار النابغة الجعدي وله خمس وعشرون سنة ، وتوفى قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

\* \* \*

ولد محمد صلى الله عليه وسلم بمكة ولادة معتادة ، لم يقع فيها ما يستدعى العجب أو يستلفت النظر ، ولم يمكن المؤرخين تحديد اليوم والشهر والعام الذى ولد فيه على وجه الدقة ، وأغلب الروايات تتجه إلى أن ذلك كان عام هجوم الأحباش على مكة سنة ٥٧٠ م فى الثانى عشر من ربيع الأول ٥٣ ق . ه .

وتحديد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شىء ذو بال ، فالأحفال التى تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوى لا صلة له بالشرعة .

وقد روى البهز أن إرهابات بالبعثة وقت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخمدت النار التى يعبدها الجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة « ساوة » بعد أن غاضت . قال البوصيرى :

أبان مولده عن طيب عنصره	يا طيب مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم	قد أئذروا بحلول البؤس والقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع	كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أصف	عليه ، والنهر ساهى المين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها	ورد واردها بالغيظ حين ظمى



وهذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة فإن ميلاد محمد كان حقاً إلهياً  
بزوال الظلم واندثار عهده واندكك معالمه . وكذلك كان ميلاد موسى ، ألا ترى  
أن الله لما وصف جبروت فرعون ، واستكانة الناس إلى بغيه ، ثم أعلن عن إرادته  
في تحرير العبيد واستنقاذ المستضعفين . قص علينا قصة البطل الذي يقوم بهذه  
الأعمال فقال : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . . . » .

وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلي  
والمادى وكان جند القرآن أعدل رجال وعام للتاريخ ، وأحصى فعالهم في تدوين  
المستبدين وكسر شوكتهم ، طغية إثر طاغية .

فلما أحب الناس — بعد انطلاقتهم من قيود العسف — تصوير هذه الحقيقة ،  
تمخيلوا هذه الإرهاصات ، وأحدثوا لها الروايات الواهية ، ومحمد غنى عن هذا كله .  
فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهها .

• • •

استقبل « عبد المطلب » ميلاد حفيده باستبشار وجذل ، لعله رأى في مقدمه  
عوضاً عن ابنه الذي هصرت المنون شبابه . فحول مشاعره عن الراحل الفذهب  
إلى الوافد الجديد يكلؤه وينغلى به .

ومن المواقفات الجميلة أن يُدعى « عبد المطلب » تسمية (١) حفيده « محمداً »  
إنها تسمية أعانه عليها ملك كريم ! ولم يكن للعرب ألفون هذه الأعلام ، لذلك  
سألوه : لم رغبت عن أسماء آبائه ؟ فأجاب : أردت أن يحمده الله في السماء ، وأن  
يحمده الخلق في الأرض ، فكانت هذه الإرادة كانت استشفافاً للغيب ، فإن أحداً  
من خلق الله لا يستحق إزجاء عواطف الشكر والثناء على ما أدى وأمدى كلمة  
يستحق ذلك النبي العوي الحمّد .

---

(١) سماه كذلك بعد ماخنته في يومه السابع .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله . « ألا تعجبون كيف يصرف الله عنى شتم قريش ولعنهم ؟ يشتمون مذمماً وأنا محمد ! » (١) .

لكن الحقيقة القاسية - رغم حفاوة الجد الحنون - باقية . فإن « محمداً » يتيم . برز إلى الدنيا بعد ما غادر أبوه الدنيا . ليكن ! ! ولنفرض عبد الله بقى حياً ! ! فماذا عسى كان يفعل لابنه ؟ أكان يريبه ليهب له النبوة ؟ . ما كان له ذلك . إن الأب عنصر واحد من عناصر شتى تنحكم في مستقبل الطفل وتحفر له في الحياة مجراه . ولو كانت النبوة بالاكْتساب ما قربتها حياة الوالد شبراً . فكيف وهي اصطفاء ؟ .

كان يعقوب حياً يرزق . له شيخوخته وتجربته وحكمته ، بل له نبوته . وقد نظر يوماً ما فلم يجد يوسف قريباً منه . إنه فقد في أخطر فترات العمر ، فترة الصبا اللدن واليفاعة الفضة . ومع فساد اليثاات التي احتوت يوسف فقد كان باطنه ينضج بالتقى والعفاف ، كما يتقد المصباح في أهواء الليل المدهم ، فلما التقى الابن بوالده بعد لأى ، رأى يعقوب ابنه نبياً صديقاً . . .

لقد ولى عبد الله وترك ابنه يتيماً ، بيد أن هذا اليتيم كان يُعدُّ من اللحظة الأولى لأمر جليل ، أمر يصبح به إمام المصطفين الأخيار . وما الأب والجد ، هما الأفرون والأبعدون ، ما الأرض والسماء إلا وسائل مسخرة لإتمام قدر الله ، وإبلاغ نعمة الله من اصطنعه الله .

• • •

أقبلت « آمنة » على ابنها تمنو عليه في انتظار المراضع المقبلات من البادية ، يتلمسن تربية أولاد الأشراف . والأعرابيات اللاتي يقصدن مكة لهذه الغاية هن طالبات رزق ويسار . ولم يكن لمحمد أب تُرَقَّب عطاياه ، أو غنى تغرى جدواه . فلا عجب إذا زهدت فيه المراضع وتطلعن إلى غيره .

(١) الحديث صحيح أخرجه البخارى ( ٦ - ٤٣٥ - ٤٣٦ ) .



وكانت « حليمة ابنة أبي ذؤيب » من قبيلة بني سعد إحدى القاديات إلى مكة ابتغاء العودة برضيع تستعين على العيش بحضنته . ولم يرض طموحها أول الأمر طفل يتيم أنها لم تجد طلبتها واستحيت أن تعود صفر اليدين فرجعت إلى « آمنة » تأخذ منها « محمداً » .

وكانت البركة في مقدمه معها ، كانت سنواتها عجافاً من قبله . فامتن الله عليها بخير مضاعف : درّت الضروع بعد جفاف ولان العيش وأخصب ، وشعرت حليمة وزوجها وولدها بأن أوتيتهم من مكة كانت باليمن والغنم لا بالفقر واليتم ، مما زاد تعلقهم بالطفل وإعزازهم له .

وتنشئة الأولاد في البادية ، يرحوا في كنف الطبيعة ، ويستمتعون بجوها الطاق وشعاعها المرسل ، أدنى إلى تزكية الفطرة ، وإنماء الأعضاء والمشاعر ، وإطلاق الأفكار والعواطف .

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أخلقت على من فيها ، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش . ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود - فيما يعود إليه - إلى البعد عن الطبيعة ، والإغراق في التصنع . ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصات الفساح مدارج طفولتهم . وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه ، ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق .

### شق الصدر

مكث « محمد » في مضارب « بني سعد » خمس سنوات ، صح فيها بدنه واطرد نفاؤه ، وهذه السنوات الخمس هي عمر الطفل . فلا ينتظر أن يقع فيها شيء يذكر . غير أن السنن الصحاح سجلت في هذه الفترة ما عرف بعد بمحادث « شق الصدر » .

عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرجه، فاستخرج منه علقه، فقال: هذا خط الشيطان منك؛ ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — يعني مرضعته — أن محمداً قد قتل. فاستقبلوه، وهو منتقع اللون» (١).

وهذه القصة التي روت حليلة وزوجها، ومحمد مسترضع فيهم، نجدها قد تكررت مرة أخرى ومحمد عليه الصلاة والسلام رسول جاوز الخمسين من عمره، فعن مالك بن صعصعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال: بينا أنا في الحطيم — وربما قال في الحجر — مضطجع بين النائم واليقظان أتاني آت، فشق ما بين هذه إلى هذه — يعني ثغرة نحره إلى شمرته — قال: فاستخرج قلبي: ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد... (٢).

ولو كان الشر إفراز غدة في الجسم ينحسم بانحسامها، أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب كما يزود الطائرة بالوقود فتستطيع السمو والتحليق... لقلنا: إن ظواهر هذه الآثار مقصودة. ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك، بل من البديهي أنه بالذاتية الروحية في الإنسان الصق. وإذا اتصل الأمر بالحدود التي يعمل الروح

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم (١٠١/١-١٠٢) وأحمد (١٢١/٣، ١٤٩، ٢٢٨) زاد في آخره: وقال أنس وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره وللحديث شواهد كثيرة منها عن عتبة بن عبد السلمي عند الدارمي (٨١١) والحاكم (٦١٦/٢) صحيحه ووافقه الذهبي، ومنها عن أبي بن كعب عند عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٩/٥) ومنها عند أبي ذر عند ابن جرير في تاريخه (٥١/٢-٥٢).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٣٢/٦) ومسلم (١٠٣/١-١٠٤) والنسائي (٧٦/١) من حديث مالك بن صعصعة.



في نطاقها ، أو بتعبير آخر عندما ينتهى البحث إلى ضرورة استكشاف الوسائل التي يسيّر بها الروح — هذا الغلاف المنسوج من اللحم والدم ، يصبح البحث لا جدوى منه ، لأنه فوق الطاقة .

وشىء واحد هو الذى نستطيع استنتاجه من هذه الآثار ، أن بشراً ممتازاً كمحمد لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس . فإذا كانت للشهر « موجات » تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين — بتولى الله لها — لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها . وبذلك يكون جهد المرسلين في « متابعة الترقى » لافي « مقاومة التبدلي » وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته .

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله قال . وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » (١) .

وفي حديث عن عائشة ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . أغرت ؟ قالت : وما لمثلى أن يغار على مثلك ! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد جاءك شيطانك ! قالت : أو معى شيطان ؟ قال : ليس أحد إلا ومعه شيطان . قالت : ومعهك ؟ قال : نعم ولكن أعانني الله عليه فأسلم ، (٢) أى انقاد وأذعن فلا يستطيع أن يهيجس بشر .

ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الخصائص التي أضفاها الله على محمد صلى الله عليه وسلم فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزلق الطبع الإنسانى ومفان الحياة الأرضية ، وقد أورد الخازن في تفسيره القصة الأولى — أيام الرضاعة — عند

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٩/٨) عن ابن مسعود .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم عنها ، في الموضع السابق .

تفسيره لقول الله عز وجل : « ألم نشرح لك صدرك » ووضعنا عنك وزرك \*  
الذى أنقض ظهرك... » ؟

وشرح الصدر الذى عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب .  
ويحسن أن تعرف شيئاً عن أساليب الحقيقة والمجاز التى تقع فى السنة .  
عن عائشة أن بعض أزواج النبی صلى الله عليه وسلم قلن : يا رسول الله ،  
أینا أسرع بك لحوقاً ؟ قال : أطواكُن یداً . فأخذن قصبة يذرعهما ( ١ ) فكانت  
سودة أطولهن یداً . فعملنا بعد أنما كان طول یدها بالصدقة . وكانت تحب الصدقة  
وكانت أسرعنا لحوقاً به ( ١ ) ... »

\* \* \*

آب « محمد » صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد أعوام طيبة قضاها فى البادية ،  
... آب لیجد أمّاً کریمة حبست نفسها علیه ، وشيخاً مهيباً يلتمس فى مرآة العزاء  
عن ابنه الذى خلى مكانه فى شرح الشباب . وكان الأيام أبته قراراً بين هذه  
الصدور الرقيقة ، فأخذت تحرمة منها ، واحداً بعد الآخر .

رأت « آمنة » - وفاء لذكرى زوجها الراحل - أن تزور قبره بـ « يثرب » فخرجت  
من « مكة » قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلومتر فى الذهاب غير مشيلتها فى الإياب .  
ومعها فى هذه السفرة الشاقة ابنها « محمد » صلى الله عليه وسلم وخادمتها « أم أيمن » .  
وعبد الله لم يمت فى أرض غريبة ، فقد مات بين أخواله بنى النجار . قال ابن الأثير :

( ١ ) حديث صحيح ، أخرجه البخارى ( ٢٢٢/٣ ) من طريق مسروق عن عائشة بهذا  
السياق إلا أنه قال : « وكانت أسرعنا لحوقاً به ، وكانت تحب الصدقة » وأخرجه مسلم  
( ١٤٤/٧ ) من طريق عائشة بنت طلحة ، والحاكم من طريق عمرة ، كلتاهما عن عائشة  
بنحوه ، وفى روايتهما : « فكانت أطولنا یداً زينب . لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق »  
وهذا يخالف رواية البخارى فإن ظاهرها أن سودة هى التى لحقت به أولاً وهو خطأ بين  
كالحق فى الحافظ فى الفتح وقد رجح فيه رواية مسلم وهو الحق : فمن شاء الزيادة فى التحقيق  
فليرجع إليه . وزينب هذه هى بنت « جش لا بنت خزيمه كما توهم بعضهم .



« إن هاشمًا شخص في تجارة إلى الشام . فلما قدم المدينة نزل على عمرو بن ليبيد الخزرجي ،  
فقرأى ابنته « سلمى » فأعجبته ، فتزوجها ، وشرط أبوها ألا تلد ولداً إلا في أهلها ،  
ثم مضى هاشم لوجهه . وعاد من الشام فبنى بها في أهلها ثم حملها إلى مكة فحملت .  
فلما أثقلت ردها إلى أهلها ومضى إلى الشام فمات بـ « غزة » وولدت له « سلمى »  
عبد المطلب فمكث في المدينة سبع سنين . » .

وقد ظل محمد عليه الصلاة والسلام لدى أخواله قريباً من قبر أبيه نحو شهر . ثم  
نقل عائداً إلى مكة . وإذا المرض يلاحق أمه ويلح عليها في أوائل الطريق فماتت  
بـ « الأبواء » وتركته وحيداً مع الخادمة المشدودة الحال طفل يفقد أباه وهو جنين ،  
ويفقد أمه وهو ابن خمس سنين .

إن المصائب الجديدة نكأ الجروح القديمة مما جعل مشاعر الحنو في قواد  
« عبد المطلب » تربو نحو الصبي الناشئ ، فكان لا يدعه لوحده المفروضة ، بل  
يثوثر أن يصحبه في مجالسه العامة . كان إذا جلس على فراشه بجوار الكعبة ، أدناه  
منه في حين يجلس الشيوخ حوله .

وقد تأخرت سن عبد المطلب حتى قيل : إنه توفي وله مائة وعشرون سنة إلا أنه  
طارق الحياة وعمر « محمد » يناهز الثمانية . فرأى — قبل وفاته — أن يعهد بكفالة  
حفيدة إلى عمه أبي طالب .

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكل وجهه ، ضمه إلى ولده وقدمه عليهم ،  
واختصه بفضل احترام وتقدير . وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه  
حمايته ، وبصديق ويخاصم من أجله .

ودرج محمد عليه الصلاة والسلام في بيت أبي طالب والسن تمضي به قدماً إلى  
الوعي العميق بما حوله . فأصر على أن يشارك عمه هموم العيش ، إذ كان أبو طالب  
— على كثرة أولاده — قليل المال ، فلما قرر أن يمضي على سنن آبائه في متابعة  
الرحيل إلى الشام ابتغاء الاتجار والربح قرر أن يكون معه . وكان عمره نحو  
الثلاث عشرة سنة .

## بحيرا الراهب

ولا نجد في السنن الصحاح أنباء تصف هذه الرحلة . إن الأسفار من أخصب أبواب المعرفة ، وأعمقها أثراً . ومثل محمد عليه الصلاة والسلام في صفاء ذهنه ونقاء قلبه ، لا يعزب عنه وجه العبرة فيما يرى ، في حله أو ترحاله ، على أن من المقطوع به أنه لم يخرج لدراسة دين أو فلسفة ، ولم يلق من يتحدث معه في ذلك وقد روت كتب الأخبار بعض خوارق ، ذكرت أنها وقعت له ، من ذلك التقاؤه بالراهب ، « بحيرا » الذي تفرس فيه ورأى معالم النبوة في وجهه وبين كتفيه ، فلما سأل أبا طالب : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني ، قال : ما ينبغي أن يكون أبوه حياً ؟ قال : فإنه ابن أخي مات أبوه وأمه حبلى به . قال : صدقت ، ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود .

وقد تكون هذه القصة صحيحة . فإن البشارة بنبي بعد عيسى عليه السلام موجودة في الكتاب المقدس عند النصارى . وهم - منذ تكذيبهم برسالة محمد عليه الصلاة والسلام - يرتبون هذا النبي المنتظر . ولن يحى أبداً ... لأنه جاء فعلاً . . . . . وسواء صحت قصة « بحيرا » هذه أم بطلت (١) فمن المقطوع به أنها لم تخلف بعدها أثراً ، فلا محمد - عليه الصلاة والسلام - تشرف للنبوة أو استعد لها . - لكلام الراهب - ولا أصحاب القافلة تذاكروا هذا الحديث أو أشاعوه . - لقد طويت كأن لم تحدث مما يرجح استبعادها .

وقيل أيضاً ، إن كوكبة من فرسان الروم أقبلت على « بحيرا » كأنها تبحث عن شيء . فلما سألتها : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا لأن نبيا يخرج هذا الشهر . فلم يبق .

( ) بل هي صحيحة ، فقد أخرجها الترمذي (٢٩٦/٤) من حديث أبي موسى الأشعري . وقال : « هذا حديث حسن » . قلت : وإسناده صحيح ، كما قال الجزري . قال : « وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ » . قلت : وقد رواه البزار فقال : « وأرسله عنه عمه رجلاً » .



طريق إلا بعث إليها ناس — لا قبض عليه (١) فجادلهم « بحيرا » حتى أقنعهم  
بجبت ما يطلبون .

والحققون<sup>(١)</sup> على أن هذه الرواية موضوعة مضاهاة لما يذكره الإنجيليون  
من أن ناساً طلبوا المسيح عقب ولادته لقتله ، وهي عند المسيحيين مضاهاة لما عند  
الوثنيين من أن « بوذا » لما وضعت أمه العذراء (١) طلبه الأعداء ليقتلوه . .  
إن علماء السنة يهتمون بالأخبار الواردة — من ناحيتي المتن والسند — فإذا  
لم تجد علماً ثابتاً ، أَرْضاً راجحاً لم يكثر ثوابها . وقد انضمت أساطير كثيرة إلى  
حيز المرسلين . عندما تعرض على القواعد المقررة في فن التحديث يظهر عوارها  
ويساغ أطراحها .

(١) من هم هؤلاء المحققون ، ومن أين جاء الوضع المذكور . وهذه الرواية هي في  
حديث أبي موسى المتقدم وقد علمت صحته . وماذا نضر للمضاهاة بعد الثبوت ؟ . أفلا ترى أن  
ما يذكره الإنجيليون يضاهي ما هو ثابت في القرآن الكريم من طلب فرعون لموسى في قتله  
الأنبياء ؟ أفرد وهذا المشابه المذكورة ! اللهم : لا . مع تقديرنا لكلام الاستاذ العلامة  
الشيخ : « ناصر الدين » فإننا نذكر طرفاً من كلام العلماء والمحققين حول هذه القصة :  
« قال الجزري — كما نقل الشيخ ناصر — : اسناده صحيح . ورجاله رجال الصحيح .  
أو أحدهما . وذكر أبي بكر وبلال فيه غر محفوظ . . عنه أثبتنا وهما (!) وهو كذلك (!!)  
فإن سن النبي — صلى الله عليه وسلم — إذ ذاك اثنتا عشرة سنة . وأبو بكر أصغر منه  
ببنتين . وبلال لعله لم يكن ولد في ذلك الوقت اه . وقال الذهبي في ميزان الاعتدال :  
« قيل : مما يدل على بطلان هذا الحديث قوله : « وبعث معه أبو بكر بلالا (!) » .  
وبلال لم يخلق بعد وأبو بكر كان صبياً . اه . قال صاحب « تحفة الأحوذى » :  
« وضعف الذهبي هذا الحديث لقوله : « وبعث معه أبو بكر بلالا » فإن أبا بكر إذ ذاك  
ما اشترى بلالا . وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة : رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه  
النقطة فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد روايته .  
كما في « المواهب اللدنية » . قال « ابن القيم » في زاد المعاد : ووقع في كتاب  
الترمذي وغيره : أنه بعث معه أبو بكر بلالا وهو من الغلط الواضح (!) فإن ذاك لعله  
لم يكن موجوداً . وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر . راجع تحفة الأحوذى  
طبع الهند ( ١ / ٢٩٣ كتاب المذنب ) .

ذلك . وقد قال الحافظ ابن كثير في السيرة ( ١ / ٢٧٤ ط الحلبي ) : روى  
هذا الحديث الترمذي . والحاكم . والبيهقي . وابن عساكر . قلت : — أي ابن  
كثير — فيه من الغرائب أنه من مراسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في  
سنة خيبر ( سنة سبع من الهجرة ) وعلى كل تقدير فهو : « مرسل » .  
فالحديث « معلل » طبقاً لما قرره العلماء في علم المصطلح .

## حياة الكدح

عاد محمد عليه الصلاة والسلام من هذه الرحلة ليستأنف مع عمه حياة الكدح . فليس من شأن الرجال أن يقعدوا . ومن قبله كان المرسلون يأكلون من عمل أيديهم ، ويحترفون مهناً شتى ليعيشوا على كسبها . وقد صرح أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - اشتغل صدر حياته برعى النعم وقال : « كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » . . . كما ثبت أن عدداً من الأنبياء اشتغل برعايتها <sup>(١)</sup> ، أترى ذلك تعويذاً لهم على سياسة العامة ، والرفق بالضعفاء والسهر على حمايتهم ؟ ؟

وقد تسأل : أنتقدح المعارف المتصلة بالكون وما وراءه ، والناس وما يفيضون فيه - أنتقدح حقائقها في نفوس المرسلين فجأة ، دون إعداد سابق أو تهيئة حكيمة ؟ والجواب كلا . فالأنبياء - وإن لم يتعلموا بالطرق والقوانين التي يتعلم بها أمثالنا - لهم من سلامة فكرهم واستقامة نظرهم ما يجعلهم في طليعة العلماء وإن لم يتعلموا بما نعهد من أساليب .

ما العلم الذي ترقى به النفس ؟ أهو حفظ الدروس وامتنعاب القواعد والقوانين ؟ إن هناك ببغاوات كثيرة تردد ما تسمع دون وعي . ولقد نرى أطفالاً صفاراً يلقون - باتقان وتمثيل - خطباً دقيقة لأشهر الساسة والقادة .

فلا الأطفال - بل استحضروا من كلام الأئمة - أصبحوا رجالاً ولا الببغاوات تحوات بشراً .

وقد تجد من يحفظ ، ويفقه ، ويجادل ويغالب ، ولكن العلم في نفسه كمروق

---

الذهب في الصخور المهملة ، لا يبعث على خير ولا يزجر عن شر .

---

وقد شبه القرآن أحبار اليهود الذين يحملون التوراة ولا يتأدبون بها بالحملين « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أفكاراً » <sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩/٤) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ . « ما بعث الله نبياً إلا رعى النعم . فقال أصحابه : وأنت . فقال : نعم ، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » .  
(٢) الجمعة : ٥ .



وهذه الطبائع التي تحمل العلم لا تصلح به إنما تسمى إليه ، ولذلك يحسن  
الضن به عليها . وفي الأثر « واضع العلم عند غير أهله كمثل الخنازير الجوهر  
واللؤلؤ والذهب »<sup>(١)</sup> .

ثم هناك الخرافيون الذين يغالطون في الحقائق أنفسهم كأن عقولهم ميزان  
ثقلت إحدى كفتيه — غير مدب — فهو لا يضبط وزناً أدماً ، ينبسطون  
للمستحيلات ويقبلونها ، ويتجهمون للوقائع ويرفضونها .

وقد بلونا أناساً ظلوا يتعلمون قرابة عشرين سنة تعرض عليهم القضية  
فيخبطون فيها خبط عشواء ، فإذا عرضت القضية نفسها على أمي سليم الفطرة نقي<sup>س</sup>  
العقل صدع فيها بالحق لأول وهلة . ومعنى ذلك أن هناك من تبذل في إقامة عوجه  
العقلي عشرين سنة ، حافلة بالبحث والدرس ، فتعجز عن الوصول به إلى مرتبة  
رجل أوتي رشده بأصل الحلقة .

ونحن موقنون من مطالعة سيرة محمد عليه الصلاة والسلام بأنه طراز رفيع  
من الفكر الصائب والنظر السديد وأنه — قبل رعى الفم وبعده ، وقبل احتراف  
التجارة وبعدها — كان يعيش يقظ القلب في أعماء الصحراء ، صاحباً بين السكاري  
والغافلين .

وجو الجزيرة العربية يزيد خول الخامل وحدة اليقظان ، كالشعاع الذي ينمى  
الأشواك والورود معاً ، وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم يستعين بصمته الطويل  
... صمته الموصول بالليل والنهار ، صمته المطبق على الرمال الممتدة والعمران القليل .  
كان يستعين بهذا الصمت على طول التأمل ، وإدمان الفكر ، واستكناه الحق .

---

(١) حديث ضعيف جداً ، علقه ابن عبد البر في « جامع العلم » ( ١ / ١١١ ) ووصله  
ابن ماجه في سننه ( ١ / ٩٨ ) . وفي سننه حفص بن سليمان وهو الأسدي القاري . قال  
ابن خراش : « كذاب يضع الحديث » وضعفه غيره ، وقال أبو حاتم : « متروك » . وكذا  
قال الحافظ في التتريب .

ودرجة الارتقاء النفسى التى بلغها من للنظر الدائم أرجح يقينا من حفظ لافهم فيه ،  
أوفهم لا أدب معه . ومثله فى احترام حقائق الكون والحياة أولى بالتقديم من  
أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها .

ولاشك أن القدر حاطه بما يحفظ عليه هذا الاتجاه الفذ . فعندما تتحرك  
نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا - وذلك من قبيل الصغار التافهة -  
تدخل العناية للحيلولة بينه وبين هذه الأمور .

روى ابن الأثير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هممت بشيء مما كان  
أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به  
حتى أكرمنى برسالة . قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت  
لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ! فقال : أفعل . فخرجت  
حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا ، فقلت : ما هذا فنالوا : عرس  
فلان بفلانة . فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى ، ففمت فما أيقظنى إلا حر  
الشمس . فعدت إلى صاحبى ، فسألنى ، فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل  
ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة . . ثم ما هممت بعده بسوء . . » (١)

. . .

---

(١) حديث ضعيف أخرجه الحاكم (٢/٤٥١) من طريق ابن إسحاق حدثنى محمد بن عبد  
الله بن مخزوم عن الحسن بن محمد بن علي عن جده علي بن أبي طالب (ض) قال سمعت رسول  
الله (ص) يقول فذكره وقال : ( هذا حديث صحيح على شرط مسلم ) ووافقه الذهبي قلت :  
وهو وممنهما ما لأمرين : الأول : أن ابن إسحاق إنما يروى له مسلم مرة وثنا بغيره  
كما ذكر ذلك الذهبي نفسه فى الميزان ، والى ما لم يروه عنه مقرونا بغيره كما ترى ، فليس  
هو على شرط مسلم . الثانى : أن محمد بن عبد الله بن قيس ليس مشهور العدالة فلم يوثقه غير  
ابن حبان ، وتوثيقه عند ما ينفرد به لا يوثق به لأن من قاعدته أن —



إن مراتب التعليم المختلفة هي مراحل جهاد متصل لتهديب العقل وتقوية ملكاته ، وتصويب نظراته إلى السكون والحياة والأحياء . فكل تعليم يقصر بأصحابه عن هذا الشأ ولا يؤبه له ، مهما وسم بالشهادات والجازات ! وأحق منه بالحفاوة ، وأسبق منه إلى الغاية المنشودة ، أن ينال المرء حظاً وافراً من حسن النطقة وأصالة الفكرة ، وسداد الوسيلة والهدف . وقد أشار القرآن الكريم إلى نصيب « إبراهيم » من هذه الخصال عندما قال : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ » (١)

ومحمد عليه الصلاة والسلام في هذا النهج كجده إبراهيم إنه لم يتلق علماً على راهب أو كاهن أو فيلسوف ممن ظهروا على عهده ، ولكنه بعقله الخصب وفطرته الصافية . طالع صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات ، نهاف منها ماساءه من خرافة زائى عنها ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم . فما وجدته حسناً شارك فيه بقدر ، وإلا عاد إلى عزاته العتيدة ، يتابع النظر الدائم في ملكوت

== يوثق المجهولين كما أفاده المحققون كالحافظ ابن حجر في اللسان ولهذا لما أورد الحافظ ابن قيس هذا في « التقريب » لم يوثقه بل قال فيه مقبول يعني أنه ابن الحديث حيث لا يتابع كما نص على هذا في مقدمة الكتاب . ثم هو ليس من رجال مسلم خلافاً لمن وهم ، وقد ضعف هذا الحديث الحافظ ابن كثير في تاريخ البداية والنهاية (٢٨٧/٢) بمد أن ساقه بالسند المذكور من رواية البيهقي حيث قال : ( وهذا حديث غريب جداً ) وقد يكون عن علي نفسه ( يعني موقراً عليه ) ويكون قول : ( حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته ) متحداً والله أعلم . وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره من حبان في الثقات ، وزعم بعضهم أنه من رجال الصحيح قال شيخنا في تهذيبه ، ولم اتف على ذلك . والله أعلم . ثم وجدت الحديث في تاريخ مكة ( ص : ٧ ) للفاكهى ، وتاريخ ابن جرير ( ٣٤/٢ ) من الطريق المذكور . ورواه الطبراني في المعجم الصغ . ( ص ١٩٠ من حديث عمار بن ياسر ، وفي سنده جماعة لم اعرفهم ، وذكر نحو هذا الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ( ص ٢٢٦/٨ ) .

السموات والأرض وذلك أجدى عليه من علوم هى بالجهل المركب أشبه ، ومن مجتمع فقد الهداة من قرون فهو يضم ضلالا جديداً إلى الضلال القديم كلما مرت عليه ليلة وطلع صباح ..

وقد رأى أن يشهد الأعمال العامة التى اهتم بها قومه ، لأنه لم يجد أى حرج إذ يشارك فيها ، ومن ذلك خوضه مع عمومته وقبيلته « حرب الفجار » ثم شهوده من بعد « حلف الفضول » .

## حرب الفجار

كانت حرب الفجار بالنسبة إلى قريش دفاعاً عن قداسة الأشهر الحرم ، ومكانة أرض الحرم . وهذه الشعائر بقية مما احترمه العرب من دين إبراهيم . وكان احترامها مصدر نفع كبير لهم ، وضماناً لانتظام مصالحهم وهدوء عداوتهم . كان الرجل يلقى قاتل أبيه خلالها فيحجزه عن إدراك ثأره شعوره بهذه الحرمات . وقد جاء الإسلام بعده ، فأقر هذه المكانة الموروثة عن ديانة إبراهيم : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم » (١) .

ولكن أهل الجاهلية ما لبثوا أن ابتلوا بمن استباحها ، فظلموا أنفسهم فيها ، وكانت حرب الفجار من آثار هذه الاستباحة الجائرة ، وليس هنا تفصيل خبرها وقد ظلت أربعة أعوام كان عمر « محمد » فى أثنائها بين خمسة عشر والتسعة عشر ، قيل : قاتل فيها بنفسه . وقيل : بل أعان المقاتلين . . .

## حلف الفضول

أما « حلف الفضول » فهو دلالة على أن الحياة معها اسودت صحائفها ، وكلحت شروورها ، فلن تخلو من نفوس تهزها معانى النبل . وتستجيشها إلى النجدة والبر .



ففي الجاهلية الغافلة نهض بعض رجال من أولى الخير . وتواثقوا بينهم  
على إفراز العـدالة وحرب المظالم ، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل في  
أرض الحرم ! ..

قال ابن الأثير : « . . . ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف ،  
فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه . وكانوا بنى هاشم ، وبنى المطلب ،  
وبنى أسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة . فتحالفوا وتعاهدوا  
ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ،  
وكانوا على من ظلمه ، حتى ترد مظلمته . فسُمِّيَ ذلك الحلف « حلف الفضول »  
فشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال — حين أرسله الله تعالى — : « لقد  
شهدت مع عمومتى حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حر النعم  
ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت (١) » .

إن بريق الفرح — بهذا الحلف — يظهر في ثنايا الكلمات التي عبر بها  
رسول الله عنه . فإن الحمية ضدَّ أي ظالم مهما عزَّ . ومع أي مظلوم مهما هان .  
هي روح الإسلام . الأمر بالمعروف ، النهي عن المنكر ، والواقف عند حدود  
الله . ووظيفة الإسلام أن يحارب البغي في سياسات الأمم . وفي صلوات الأفراد  
على سواء . . .

وقيل في سبب الحلف : إن رجلاً من « زيد » أتى بتجارة ، فاشتراها العاصي  
ابن وائل السهمي . ثم حبس حقها وأبى أن يدفعه ! فاستعدى عليه قبائل قريش  
والأحلاف فلم يكثر ثواله . فوقف للغريب المظلوم عند الكعبة وأنشد :

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة كما في ابن هشام (١/٩٢ من الطبعة الجمالية) قال ابن  
زيد بن المهاجر قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول : قال  
رسول الله (ص) : فذكره ، قلت : وهذا سند صحيح لولا أنه مرسل . ولا كُنْ له  
شواهد تقويه فرواة الحميدي بإسناد آخر مرسل أيضاً كما في « البداية » (٢/٩٢)  
وأخرجه الإمام أحمد (رقم ١٦٥٥ ، ١٦٧٦) من حديث عبد الرحمن بن عوف  
مرفوعاً دون قوله « ولو دُعيت به في الإسلام لأجيب » وسنده صحيح .

يا آل فهر لمظـلوم . بضاعتهُ  
 ببطن مكة نأى الدار والنـزـار !  
 ومحرم أشعث لم يقض عمرته  
 يا للرجال - وبين الحجر والحجر - !  
 إن الحرام آمن تمت كرامته  
 ولا حرام بثوب الفاجر الفدر  
 فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك : فاجتمع الذين ذكرهم ابن  
 الأثير آنفاً . وذهبوا إلى العاصي بن وائل . واستخلصوا منه - حق الزبيدي . بعد ما  
 أبرموا حلف الفضول .

ويظهر أن العاصي هذا رجل بماطل سمج . فهو صاحب القصة كذلك مع  
 خباب بن الارت وكان خباب قيناً ، فصنع سيفاً للعاصي وأناه به لينقذه ثمنه .  
 فقال له العاصي : لا أعطيك حتى تسكفر بمحمد : فقال له خباب : لا أكفر حتى  
 يميتك الله ثم تبعث . قال العاصي : وإني لميت ثم مبعوث ؟؟ قال : بلى . قال :  
 دعني حتى أموت وأبعث . فسأرتي مالا وولداً ، فأقضيك - حق السيف -  
 بفترات الآيات :

« أَمَرَ آيَتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ : لَأُوتِينَ مَلاَءَ وَوَلَدًا ؟ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ  
 أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ؟؟ كَلَّا . سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ  
 مَدَدًا وَنَرِيَّهَ مَا يَقُولُ وَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ يَدْعُ » (١) .

وأما العاصي هذا في ميدان التجارة والسياسة كثير . ومحمد صلى الله عليه  
 وسلم أولى الناس بخصوصيتهم . وأولى الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم من أعان  
 عليهم ووثق على حربهم .

## قوة ونشاط

عندما انتهت حرب الفجار وأبرم حلف الفضول كان محمد عليه الصلاة والسلام  
 يستقبل المرحلة الثالثة من عمره . وهذه الفترة وما قبلها هي عهد الشباب الحار ،  
 والعراز الفائرة ، والطامح البعيد . ومحمد عليه الصلاة والسلام رجل قوى البدن



على الهمة ، رفيع المـسـكـاة . وقد لوحظت طاقته الواسعة حتى بعد هذه السن بنحو  
أربعين سنة . قال أبو هريرة : « ما رأيت أحسن من رسول الله ! كأن الشمس  
تجـرى في وجهه ! وما رأيت أحداً أصرع في مشيته من رسول الله ! كأنما  
الأرض تطوى له ! كنا إذا مشينا معه نجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث » (١) ..

ومثل هذا الرجل ثقيل عليه الحياة لو لم يقبل هو عليها . وعلى من تقبل  
الحياة بعده ؟ على الواهين والمنكمشين والمتشائمين ؟

لكن محمداً عليه الصلاة والسلام — على ما يملك من وسائل المتاع —  
ما أثرت عنه قط شهوة عارضة أو نزوة خادشة أو حكايت عنه مغامرة لنيل جام  
أو اصطـياد ثروة . بل على العكس بدأت سيرته تـوضـح في أنحاء مكة بما امتاز به  
على أقرانه — إن صحت الإضافة — من خلال عذبة ، وشمائل كريمة ، وفكر  
راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين ...

وليس شرف النفس أن تـتـنـفى شهوة الإنسان إلى الحياة . أو توجد الشهوة  
وتتـنـفى وسائل بلوغها . بل الشرف أن تكون قوة العفاف أربى من نوازع الهوى  
فإذا ظلت النفس في حالة سكون فلتعادل القوى السالبة والموجبة فيها ، وقد تجد  
رجلاً تافهاً هزيراً لا يخفى له طمع ولا تنحبس له شهوة لو قست غرائزه المنفلقة  
بغرائز غيره المضبوطة ما بلغت عشر قوتها ، لكن هذه وجدت زماماً من الرشد  
فكظم عليها . وتلك لم تجد عقلاً يردع ولا خلقاً يهضم فتارت وتمردت ...

وقد كانت رجولة محمد عليه الصلاة والسلام في القمة ، بيد أن قواه الروحية  
وصفاءه النفسي جعلها هذه الرجولة تزداد بمحامد الأدب والاستقامة والقنوع .  
ثم إنه كان معافى من العقد الكريهة التي تزين للشباب تعشيق العظمة عن طريق

---

(١) هذا حديث ضعيف الإسناد أخرجه الترمذي في سننه (٢٠٦/٤) وفي الشمائل  
(١١٧/١) وضعفه بقوله : « هذا حديث غريب » والسبب أنه من رواية ابن لهيعة وهو  
ضعيف لسوء حفظه واحتراق كتبه .

التظاهر والرياء ، أو تطلب الرياسة عن طريق المداينة واشتراء العواطف ، فإذا انضم لهذا كرهه الشديد للأصنام التي عكف عليها قومه ، وازدراؤه للأوهام والأهواء التي تسود الجزيرة وما وراءها . وإدراكه أن الحق شيء آخر وراء هذه الخرافات الغالبة .. تبيناً السر في استئناسه للجبال والنساء ، واستراحته إلى رعى الغنم في هذه الأنحاء القصية ، مكتفياً بالقليل الذي يعود عليه من كسبها .

أهذا زهد في المال ، أو إعراض عن الحياة الدنيا ؟ كلا : إنما هو انشغال بالحقائق العليا التي تصلح بها ويسخر فيها المال . والرجال الكبار لا تشبههم كنوز الذهب والفضة إذا ظمئوا إلى الحق . ولا يريهم أن يكونوا ملوك قومهم أو ملوك الحياة . إذا رأوا المساخر الشائنة تسير بالحياة كلها إلى منحدر تسقط فيه أقدار الناس ، وتتعري فيه الدنيا جمعاء من كل خير وبر .

كذلك استقبل محمد عليه الصلاة والسلام المرحلة الثالثة من عمره . وهي المرحلة التي تعرف فيها إلى زوجته الأولى « خديجة بنت خويلد » .

### خديجة

و « خديجة » مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم . إن أصحاب الرسائل يحملون قلوباً شديدة الحساسية . ويلقون غيباً بالغاً من الواقع الذي يريدون تغييره ، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الذي يريدون فرضه . وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيفاس والترفيه ، بله الإدراك وللمعونة ! وكانت خديجة سباقة إلى هذه الخصال وكان لها في حياة محمد صلى الله عليه وسلم أثر كريم .

قال ابن الأثير : « كانت — خديجة — امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه . فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث ، وعظم الأمانة ، وكرم الأخلاق ، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، ومعه غلامها ميسرة » .



وقد قبل محمد عليه الصلاة والسلام هذا العرض ورحل إلى الشام عاملاً في مال السيدة التي اختارته ، ويظهر أن التوفيق حالفه في هذه الرحلة ، أكثر من سابقها مع عمه أبي طالب ، فكان ربحها أجزل ، وسرّت خديجة بهذا الخير الذي أحرزته ولكن إعجابها بالرجل الذي اختبرته كان أعمق .

... إنها امرأة عريقة النسب ممدودة الثروة . وقد عرفت بالحزم والعقل : ومثلها مطمح لسادة قریش لولا أن السيدة كانت تحقر في كثير من الرجال أنهم طلاب مال لا طلاب نفوس . وأن أبصارهم تنو إليها بغية الإفادة من ثرائها وإن كان الزواج عنوان هذا الطمع ! لكنها عندما عرفت محمداً عليه الصلاة والسلام وجدت ضرباً آخر من الرجال . وجدت رجلاً لا تسهويه ولا تدنيه حاجة . ولعلها عندما حاسبت غيره في تجارتها وجدت الشح والاحتيايل . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد رأت رجلاً تقفه كرامته الفارعة موقف النبيل والتجاوز ، فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها ! لقد أدى ما عليه ثم انصرف راضياً مرضياً .

ووجدت خديجة ضالتها المنشودة . فحدثت بما في نفسها إلى صديقتها « نفيسة بنت منبه » . وهذه ذهبت إلى محمد عليه الصلاة والسلام تفألمه أن يتزوج من خديجة ، فلم يبطل . من إعلان قبوله . ثم كلم أعمامه في ذلك فذهب أبو طالب وحمزة وغيرهما إلى عم خديجة عمرو بن أسد . إذ أن أباهامات في حرب الفجار . وخطبوا إليه أبنه أخيه ، وساقوا إليها الصداق عشرين بكرة . ووقف أبو طالب يخطب في حفل الزواج قائلاً : « إن محمداً لا يوزن به فتى من قریش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قلاً فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله في خديجة بنت خويلد رغبة . ولها فيه مثل ذلك . فكان جواب ولي خديجة — عمها عمرو — هو الفعل الذي لا يقدر أنفه ، وأنسكحها منه ...

وقيل : إن العبارة الأخيرة جرت على لسان « أبي سفيان » عندما تزوج محمد رسول

الله ابنته حبيبة . وكانت الحرب بينهما على أشدها . فاعتذر أبو سفيان عن ذلك بأن محمداً الرجل من الكفاءة بحيث يعتبر الإصهار إليه منقبة ! والخصومة القائمة بينهما لا تنزل بقدر محمد عليه الصلاة والسلام أبداً ، ونكاحه لبنت أبي سفيان لا يشين أبا سفيان أبداً ، وإن كان يومئذ اللدّ عدو له .

\* \* \*

كان محمد عليه الصلاة والسلام في الخامسة والعشرين عندما تزوج خديجة . وكانت هي قد ناهزت الأربعين . وظل هذا الزواج قائماً حتى ماتت خديجة عن خمسة وستين عاماً . كانت طوالها محل الكرامة والإعزاز ، وقد أنجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاده جميعاً منها ما عدا إبراهيم .

ولدت له أولاً « القاسم » وبه كان يكنى بعد النبوة ثم « زينب » و « رقية » و « أم كلثوم » و « فاطمة » و « عبد الله » ، وكان « عبد الله » يلقب بالطيب والطاهر . ومات « القاسم » بعد أن بلغ سنّاً تمكنه من ركوب الدابة والسير على النجبية . ومات عبد الله وهو م طفل . ومات سائر بناته في حياته . إلا « فاطمة » فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به .

كان قران محمد عليه الصلاة والسلام بخديجة خيراً له ولها . ولا شك أن هذا البيت الجديد قد اصطبغ بروح رب البيت ، روح التطهر من أدران الجاهلية ، والترفع عن تقديس الأوثان .

وقد استأنف محمد عليه الصلاة والسلام ما ألفه بعد زواجه من حياة التأمل والعزلة . وهجر ما كان عليه العرب في أحفالهم الصاخبة من إدمان ونحو وقمار وقمار ، وإن لم يقطعه ذلك عن إدارة تجارته ، وتدبير معاشه ، والضرب في الأرض والمشى في الأسواق . إن حياة الرجل العاقل وسط جماعة طائشة تقتضي ضرورياً من الحذر والريّة ، وخصوصاً إذا كان الرجل على خلق عظيم يتقاضاه لين الجانب وبسط الوجه .



ولم يكن نمة ما يقلق في هذه الزيجة الموقفة إلا ألم خديجة لهلاك الذكور من  
بنيتها مع ما للذكور من منزلة خاصة في أمة كانت تئد البنات وتسود وجوه  
آبائهن عندما يبشرون بهن !!

والغريب أن العرب بعد البعثة كانوا يعيرون محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا،  
ويملنون ارتقابهم لانتقاع أثره وانتهاء ذكره . فمن ابن عباس رضى الله عنه ، أن  
قريشاً تواصت بينها في المنادى في النفي والكفر . وقالت : الذي نحن عليه أحق مما  
عليه هذا الصنبور المنبت — والصنبور النخلة التي اندق أصابها — يعنون أن محمداً  
عليه الصلاة والسلام إذا مات لم يرثه عقب ، ولم يحمل رسالته أحد « أم يقولون :  
شاعر نتربص به ريب المنون ؟ قل : تربصوا . فإني معكم من المتربصين » !!

ومحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته فوق هذه الأمانى الصغيرة . إلا أن الأسى  
كان يغزو قلب الوالد الجليل وهو يودع أبناءه الثرى ، فيجدد التكلل مارسب  
في أحماقه من آلام اليتيم . إن غصنه تشبث بالحياة فاستطاع البقاء والنماء برغم فقدان  
أبويه . وما هو ذا يرى أغصانه المنبسقة عنه تذوى مع رغبته العميقة ورغبة شريكة  
حياته في أن يراها مزهرة مثمرة ، وكأن الله أراد أن يجعل الرقة الحزينة جزءاً  
من كيانه ! فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا ينجحون إلى الجبروت إلا إذا  
كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة والأثرة وعاشت في أفراس لا يخامرها كدر  
أما الرجل الذي خبر الآلام فهو أسرع الناس إلى مواساة الحزوين ومداواة  
المجروحين .

## الكعبة

ومن بقايا كلمة إبراهيم التي أجمع العرب في جاهليتهم على احترامها « الكعبة »  
وهي أشبه بغرفة كبيرة مشيدة من أحجار قوية ، يعتمد سقفها من الداخل  
٦ — فقه السيرة

على أهددة من الخشب الثمين . وأول من قام في بنائها أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل ، والغرض من بنائها أن تكون معبداً لله ، ومسجداً يذكر فيه اسمه وحده فإن إبراهيم لقي العناء الأليم في حرب الأصنام وهدم المعابد التي تنصب فيها ، ثم ألهمه الله أن يبنى هذا البيت ليكون أساساً للتوحيد وركناً ، ومثابة للناس وأماناً ومن البديهي أنه لا يسع القصاد جميعاً ، فالحق ما حوله به وصار حرماً مقدساً .

ومعنى ذلك أن الكعبة نفسها حجارة لا تضر ولا تنفع ، وأن الحرمه التي اكتسبتها هي من الذكربات والمعاني التي حفت بها . ولذلك أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأمين الأعراض والأموال والدماء أقدس عند الله من هذه الكعبة ، وأعظم حرمة وأكبر حقاً .

ومن الوثنية التي يعادها الإسلام — إلى آخر الدهر — الظن بأن الكعبة أو شيئاً منها له أثر من نفع أو ضرر .

وأنت خبير بأن الروساء والقادة والجنود عندما يحيون أعلام بلادهم ويتفانون دونها . فليس هذا عبادة لقطع معينة من القماش . إنما هو تقديس لمعان معينة ارتبطت بها . ومن الأمور التي يسهل فهمها أن تكون لأول مسجد في الأرض مكانة تاريخية خاصة . وأن يكون قبلة لما يستجد بعده من مساجد .

أما الوجهة في كل صلاة والمقصود في كل خشوع فهو الله وحده .

عن أبي ذر : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض . قاله : المسجد الحرام قلت : ثم أي ؟ قال للمسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاماً . ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل فإن الفضل فيه <sup>(١)</sup> .

(١) حديث صحيح . أخرجه البخاري (٣١٥/٦ - ٣١٧ ، ٢٥٩) ومسلم (٦٣/٢) والنسائي وابن ماجه والبيهقي والطحاوي وأحمد من حديث أبي ذر .



وقد تعرضت الكعبة - باعتبارها أثراً قديماً - للعوادي التي أوهت بنيانها  
وصدعت جدرانها وقبل البعثة بسنوات قلائل جرف مكة سيل عرم ، انحدر إلى  
البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فلم تر قریش بدأً من أن تجدد  
بناء الكعبة حرصاً على مكانتها .

وقد اشترك سادة قریش ورجالها الكبار في أعمال التجديد ونقل الأحجار  
بعد ما هدموا الأنقاض الواهية وشرعوا بعيدها كما كانت .

وبناءً رفيع إبراهيم وإسماعيل من قواعد قبل قرون سحيقة لا يوكل أمره  
لصغار الفعلة ، فلا غرو إذا أقبل عليه الشيوخ وأهل النهى والصدارة ، ومن بينهم  
محمد صلى الله عليه وسلم وأعمامه ..

عن عمرو بن دينار سمعت جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب  
رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس ينقلان الحجارة فقال العباس للنبي .  
اجعل أزارك على رقبتك يقيك الحجارة . ففعل - كان ذلك قبل أن يبعث - فخر  
إلى الأرض ، فطمحت عيناه إلى السماء . فقال : إزارى إزارى ، فشد عليه فما روى  
بعد عريانا ... (١) .

وتنافست القبائل في هذا المضمار ، كل يبغى الصدارة فيه والذهاب بفخره ،  
حتى كاد هذا السباق يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم . واستفحل الشر  
بين المشتغلين بالبناء عندما بدأوا يستعدون لوضع الحجر الأسود في مكانه من  
أركان الكعبة لولا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي اقترح على المتطاهنين أن يحكموا  
فيما شجر بينهم أول داخل من باب الصفا . وشاء الله أن يكون ذلك محمداً .. فلما  
رأوه هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكماً .

وطلب محمد صلى الله عليه وسلم ثوباً ، فوضع الحجر وسطه ، ثم نادى رؤساء القبائل المتنازعين ، فأمسكوا جميعاً بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة ، فحمله محمد صلوات الله وسلامه عليه ثم وضعه في مكانه العتيق (١) .

وهذا حل للحصيف رضى به القوم . ومن قبل كانت رؤيتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم مشار تيمنهم واضمثنانهم . وهذا يدل على سناء المنزلة التي بلغها فيهم .

ومع جهد قريش في بناء الكعبة فقد عجزت عن إبلاغها قواعد إبراهيم . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استقر له الأمر في الجزيرة لم يجد ضرورة لتجديد زيادة بها . وآثر تركها على ما انتهت إليه . عن عائشة قالت : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ قلت يا رسول الله ، ألا تردها إلى قواعد إبراهيم ؟ فقال : لولا حدثنان قومك بالكفر لفعلت ! قل ابن عمر ، لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما أرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم (٢) . قال العلماء : والمراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم الآنف ، قرب العهد بالجاهلية . وضعف استمكان الإيمان ، مما يجعل العرب ينفرون من هدم الكعبة وتغيير هيشها . . . ولو كانت إعادة الكعبة كما بناها إبراهيم فريضة ما تركها رسول الله . ولكن الأمر أخف من أن تثار لأجلة مشكلات عويصة .

(١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد ( ٣ / ٤٢٥ ) من حديث السائب بن عبد الله بسند حسن . ويحسن بالمؤلف أن ينقل نصه فهو أولى من نصوص كتب السيرة التي لا سند ولا خطام ؟ ثم وجدت للحديث شاهداً من حديث علي ، رواه الطيالسي في مسنده ( ٢ / ٨٦ ) ترتيب الشيخ عبد الرحمن البنا .

(٢) حديث صحيح أخرجه الشيخان في « الحج » من « صحيحهما » .



## باحثون عن الحق

قلنا إن الوثنية زين باطلها بطلاه من الحق ليسهل على النفوس ازدراد ما فيها من سرارة . فهي تزعم الإيمان بالله خالق السموات والأرض . وفي الوقت نفسه تشرك معه آلهة أخرى هي مزدلف إليه ووسيلة ولما كان خلق السموات والأرض بعيداً عن مرآى الأعين ، فقد أنس العباد المشركون بالآلهة القريبة من أيديهم والتي يترددون عليها صباحاً ومساءً ، حتى صارت صلاتهم بها أحكم من الصلاة بالإله الأصيل وأصبح ذكر هذا الإله — المتوسل إليه بغيره — لا يرد إلا في معرض الجدال والاعتذار : « ولئن سألتهم : من خلقهم ؟ ليقولنَّ الله فأنى يؤفكون ؟ » وقيل : يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، فاصفح عنهم وقل : سلام فسوف يطمنون . غير أن التعصب لهذا السخف جاوز الحدود . فأما العامة فهم بهم ، أحلاس ماتوارثوا ، فقدوا نعمة العقل الحر ، بل العقل المدرك وعاشوا يهرفون بما لا يعرفون .

وأما الذين أوتوا حظاً من التفكير ، فإن تفكيرهم يرتطم بحدود شهواتهم ، وربما كتموا ما عرفوا ، بل ربما حاربوا ما عرفوا وفلّيل من الناس من يتجراً على التقاليد المستحكمة ، ويجهز بالحق . وأقل من ذلك من يعيش له ويضحى في مبدله .

وقد وجد قبل البعثة من نظر إلى وثنية العرب نظرة استهزاء ومن عرف أن قومه يلتقون على أباطيل مفتراة ولكنه لم يجد الطريق أو الطاقة على كفهم .

أخرج البخاري<sup>(١)</sup> أن ابن عمر حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لقي

(١) وأخرجه الإمام أحمد ( رقم ٥٣٦٩ ) من حديث ابن عمر ، وقد رواه أيضاً من حديث سعيد بن زيد بن عمرو ( ١٦٤٨ ) ، وفيه زيادة منكروه : وهي تتنافى مع التوجيه الحسن الذي وجه به الحديث حضرة المؤلف وهي قوله بعد ( إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ) : قال : فما روى النبي ( من ) بعد ذلك أكل شيئاً مما ذبح على الأصبع « وعلة هذه الزيادة أنها رواية من المسمودي وكان قد اختلط ! وراوى هذا الحديث عنه =

زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل «بلدح» — وذلك قبل أن ينزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم — فقدم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها . ثم قال زيد : لاني لا آكل مما تذبحون<sup>(١)</sup> على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر عليه اسم الله عليه . وكان يعيب على قریش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض الكلاء . تذبحونها على غير اسم الله — إنكاراً لذلك .

وفي رواية أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالماً من اليهود . فسأله عن دينهم . وقال : لعل أن أدين دينكم ! فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ! ! قال زيدا أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيعه ! ! فهل تداني على غيره ؟ فقال ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم . لم يكن يهودياً ولا نصرانياً . ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى . فذكر له مثل ذلك ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ! قال : ما أفر إلا من لعنة الله . ولا أحمل من لعنة الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع ! ! . فهل تداني على غيره ؟ . فقال : لا أعلمه إلا أن تكون حنيفاً . قال : وما الحنيف ؟ فقال : دين إبراهيم عليه السلام ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد

== يزيد بن هارون ساهم منه بعد اختلاطه ، ولذلك لم يحسن صنفاً حاضرة الأسناد الشيخ أحمد محمد شاكر حيث صرح في تعليقه على السند أن إسناده صحيح . ثم صرح بعد سطور أنه إنما صححه مع اختلاطه لأنه ثبت معناه من حديث ابن عمر بسند صحيح . يعني هذا الذي في الكتاب ، وليس فيه هذه الزيادة المكرة ، فكان عليه أن ينبه عليها لكي لا يتوهم أحد أن معناها ثابت أيضاً في حديث ابن عمر .

(١) قوم زيد أن اللحم المقدم إليه من جنس ما حرم الله : ومن المقطوع به أن يت محمد صلى الله عليه وسلم لا يطعم ذبائح الأصنام ، ولكن أراد الاستيثاق لنفسه والإعلان عن مذهبه . وقد حفظ محمد له ذلك ومرو به .



إلا الله . فلما رأى زيد قوله في إبراهيم عليه السلام خرج . فلما برز رفع يديه .  
وقال : اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم عليه السلام . .

وهذا الحديث يبين مقدار الحيرة التي سادت الدنيا وغطت بضبابها الكثيف  
على الأديان الظاهرة . اليهود يشعرون بأنهم مطاردون في الأرض منبوذون من  
أقطارها ، فعلى الداخل في دينهم أن يحمل وزراً من المقت المكتوب عليهم .

والنصارى وقع بينهم شقاق رهيب في طبيعة المسيح ، ووضعه ، ووضع أمه ، من  
الإله الكبير ، وقد أثار هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة ، وقسمهم فرقاً يلعن  
بعضها بعضاً .

وكان نصارى الشام الذين سألهم زيد « يعاقبه » يخالفون المذهب الرسمي  
لكنييسة الرومان . فلا غرابة إذا أشعروا زيداً بما يقع عليه من عذاب لو دخل في  
دينهم ، أو لعل هذه اللعنة المرهوبة هي تبعات الخطيئة التي اقترفها آدم واستحقها من  
من بعده بنوه كما يدعى ذلك النصارى وهم يبررون صلب المسيح ومن حق زيد  
أن يدع هؤلاء وأولئك ، ويرجع إلى دين إبراهيم عليه السلام يبحث عن أصوله وفروعه .  
وأخرج البخارى عن أسماء بنت أبي بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل  
قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يامعشر قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم  
عليه السلام غيرى ، وكان يحيى الموءودة ، يقول للرجل — إذا أراد أن يقتل ابنته :  
أنا أ كفيك مؤنتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ،  
وإن شئت كفيك مؤنتها » (١) .

إن زيداً واحداً من المفكرين القلائل الذين سخطوا ما عليه الجاهلية ، من نكر ،  
وإنه يشكر على تحريره الحق ، ولا يغمط هو ولا غيره أقدارهم بين قومهم ، ليسكن

---

(١) حديث صحيح ، والبخارى إنما أخرجه ( ٧ / ١١٤ — ١١٥ ) معلقاً فكان  
يحسن تنبيذ المزوإليه بهذا ، وقد وصله جماعه ذكرهم الحافظ في الفتن ، وفاته أن الحاكم  
وصله أيضاً في المستدرک ( ٣ / ٤٤٠ ) : وقال : « صحيح على شرط الشيخين » .

القدر كان يتخير رجلاً يبصر الحق ، ويملك من الطاقة ما يدفعه به إلى آفاق العالمين  
في وجه مقاومة تسترخص النفس والنفيس للبقاء على الضلال والإمساك بلبيله البارد  
الثقل . . .

كان القدر بعد هذه الرسالة الضخمة رجلها الصخم والعظام كفؤها العظماء !

## في غار حراء

أخذت سن محمد صلى الله عليه وسلم تصعد نحو الأربعين . وكانت تأملاته  
للماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه ، فأمست نظرتهم إليهم نظرة عالم الفلك  
— في عصرنا — إلى جماعة يؤمنون بأن الأرض محمولة على قرن ثور ، أو نظرة عالم الذرة  
إلى جماعة يتراشقون بالحجارة إذا تحاربوا ، ويتنقلون بالمطايا إذا سافروا . . .

ذلك من الناحية الفكرية . أما من الناحية النفسية فإن الإلحاد الذي شاع في  
الجاهلية . وجعل أهلها يقسمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . هذا  
الإلحاد المفرق الطامس غزا نفوس الأخيار بالقلق البالغ . إلى أين تصير هذه القلة  
الحائرة ؟ لئن كان الوجود — أولاً وآخرًا — هذه الأعمار المستنفدة على ظهر  
الأرض .. إن الفناء خير وأجدى !

أما من بصيص نور خلال هذا الظلام المخيم ؟

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يهجر مكة كل عام ليقضى شهر رمضان في غار  
حراء وهو غار على مسافة بضعة أميال من القرية الصاخبة ، في رأس جبل من هذه  
الجبال المشرفة على مكة والتي ينقطع عندها افو الناس وحديثهم الباطل ، ويبدأ السكون  
الشامل المستغرق . . . في هذه القمة السامقة المنزوية كان محمد صلى الله عليه وسلم يأخذ  
زاد الاله إلى الطوال ثم ينقطع عن العالمين متجهًا بفؤاده المشوق إلى رب العالمين !  
. . . في هذا الغار المهيب المحجّب ، كانت نفس كبيرة تُطلُّ من عليائها على



ما تموج به الدنيا من فتن ومغارم واعتداء وانكسار ثم تملوئى حسرة وحيرة لأنها لا تدرى من ذلك مخرجاً، ولا تعرف له علاجاً!!

في هذا الغار النائي كانت عين نفاذه محصية تستعرض تراث الهداة الأولين من رسل الله، فتجده كالمنجم المعتم لا يستحاض منه للعدن النفيس إلا بعد جهد جهيد، وقد يختلط التراب بالتبر فما يستطيع بشر فصله عنه...

في غار حراء كان محمد عليه الصلاة والسلام يتعبد، ويصقل قلبه، وينقى دروحه ويقترب من الحق جهده ويبتعد عن الباطل وسعه. حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية، انعكست فيها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة، فأمسى لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.

في هذا الغار اتصل محمد صلى الله عليه وسلم بالملأ الأعلى.

ومن قبله شهد بطن الصحراء أخاً لمحمد عليه الصلاة والسلام يخرج من مصر غاراً متوحشاً، ويجتاز القفار متمسكاً بالأمن والسكينة والهدى، لنفسه وقومه، فبرقت له من شاطئ الوادي الأيمن نار مؤنسة، فلما تيممها إذا النداء الأقدس يغمر مسامعه ويتخلل مشاعره:

« يا موسى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، وأقم الصلاة لذكري ».

إن شعلة من هذه النار اجتازت القرون لتتقدم مرة أخرى في جوانب الغار الذي حوى رجلاً يتحنث ويتطهر — نائياً بجسمه وروحه — عن أرجاس الجاهلية ومساوئها، لكن الشعلة لم تكن ناراً تستدرج الناظر بل كانت نوراً ينبسط بين يدي وحى مبارك يسطم على القلب العاني، بالإلهام والهداية، والتثبيت والتمنية، فإذا محمد صلى الله عليه وسلم يصغى في دهشة وانبهار إلى صوت الملك يقول له:

« اقرأ... ». فيجيب مستفسراً: « ما أنا بقارىء »، ويتكرر الطلب والرد لتنساب

بعده الآيات الأولى من القرآن العزيز : «اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم» (١) .

## ورقة بن نوفل

إن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر مثلنا ، لكن الوجود لا يعرف تفاوتاً بين أفراد جنس واحد كما يعرف ذلك في جنس الإنسان . إن بعضهم أرقى من الأفلاك الزاهرة ! وبعضهم الآخر لا يساوى بعرة ... وإن كان الكل بشراً !!  
وذاك التفاوت واقع بين من لم يؤيدوا بوحي . فكيف إذا اصطفيَ إنسان ما . وزيدت أطوار كماله المعتاد طوراً آخر تومض فيه أشعة التسديد والتوفيق والإرشاد والإمداد ؟؟

«يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، أَنْ أَنْذِرُوا ، أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » ...

إن الجنين بعد نفخ الروح فيه ينشئه الله خلقاً آخر ، يغيّر الأطوار الستة الأولى التي مرّ بها ، سلالة الطين ، فالنطفة ، فالعلقة ، فالمضغة ، فالعظام ، فالجسم المكسو باللحم ... !!

والأنبياء بعد اتصال الوحي بهم وسريان روحه الجديدة في أرواحهم يتحولون بشراً آخرين ، لا يدانيهم غيرهم أيداً في مجادة وإشراق .

وهذا التغير الملحوظ سرّ تذكير الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالقدرة التي خلقت الإنسان من علق ، إن القدرة التي خاقت هذا الإنسان المجيب من علقه طفيلية ، هي التي ستدساق بنعمة الله إلى جعل محمد بشراً رسولاً ، يقرأ بعدما كان

---

(١) حديث صحيح سيأتي تخريجاً قريباً .



أُمِّيَا » وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي  
مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ،  
وَأَنَّا نَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ  
وَمَا فِي الْأَرْضِ .

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا  
الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه  
الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه — وهو التعبد — الليالي ذوات العدد  
قبل أن يرجع إلى أهله يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه  
الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : « اقرأ » ، قال : « ما أنا بقارىء » ، قال :  
فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ » ، قلت : « ما أنا بقارىء » ،  
فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ » ، قلت : « ما أنا  
بقارىء » ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ باسم  
ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق ... » الخ .

فرجع بها رسول الله ترجف بوادره ! حتى دخل على خديجة بنت خويلد ،  
فقال : « زملوني ، زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة : « أرى خديجة ،  
مالى ؟ وأخبرها الخبر ! ثم قال : لقد خشيت على نفسي ... »

قالت له خديجة : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم  
وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتأمين  
على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل — وهو ابن عم خديجة —  
وكان امراً أتصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل  
بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له  
خديجة : « أرى ما ترى ؟ » فقال له ورقة : « يا ابن أخي ما ترى ؟ »

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، ياليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . وإن يدركني يومك حيا أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي <sup>(١)</sup> .

سكان الأربعين عاماً السابقة يوم واحد ، وبدأ الوحي صبيحة يوم جديد !!  
إن العقل الجوّاب للباحث المستفسر أخذ يشيم أنوار الحق .

والصدر المخرج المثلث بالتشاؤم والارتباك أخذ يحسُّ برد اليقين وفسحة الأمل  
والقلّة الطارئة بعيدة المدى ... إنها النبوة .

ألا ما أجل هذا الفضل المقبل ، وما أعظم ما يواجه محمداً فيه من شئون  
وشجون ... !!

لذلك سرعان ما تراجعته إليه نفسه ، وكان موقف زوجته خديجة منه من أنصرف  
المواقف التي تحمد لامرأة في الأولين والآخرين ، طمأنته حين قلق ، وأراحته حين  
جهد ، وذكرته بما فيه فضائل مؤكدة له : أن الأبرار أمثاله لا يخذلون أبداً ، وأن  
الله إذا طبع رجلاً على المسكارم الجزلة والمناقب السمحة فلـ كما يجعله أهل إعزازه  
وإحسانه ، وبهذا الرأي الراجح والقلب الصالح استحققت خديجة أن يحيطها رب  
العالمين ، فيرسل إليها بالسلام مع الروح الأمين <sup>(٢)</sup> ...

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (١٨/١ - ٢٣) ومسلم (٩٧/١ - ٩٨) من حديثها  
(٢) ينشر المؤلف إلى الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال : أتى جبريل النبي صلى الله  
عليه وسلم فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ،  
فاذا هي أنتك فاقراً عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببیت فی الجنة من قصب لاصخب  
فيه ولا نصب . أخرجه البخاري (٧ - ١٠٩) ومسلم (١٣٣/٧) .



(٣)

جَهَادُ الدَّعْوَةِ

تقلصت ظلال الخيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف محمد عليه الصلاة والسلام معرفة اليقين أنه أضحى نبياً لله الكبير المتعال ، وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء ... ! إلا أن الروعة التي انتابته من هذه الصلة بين إنسان وملك ، تركت في نفسه أثراً من الجهد ، كأنما كان يعالج عملاً مرهقاً صعباً .

ولاعجب فقد ظل يعاني من التنزيل شدة ، أمداً طويلاً وشاء الله أن يفتر الوحي بعد ابتدائه على الدحو الذي أسلفنا حتى يكون تشرف الرسول صلى الله عليه وسلم وارتقابه لمحيطه سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود ، ومع ذلك ، فإن الطاقة البشرية ناءت أمام وطأته .

جاء جبريل عليه السلام للمرة الثانية ، قال جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحي : فقال لي في حديثه : فيينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض ، ففرغت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجيئت إلى أهلي ، فقلت . زملوني زملوني ، فذروني ...

فأنزل الله عز وجل « يا أيها المدثر \* قم فأنذر \* وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ \* وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ \* وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ... » (١) .

كانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة إيذاناً بالرسول صلى الله عليه وسلم بأن الماضي قد انتهى بمنامه وهذوئه وسلامه ، وأنه أمام عمل جديد يستدعي اليقظة والتشهير ، والإنذار والإعذار ، فليحمل الرسالة وليوجه الناس . وليأنس بالوحي . وليلقو على عنائه ، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

والوحي إلهام ينضح على القلب بمراد الله في صورة واضحة لا تحتمل الريبة



وله مراتب شتى بعضها أيسر من بعض . فعن عمر : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي ، يسمع عند وجهه كدوى النحل <sup>(١)</sup> » .

وكان أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس — وكان أشده عليه — فيلبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد <sup>(٢)</sup> ، وحتى أن راحلته لتترك به على الأرض إذا كان راكبها <sup>(٣)</sup> ، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه إلى فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها <sup>(٤)</sup> . وقد يأتي أيسر من ذلك وأخف .

وربما قيل : لما كانت أوائل الوحي بهذه المثابة من الشدة ؟ ولماذا لم يبدأ نزول القرآن إلهاماً في منام . أو إلهاماً في يقظة على نحو ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا

(١) حديث ضعيف ، أخرجه الترمذي (١٥١/٢-١٥٢) وذكر أن في سنده اختلافاً . ومداره على يونس بن سليم ، رواه عنه عبد الرزاق ، ويونس هذا مجهول ومن طريقه أخرجه أحمد (رقم ٢٢٣) والحاكم (١/٥٣٥ و ٢/٢٩٢) والنسائي « كما نقلوا عنه ، وقال : هذا حديث منكر لا نعلم أحداً رواه غير يونس . ويونس لا نعرفه » وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » وهذا من تسامله ، وأما الذهبي فتناقض فإنه في اللوضع الأول وافق الحاكم على تصحيحه ، واغتر بذلك الشيخ أحمد شاكر ، وأما في اللوضع الآخر فقد تعقبه بقوله : « قلت : سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا ، فقال أظنه لا شيء » وفي الميزان أقر النسائي على قوله : « هذا حديث منكر » وتوثيق ابن حبان لابن سليم هذا ، مما لا يعتد به ، لاسيما وتلميذه عبد الرزاق أدري به من ابن حبان .

(٢) روى معنى هذا البخاري (١٤/١-١٧) من حديث عائشة .

(٣) أخرج معناه — أحمد والحاكم (٥٠٥/٢) من حديث عائشة ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي وهو كما قال ، وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد عند أحمد (٤٥٥/٦) وآخر عند (رقم ٦٦٤٣) من حديث ابن عمرو .

(٤) أخرجه البخاري (١٨٢/٥) من حديث زيد بن ثابت .

الله وأجلوا في الطلب ... » (١) أو ليس هذا أبعد عن دواعي الفزع والإعياء؟؟؟.

والجواب أن نزول القرآن اتخذ هذه الطريقة أول الأمر ، ونزل الملك به في

هذا المظهر (٢) قطعاً لكل شبهة في أنه ألقاظاً ومعاني — من عند الله « وأن محمداً

حمله تحميلاً بعد أن اصطفى له واختص به ، فهو ليس افتعال عابداً منقطع تخيل فحال ،

ولاصناعة فيلسوف ماهر يجيد سوق الأدلة وتنسيق المقال ، إنما هو كلام الأحاد الحق

الكبير المتعال ، « إن هو إلا وحي مني يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة ،

فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى .

فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب القواد ما رأى ، أفتأرونه على ما يرى « : ١٠ »

## إلام يدعو الناس

مرع محمد صلى الله عليه وسلم يكلم الناس في الإسلام ويعرض عليهم الأخذ  
بهذا الدين الذي أرسله الله به .

وسور القرآن الذي نزل بمكة تبين العقائد والأعمال التي كلف الله بها عباده .  
وأوصى رسوله أن يتعهد قيامها ونماؤها ، وأول ذلك :

(١) حديث صحيح جاء من طرق . الأول عن ابن مسعود أخرجه الحاكم ( ٤/٢ ) .  
والثاني : عن ابن أبي أمامة . أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في « حلية الأولياء »  
٧ ( ١٠٠/١٢٧ ) .

الثالث : عن حذيفة أخرجه البزار كما في الترغيب ( ٧/٣ ) والهيثمى في مجمع الزوائد .  
( ٧١-٤ ) فهذه طرق يتقوى بعضها بعضاً . ولهذا — والله أعلم — جزم ابن القيم في « زاد  
المعاد » بنسبة الحديث لإله صلى الله عليه وسلم .

(٢) إن اتصال الأبدان بعالم الغيب يرهق الطبيعة البشرية : واعتبر — لذلك بما يأنس به  
الوسطاء مثلاً في حالات التنويم للفنطازي مع بعد الفارق .



١ — الوحدانية المطلقة : فالإنسان ليس عبداً لسكان في الأرض أو عنصر في السماء ، لأن كل شيء في السماء والأرض عبد لله ، يعنو لجلاله ويذل في ساحته ويخضع لحكمه وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه رأساً غير مستصحب معه خلقاً آخر . كبر أو حقر . وحق على كل امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زاني ، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المحدود إن كانوا بشراً أو حجارة أو ماسوى ذلك ، ويجب أن تبنى جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة . ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التي يعبدها العرب أصبحت لا تزيد عن الحجارة التي تبنى بها البيوت أو ترصف بها الطرق ، وأن البشر الذين ألّهُوا في ديابات أخرى صحت أوضاعهم . فعرفوا على أنهم عبيد لمن خلقهم ورزقهم ، يتقدمون عنده بالطاعة ، ويتأخرون بالمعصية . ولا شأن لهم في خلق أو رزق .

٢ — الدار الآخرة : فهناك يوم لاشك في قدومه ، يلقى الناس فيه ربهم فيحاسبهم حساباً دقيقاً على حياتهم الأولى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » : فإما نعيم ضاحك يمرح فيه الأخيار ويستريحون وإما جحيم مشثومة ، يشقى فيها الأشرار ويكتئبون . . .

والنظر إلى الدار الآخرة في كل عمل يأتيه المرء أو يذره من أصول السلوك الصحيح في الإسلام . فكما أن راكب القطار موقن بأنه سينزل في محط قادم فكذلك المسلم يعلم أن الأيام الجارية به مستقف — حتماً — لترده إلى مولاه ، حيث يلقى جزاء العمر ، ويجنى ما غرس يداه ..

٣ — تزكية النفس : وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل وترك أمور أخرى حذراً من مغبتها :

قل : « تعالوا أتله ما حرّم ربكم عايكم . ألا تشرکوا به شيئاً . وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقرّبوا الفواحش

ماظهر منها وما بطنَ ولا تقتلوا النفسَ التي حَرَّمَ الله إلا بالحق . ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قرْبى وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون .

قال أكرم بن صيفى : « أن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام لو لم يكن ديناً لكان فى أخلاق الناس حسناً » .

٤ — حفظ كيان الجماعة المسلمة : « باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون . وذلك يقتضى نصر المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف . وفى سورة « المدثر » — وهى أول سورة أمر رسول فيها بالبلاغ — تقرأ قول الله تبارك وتعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة \* إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون \* عن المجرمين \* ما سلككم فى سقر ؟ \* قالوا لم نك من المصلّين \* ولم نك نطعم المسكين \* وكنا نخوضُ مع الخائضين \* وكنا نكذبُ يوم الدين \* حتى أنا اليقين \* ... فماتنفعهم شفاعَةُ الشافعين » .

وكان أبوبكر لا يرى مستضعفاً يعذب من المسلمين ، إلا بذل جهده وماله فى سبيل فكِّ إيساره وإنقاذه مما به . وذلك حق الفرد على الجماعة .

## الرعى الأول

أخذت الدعاية للإسلام تنتشر فى مكة وتعمل عمالها فى أصحاب الأئمة الكبيرة فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولى ويخفون إلى اعتناق الدين الجديد وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التى استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الخصبة « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .



كان أصحاب العقائد يجمعون - في تودة - حول عقائدهم ، ويلتفون - في حب وإعجاب - حول إمامهم ، ويشرحون في حذر - أصول فكرتهم .  
والإيمان قوة ساحرة ، إذا استمكنت من شباب القلب وتغلغل في أعماقه  
تلكاد تجعل المستحيل ممكناً .

ولقد رأينا شباباً وشيوخاً يلتفون عند فكرة من الفكر . ويحملونها من أنفسهم محل العقيدة الراسخة . ومع أنها فكر مادية بحتة . إلا أنهم يعملون من حياتهم وقود حركتها ، ويتحملون الأذى في سبيل نصرتها .  
وفي السجون - الآن - رجالاً تخرجوا من جامعات الغرب ، يقضون شطراً من أعمارهم مع القتلة وتجار المخدرات ... !

ويرون ذلك بعض الجهد الواجب لإنجاح مبادئهم ودفنها إلى الأمام . فكيف إذا كان الإيمان الذي ظهر في صدر الإسلام إيماناً بالله رب السماوات والأرض ، وإيماناً بالدار الآخرة حيث ينفلت الإنسان من هذه الدنيا لتستقبله في جوار الله ، الحقائق العناء . والقصور الزهر ، من تحتها الأنهار الجارية والنعيم المقيم ؟ ... إن الرعيل الأول يتكون ويتزايد على الأيام .

ومن الطبيعي أن يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم - أولاً - الإسلام على الصق الناس به من آل بيته وأصدقائه . وهؤلاء لم تحتاجهم ريبة قط في عظمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وجلال نفسه وصدق خبره ، فلا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتباعه .

آمنت به زوجته « خديجة » ومولاه « زيد بن ثابت » ، وابن عمه « علي بن أبي طالب » - وكان صبياً يحيا في كفة الرسول صلى الله عليه وسلم - وصديقه الحميم أبو بكر ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام فأدخل فيه أهل ثقته ومودته : عثمان بن عفان . وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص . وآمن القس ورقة بن نوفل

وقد روى<sup>(١)</sup> أن الرسول صلى الله عليه وسلم رآه في المنام — بعد مماته —  
 في هيئة حسنة تشهد بكرامته عند الله . وأسلم الزبير بن العوام ، وأبوذر الغفاري ،  
 وعمر ابن عنبسة ، وسعيد بن العاص ، وفشا الإسلام في مكة بين من نور الله قلوبهم .  
مع أن الإعلام به كان يقع في استخفاء ، ودون مظاهرة من النخمس المكشوف  
أو التحدثى السافر ...

وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما . ولعلها حسبت محمداً عليه  
 الصلاة والسلام أحد أوائك الديانين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها كما صنع  
 أمية بن الصلت ، وقس بن ساعدة . وعمر بن نفيل وأشباههم . إلا أنها توجست  
 خيفة من ذبوع خبره ، وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته .  
 واستمر هذا هذا التطور السري للدعوة ثلاث سنين ، ثم نزل الوحي بكلف  
 الرسول صلى الله عليه وسلم بحملته قومه . ومجابهة باطلهم ، لمهاجمة أصنامهم جهاراً .

## إظهار الدعوة

قال ابن عباس رضي الله عنهما ، لما نزلت الآية « وأنذر عشيرتك الأقرين »  
 صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي : « يا بني فهر ، يا بني عدي —  
 لبطون قريش — حتى اجتمعوا ، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا

(١) هذا حديث حسن فتصديقه بصيغة ( روى ) غير حسن ، لأنه يشير إلى تضعيفه .  
 وليس بضعيف فقد جاء من طريقين حسنيهما الحفظ بن كثير في البداية : ( ٣ / ٤ ) أخرج  
 أحدهما أحمد من حديث عائشة ، والآخر أبو يعلى من حديث جابر ، فلا أقل من كون  
 الحديث حسناً بمجموع الطريقين ، وبشهادة قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا ورقة  
 فاني رأيت له جنة أو جنتين » أخرجه البزار والحاكم ( ٤٠٩ / ٢ ) وابن عساكر من  
 حديث مائشة أيضاً ، وقال الحاكم « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي « وهو كما  
 قالا ، وقال ابن كثير : « وإسناده جيد » .



لينظر : ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد !! « فقال أبو لهب : تبّاً لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ! فنزل قوله تعالى : « تبّت يدا أبي لهب وتب ... » (١) .

وعن أبي هريرة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه « وأنذر عشيرتك الأقرين » فقال : « يامعشر قريش ، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً » (٢) .

هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ . فقد فاصل الرسول عليه الصلاة والسلام قومه على دعوته ، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآني من عند الله .

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام كبير المنزلة في بلده مرموقاً بالثقة والمحبة ، وها هو ذا يواجه مكة بما تذكره . ويتعرض لخصام السفهاء والكبراء . وأول قوم يغامر بخسران مودتهم ، هم عشيرته الأقربون . لكن هذه الآلام تهون في سبيل الحق الذي شرح الله به صدره . فلا عليه أن يبیت بعد هذا الإنذار . ومكة تموج

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري « ٤٠٠/٨ - ٤٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ » ومسلم « ١٣٤/١ » .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري : « ٤٠٨/٨ » ومسلم « ١٣٤/١ » من طريقين عن أبي هريرة .

بالغربة والاستنكار . وتستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة ، ويحتش أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها .

وبدأت قریش تسير في طريقها ، طريق اللد . ومجانبة الصواب . ومضى محمد صلى الله عليه وسلم كذلك في طريقه ، يدعو إلى الله . ويتلطف في عرض الإسلام ويكشف القاب عن مخازي الوثنية ، ويسمع ويحجب ، ويهاجم ويدافع ... غير أن حرصه على هداية آله الأقرين جعله يجدد مسعاه محاولا عرض الإسلام عليهم مرة أخرى ، فإن منزلتهم الكبيرة في العرب تجعل كسبهم عظيم النتائج .

وهم - قبل ذلك - أهله الذين بوّدهم الخير ، ويكره لهم الوقوع في مساخط الله وروى ابن الأثير : قال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم <sup>(١)</sup> : لما أنزل الله على رسوله « وأنذر عشيرتك الأقرين » اشتد ذلك عليه ، وضاق به ذرها فجلس في بيته كالمریض ، فأتته عماته يعدنه فقال . ما اشتكيت شيئا . ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي . فقلن له : فادعهم ، ولا تدع أبألهب فيهم ، فإنه غير مجيبك . فدعاهم فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلا ، فبادره أبو لهب وقال : « هؤلاء هم عمومك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة » واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ! وأنا أحق من أخذك ! فحسبك بنو أبيك . وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشب بك بطون قریش ، وتمدهم العرب فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به .

فسكت رسول الله ولم يتكلم في ذلك المجلس . ثم دعاهم ثانية . وقال : « الحمد لله أحده وأستعينه . وأومن به وأتوكل عليه . واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله . والله الذي لا إله إلا هو ، إني رسول الله

(١) لم أجد في الرواة هذا الراوى وإنما فيهم ؟ « جعفر بن عبد الله بن الحكم » وهو أنصاري دوسي تابعي صغير يروى عن أنس والتابعين ، فإذا كان هو هذا ، فالإسناد مرسل ضعيف ، وام أقب على إسناده إليه وإن كان غيره فلم أعرفه ،



إليكم خاصة وإلى الناس عامة . والله لتوتن كما تنامون . واتبعن كما تستيقظون  
ولتحاسبن بما تعملون وإنها للجنة أبدأ . أو النار أبدأ .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك . وأقبلنا لنصيحتك . وأشد تصديقنا  
لحديثك !! وهؤلاء بنو أيبك مجتمعون . وإنما أنا أحدهم . غير أني أمرهم إلى  
ما تحب فامض لما أمرت به .

فو الله لأزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين  
عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة !!! خذوا على يديه قبل أن يأخذكم غيركم .  
فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا .

## أبو طالب

إن أبا طالب برغم بقاءه على الشرك واستمسكه بدين الآباء - ظل حتى  
العاطفة ظاهر الحذب على ابن أخيه . وهو مدرك كل الإدراك ما سوف تجره هذه  
الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته ، بيد أن إعزازه لمحمد وتأذيه من مواجهته بما  
يكره حملاه على ضمان الحرية له . بل على التعهد بحمايته وهر يباع عن ربه !!  
وأبو طالب من رجال مكة المعدودين . كان معظماً في أهله . معظماً بين  
الناس فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته . وكان بقاؤه مع أهل مكة  
— محترماً للأوثان — من أسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه ...

أما أبو لهب فصورة لأرباب الأسر المتهاككين على مصالحهم وسمعتهم من  
غير نظر إلى حق أو باطل . فأى عمل يعرض مصالحه للبوارج ، أو يخذل ماله  
من منزلة يهيج ثأثرته ، ويدفعه لاقتراف الحماقات ... ؟

وفي طبيعته إلى لهب قسوة تعريه باقتراف الدنيا . كان ابنائوه متزوجين ببنات  
محمد صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم بفراقهن . فطلق عتبة وعتيبة ، رقية ، وأم كلثوم ..  
ولعل أبا لهب كان متأثراً في هذه البغضاء المتنزعة بزوجه أم جميل بنت حرب

أخت أبي سفيان . وهي امرأة سليطة . توزُّها على كراهية محمد ودينه عللٌ شتى  
ولذلك بسطت فيه لسانها . وأطالت عليه الافتراء والدس !

وإذا كانت أهواء الجاهلية تدفع عم محمد صلى الله عليه وسلم إلى الأغلاظ معه  
على هذا النحو الوضيع . فكيف يكون مسلك الأباعد الذين يتمنون العثار للسليم  
والتهمة للبريء ؟

\* \* \*

ولكن ما أبو لهب ؟ وما قریش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ يا زاء رجل  
يحمل رسالة من الله الذي له ملك السموات والأرض يريد أن يعيدها إلى الرشد  
لعالم فقد رشده ، وأن يحجوها إلى الأوهام ، في حياة سرغتها الأوهام في الرغام .  
ما تجدى وقفه جهول ؟ أو غصبة مغرور ؟ في منع هذه الرسالة الكبيرة من المضي  
إلى هدنها البعيد .

إن الطحالب العائمة لا تقف السفن الماخرة . ولئن نقم الجاهليون على المسلمين  
مروفتهم من بين قومهم بهذه الدعوة - حتى ليسمونهم الصباة - فإن المسلمين لأشد  
فخمة عليهم « أن سفهوا أنفسهم ، وحقروا عقولهم . وتشبهوا بخرافات ما أنزل الله  
بها من سلطان .

إن الدعوة التي بدأ بها محمد صلى الله عليه وسلم من بطن مكة لم تكن لبناء  
وطن صغير بل كانت إنشاءً جديداً لأجيال وأمم تظل تتوارث الحق وتدفع به  
في رحاب الأرض إلى أن تنتهي من فوق ظهر الأرض قصه الحياة والأحياء .

فماذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها ؟

ومن أولئك الخصوم ؟

« . . متعصبون تحجرت عقولهم . يزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم » وإذا  
تقلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجود الذين كفروا المنكر . يكادون يسطمون  
بالذين يتلون عليهم آياتنا . . . » ١١



• .. أم مترفون سررتهم ثروتهم يحبون الباطل لأنه على أرائك وثيرة ، ويكرهون الحق لأنه عاطل عن الحلى والمتاع » وإذ تُتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا : أيُّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ؟ !!

• .. أم متعنتون يحسبون هداية الرحمن عبث صبية ، أو أزياء غانية فهم يقولون : دع هذا وهات هذا » وإذ تُتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا : أنت بقرآن غير هذا أو بدله .. !!

• .. أو مهرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عند ما تقرأ الآيات ، حتى لا تسمع فتفهم فتترك أثراً في عقل تقى وقلب طيب » وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » !!

لو أن أهل مكة ترددوا في تصديق محمد صلى الله عليه وسلم حتى يبحثوا أمره ويحصوا رسالته ، ويزنوا — على مهل — مآلدهم وما جاء به ، لما علمهم على هذا عاقل . ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعد ما انكشفت جريمته وثبتت إدانته .

وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا الإعراض المقرون بالتكذيب والتحدى . ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم إذا ألقى نفسه مكذباً مهجوراً .

إلا أن الله واسمه ، فأبان له بواطن أرائك المكذبين للمتألمين » قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون .

إن المعتوه إذا اعترض طريقك ووقع في عرضك بلسان حاد ، سمعت من يقول لك : هذا لا يقصد المدوان عليك واسكنه يستجيب لنوازع الجنون في دمه . وكذلك أولئك المشركون ، إن فظاظتهم وإنكارهم تمس مع دواعي الجحود في طباعهم

قبل أن تكون انتقاصاً للرجل الذي يحدثهم أو طعنًا في خلقه «... وإنهم لا يكذبونك  
ولكن الظالمين بآيات الله يمجّدون » .

ومن ثم فعلى محمد صلى الله عليه وسلم أن يمضى في سبيل البلاغ ، وأن يجتاز  
ما يلقى أمامه من صعاب وعقاب . وعلى المؤمنين برسالة أن يثبتوا ، وليس ثباتهم  
لمصلحتهم الخاصة فقط ولا حق الإيمان عليهم وكفى . بل هو لمصلحة الأجيال المقبلة .  
إن البنيان الشامخ الذي لا يرتكز على سطح الأرض إنما يرتكز على دعائم  
غائرة في الثرى . وهي التي تحمل ثقله وترفع عمده وقد كان أصحاب محمد صلى الله  
عليه وسلم الأول — بصلابة يقينهم وروعة استمساكهم — دعائم رسالته وأصول  
امتدادها من بعد ، في المشارق والمغارب .

## الاضطهاد

قرر المشركون ألا يألوا جهداً في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه —  
والتعرض لهم بألوان السكال والإيلام . ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله ،  
وعان قومه بضلال ورثوه عن آبائهم . انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت  
عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثأرين فزلت الأرض من تحت أقدامهم ،  
واستباح في الحرم الآمن دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعلت مقامهم تحملاً  
للضيم وتوقفاً للويل ...

وصاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير قصد بها تخذيل  
المسلمين وتوهين قواهم المعنوية ، فرمى النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته بهم هازلة  
وشتائم سفينة . وتآلفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله . على نحو ما تفعل  
الصحافة المعارضة عند ما تنشر عن الخصوم نكتاً لاذعة وصوراً مضحكة للحط من  
مكانتهم لدى الجماهير .



وبهذين اللونين من العداوة وقع المسلمون بين شقي الرحى .  
فرسولهم ينادى بالجنون « وقالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر ، إنك لمجنون » .  
ويوصم بالسحر والكذب « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون :  
هذا ساحر كذاب » .

وَيُشِيعُ وَيُسْتَقْبَلُ بِنظَرَاتٍ مَلْتَمَةٍ ذَمَّةٍ وَعَوَاطِفٍ مَنفَعَةٍ هَائِجَةٍ « وَإِنْ يَكَادُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَزْلِقُوا نَفْسَهُمْ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ . وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ » .  
وليس حظ سائر المسلمين بأفضل من هذه المعاملة ، فهم - في غدوهم ورواحهم -  
محل التندر واللمز « إِنْ الَّذِينَ أُجْرُمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ » .  
وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ \* وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ \* وَإِذَا  
رَأَوْهُمْ قَالُوا : إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ \* وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ » .  
وانقلبت هذه الحرب إلى تكييل وسفك دم بالنسبة إلى المستضعفين من  
المؤمنين فمن ليست له عصبية تدفع عنه لا يعصمه من الهوان والقتل شيء . بل  
يحبس على الآلام حتى يكفر أو يموت أو يسقط إعياء .

### عمار بن ياسر

من هؤلاء عمار بن ياسر ، وهو من السابقين الأولين في الإسلام ، وكان ولي  
ابن مخزوم . أسلم وأبوه وأمه ، فكان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حيت  
الرمضاء فيعذبونهم بحرًا ، وصر بهم النبي عليه الصلاة والسلام وهم يمدّون . فقال  
صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة <sup>(١)</sup> فمات ياسر في العذاب . وأغلظت امرأته

(١) حديث حسن صحيح . رواه ابن إسحاق في السيرة ( ٢٥٣/١ ) بلاغا . ووصله الحاكم  
( ٣٨٨-٣٨٩ ) والطبراني في الأوسط كما في « المجموع » ( ٢٩٣/٩ ) عن جابر بن  
عبد الله . وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » وواقه الذهبي . وأخرجه أبو أحمد

« سُمِّيَتْ » الفول لأبي جهل فطمئنها في قبيلتها بحربة في يديه ، فماتت . وهي أول شهيد في الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحرق تارة ، وبوضع الصخر على صدره أخرى ، وبالتغريق أخرى ، وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمداً صلى الله عليه وسلم أو تقول في اللات والى خيراً ففعل ، فتركوه فأبى النبي صلى الله عليه وسلم يبكي فقال : ما وراءك ؟ قال : شر يا رسول الله ، كان الأمر كذا وكذا . قال : فكيف تجد قلبك ؟ قال : أجده مطمئناً بالإيمان . فقال : يا عمار إن عادوا فعد . فأزل الله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » (١) وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

== الحاكم كما في ( الإصابة ) من طريق عقيل عن الزهري عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه . وهذا سند صحيح من مراسيل الصحابة وهي مقبولة عند العلماء وأخرجه أحمد ( رقم ٤٣٩ ) وأبو نعيم في الحلية ( ١ - ١٤ ) عن عثمان بن عفان ورجاله ثقات إلا أنه منقطع كما قال الحافظ . فهذه طرق تشهد لصحة الحديث .

(١) في ثبوت هذا السياق نظر . وعلته الارسال أخرجه ابن جرير في تفسيره ( ١٢ - ١١٣ ) وأبو نعيم ( ٩ - ٤٠ ) وأبو بكر الجصاص في ( أحكام القرآن ) ( ٣ - ٢٣٦ ) من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر . قال : أخذ للشركون عماراً فلم يتركوه حتى سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخبر . الحديث . وأخرجه الحاكم ( ٢ - ٣٥٧ ) عن أبي عبيدة هذا عن أبيه . ثم قال : ( صحيح على شرط الشيخين ) ووافقه الذهبي . كذا قالوا . وقد كنت قديماً اغتررت بقولها ، والآن تبين لي خطؤها إذ أن الجماعة رووه عن أبي عبيدة . وهب أن قوله : ( عن أبيه ) ( صحيح ) فأبوه تميم وليس بصحابي فالحديث مرسل لأن لم يكن معضلاً . ثم إن أبا عبيدة وأباه لم يخرج لهما الشيخان شيئاً . بل إن الأول قال فيه ابن أبي حاتم ( ٤ / ٢ - ٤٠٥ ) عن أبيه : ( منكر الحديث ) ووافقه ابن معين وغيره . فأني للحديث الصحة ؟ بانه على شرطهما !

نعم إنما يصح منه نزول الآية في عمار لمجيء ذلك من طرق سابقها ابن جرير . والله أعلم .



## بلال

ومن هؤلاء « بلال بن رباح » كان سيده أمية بن خلف — إذا حميت الشمس وقت الظهيرة — يقلبه على الرمال الملمبة ظمراً لبطن ، ويأمر بالصخرة الجسيمة فتلقى على صدره ثم يقول له . لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فما يزيد بلال عن ترديد : أحد أحد . . .

## خباب

ولما اشتد ضراوة قریش بالمستضعفين ذهب أحدهم — خباب بن الارت — إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنجد به ، قال خباب . شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا . ألا تستنصر لنا . ألا تدعو لنا ؟؟ فقال . « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصد ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله وللدثب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » .

. . .

ماذا عسى يفعل محمد صلى الله عليه وسلم لأولئك البائسين ؟ إنه لا يستطيع أن يبسط حمايته على أحد منهم ، لأنه لا يملك من القوة ما يدفع به عن نفسه ، وقد كان في صلاته يرمى عليه — وهو ساجد — بكرش الجزور أو رحم الشاة المذبوحة ، وكانت الأنجاس تلقى أمام بيته ، فلا يملك إلا الصبر .

إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم يجمع أصحابه على منعم عاجل أو آجل ، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين ، فأبصرت الحق الذي حجببت عنه دهرأ ، ومسح

الران عن القلوب ، نهفت اليقين الذي فطرت عليه وحرمتها الجاهلية منه ، إنه وصل البشر بربهم فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق ، وكانوا — قبلًا — حيارى محسورين ، إنه وازن للناس بين الخلود والقناء ، فأثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة ، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم . فازدروا الأوثان المنحوتة ، وتوجهوا للذي فطر السموات والأرض .

حسب محمد صلى الله عليه وسلم أن قدم هذا الخير الجزيل ، وحسب أصحابه أن ساقته العناية لهم ، فاذا أودوا فليحتسبوا ، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليسلموا ما عرفوا ، والحرب القائمة بين الكفران والإيمان سينجلي غبارها يوماً ما ، ثم تتكشف عن شهداء وعن هلكى ، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين باذن الله ، « وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكاتمتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبدوه وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبت عناصر الثقة في قلوب رجاله ، ويفيض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام ، وانتشار مبادئه ، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشرق والمغرب وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضعفهم ، كان الأسود بن المطلب وجلساؤه .

... إذا رأوا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام — يتغامزون بهم ويقولون :

قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون — غدا — على ملك كسرى وقيصر ،

ثم يصفرون ويصفقون .



وتواصى المشركون بعد مصادرة الدعوة بهذا الأسلوب أن يمنعوا الوافدين إلى مكة من الاستماع إليها ، قال الوليد بن المغيرة لرجال قريش : إن الناس يأتونكم



أيام الحج فيسألونكم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فتختلف فيه أقوالكم ، يقول هذا : ساحر ، ويقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه : ساحر ، لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته ، وقد اقتسم هؤلاء المتآمرون مداخل مكة أيام الموسم ، يحذرون الناس من الداعية الخارج على قومه ، وينعتونه بما تواصوا به من سحر مفرق !

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الحجيج في مجامعهم ، ويحدثهم عن الإسلام ، ويطلب منهم النصرة .

عن جابر بن عبد الله كان رسول الله يعرض نفسه بالموقف فيقول : « أأراجل يحملني إلى قومه ! فإن قریشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي » (١) .

## مفاوضات

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ، ونيابهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعى الله ، وظنوا أن وسائل السخرية والنهك التي جنحوا إليها ستهدى قوى المسلمين المعنوية فيتوارون خجلاً من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم ، غير أن ظنونهم سقطت جميعاً ، فإن أحداً من المسلمين لم يرتد عن الحق الذى شرفه الله به ، بل كان المسلمون يتزايدون ؟ ولم تفلح طرق الاستهزاء فى الاصد عن سبيل الله أو تشويه معالمها ، إنها زادت شعور المسلمين بما تزخر به الوثنية من معرّات ومخاز تستحق الفضيحة والاستئصال ، ماتصنع سخرية الجهول بالعالم

حديث صحيح أخرجه أبو داود ( ٢ / ٢٧٨ ) والترمذى ( ٤ / ٥٧ ) وابن ماجه ( ١ / ٧٨ ) بإسناد صحيح عنه وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ، وأخرجه الحاكم ( ٢ / ٦١٢ - ٦١٣ ) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي .

« إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ .. »

رأت قريش أن تجرب أسلوا آخر ، تجمع فيه بين الترغيب والترهيب ،  
فلترسل إلى محمد صلى الله عليه وسلم تعرض عليه من الدنيا ما يشاء ، وترسل إلى  
عنه الذي يحميه ، تحذره من عقبة هذا الفأيد ، حتى يكلم هو الآخر محمداً أن يسكت ،  
فلا يجزئ المتاعب على كماله وولايه .

\* \* \*

أرسلت قريش « عتبة بن ربيعة » — وهو رجل رزين هادئ — فذهب  
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا ابن أخي ، إياك منا حيث قد علمت  
من المكان في النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع  
مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها : إن كنت إنما تريد هذا الأمر مالا  
جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

« وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك .

« وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رتباً تراه  
لا نستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ .

فلما فرغ من قوله تلا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، عليه صدر سورة  
السجدة « حم تنزيل من الرحمن الرحيم » كتاب نصات آياته قرآناً عربياً لقوم  
يعلمون \* بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون \* وقالوا 'فلو بنافى  
أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر' . ومن بيننا وبينك حجاب . فاعمل  
إننا عاملون \* قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إليه واحد  
فاستقيموا إليه واستغفروا ، وويل للمشركين \* الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة



هم كافرُونَ ..» (١)

حتى وصل إلى قوله تعالى «... فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ»

تخير رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات من الوحي المبارك . اعرف محدثه حقيقة الرسالة والرسول . إن محمداً عليه الصلاة والسلام يحمل كتباً من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من خبال . وهو - قبل غيره مكلف بتصديقه والعمل به والنزول عند أحكامه . فإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا إليه ويستغفروه فمحمداً عليه الصلاة والسلام ألجج الناس بالاستغفار والزمهم للاستقامة وما يطلب ملكاً ولا مالا وجاهاً ، لقد أمكنه الله من هذا كله فعف عنه وترفع أن يمد يده إليه . وبسط العطاء مما سبق إليه من خيرات ، فأنفق وادياً من المال في ساعة من نهار ، وترك الحياة خير معقب لذريته درهما .

إن عتبة - باسم قريش - يريد أن يترك محمد عليه الصلاة والسلام الدعوة إلى الله وإقامة العدالة بين الناس . ماذا تصير إليه الحياة لو أن صخرة من الأرض انخلعت عنها وصعدت إلى دارات الفلك تطلب من الشمس أو أى كوكب آخر أن يقف مسيره وإشعاعه ، ويحرم الوجود من ضيائه وحرارته ؟!

ألا ما أغرب هذا الطلب ؟ وما أجدر صاحبه أن يرتد إلى مكانته لا يعدوها ولذلك ، بعد ما استمع عتبة إلى آيات القرآن توقظ ما كان نائماً من فكره ، استمع إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هاجماً من عاطفته : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ

(١) هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في المنازى ( ١ / ١٨٥ من سيرة ابن هشام ) بسند حسن عن محمد بن كعب القرطبي مرسل ، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى البغوي من طريق أخرى من حديث جابر رضى الله عنه ، كما في تفسير ابن كثير ( ٤ / ٩ - ٩١ ) وسنده حسن ، إن شاء الله .

صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود « لقد وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق متلاحقة ، وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع محمداً وشأنه !

أما وفد قريش إلى أبي طالب ، فقد أخذ يقول : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا . فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردهم رداً رفيقاً : فانصرفوا عنه ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو عليه ثم استشرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتآمروا فيه . فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا : يا أبا طالب إن لك فينا سناً وشرفاً ، وإنا قد استنميناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، وإنا - والله - لانصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك ، إلى أن يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه .

عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخذلانه ، وبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلمه ما قالت قريش وقال له : ابق على نفسك وعلى ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فثن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه رأى ، وأنه خذله وضعف عن نصرته فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : يا عماء والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته (١)

(١) حديث ضعيف أخرجه ابن اسحاق ( ١ / ١٧٠ ) ومن طريقه ابن جرير ( ٢ / ٦٧ ) عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس به . وهذا إسناد مهض ، يعقوب هذا لم يدرك أحداً من الصحابة فهو من أتباع التابعين وقد أخرج هذه القصة مختصراً =



ثم بكى رسول الله وقام فلما ناداه عمه أبو طالب فأقبل عليه وقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لأسلمك لشيء أبدا ، وأنشد :  
والله لن يصلوا إليك بجمعهم  
حتى أوسد في التراب دفيناً

\* \* \*

وهكذا أخفق الإغراء والإرهاب في تعويق الدعوة . وأدركت قريش أن ماتصير إليه بعيد المنال . فعادت سيرتها الأولى ، تصب جام غضبها على المؤمنين ، وتبذل آخر مافي وسعها للتكيل بهم ومحاولة فتنهم عن دينهم .

وحزن الرسول الكريم للمآسى التي تقع لأصحابه وهو عاجز عن كفها ، فأوعز إلى من قل نصيره ، ونبا به المقام في مكة أن يهجرها إلى الحبشة . وكان ذلك لخمس سنين من مبعثه . أو بعد سنتين من جهره بالبلاغ .

### الهجرة إلى الحبشة

كان الرحيل إلى الحبشة تسلا في الخفاء ، حتى لا تستيقظ قريش للأمر فتجبطه ولم يبدأ كذلك على نطاق واسع ، بل كان الفوج الأول مكوناً من بضعة أسر ، فيهم رقية ابنة النبي عليه الصلاة والسلام وزوجها عثمان بن عفان ، وقرآن آخر من المهاجرين لم يزيدوا جميعاً عن ستة عشر . وقد يموا شطر البحر حيث قبضت لهم الأقدار حفينتين تجاريتين أبحرتا بهن إلى الحبشة ، فلما خرجت قريش في آثارهم إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين . ولم يمكث أولئك المهاجرون طويلاً حتى ترامت إليهم

الطبراني في الأوسط والكبير من حديث عقيل بن أبي طالب ، وفيه مكان قوله : « ولو وضوا الشمس ... » مانصه « والله ماأنا بأقدر أن أدع ما بهت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شملة من نار » وفيه عقب هذا فقال أبو طالب : « والله ما كذب ابن أخي قط أرجعوا راشدين » قال الهيثمي في « المجمع » ( ١٥ / ٦ ) : « رواه أبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح » .

الأخبار بأن المشركين هادنوا الإسلام وتركوا أهله أحرارا ، وأن الإيذاء القديم انقطع فلا بأس عليهم إن عادوا .

وتركت هذه الإشاعة أثرها في قلوب المؤمنين ، فقرروا العودة إلى وطنهم . حتى إذا اقتربوا من مكة تبينت لهم الحقيقة المحزنة ، وعرفوا أن المشركين أشد ما يكونون خصاما لله ورسوله والمؤمنين ، وأن عدوانهم لم ينقطع يوما ...

ويزعم بعض المغفلين أنه وقعت هدنة حقا بين الإسلام والوثنية أسامها أن محمدا صلى الله عليه وسلم تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها (١) وأن هذه الهدنة الواقعة هي التي أعادت المسلمين من الحبشة ...

وماذا قال محمد عليه الصلاة والسلام في مدح الأصنام ؟ يجيب هؤلاء المغفلون بأنه قال : تلك الفرائيق الملا . وإن شفاعنهن لترتجى ( ؟ ) .

وابن وضع هذه الكلمات ؟ وضعها في سورة « النجم » مقحمة وسط الآيات التي جاء فيها ذكر هذه الأصنام . فأصبحت هكذا « أفرأيت اللات والعزى • ومناة الثالثة الأخرى • تلك الفرائيق الملا • وأن شفاعنهن لترتجى • ألكم الذكر وله الأنثى • تلك إذا قسمة ضيزى • إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ... »

ويكون معنى الكلام على هذا : خبروني على أصنامكم : أهى كذا وكذا ؟ إن شفاعتها مرجوة ، إنها أسماء لاحقائق لها • خرافات ابتدعت واتبعت • مالكم جعلتموها إناثا ونسبتموها لله وأنتم تسمونها الإناث لكم ؟ تلك قسمة جائرة ! . فهل هذا كلام يصدر عن عاقل فضلا عن أن ينزل به وحى حكيم ؟ .

ولسكن هذا السخف وجد من يكتبه وينقله !

إن محمدا صلى الله عليه وسلم لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عنقه ينص الكتاب الذي جاء به • قال الله جل شأنه « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين • ثم لقطعنا منه الوتين • فما منكم من أحد عنه حاجزين »



بيد أن كتب التاريخ والتفسير التي تركت للوراقين والزنادقة يشحنونها بالمفتريات . اتسعت صفحاتها لذكر هذا اللغو القبيح . ومع أن زيفه وفساده لم يخفيا على عالم إلا أنه ما كان يجوز أن يدون مثله . . .

إنك تفتح « الخازن » في تفسير القرآن ( سورة هود ) فتقرأ ما يلي : لما كثرت الأرواث في سفينة نوح أوحى الله إليه أن اغمر ذنب الفيل . فغمزه فوق منه خنزير وخنزيرة ، ومسح على الخنزير فوق منه الفأرة . فأقبلوا على الروث فأكلوه . فلما أفسد الفأر في السفينة وجعل يقرضها ويقطع حبالها ، أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني لأسد ، فضرب فخرج من منخره قط وقطة . فأقبلا على الفأر فأكلاه .

أرأيت هذا الكلام الفارغ ؟ أرأيت من قبله حديث الغرائق ؟ إن كثيراً من هذه الخرافات الصغيرة توجد في كتب شتى عندنا . ولا ندري متى تنظف هذه الكتب القديمة منها . فهي لا ريب مدخولة عليها أيام غفلة المسلمين وغلبة الدسائس اليهودية على أفكارهم ومخطوطاتهم .

والذي ورد في الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرأ سورة « النجم » في محفل يضم مسلمين ومشركين ، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب . فلما أخذ صوت الرسول صلى الله عليه وسلم يهدر بها . ويوعده بنذرها حتى وصل إلى قول الله « . . . والمؤتفة أهوى » فغشاها ما غشى \* فبأى آلاء ربك تمارى \* هذا نذير من النذر الأولى \* أزفت الآزفة \* ليس لها من دون الله كاشفة \* أفمن هذا الحديث تمجبون ؟ وتضحكون ولا تبكون ؟ \* وأنتم سامدون ! » .

كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين ، مع غيرهم من المسلمين .

فما نكسوا على رؤوسهم وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم ، ندموا على ما كان منهم ، وأحبوا أن يعتذروا عنه ، بأنهم ما سجدوا مع محمد صلى الله عليه وسلم

إلا لأن محمداً صلى الله عليه وسلم عطف على أصنامهم بكلمة تقدير<sup>(١)</sup> (كذا) وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون النكت للضحك من المسلمين . ولا يستحي أحدهم - وهو ابن خال النبي عليه الصلاة والسلام - أن يقول : ماخرأ : كلمت اليوم من السماء يا محمد ؟

وإيس أسمح من اعتذار المشركين عن سجودهم إلا تصديق هذا الاعتذار وقد حاول المشركين أن ينشروا فريتهم هذه ليكروا على الرسول عليه الصلاة والسلام ويشوشوا على الوحي ، وليوهموا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم في بعض أحيائه مال إليهم . وهيهات . فإن الحرب التي شنها محمد صلى الله عليه وسلم على الوثنية لم تزدها إلإ إلى الإضرار ، ولم تزده من عبودها إلا خصاماً .

\* \* \*

عاد من هاجر إلى الحبشة ليعتزل بآن الاضطهاد الواقع على الإسلام أحد ووأشد فدخل بعضهم مكة مستجيراً بمن يعرف من كبارائها . وتواري الآخرون .

لكن قريشاً أبت إلا أن تنكل بالاقاديين وأن تقرى سائر القبائل بمضاعة الأذى للمسلمين . فلم ير الرسول صلى الله عليه وسلم بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة . وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها . بيد أن المسلمين كانوا أسرع . فخرج منهم

---

(١) أين الدليل النقلي على هذا الاعتذار ؟ وأن المشركين م الذين اختلفوا فريتهم هذه وحاولوا نشرها ؟ مثل هذه الأمور لا بد لها من دليل منقول ، وما المانع أن تكون هذه الفرية حدثت من بعد ؟ وهذا هو الأقرب ، فانها أعنى هذه القرية لم ترو بسند معتبر عن صحابي ، بل كل طرقها مرسلة لا يدري من الذي حدث بها ممن يمكن أن يدرك عصر النبوة والرسالة وقد فصلت القول في بطلان هذه القصة من الوجهة الحديثية في كتابي « نصب المجانيق لنسف قصة النرائيق » ولما يطبع .



في هذا الفوج ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة . ويسر الله لهم السفر  
فانحازوا إلى نجاشي الحبشة . ووجدوا عنده ما يبغون من أمان وطيب جوار  
وكرم وفادة .

والظاهر أن هذا النجاشي كان رجلاً راشداً نظيف العقل ، حسن المعرفة لله ،  
سليم الاعتقاد في عيسى عبد الله ورسوله عليه السلام . وكانت مرونة فكره مر  
المعاملة الجميلة التي يوفرها لأولئك اللاجئين إلى مملكته ، فارين بدينهم من الفتن .

\* \* \*

عزّ على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم ، وأغرتهم  
كراهيتهم للإسلام أن يبعثوا إلى النجاشي وفدًا منهم محملاً بالهدايا والتحف ، كي  
يحرم المسلمين وذه ، ويطوى عنهم بشره .

وكان الوفد من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلموا -  
واستعان الوفد على النجاشي برجال حاشيته بعد أن ساقوا إليهم الهدايا، وزودهم  
بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون ! قالوا : إن ناساً من سفهائنا فارقوا دين  
قومهم ولم يدخلوا في دين الملك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ..  
واتفقوا معهم أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم .

فلما فوَّخ النجاشي في الأمر وأشير عليه بإبعاد القوم ، رأى أن لا بد من  
تمحيص القضية وسماع أطرافها جميعاً .  
ثم أرسل إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فدعاهم . فحضروا ، وقد أجمعوا  
على صدقه ، فيما ساءه وسره .

وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب . فقال لهم النجاشي :  
ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين  
أحد من الناس ؟

فقال جعفر : أيها الملك ، كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي

الفواحش ، وتقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، وياً كل القوى منا الضيف .  
حتى بعث الله إيانا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا لتوحيد  
الله وأن لا نشرك به شيئاً ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق  
الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم  
والدماء ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة  
والصيام . . . وعدد عليه أمور الإسلام . قال جعفر : فأما به ، وصدقناه ، وحرمنا  
ما حرم علينا ، وحللنا ما أحل لنا . فتعدى علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا  
ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا  
إلى بلادك ، واخترنك على من سواك ، ورجونا أن لا نُظلمَ عندك . . .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ قال : نعم . فقرأ عليه  
سطراً من « كهيعص » . فبكى النجاشي وأساقفته ، وقال النجاشي : « إن هذا  
والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة . انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكم  
أبداً » يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه — فخرجا وقال « عمرو » لعبد الله بن  
أبي ربيعة : والله لا تبينه غداً بما يبید خضراءهم .

فلما كان الغد قال للنجاشي إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً .  
فأرسل النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح . فقال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به  
نبينا ، هو عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .  
فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال : ماعدا عيسى ما قلت قدر هذا العود<sup>(١)</sup>

---

(١) اختلف النصارى قديماً في طبيعة المسيح على مذاهب شتى . وكان هناك مذهب  
يقوم على اعتباره بشراً مرسلًا ، وليس إلهًا ولا ندأ لله . ولا يزال في الغرب المسيحي  
أناس يعتقدون هذا المذهب الموحد . ونعتقد أن نجاشي الحبشة على هذا الرأي . وإن كان  
بطارقة الكنيسة يستنكرونه أشد الاستنكار .



فخبرت بطارقه ا فقال : وإن نخرتم ا وقال المسلمين : اذهبوا فأنتم آمنون ،  
ما أحب أن لي جبلا من ذهب وأنتي آذيت رجلا منكم ا ورد هدية قريش وقال :  
ما أخذ الله الرشوة مني حتى أخذها منكم ، ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه <sup>(١)</sup> وأقام  
المسلمون عنده بمخبردار ...

أخفقت حيله عمرو ، وعاد الـ فـد إلى مكة يجر أذيال الخيبة . وعرفت قريش أنها لن  
تشبع ضغيتها على الإسلام وأهله إلا في حدود سلطانها ، فعزمت أن تشفى غيظها من  
يقع تحت أيديها .

## إسلام حمزة وعمر

إن الأفق المتلبّد بالسحب قد يتولد منه برق يضيء . لقد غبرت على المسلمين في مكة  
أيام غلاظ ، اضطرت بيوتاً عديدة أن تقربد منها . وبقي من بقي منهم يكابد العنت من  
شطط المشركين وكيدهم ، إلا أن عناصر جديدة دخلت في الإسلام جمعات قريشاً تروى  
في أمرها قبل أن تقدم على إساءاتها المبيتة .

أسلم « حمزة » بن عبد المطلب ، عم النبي عليه الصلاة والسلام وأخوه من الرضاع وهو  
رجل أيد جلد قوى الشكيمة . وسبب إسلامه الغضب لما بلغه من تهجم أبي جهل على  
رسول الله صلى الله عليه وسلم تهجماً بذباً . قالت له أمة لعبد الله بن جدعان : يا أبا عمار  
لو رأيت ما ترى ابن أخيك « محمد » من أبي لحكم بن هشام فإنه سبه وأذاه ثم انصرف  
عنه ، ولم يكلمه محمد - وكانت المرأة قد شهدت هذا الحادث في مسكن قريب -  
فأسرع « حمزة » محملاً لا يلوى على شيء وصمد إلى أبي جهل وهو في مجلسه من قومه ،

(١) أخرج هذه القصة ابن اسحاق في المغازي ( ٢١١/١ - ٢١٣ من ابن هشام )  
وأحمد ( رقم ١٧٤٠ ) من طريق ابن اسحاق بسند صحيح ، من حديث أم سلمة زوج النبي  
صلى الله عليه وسلم .

ثم ضرب رأسه بالقوس ، فشجّه شجرة منكرة وقال : أتشتبه وأنا بلى دينه ؟  
وكما يقول البعض : طلبنا العلم الدنيا فأنى الله ! لا أن يكون الدين ! كان إسلام  
حمزة أول الأمر أنفة رجل أوى أن يهان مولاه ، ثم شرح الله صدره فاستمسك  
بالعروة الوثقى . واعتزّ به المسلمون أيّما اعتزاز . . .

أما عمر بن الخطاب فكان من أول الفتانين المستهزئين بالإسلام ،  
وكان معروفًا بحدة الطبع ، وقوة الشكيمة ، وطالما لقي المسلمون منه  
ألوان الأذى .

روت زوجة عامر بن ربيعة قالت : إنا انرحل إلى أرض الحبشة وقد  
ذهب عامر لبعض حاجته ؛ إذ أقبل عمر — وهو على شركه — حتى وقف  
على وكنا نلقى منه البلاء ، فقال : أتطلقون يا أم عبد الله ؟ قالت : نعم والله  
لنخرجن في أرض الله فقد آذيتونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا فرجاً .  
قالت : فقال عمر : صحبكم الله ، ورأيت له رقة وحزنًا . . . ! قالت : فلما  
عاد عامر أخبرته وقلت له : لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا . . . قال : أطمعت  
في إسلامه ؟ قلت نعم . فقال : « لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ! ! » — لما  
كان يراه الرجل من شدته وغلظته على المسلمين — .

ولكن قلب المرأة كان أصدق من رأى الرجل فإن غلظة عمر كانت  
قشرة خفيفة ، تكمن وراءها ينابيع من الرقة والعطف والسماحة .

والظاهر أن عمر كانت تصطرع في نفسه مشاعر متناقضة : احترامه للتقاليد  
التي منها الآباء والأجداد . واسترساله مع شهوات السكر والذو التي ألفها . . .  
ثم أعجابه بصلابة المسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم ، ثم الشكوك التي  
تساوره — كأي عاقل — في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجلاً وأزكى من  
غيره ، ولهذا ما إن يشور حتى يخور . ذهب ليقتل محمداً صلى الله عليه وسلم ثم أنشبه



عن عزمه كلمة . ولما علم بإسلام أخته وزوجها اقتحم عليهما البيت صاحبا متوعدا .  
وضرب أخته فشجها ، وأعادته منظر الدم المرافق إلى صوابه . فرجعت نواحي البر  
والخير في نفسه ، وتناول ورقة كتبت فيها بعض الآيات ، وتلاها . ثم قال :  
ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .. ؟

واستكان عمر للحق فمشى إلى رسول الله ، يعلن إسلامه . .

فلما خلصت نفسه من شوائبها ، وتمحصت للإسلام ، كان مدداً عظيماً لجند  
الله فازداد المسلمون به منعه ، ووقعت في نفوس الكافرين منه حسرة .  
ورأت قريش أن أمر الإسلام ينمو ويعلو ، وأن وسائلها الأولى في محاربته  
لم تمنع انتشاره أو تنفر أنصاره ، فأعادت النظر في موقفها كله لترسم خطة جديدة  
أقوى وأحكم ، وأدق وأشمل ...

### المقاطعة العامة

وتمخض حقد المشركين عن عقد معاهدة تعتبر المسلمين ومن يرضى بدينهم ،  
أو يعطف عليهم ، أو يحمي أحداً منهم حزباً واحداً دون سائر الناس . ثم اتفقوا  
ألا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئاً ولا يزوجهم أو يتزوجوا منهم وكتبوا ذلك  
في صحيفة وعلتوها في جوف الكعبة ، توكيداً لنصوصها .

ولا شك أن المتطرفين من ذوى النزق والحدة نجحوا في فرض رأيهم وإشباع  
ضغنتهم . فاضطر الرسول ومن معه إلى الاحتباس في شعب بنى هاشم وانحاز إليهم  
بنو المطلب كافرهم ومؤمنهم على سواء ما عدا أباهب فقد آزر قريشاً في  
خصومتها لقومه .

وضيق الحصار على المسلمين ، وانقطع عنهم العون ، وقل الغذاء حتى بلغ  
بهم الجهد أقصاه ، وسمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب ، وعضتهم الأزمات العصبية

حتى رثى لحالهم المصوم . ومع اكفهرار الجوف في وجوههم فقد تحملوا في ذات الله الويلات .

ولم تفتر حدة الوثنيين في الحملة على الإسلام ورجاله ، وفي تأليب العرب عليهم من كل فج .

قال السهيلي : كانت الصحابة إذا قدمت غير إلى مكة ، يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام قوتاً لعياله فيقوم أبو لهب فيقول . يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا يدركوا معكم شيئاً . وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن لأخسار عليكم ، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضاعافاً حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع . وليس في يده شيء يطعمهم به . ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشترؤا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وهرباً .

/ وروى يونس عن سعد بن أبي وقاص قال : خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت نقيقاً تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذتها وغسلتها ، ثم أحرقتها ورضضتها بالماء ، فقويت بها ثلاثاً .

فانظر كيف انتهى الحصار بالمسلمين . وكيف أضناهم الحرمان والجأهم أن يطعموا مالا مساع له ؟ . وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوى الرحمة من قریش . فكان أحدهم يوقر البعير زاداً ثم يضربه في اتجاه الشعب ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين فيخفف شيئاً مما بهم من إعياء وفاقة . .

كم بقيت هذه الضائقة ؟ ثلاث سنين كالحة كان رباط الإيمان وحده هو الذي يمسك القلوب ويصبر على اللأواء .

ومن الطبيعي أن يستعجل المسلمون الخروج من هذه المآزق . لطالما وعدوا بالنصر والنسكين ، فما وجدوا إلا الروح والشغب ! وهام أولاء محرجون في أرض



تذكرت لهم ، واقشعرت تحت أقدامهم . ولا ريب أن قلوبهم امتلأت غيظاً على أولئك المشركين الذين سخرُوا من جميع القيم الفاضلة ، وكفروا بانتصارها في الدنيا كفرهم بمجيء اليوم الآخر . ولو لم يطلب أولئك المعذبون النصر لينقذهم من بأسائهم لطلبوه ، كي يخزوا به المسكدين ويؤدبوا للمتوقعين ، بيد أن الوحي كان ينزل فيطالب المسلمين باليقين والثبات دون ارتقاب لهذه النتائج المتوقعة ، يجب أن يحمّدوا على حقائق الإيمان التي عرفوها ، وأن يستمدوا من سموها وصدقها ما يراغمون به الأيام والأحداث .

« وَإِذَا نَرَيْتَكَ بِمَضِّ الَّذِي نَعُدُّهُمُ أَوْ تَقَوَّفَيْتَكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ » . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

وكان المشركون أيضاً يتعجلون خاتمة الصراع بينهم وبين أولئك المسلمين يتعجلون لأهم يضحكون منها فما يشقون بيعث أو جزاء ، ولا يظنون أبداً أن يوماً قريباً أو بعيداً سينشق فجره ، فإذا مكّة خالية من الأصنام ، وإذا أذان التوحيد يرن في أرجائها ، وإذا المحصورون في الشعب هم أصحاب الأمر والنهي ، والسادة الحاكمون بأمرهم اليوم أسرى يرجون العفو !!! وكان يقينهم من أن اليوم والغد لهم يزين لهم الاستهزاء بهذا الوعد والتعريض به .

« ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . قل : أرايتم إن أتاكم عذابه بيّناً أو نهاراً . ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أنتم إذا ما رقع آمنتم به ؟ الآن وقد كنتم به تستعجلون ؟ »

وكان الدخول في الإسلام والبقاء عليه أبعد ما يكون عن التهمة . ربما اعتنق فريق من الناس مبدأ ما — عن صدق وإقناع — وليس يمنعهم ذلك من التماس النفع به والتقدم من ورائه .

أما أولئك السابقون الأولون فقد علموا أن فقدان المنافع وهلاك المصالح الخاصة أول ما يلقون من تضحية في سبيل عقيدتهم .

ولا أحسب شيئاً يربى النفوس على التجرد كهذا التفتان في الحق ، للحق ذاته ، ثم إن القرآن كان صارماً في قمع المتاجرة بالعقائد . والاثراء على حسابها ، والعلو في الأرض باسمها : « مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوْفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ » أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النارُ وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون .

وقد أفاد الصحابة من ذلك عفة ونقاء وإخلاصاً لا يعرف لها في التاريخ نظير ، فلما تعثرت تيجان الملوك بأقدامهم ، واستسلمت الأقطار المكنظة بالخير لجيوشهم ، كانت دوافع العقيدة وأهدافها هي التي تشغل بالهم قبل الفتح وبعده فلم يكثر ثروا لذهب أو فضة .. إنما عناهم — أولاً وآخرأ — إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

• • •

وفي أيام الشعب كان المسلمون يلقون غيرهم في موسم الحج ، ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وفد ، فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات بل يزيد جذورها عمقاً وفروعها امتداداً ، وقد كسب الإسلام أنصاراً كثيراً في هذه المرحلة ، وكسب — إلى جانب ذلك — أن المشركين قد بدأوا ينقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا . وشرع فريق منهم يعمل على إبطال هذه المقاطعة ونقض الصحيفة التي تضمنتها .

وأول من أبلى ذلك بلاء حسناً « هشام بن عمرو » فقد ساءت حال المسلمين ورأى ما هم فيه من عناء ، فمشى إلى زهير بن أبي أمية ، وكان شديد الغيرة على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب .



فقال : يا زهير ، أَرْضَيْتَ أَنْ تَأْكُلَ الطَّعَامَ ، وَتَلْبَسَ الثِّيَابَ ، وَتَنْكَحَ النِّسَاءَ ،  
وَأُخْوَالَكَ حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ ؟

أَمَّا إِنِّي أَحْلَفُ بِاللَّهِ : لَوْ كَانُوا أُخْوَالِ أَبِي الْحَكَمِ — بِبَنِي أَبِي جَهْلٍ — ثُمَّ  
دَعَوْتَهُ إِلَى مِثْلِ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مَا أَحْبَبْتُكَ أَبَدًا ! فَقَالَ : فَمَاذَا أَصْنَعُ وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ  
وَاحِدٌ ، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مَعِيَ رَجُلٌ آخَرُ لَنَقَضْتُهَا ! فَقَالَ : قَدْ وَجَدْتُ رَجُلًا ، قَالَ :  
وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : أَنَا . قَالَ زَهِيرٌ : أَبْغِنَا ثَالِثًا فَذَهَبَ إِلَى الْمَطْعَمِ بِنِ عَدَى فَقَالَ لَهُ :  
أَرْضَيْتَ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَأَنْتَ شَاهِدُ ذَلِكَ مُوَافِقٌ فِيهِ ؟ أَمَّا وَاللَّهِ  
لَوْ أَمَكُنْتُمُوهُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَجِدْنَهُمْ إِلَى مِثْلِهَا مِنْكُمْ أَسْرَعَ ! ! قَالَ : مَا أَصْنَعُ ؟ إِنَّمَا  
أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ . قَالَ : قَدْ وَجَدْتُ ثَانِيًا . قَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : أَنَا . قَالَ : أَبْغِنَا  
ثَالِثًا . قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ . قَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : زَهِيرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ . قَالَ : أَبْغِنَا  
رَابِعًا . فَذَهَبَ إِلَى أَبِي الْبَخْتَرِيِّ بْنِ هِشَامٍ ، وَقَالَ لَهُ نَحْوًا مِمَّا قَالَ لِلْمَطْعَمِ . قَالَ :  
وَهَلْ مِنْ أَحَدٍ يَعْينُ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : أَنَا وَزَهِيرُ وَالْمَطْعَمُ .  
قَالَ : أَبْغِنَا خَامِسًا . فَذَهَبَ إِلَى زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ ، فَكَلَّمَهُ وَذَكَرَ لَهُ قَرَابَتَهُ ، قَالَ :  
وَهَلْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مَعِينٌ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » وَسَمِيَ لَهُ الْقَوْمُ .

فَاتَّعَدُوا « خَطْمَ الْحُجُونَ » الَّذِي بِأَعْلَى مَكَّةَ ، فَاجْتَمَعُوا هُنَاكَ وَتَعَاهَدُوا عَلَى  
الْقِيَامِ فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ فَقَالَ : زَهِيرٌ : أَنَا أَبَدُوكُمْ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا إِلَى  
أَنْدِيَتِهِمْ ، وَغَدَا زَهِيرٌ فُطَافَ بِالْبَيْتِ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : يَا أَهْلَ مَكَّةَ ،  
أَنَا كُلُّ الطَّعَامِ وَنَلْبَسُ الثِّيَابَ وَبَنُو هَاشِمٍ هَلَكُوا لَا يَبْتَاعُونَ وَلَا يَبْتَاعُ مِنْهُمْ ؟ وَاللَّهِ  
لَا أَقْعُدُ حَتَّى تَشُقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ الْقَاطِعَةُ الظَّالِمَةَ ! ! قَالَ أَبُو جَهْلٍ : كَذَبْتَ وَاللَّهِ  
لَا تَشُقُّ . قَالَ زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ : أَنْتَ وَاللَّهِ أَكْذَبُ ، مَا رَضِينَا بِهَا حِينَ  
كَتَبْتَ ! ! . قَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ : صَدَقَ وَاللَّهِ زَمْعَةُ لَا نَرْضَى مَا كَتَبَ فِيهَا .  
قَالَ الْمَطْعَمُ بْنُ عَدَى : صَدَقْنَا وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ ! ! وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو

نحواً من هذا . فقال أبوجهل : هذا أمر قضي بايل ! فقام المظم إلى الصحيفة  
ليشقهها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلى كلمة « باسمك اللهم » .

وكان للعرب تفتتح بها ~~كتبتها~~ ..

## عام الحزن

انطلق المسلمون من الشعب يستأنفون نشاطهم القديم بعد ما قطع الإسلام  
في مكة قرابة عشرة أعوام مليئة بالأحداث الضخمة ، وما إن تنفس المسلمون من  
الشدة التي لاقوها حتى أصيب الرسول صلى الله عليه وسلم بوفاة زوجته خديجة ثم  
بوفاة عمه أبي طالب .

أى أنه نكب في حياته الخاصة والعامة معاً .

إن « خديجة » من نعم الله الجليلة على « محمد » عليه الصلاة والسلام ، فقد  
آزرتة في أخرج الأوقات ، وأعانتة على إبلاغ رسالته ، وشاركتة مغارم الجهاد  
المر ، وواسته بنفسها ومالها ، وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما نهلم أن من  
زوجات الأنبياء من «خن» الرسالة و«كفروا» برجالهن ، وكن مع المشركين من  
قومهن وآلهن حرباً على الله ورسوله «ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة  
نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم  
يغنيا عنهما من الله شيئاً . وقيل : أدخل النار مع الداخلين » .

أما خديجة فهي صديقة النساء ، حنت على رجلها ساعة قلق ، وكانت نسمة  
سلام وبر ، رطبت جبينه المتصبب من آثار الوحى ، وبقيت ربع قرن معه ،  
تحتزم قبل الرسالة تأمله وعزلته وشمائله ، وتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام  
الحصار ومتاعب الدعوة ، وماتت والرسول صلى الله عليه وسلم في الخمسين من  
عمره ، وهى تجاوز الخامسة والستين وقد أخلص لذكرها طول حياته .



أما أبو طالب ، فإن المرء يحار في أمره ! وبقدر ما ينحني إعجاباً لنبهه في كفالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم لبطواته في الدفاع عنه ، حين نبي ، وحين صدع بأمر ربه ، وأنذر عشيرته الأقربين .

إنه — بقدر ذلك — يستغرب المصير الذي ختم حياته ، وجعله يصرح — قبل موته — أنه على ملة الأشياخ من أجداده .

وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لموت أبي طالب حزناً شديداً . ألم يكن الحصن الذي تحمي به الدعوة من هجمات الكبراء والسفهاء؟ وما قدولى الرجل الذي سخر جاهه وسلطانه في الفود عن ابن أخيه وكف العوادي أن تراه .

إن قريشاً أصبحت لا تهاب في محمد عليه الصلاة والسلام أحداً بعده .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات « أبو طالب » (١) وذلك أنهم تجردوا عليه ، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه .

وعن ابن مسعود قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس . فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد عليه الصلاة والسلام إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه .

فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه ، فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض . وأنا قائم أنظر ، لو كانت لي منعة طرحتة من ظهره والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة .

فجاءت — وهي جويرية — فطرحتة عنه ثم أقبلت عليهم تشتمهم .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم . وكان إذا دعا دعا ثلاث مرات ، ولما سأل سأل ثلاثاً . ثم قال : « اللهم عليك بقريش » ثلاثاً .

(١) حديث ضعيف أخرجه ابن إسحاق (٢٥٨/١) بسند صحيح عن عروة بن الزبير مرسله . (٩ - فقه السيرة)

فلم اسمعوا صوته ، ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته .

ثم قال « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ، وأممية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط » وذكر السابع ولم أحفظه .

فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم « بدر » ثم سجدوا إلى القليب ، قلوبهم بدر (١) .

لقد مضت مكة في طريق الكفر حتى أوغلت فيه وبلغت نهايته ، فهي الآن تستمرىء تلويث الساجدين بالأفذار . وتمايل - ضحكاً - من منظر الأنجاس ، وهي تسيل على كتفي المصلي . لم يبق في هذه القلوب مكان لذرة من الخير . وابنت - في المجتمع العربي - تعيش في كنف أبيها ، وتنفخر بقوته ، وتأنس بحمايته .

فما يحز في قلب الرجل أن يرى نفسه في وضع تدفع عنه ابنته . وتشعر بالعجز وقلة الناصر ، وقد كظم محمد صلى الله عليه وسلم على أمه ، وتحمل في ذات الله مالتى . إلا أنه أخذ يفكر في التوجه برسالة إلى قرية أخرى ، عليها تكون أحسن قبولاً وأقرب استجابة ، فاستصحب معه زيد بن حارثة « وولى وجهه شطر « ثقيف » يلتمس نصرتها .. »

## في الطائف

ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حيث تقطن ثقيف وهي تبعد عن مكة نحو الخمسين ميلاً ، سارها محمد صلى الله عليه وسلم على قدميه . جيئة وذهوبا

(١) حديث صحيح : أخرجه البخاري ( ٢٧٨/١ — ٢٨٠ ، ٤٧١ ) ومسلم ٥ /

١٨٠ ) والنسائي ( ٥٨/١ ) وأحمد ( رقم ٢٧٢٢ ، ٣٧٢٣ ، ٣٧٧٥ ، ٣٩٦٢ )

والقائل : « وذكر السابع ولم أحفظه هو أبو اسحاق وهو السبيعي كما صرح بذلك مسلم في روايته ، وقد سمى السابع « عمارة بن الوليد » رواية البخاري وأحمد ، وراجع فتح الباري .



فلما انتهى إليه ، قصد إلى نفر من رجالاتها الذين ينتهي إليهم أمرها ، ثم كلمهم في الإسلام ودعاهم إلى الله فردوه — جميعاً — رداً منكراً ، وأغلظوا له الجواب . ومكث عشرة أيام ، يتردد على منازلهم دون جدوى .

فلما يتس الرسول عليه الصلاة والسلام من خيرهم قال لهم : إذا أبيتم ، فاكمتموا على ذلك — كراهية أن يبلغ أهل مكة ، فتزداد عداوتهم وشتماتهم — لكن القوم كانوا أخس مما ينتظر . قالوا له : أخرج من بلدنا ، وحرشوا عليه الصبيان والرعاع فوقفوا له صفين يرمونه بالحجارة . و « زيد بن حارثة » يحاول — عبثاً — الدفاع عنه حتى شج في ذلك رأسه .

وأصيب الرسول عليه الصلاة والسلام في أقدامه . فسالت منها الدماء واضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان نعبة ، وشيبة ، ابني ربيعة ، حيث جلس في ظل كرمة يلتمس الراحة والأمن .

وكان أصحاب البستان فيه ، فصرخوا الأوباش عنه ، واستوحش الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا الحاضر المرير ، وثابت إلى نفسه ذكريات الأيام التي عاها مع أهل مكة ، إنه يجرر وراءه سلسلة ثقيلة من المآسى المتلاحقة فهتف يقول :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ... أنت أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ...

إلى من تسكني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي .. !!

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل علي غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ... »

وتحركت عاطفة القراءة في قلوب بني ربيعة فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يدعى « عداساً » وقال له : خذ قطعاً من هذا العنب ، واذهب به إلى الرجل .

فلما وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مد يده إليه قائلاً : « باسم الله ثم أكل » .

فقال « عداس » إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال له النبي : من أي البلاد أنت ! قال : أنا نصراني من « نينوى » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له : وما يدريك ما يونس ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك أخى ، كان نبياً وأنا نبي . فأكب « عداس » على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجليه يقبلهما .

فقل ابنا رببعة ، أحدهما الآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاء « عداس » قال له : ويحك ما هذا : قال ما في الأرض خير من هذا الرجل <sup>(١)</sup> . فحاول الرجلان توهين أمر محمد ، وتمسيك الرجل بدينه القديم . كأنما عز عليهما أن يخرج محمد صلى الله عليه وسلم من الطائف بأي كسب .

\* \* \*

وقتل الرسول عليه الصلاة والسلام عائداً إلى مكة ، إلى البلد الذي لفظ خيرة أهله ، فهاجر بعضهم إلى الحبشة . وأكره الباقي على معاناة العذاب الواصب ، أو الفرار إلى شعف الجبال .

وقال زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا زيد . إن الله جاعل لما ترى فرجاً...

(١) أخرج هذه القصة ابن إسحق ( ١ / ٢٦٠ — ٢٦٢ ) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً ، لكن قوله : « إن أبيتم فاكمعوا على ذلك » وقوله : اللهم إني أشكو . . إلخ الدعاء . ذكرهما بدون سند ، وكذلك رواه ابن جرير ( ١ / ٨٠ — ٨١ ) من طريق ابن إسحاق وروى هذه القصة الطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر مختصراً وفيه الدعاء المذكور بنحوه ، قال الهيثمي ( ٦ / ٣٥ ) : « وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة . وبقية رجاله ثقات » فالحديث ضعيف .



ولا بد أن أخبار ثقيف قد سبقته إلى قريش . ومن ثم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يدخل مكة حتى يستوثق لنفسه ودعوته . فبعث إلى « اللطيم بن عدي » يعرض عليه أن يجيره حتى يبايع رسالة ربه ! فقبل « اللطيم » واستنمض أبناءه فحملوا أسلحتهم ووقفوا عند أركان البيت الحرام . وتسم « اللطيم » نفاقه ثم نادى . يا معشر قريش ، قد أجرت محمداً عليه الصلاة والسلام ، فلا يهجه أحد منكم ! فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة صلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته . و « مطعم » وأهله يحرسونه بأسلحتهم (١) ...

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أم متابع - مسلم ؟ قال : بل « مجير » قال : قد أجرنا من أجرت ... !

وحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الصنيع . فقال يوم أسرى بدر : لو كان المطعم حياً لتركته له هؤلاء الأنثى ...

كان المطعم - كأبي طالب - على دين أجداده وكان كذلك مثله في المروءة والنجدة . وقد أراد أبو جهل أن يتهكم بنبي يحتاج إلى جوار ! وكأنه يتساءل : لم لم تنزل كوكبة من الملائكة لحفظه ؟

ولذلك قال - لما رآه - : هذا نبيكم يا بني عبد مناف ؟ فرد عليه عتبة بن ربيعة : وما ينكر أن يكون منا نبيٌ وملك ؟ فلما أخبر رسول الله بسؤال أبي جهل ورد عتبة قال :

أما أنت يا عتبة فما حميت لله ، وإنما حميت لنفسك — وذلك أنه قالها عصبية لا إيماناً —

(١) لم أجد له سنداً وقد ذكره بنحوه ابن جرير (٢/٨٢ - ٨٣) بدون سند بقوله « وذكر بعضهم ... » ولعل هذا البعض هو الأموي في مغازيه فقد عزاه إليه الحافظ كثير (٣/١٣٧) بدون سند أيضاً.

وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً  
وتبكي كثيراً .

وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا  
فيما تنكرون<sup>(١)</sup> ...

وفي هذا التعليل ما يدل على ثقة الرسول عليه الصلاة والسلام من المستقبل  
مهما اكتنفه - في الحاضر - من الآلام .

عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، ليستأنف خطته الأولى ، في عرض  
الإسلام وإبلاغ رسالة الله .

وبينا هو ماض في جهاده ، إذ وقعت له قصة الإسراء والمعراج ...

## الإسراء والمعراج

يقصد بالإسراء الرحلة العجيبة التي بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد  
الأقصى بالقدس . ويقصد بالمعراج ، ما عقب هذه الرحلة من ارتفاع في طباق  
السموات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ولا يعرف كنهه  
أحد . ثم الأوبة - بعد ذلك - إلى المسجد الحرام بمكة . وقد أشار القرآن الكريم  
إلى كلتا الرحلتين في سورتين مختلفتين . ذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله :

«صَبَّحَنَا الَّذِي أَمْرَى بِعَبِيدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ  
الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله :

---

(١) ابن جرير ( ٢/٨٢ - ٨٣ ) بدون سند كما تقدم في تخریج الحديث السابق .



ولقد رآه - يعنى جبريل - نزلةً أخرى \* عند سدرَةِ المنتهى \*  
عندَها جَنَّةُ المَأْوَى \* إذْ يَفْشَى السَّدرَةُ ما يَفْشَى \* ما زَاغَ البَصَرُ وما طَغَى \*  
لقد رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى .

فتعليل الإسراء - كما نصت الآية - أن الله يريد أن يرى عبده  
بعض آياته .

ثم أوضحت آيات المعراج . أن الرسول عليه الصلاة والسلام شهد - بالفعل -  
بعض هذه الآيات الكبرى .

وقد اختلف العلماء - من قديم : أكان هذا الشرى الخارق بالروح وحده ،  
أم بالروح والجسد جميعاً ؟ والجمهور على القول الأخير .

وللدكتور هيكل رأى غريب ، فقد اعتبره استجماعاً ذهنياً ونفسياً لوحدة  
الوجود من الأزل إلى الأبد ، في فترة من فترات التآلق النفساني الفذ ، الذي  
اختص به بشر نبي جليل مثل محمد صلى الله عليه وسلم . وفي إبان هذا التآلق الذي  
استعلى به على كل شيء - استعرض حقائق الدين والدنيا ، وشاهد صور الثواب  
والعقاب .. الخ .

فالإسراء حق . . وهو - عنده - روحى لا مادى ، ولكنه في اليقظة لا في  
المنام ، فليس رؤيا صادقة كما يرى البعض ، بل هو حقيقة واقعة على النحو الذي  
صوره ، ثم قال فيه بعدئذ : « وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ما تعرف  
الطباع الإنسانية » .

والحق ، أن الحدود بين القوى الروحية والقوى المادية ، أخذت تضحل  
وتزول ، وأن ما يراه الناس ميسوراً في عالم الروح ليس بمستوعر في عالم المادة .  
وأحسب أنه بعد ما مزق العلم من أستار عن أسرار الوجود ، فإن أمر المادة  
أضحى كما أمر الروح ، لا يعرف مداه إلا كفيوم السموات والأرض .

وإن الإنسان ليقف مشدوهاً ، عندما يعلم أن الذرة تمثل في داخلها نظام

المجموعة الشمسية لدوارة في الفلك ، وأنها - وهي هباءة تافهة - تكمن فيها حرارة هائلة ، عند ما أطلقت ، أحرقت الأخضر واليابس .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم أمسى به ، وعرج . كيف ؟ هل ركب آلة تسير بأقصى من سرعة الصوت كما اخترع الناس أخيراً ؟

لقد امتطى البراق - وهو كائن يضع خطوه عند أقصى طرفه ، كأنه يمشي بسرعة الضوء . وكلمة « براق » يشير اشتقاقها إلى البرق ، أى أن قوة الكهرباء مضخرت في هذه الرحلة .

لكن الجسم - في حالته المعتادة - يعتمد عليه النقل في الأفق بسرعة البرق الخاطف ، لا بد من إعداد خاص ، يحصن أجهزته ومسامه لهذا السفر البعيد .

وأحسب أن ما روى عن شق الصدر ، وغسل القلب وحشوه ، إنما هو رمز هذا الإعداد المحتوم . . . وقصة الإسراء والمعراج مشحونة بهذه الرموز ، ذات الدلالة التي تدق على السذج :

إن الإسراء والمعراج ، وقعا للرسول عاياه الصلاة والسلام بشخصه ، في طور بلغ الروح فيه قمة الإشراف وخفت فيه كثافة الجسد حتى تفصى من أغلب القوائين التي تحكمه .

واستكناه حقيقة هذه الرحلة ، وتتبع مراحلها بالوصف الدقيق ، مرتبط بإدراك العقل الإنسانى لحقيقة المادة والروح ، وما أودع الله فيهما من قوى وخصائص .

ولذلك سنتجاوز هذا البحث إلى ما هو أيسر وأجدى ، أى إلى تسجيل المعالم المتصلة بالإسلام باعتباره رسالة عامة وتشاريع محددة .

وقصة الإسراء والمعراج ، تهمنا من هذه الناحية .

ألم تر أن « علم النفس » لم يستبحر وينطلق إلا يوم تحرر من البحث في الروح والخيوط في مدلولها ؟ ؟



لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ، ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدره المنتهى مباشرة ؟ .

إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم . فقد ظلت النبوات دهوراً طوالاً وهي وقف على بني إسرائيل . وظل بيت المقدس مهبط الوحي ، ومشرق أنواره على الأرض ، وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار .

فلما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام السماء ، حلت بهم لعنة الله ، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد ! ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم انتقالاً بالقيادة الروحية في العالم ، من أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد ، ومن ذرية إسرائيل ، إلى ذرية إسماعيل .

وقد كان غضب اليهود مشتعلًا لهذا التحول ، مما دعاهم إلى المسارعة بانكاره « بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . فبماؤا بغضب على غضب » .

لكن إرادة الله مضت وحملت الأمة الجديدة رسالتها . وورث النبي العربي تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وقام يكانح لنشرها وجمع الناس عليها فكان من وصل الحاضر بالماضي ، وإدماج الكل في حقيقة واحدة ، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام ، وأن ينتقل إليه الرسول في أسرائته . فيكون هذا الانتقال احتراماً للإيمان الذي درج - قديماً - في رحابه . . ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة . إن النبوات يصدق بعضها بعضاً ، ويمهد السابق منها لللاحق . وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بني إسرائيل بذلك .

« وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرُنَّه قال : أأقررتُم وأخذتُم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »

وفي السنة الصحيحة أن الرسول صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين في المسجد الأقصى فكانت هذه الإمامة إقراراً مبيناً بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، أخذت تمامها على يد محمد بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين. والكشف عن منزلة محمد صلى الله عليه وسلم ودينه، ليس مدحاً يساق في حفل تكريم. بل هو بيان حقيقة مقررة في عالم الهداية، منذ تولت السماء إرشاد الأرض، ولكنه جاء في إبانته المناسب.

فإن جهاد الدعوة الذي حمّله محمد صلى الله عليه وسلم على كواحله، عرضة لهواصف عاتية من البغضاء والافتراء. ومزق شمل أتباعه، فما ذاقوا — مذ آمنوا به — راحة الركون إلى الأهل والمال. وكان آخر العهد بمشاق الدعوة، طرد «ثقيف» له، ثم دخوله البلد الحرام في جوار مشرك. إن هوانه على الناس — منذ دعاهم إلى الله — جعله يحار إلى رب الناس، شاكياً راجياً.

فمن تطمين الله له، ومن نعمائه عليه أن يهيء له هذه الرحلة السماوية لتس فؤاده المعنى ببرد الراحة. وإيشعر أنه بعين الله، مذ قام يوحده ويعبده، ويعلم البشر توحيده وعبادته...

كان يقول: «إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي»<sup>(١)</sup> فالليلة علم أن حظه من رضوان الله جزيل، وأن مكانته بين المصطفين الأخيار، موطدة مقدمة. إن الإسراء والمعراج يقعان قريباً من منتصف فترة الرسالة التي مكثت ثلاثة وعشرين عاماً، وبذلك كانا علاجاً مسح متاعب الماضي، ووضع بذور النجاح للمستقبل.

إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملاكوت السموات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين، وتصغير جموعهم، ومعرفة عقباهم.

(١) تقدم في خبر الطائف أنه حديث ضعيف.



وقد عرف محمد في هذه الرحلة أن رسالته ستنتسح في الأرض . وتتوطن الأودية الخصبية في النيل والفرات ، وتنزع هذه البقاع من مجوسية الفرس . وتشلت الروم .

بل إن أهل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلاً في أعقاب جيل . وهذا معنى رؤية النيل والفرات في الجنة . وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذج والبله .

لقد روى الترمذى مثلاً أن رسول الله قال : « إذا أعطى أحدكم الريحان فلا يردّه فإنه خرج من الجنة »<sup>(١)</sup> . فهل ذلك يدل على أن الريحان من الجنة ، ونحن نقطف أزهاره من الحقول والحدائق ؟

### حكمة الإسراء

ذلك والله عز وجل يتيح لرساله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستناداً إليه ، إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة ، ويهاجمون ملطائهم القاثم .

فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يريه عجائب قدرته ، فأمره أن ياتى عصاه . قال : « ألقها يا موسى ، فألقاها ، فإذا هي حية تسعى » قال : خذها ولا تخف .

---

(١) حديث ضعيف أخرجه الترمذى ( ١٨-٤ ) من طريق حنان عن أبي عثمان النهدي . مرسلًا وهذا مع إرساله فيه جهالة حنان هذا ولم يوثقه غير ابن حبان . لو صح الحديث لكان اللائق حمله على ظاهره وهو أن الريحان أصله من الجنة ولا يلزم منه أن ما تنطفه منه من الحقول هو من الجنة أيضاً كما ظن المؤلف . ألا ترى أنه إذا قال إنسان لماء في كأس : هذا من السماء لكان صادقاً وكان قصده معروفًا ؟ فليتأمل . ونحو هذا يقال فيما صح عنه صلى الله عليه وسلم أن أربعة أنهار من الجنة أى أصلها من الجنة ، لا أنها تنبع الآن منها .

«ميد هاشيرتها الأولى» واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء  
آية أخرى «لنريك من آياتنا الكبرى» .

فلما ملأ قلبه إعجاباً بمشاهد هذه الآيات الكبرى قال له بعد : « اذهب إلى

فرعون إنه طغى . » .

وقد علمت أن ثمرة الإسراء والمعراج إطلاع الله نبيه على هذه الآيات  
الكبرى وربما تقول : إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثني عشر  
عاماً على عكس ما وقع لموسى . وهذا حق . وسره ما أسلفنا بيانه من أن الخوارق  
في سير المرسلين الأولين قصد بها قهر الأمم على الإقتناع بصدق النبوة فهي تدعيم  
لجانهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء . وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم فوق  
هذا المستوى .

فقد تكفل القرآن للكريم بافئاع أولى النهى من أول يوم، وجاءت الخوارق  
في طريق الرسول ضرباً من التكريم لشخصه، والإيساس له ، غير معكزة ،  
ولا معطلة للمنهج العقلي للعادي الذي اشترعه القرآن<sup>(١)</sup> .  
وقد اقترح المشركون على النبي أن يرقى في السماء ، فجاء الجواب من عند  
الله « قل : سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » .  
فلما رقى في السماء بعد ، لم يذكر قط أن ذلك رد على التحدى أو إجابة على  
الاقتراح السابق . بل كان الأمر — كما قلنا — محض تكريم ومزيد إعلام من  
الله لعبده .

## إكمال البناء

وفي قصة الإسراء والمعراج تلمح أواصر القربى بين الأنبياء كافة . وهذا  
المعنى من أصول الإسلام .

(١) أنظر كتابنا : عقيدة المسلم .



« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » .

والتحيات المتبادلة بين النبي وإخوته السابقين توثق هذه الأصرة .

نفى كل سماء أحل الله فيها أحد رسله ، كان النبي يستقبل فيها بهذه الكلمة :  
مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ! .

والخلاف بين الأنبياء وهم صنعة الأمم الجائرة عن السبيل السوي ،

أو بالأخرى صنعة الكهان والمتاجرون بالأديان .

أما محمد فقد أظهر أنه مرسل لتكملة البناء الذي تعهده من سبقوه ، ومنع الزلازل من تصعيده قال رسول الله « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ! ويقولون هل وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين » (١) .

والأديان المعتمدة على الوحي السماوى معروفة . وليس منها — بداهة —

ما اصطنعه الناس لأنفسهم من أوثان وطقوس كالبرهمية ، والبوذية ، وغيرهما .

وليس منها كذلك ما ابتدع — أخيراً — من نحل اختصنها الاستعمار

الغربي ، وكثير الأنصار حولها ، ليشدد الخناق على مقاتل الشرق ، ويعوق المسلمين الأحرار عن حطم قيوده ، وإنقاذ عبيده ، وذلك كالبهائية والقاديانية . .

ومن الممكن — لو خلصت النيات ونشد الحق — أن توضع أسس عادلة لوحدة

دينية ، تقوم على احترام المبادئ المشتركة ، وإبعاد الهوى عن استغلال الفروق ،

الأخرى ، إلى أن تزول على الزمن ، أو تنكسر حدتها .

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى ( ٤٣٦/٦ ) ومسلم ( ٦٤/٧ ) من حديث  
أبي هريرة .

والإسلام الذي يعدّ تعاليمه امتداداً للنبوءات الأولى ، وابنة مضافة إلى بنائها  
العتيد أول من يرحب بهذا الاتجاه ويزكيه .

## سلامة الفطرة

وفي ليلة الإسراء والمعراج تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين وهي أنه  
دين الفطرة .

ففي الحديث « . . ثم أنيت بإناء من خمر وإناء من لبن . فأخذت اللبن  
فقال : هي الفطرة التي أنت عليك وأمتك . »<sup>(١)</sup>

إن سلامة الفطرة لب الإسلام . ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد  
السريرة ، عليل القلب . إن الفطرة الرديئة كالعين الجمدة لا تسيل إلا قدراً ومواداً  
وربما أخفى هذا السواد الكريه وراء ألوان زاهية ، ومظاهر مزوقة .

بيد أن ما ينطلي على الناس ، لا يخدع به رب الناس ... !!

ويوم تكون العبادات - نفسها - ستاراً لفطرة فاسدة ، فإن هذه العبادات  
الخبيثة ، تعتبر أنزل رتبة من المعاصي الفاجرة ..

والناس كلما تقدمت بهم الحضارات ، أمنعوا في التكلف والمصانعة ،  
وقيدوا أنفسهم بعبادات وتقاليد قاسية .

وأكثر هذه التكلفات حجب تطمس وهج الفطرة<sup>(٢)</sup> وتعكر نقاوتها  
وطاقتها .

---

(١) حديث صحيح ، وهو قطعة من حديث سمعة بن مالك الطويل في الأسراء ، وقد  
مضى تخريجها (ص ٦٤) ، ورواه ابن حبان في صحيحه أيضاً (١٩٢ - ١٩٨) ، وأخرجوه  
ثلاثتهم من حديث أبي هريرة أيضاً .

(٢) أنظر « خلق المسلم » . « والاسلام والمناهج الاشتراكية » للمؤلف .



وليس أبغض إلى الله من أن تفتري هذه القيود باسم الدين ، وأن تترك  
النفوس في سجونها ، مغولة كثيفة .

## فرض الصلاة

وفي المعراج شرعت الصلوات الخمس ، شرعت في السماء لتسكون معراجاً  
يرقى بالناس كما تدلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا .

والصلوات التي شرع الله غير الصلوات التي يؤديها — الآن — كثير  
من الناس .

وعلاوة صدق الصلاة أن تعصم صاحبها من الدنايا ، وأن تنجيه من البقاء  
عليها إن ألم بشيء منها .

فإذا كانت الصلاة — مع تكرارها — لا ترفع صاحبها إلى هذه الدرجة  
فهى صلاة كاذبة .

الصلاة طهور<sup>(١)</sup> ، كما جاء في السنة ، إلا أنها طهور للإنسان الحى ،

لا للجنة العفنة .

إن التطهير يزيل ما يعلق بالقلب الحى من غبار عارض ، والأعراض التي  
تلتحق المرء في الحياة فتصدىء قلبه كثيرة ، ومطهراتها أكثر ! .

وفي الحديث « فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه وجاره ، يكفرها  
الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(٢)</sup> » .

(١) لا أعرف بهذا اللفظ . وكأن المؤلف ذكره بالمعنى ومما جاء فيه قوله صلى الله عليه  
وسلم : « أريت لو أن نهراً بين أبواب أحدكم يفتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه  
شيء ؟ قالوا : لا . لا يبقى من درنه شيء » ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحوا الله بهن  
الخطايا » أخرجه البخارى ( ٩ / ٢ ) ومسلم ( ٢ / ١٣١ — ١٣٢ ) من حديث أبى  
هريرة . ومسلم والبخارى في « أعمال العباد » ( ص ٩٤ ) من حديث جابر .

(٢) حديث صحيح من رواية حذيفة بن اليمان أخرجه البخارى ( ٦ / ٢ ) ومسلم  
( ٨ / ١٧٣ ) .

أصحاب القلوب المينة فالصلاة لا تجديهم فتيلاً .. ولن يزالوا كذلك حتى تحية قلوبهم أو يوارى بها الثرى ...

\* \* \*

وقد رويت سنن ، أن رسول الله رأى في هذه الرحلة صوراً شتى ، لأجزية الصالحين والطالحين . وتناقضت كتب السيرة رواية هذه الصور الجليلة على أنها وقعت ليلة الإسراء والمعراج .

والحق أن ذلك كان رؤيا منام في ليلة أخرى من الليالي المعتادة ، كما ثبت ذلك في الصحاح <sup>(١)</sup>

## قريش والإسراء

فلما كانت صبيحة هذه الليلة المشهودة حدث رسول الله الناس بما تم له وما شهد من آيات ربه الكبرى .

---

(١) يشير إلى حديث سمرة بن جندب عند البخاري في أماكن من صحيحه منها «الجنائز» و«الرؤيا» وأحمد أيضاً في المسند (١٤٠٨ / ٥) ولكن هذا لا ينفي أن يكون صلى الله عليه وسلم رأى ليلة الإسراء بعض الأجزية ، بل هذا هو الواقع كما في حديث أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعاً لما عرج بي ربي عز وجل مروت يقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » أخرجه أحمد (٢٢٤ / ٣) وأبو داود (٢٩٨ / ٢) وسنده صحيح . وقد روى مرسل . والسنن المسند أصح كما قال العراقي في تخريج الإحياء (١٢٣ / ٣) . ولأنس حديث آخر في رؤيته صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء الخطباء الذين يقولون ما لا يفعلون أخرجه ابن حبان في صحيحه (رقم ٥٢) وغيره . وفي الباب أحاديث أخرى عن جماعة من الصحابة ذكر بعضها ابن كثير في تفسير سورة الإسراء فليراجعها من شاء



والذين كذبوا أن يقع وحى على الأرض . أتراهم يصدقون به في السماء ؟  
لقد طاروا يجمع بعضهم بعضاً ، ليسمع هذه الأعجوبة فيزداد إنكاراً لرسالة  
محمد صلى الله عليه وسلم وريبة من أمره . وتحذاه بعضهم ، أن يصف بيت المقدس ،  
إن كان رآه هذه الليلة حقاً ؟

عن جابر رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما كذبتني  
قريش ، قمت في الحجر ، فحلى الله لي بيت المقدس . فطفقت أخبرهم عن آياته ،  
وأنا أنظر إليه » !! (١)

ويقول الدكتور هيكل : « أحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح  
في هذا لما رأوا فيه عجباً ، بعد الذي عرف العلم في وقتنا الحاضر من إمكان التنويم  
المغناطيسى للتحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية ...

فما بالك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية في الكون كله ؟ ويستطيع — بما  
وهب الله له من قوة — أن يتصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده ! »

ونحن لا نعلق كبير اهتمام لمعرفة الطريقة التي تم بها الإسراء والمعراج . كلا  
الأميرين حق ، ترك ثماره في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم . فاستراح إلى حمد  
الخالق ، وقل أكثرائه لزمهم من الجاحدين والجاهلين . ثم نشط إلى متابعة  
الدعوة ، موقناً أن كل يوم يمر بها هو خطوة إلى النصر القريب ...

ويزعم بعض الكتاب أن فريقاً من المسلمين ارتد عقب الإسراء والمعراج  
إنكاراً لها . بل يزيد الدكتور « هيكل » أن المسلمين تضعضوا على أثر انتشار

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى ( ١٥٧/٧ — ١٥٩ ) ومسلم ( ١٠٨ / ١ )  
وابن حبان ( رقم ٥٤ ) وغيرهم ، وله شاهد مفصل من حديث ابن عباس أخرجه أحمد  
( رقم ٢٨٢٠ ) بسند صحيح .

القصة على الأفواه ، واستبعاد المشركين لوقوعها . وهذا كله خطأ ، فلا الآثار التاريخية تدل<sup>(١)</sup> عليه ، ولا الاستنتاج الحصيف ينتهي به ، ولا ندري كيف يقال هذا ؟

\* \* \*

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على نهجه للقديم . ينذر الوحي كل من يلقى ، ويخوض - بدعوته - الجامع ، ويفشى المواسم ، ويتبع الحجاج في منازلهم ، ويغير قدميه إلى أسواق « عكاظ » و « مجنة » و « ذى الحجاز » داعياً الناس إلى نبذ الأوثان ، والاستماع إلى هدى القرآن ، وكان يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة ، ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ويتابعوه ويمنعوه . . . .

وكان عمه « أبو لهب » يمشى وراءه ويقول : لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب !

فيكون جواب القبائل : أسرتك وعشيرتك أعلم بك ! ثم يردونه أقبح الرد .

ومن القبائل التي أتاها الرسول عليه الصلاة والسلام ودعاها إلى الله ، فأبت الإستجابة له « فزارة » و « غسان » و « مرة » و « حنيفة » و « سليم » و « عيس » و « بنو النضر » و « كندة » و « كلب » و « عذرة » و « الحضارمة » و « بنو عامر بن صعصعة » و « محارب بن حفضه » . . . إلخ .

(١) برد هذا ما في للسند ( رقم ٤٥٤٦ ) من حديث ابن عباس قال : أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره إلى بيت المقدس ، وبغيرهم ، فقال ناس : نحن نصدق محمدًا بما يقول ؟ فارتدوا كفاراً ، فغضب الله أعناقهم مع أبي جهل . الحديث : وإسناده حسن وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ( ١٥ / ٣ ) : « ورواه النسائي .. وإسناده صحيح » قلت : وهذا من الأدلة الكثيرة التي تبيّن أن الإسرائيليين كان بالروح والجسد . الأمر الذي لا يعلق عليه حضرة المؤلف كبير اهتمام !



ما وجد في هؤلاء قلباً مفتوحاً ، ولا صدرأ مشروحاً ، بل كان الراحلون والمقيمون  
يتواصون بالبعد عنه ، ويشيرون إليه بالأصابع .

وكان الرجل يجيء من الآفاق البعيدة فيزوده قومه بهذه الوصاة : احذر  
غلام قریش لا يفتنك !!!

مع ذلك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام - في هذا الجو القابض - لم  
يخامر اليأس قلبه ، واستمر - مثابراً - في جهاد الدعوة ، حتى تأذن الحق  
- أخيراً - بالفرج





(٤)

الرجرة العامة : مقدماتها ونشأتهما

حرم مشركوا مكة الخير كله . منذ جحدوا الرسالة ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ، ويبغونها عوجا .

ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الإسلام فإن الحق لا بد أن يعلو ، وأن يثوب إليه المظلون والمخدوعون ، على شرط أن يظل أهله أوفياء له ، حراساً عليه ، صابرين محتسبين .

وقد قبض الله للإسلام من استنقذه من البيئة التي صادرته ، فأنس بعد وحشة واستوطن بعد غربة . وثق طريقه في الحياة ، بعد أن زالت الجلامد الصلدة الملقاة في مجراه .

وبدأ هذا التحول على أيدي الوفود القادمة من « يثرب » إلى مكة في موسم الحج ...



كان أهل يثرب<sup>(١)</sup> يمتازون عن سائر العرب بجوارهم لليهود ، وإفهم عقيدة التوحيد . وربما حاورهم اليهود في شئون الأديان ، ونعوا عليهم عبادة الأوثان .

---

(١) أرى المصنف يستعمل كلمة « يثرب » مكان « المدينة » أو « طيبة » ومع أن هذا الاستعمال جاهلي ففيه مخالفة لتسمية الله تعالى إياها بـ « طيبة » كما في حديث جابر بن سمرة قال : كانوا يسمون المدينة يثرب فسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة . أخرجه مسلم (١٢١/٤) والطيالسي (٢٠٤/٢) واللفظ له . وافظ مسلم : « إن الله سمي المدينة طابة » ورواه أحمد (٨٩/٥ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨) باللفظين وفي الباب عن أبي حميد عند البخاري (٧١/٤) وعن زيد بن ثابت عند مسلم ، وفاطمة بنت قيس عند أحمد (٤١٢/٦) وسنده صحيح .

وهذه الأحاديث أقل ما تفيد أنه هذا الاستعمال مذكور ، وأن تسميتها بـ « طابة » أو « طيبة » مستحب ؛ بل روى أحمد (٢٩٥/٤) عن البراء بن عازب مرفوعاً : « من سمي للمدينة « يثرب » فليستغفر الله عز وجل . هي طابة هي طابة » وعزاء الهيثمي في « المجمع » —



فإذا اشتد الجدل وطالت اللجاجة قال لهم اليهود : يوشك أن يبعث الله نبياً  
فنتبعه ، ونقتلكم معه قتل عاد .. و .. إرم ... !!

والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبي يوم ظهر فيهم واقترب منهم ،  
ولذلك ندد القرآن بمسلكهم المتناقض « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما  
معهم .. وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . »

أما العرب الأميون الذين هددوا بمبعثه ، فقد فتحوا مسامعهم له !

فعندما وافى الموسم وقدمت قبائل « يثرب » ورأوا الرسول صلى الله عليه وسلم  
يدعو الناس إلى الله . قال بعضهم : تعلمون والله يا قوم ، إن هذا الذي توعدكم به  
يهود فلا يسبقنكم إليه ..

وأخذ ذكر الإسلام يشيع في المدينة رويداً رويداً ، فان لم يستقبل بترحيب  
لم يستقبل بالسباب والحراب .

إن عناصر النفور والمقاومة ، التي عهد لها في « مكة » تحولت - هنا - إلى  
عناصر احترام وإقبال ، ولم تمض ثلاثة أعوام على تسامع الأنصار الجدد بالاسلام  
حتى أصبحوا كهفه الحصين ، وموئله القريب ..

## فروق بين البلدين

عاشت مكة في مجبوحه من الحياة أمداً طويلاً ، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً

---

== ( ٣ / ٣٠٠ ) لابي يعلى أيضاً وقال : « ورجاله ثقات » قلت لـ كن فيه عند أحمد ،  
يزيد بن أبي زيادة وهو القرشي الهاشمي الكوفي ، قال الحافظ في « التقريب » : « ضعيف  
كبير فتغير وصار يتلقن » ولئن لم يصح هذا الحديث ففي الأحاديث السابقة غيبة ، وهذه  
الأدب قد أخل به أكثر الناس فلذلك أحبيت أن ألفت النظر إليه .

من كل مكان ، وترجع هذه التسعة إلى عاملين : ١ : - مهارة أهلها التجارية : -  
٢ : - ومكانة الحرم الدينية ، كلا الأمرين أدرُّ عليها أخلاف الخير ، فأثرت  
حتى بطرت وشبعت حتى أنخمت . ثم عراها ما يعرف كل جماعة تواتيها الحظوظ  
ويصنفها الترف ، من تكبر ، وقسوة ، وجحود ، فلما ظهر فيها الإسلام ،  
ودعا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الحق ، ردت يده في فيه ، وأحدقت به وبمن  
معه ، وملكها العناد من أول يوم ، وأعلنت أن مركزها - عاصمة للوثنية ،  
ومجمعاً للأصنام . ومثابة للحجيج - سيزول - إن هي استمعت إلى هذا الدين ،  
وأمكنته من البقاء .

وحاول الرسول عليه الصلاة والسلام - جاهداً - أن يقنع أهله مكة بأن قبولهم  
للحق لن يحرمهم ذرة من الخير الذي متعوا به ، فأبى الظلمون إلا كفوراً .

« وقالوا : إن نتبع الهدى معك نُتخطف من أرضنا . أولم نمكن لهم  
حرماً آمناً يحى إليه ثمرات كل شيء ؟ رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون »  
ومن هنا اشتبك سادة مكة في حرب مع الإسلام ، اعتبروها دفاعاً عن  
كيانهم المادى ووضعهم الاقتصادى ، إلى جانب ما هنا لك من عوامل أخرى .  
وهذه الحروب معروفة النتائج « وكم أهلنا من قرية بطرت معيشتها . فقلك  
مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً . وكنا نحن الوارثين » .

أما الأمر فى « يثرب » فكان على النقيض ، إن الشحنة المناصلة بين أهلها  
استنزفت دماءهم ، وقطعت شملهم ، وشغلت بعضهم البعض ، حتى أوصلتهم  
الحروب الدائمة إلى درك أسف له العقلاء ، وتمنوا الإنقاذ منه . كان « الأوس »  
و « الخزرج » - وهم فى الأصل قرابة واحدة - يعانون فى « يثرب » آصار  
هذا الخصام العنيف . ويورثونه أبناءهم . حتى يشبوا - وهم فى مهادهم -  
أعداء ! والذى وضع جرثومة هذا الشقاق هم اليهود .



## صنع اليهود

واليهود الذين استقروا في المدينة وأرباضها ، هبطوا صحراء الجزيرة ، فارين  
بدينهم من الاضطهاد الصليبي الذي عمل — من قديم — على تنصيرهم أو إفنائهم ،  
ذلك لأن رأى اليهود في عيسى وأمه ، شنيع .

والنصارى يعتقدون أن اليهود هم قتلة عيسى ، والموعزون بصلبه !! .

ولا شك أن اليهود شعب نشيط . وأنهم — حيث حلوا — يبدلون جهوداً  
مذكورة للسيطرة على زمام التوجيه المالى ، ولا يبالون بأساليب الختل والمكر  
لبلوغ أهدافهم ، وقد ألفوا أنفسهم قلة بين أصحاب البلاد . وخشوا أن يفنوا  
إذا اشتبكوا معهم في صراع سافر . فاحتلوا حتى زرعوا الضغائن بين الأقرباء .  
وما زالوا بها حتى آتت ثمرها المر . فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً . في سلسلة  
متصلة من الممارك التي لا مبرر لها . على حين قوى اليهود وتكاثروا . ونمت  
ثرواتهم ، واستحكمت حصونهم ، وخيف سطوهم .

وقبل الهجرة ببضع سنين وقعت بين الأوس والخزرج معركة «بعث» كان  
النصر فيها للخزرج ثم عاد للأوس ! وبلغ من حدة الخصام بين الفريقين أن  
كليهما فكر في استئصال الآخر وإبادة خضرائه ، لولا أن تدخل أولو النهى  
بالنصح أن يبقوا على أنفسهم وإخوانهم ، فجوارهم أفضل من جوار الثعالب  
— يعنى اليهود — !

هذه الفتن المتلاحقة جعلت أهل المدينة — عندما ترامت إليهم أنباء الإسلام  
يؤمنون من ورائه الخير . من يدري ؟ لعله يحدد حياتهم فيعيد السلام إلى صفوفهم  
ويهب لهم حياة روحية ترجح بكفتهم على اليهود ...

قال ابن إسحاق : فلما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، وإنجاز مواعده له

خرج رسول الله في الموسم ، الذي لقيه فيه النفر من الأنصار . فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم : فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالي يهود ؟ قالوا نعم . قال : أملا تجلسون أكلكم ؟ قالوا : بلى ! فجلسوا معه . فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . . .

قال : فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . وعسى أن يجمعهم الله بك ! فسندم عليهم فدعاهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أهرز منك ! ثم أنصرفوا راجعين إلى بلادهم ، قد آمنوا وصدقوا<sup>(١)</sup> .

• • •

كان أولئك النفر ، طليعة الدعاية الموقفة للإسلام في يثرب . وقد أثمرت جهودهم على عجل ، فلم تبق دار إلا دخلها الإسلام .

حتى إذا استدار العام ، وأقبل موسم الحج ، خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلموا - فيهم الستة الذين كلمهم النبي صلى الله عليه وسلم في الموسم السابق - وعزموا على الاجتماع برسول الله صلى الله عليه وسلم ليوثقوا معه إسلامهم .

### بيعة العقبة الأولى

وقد لقيهم النبي بالعقبة ، وعقد معهم بيعة على الإيمان بالله وحده ، والاستمسак بفضائل الأعمال والبعد عن منكرها .

(١) إسناده حسن



عن عبادة بن الصامت : بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى « أن لا نشارك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى بهتاناً تقتریه ، بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف .

قال : فإن وفيتم فلکم الجنة . وإن غشيتم (١) من ذلك شيئاً ، فأخذتم بحمده في الدنيا فهو كفارة له . وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة ، فأمرکم إلى الله . إن شاء عذب ، وإن شاء غفر » (٢) .

هذا ما كان محمد صلى الله عليه وسلم يدعو إليه ، وكانت الجاهلية تنكره عليه أ بكره هذه العهود إلا مجرم يحب للناس الريبة ويود للأرض الفساد ؟؟ أتم وفد الأنصار هذه البيعة ثم قفل عائداً إلى « يثرب » . فرأى النبي أن يبعث معهم أحد الثقات من رجاله ، ليتعهد نداء الإسلام في المدينة ، ويقرأ على أهلها القرآن ، ويفقههم في الدين ، ووقع اختياره على « مصعب بن عمير » ليكون هذا المعلم الأمين .

ونجح « مصعب » أيما نجاح في نشر الاسلام وجمع الناس عليه ، واستطاع أن يتخطى الصعاب التي توجد — دائماً — في طريق كل نازح غريب ، يحاول أن ينقل الناس من موروثة ألقوها ، إلى نظام جديد ، يشمل الحاضر والمستقبل ، ويعم الإيمان والعمل ، والخلق والسلوك ...

ولا تحسبن « مصعباً » كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على المشرق . فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له : هذه القارورة تقدمها لك العذراء ! وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح .

(١) : ارتكبتم

(٢) حديث صحيح . أخرجه البخاري (١/٥٤-٥٨) ومسلم (١٣٧/٥) .

وربما فتح مدرسة ، ظاهرها النقاة المجرّدة ، أو ملجأ ظاهره البر الخالص  
ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون ، ومال بهم حيث يريد ... !!

هذا ضرب من التلصص الروحي يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين .  
والذين يمثلون هذه المساخر ، يجدون الجرأة على عملهم من الدول التي تبعث بهم ،  
فإذا رأيت إصرارهم ومغامراتهم فلا تنس القوى التي تساند ظهورهم في البر  
والبحر والجو .

أما مصعب فكان من ورائه نبيٌ مضطهد ورسالة معتبرة ضد القانون  
السائد وما كان يملك من وسائل الاغراء ما يطمع طلاب الدنيا ونهازي الفرص ،  
كل ما لديه ثروة من الكياسة والفطنة ، قبسها من محمد صلى الله عليه وسلم ،  
وإخلاص لله ، جعله يضحى بمال أسرته وجاهاها في سبيل عقيدته .. ثم هذا القرآن  
الذي يتأنق في تلاوته ، ويتخير من روائعه ، ما يغزو به الأبواب ، فإذا الأفتدة ،  
يرق له ، وتفتح للدين الجديد .

وعاد «مصعب» إلى رسول الله بمكة ، قبيل الموسم الحافل ، يخبره بما لقي  
الإسلام من قبول حسن في « يثرب » ويشره بأن جموعاً غفيرة دخلت فيه عن  
اقتناع مسّ شغافهم ، وبصر أنار أفكارهم ، وسوف يرى من وفودهم بهذا  
الموسم ما تقر به العين .

### بيعة العقبة الكبرى

إن الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا — دون شك — تاريخه القريب ،  
والصعاب الهائلة التي لقيها . وحز في نفوسهم أن يستضعف أخوانهم في مكة ، وأن  
يخرج نبيهم وهو يدعو إلى الله فلا يجيبه إلا آثم أو كفور !!

ولذلك تساءلوا — وهم خارجون من المدينة قاصدون البيت العتيق — حتى  
متى نترك رسول الله يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟



لقد باغ الإيمان أوجَهه في هذه القلوب الفتية . وأن لها أن تنفّس عن حماسها ،  
وأن تفك هذا الحصار الخناق المضروب حول الدعوة والداعية . . .

قال جابر بن عبد الله : فرحل إليه مناصبوعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم .  
فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين ، حتى توافينا ، فقلنا :  
يا رسول الله ، علام نبأيك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : تبأيعوني على السمع والطاعة  
في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي  
عن المنكر ، وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم ، وعلى أن تنصروني  
فتمنعوني — إذا قدمت عليكم — مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ،  
ولكم الجنة .

فقمنا إليه ، وأخذ بيده « أسعد بن زرارة » — وهو أصغر السبعين بعدى —  
فقال : رويداً يا أهل يثرب ، فإن لم تضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه  
رسول الله ، وإن إخراجهم اليوم ، مناواة للعرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن  
تعضكم السيوف .

فإما أنتم قوم تبصرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله وإمّا أنتم قوم  
تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فينبوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله !  
فقالوا يا « أسعد » أمط عنا بيدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها ،  
فقمنا إليه رجلاً رجلاً فبأيعناه<sup>(١)</sup> . . .

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٩٤) والحاكم (٢/٦٢٤-٦٢٥) والبيهقي في  
سننه الكبرى (٩/٩) من طريق ابن خيثم عن أبي الزبير عن جابر . قال الحاكم : صحيح  
الإسناد ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ بن كثير (٣/١٦٠) من البداية : « وهذا إسناد  
جيد على شرط مسلم » وقال الحافظ في « الفتح » (٧/١٧٧) « رواه أحمد بإسناد حسن  
وصححه الحاكم وابن حبان » قلت : وفيه علة . وهي عنعنات أبي الزبير وكان مدلساً وليس  
هو من رواية الألب بن سعد عنه ، فلهذا تصحيحه أو تحسينه بالنظر لتواهمده والله أعلم .

وعن كعب بن مالك : نمنا تلك الليلة — ليلة العقبة — مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تتسلل تسلل الفطامستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا ، نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو ابن عدي .

فلما اجتمعنا في الشعب تنتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أن أحب يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم قال : يا معشر الخزرج <sup>(١)</sup> إن محمداً منّا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزيمة من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ! ! وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده ...

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك وربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم هل أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم .

قال كعب : فأخذ البراء بن معرور بيده وقال : نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن — والله — أبناء الحروب ، ورثناها كابراً عن كابر ، فاعترض هذا القول — والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم — أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال — يعني اليهود — حبالة ، وإننا قاطعوها .

(١) . نقصد أهلي يثرب جميعاً من « أوس » و « خزرج » .



فهل عسيت إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟  
قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا أيها الذين آمنوا والهدم والهدم  
أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسلم من سالمتم ..

وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيباً  
يكونون على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم النقباء، تسعة من (الخزرج)  
وثلاثة من «الأوس»<sup>(١)</sup>، فقال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام: أنتم على  
قومكم بما فيهم كفلاء، ككفلة الخواريين لعيسى بن مريم - وأنا كفيل على  
قومي .

تلكم بيعة النخبة، وما أبرم فيها من موثيق، وما دار فيها من محاورات ..  
إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة  
قيمت . وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملأ العهود  
كلاً، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغامر المتوقعة نظر إليها  
قبل المغامر الموهوم .

مغانم؟ أين موضع المغانم في هذه البيعة؟ لقد قام الأمر كله على التجرد  
للمحض والبذل الخالص .

هؤلاء السبعين مثل<sup>٢</sup> لاكتشار الإسلام، عن طريق الفكر الحر والاعتناع  
الخاص ...

(١) حديث صحيح رواه ابن إسحاق في المغازي (٢٧٣/١ - ٢٧٦) عن ابن مشام  
وأحمد (٤٦٠/٣ - ٤٦٢) وأبي جرير في تاريخه (٩٠/٢ - ٩٣) من طريق ابن إسحاق  
قال: حدثني معبد بن كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين أن أخاه عبد الله بن كعب  
— وكان من أعلم الأنصار — حدثه أن أباه كعباً حدثه، وهذا سند صحيح وصححه ابن  
حبان كما في «الفتح» (٤٧٥/٧) قلت: وأما قوله في آخر القصة: «فقال لهم الرسول  
أنتم ...» فأخرجه ابن إسحاق (٢٧٧/١) عن عبد الله بن أبي بكر مرسلًا فهو ضعيف  
ورواه ابن جرير (٩٣/٢) من طريق ابن إسحاق .

فقد جاءوا من « يثرب » مؤمنين أشد الإيمان . وملبين داعي التضحية ،  
مع أن معرفتهم بالنبي ، كانت لحظة عابرة ، غبرت عليها الأيام ، وكان الظن بها  
أن نزول .

لكننا لا يجوز أن نذني مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة ، والثقة ،  
إنه القرآن !! لئن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لما  
فإن الوحي المشع من السماء ، أضاء لهم الطريق ، وأوضح الغاية...  
لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن ، سال على السنة الحفظ وتداولته  
صحائف السفارة الكرام البررة ، والقرآن النازل بمكة ، صور جزاء الآخرة  
رأى العين .

فتوشك أن تمد يدك ، تقطف من أثمار الجنة ، ويستطيع الأعراي المتعشق  
للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم !  
وحكى القرآن أخبار الأولين ، وكيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع رسلهم  
وكيف طغى الكفار ، وأسكرهم الإمهال فعتتوا وتجبروا ، ثم حل العدل  
الإلهي ، فذهب الظالمون بدداً ، وتركوا وراءهم دنيا مدبرة ، ودوراً خربة .

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم ..!!

ثم إن الرسول جعل من هذا الإيمان بالحق وباطكاً يعقد من تلقاء نفسه صلة  
الحب والتناصر بين أشقات المؤمنين في المشرق والمغرب .

فالمسلم في المدينة — وإن لم ير أخاه المستضعف في مكة — يحنو عليه ، ويتعصب  
له ، ويغضب من ظالمه ، ويقا تل دونه — وذلك ما امتقدم الأنصار من يثرب ،  
تجيش في حناياهم مشاعر الولاء ، لمن أحبهم بالغيب في ذات الله .

عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله قال : أيها الناس اسمعوا واعقلوا ،  
واعلموا أن لله عبداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء ، على منازلهم



وقربهم من الله . فثنا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله ! ، إنعتهم لنا ، حلهم لنا — يعنى صفهم لنا — فسر وجه النبي بسؤال الأعرابي وقال : هم ناس من أفناء الناس ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابون في الله وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسون عليها ، فيجعل وجوههم نوراً ، وثيابهم نوراً ، يفرزع الناس يوم القيامة ولا يفرعون ، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١) .

الإيمان بالله ، والحب فيه . والأخوة على دينه ، والناصر باسمه ، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها ، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعونه بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء .

إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه ، وأرهبوا المسلمين حتى شغلواهم بأنفسهم ، فناموا نومة الجحش الذي اغترف الإثم وأمن القصاص .

حسنت ظنك بالأيام إذا حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر  
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

(١) حديث حسن أخرجه الإمام أحمد (٣٤٣/٥) من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك ، الأشعري « وشهر » فيه ضعف ، وقال للنذري (٤٨-٤) : « رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن ، وألحاكم وقال : صحيح بالإسناد » قلت : ولم أجده في مستدرك الحاكم من حديث أبي مالك ، ونما أخرجه (١٧٠-٤) من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنه بنحوه وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي . وهو كما قال فهذا شاهد قوي لحديث أبي مالك .

أجل ، ففي هذه الليلة تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية ، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء .

\* \* \*

واستمع شيطان من المشركين كان يجول في مضارب الخيام ومنازل الحبيج إلى الضجة المنبعثة قريباً من العقبة ، واستطاع أن يقف على جلية الخبر . فصرخ ينذر أهل مكة : « إن محمداً والصباة معه ، قد اجتمعوا على حربكم .. » !!  
وكان صوته جهورياً يوقظ النيام .

وشعر المبايعون كأن أثمارهم بالمشركين قد انكشف ، فلم يكثرثوا للنتائج .  
وقال « سعد بن عباد » : يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لئلمين على أهل « منى » غداً بأسيا فتاً ، فقال رسول الله : لم تؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

قال كعب : فلما أصبحنا غدت علينا جلة قریش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم حثم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا . وتبايعونه على حربنا ، وإنه — والله — مامن حى من العرب أبغض أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، قال : فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون ، ما كان من هذا شئ وما علمناه ، وصدقوا ، لم يعلموا . قال كعب : وبعضنا ينظر إلى بعض<sup>(١)</sup> .

(١) هو من حديث كعب بن مالك الذى سبق فى صفحة ١٥٩ وتقدم تخريجه هناك وهناك ملاحظة وهى أن المصنف روى أول الحديث هنا بالمعنى . وهو غير متفق مع لفظ الحديث إذا تؤمل فيه بدون تأثر بأمر خارجى : ولفظة : « فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمته قط ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أذب العقبة هذا ابن أذب . استمع أى عدو الله . أما والله لأفرغن لك » . فهذا السياق لا يمكن أن يفهم منه أن « الشيطان » المعروف باللام هو رجل من



يهد أن القرآن تجمعت على أن ما قيل حق ، فخرجت قريش تطلب الأنصار ،  
فقاتوهم ، ولم يدركوا غير سعد بن عباد .

فعادوا به مغلوله يدها إلى عنقه ، وأخذوا يجذبونه من شعره ويلكزونه ،  
فأنقذه منهم جبير بن مطعم ، والحارث بن حرب ، إذ كان «سعد» يجير لما قوا فلهما  
للأمة بالمدينة .

## طلائع الهجرة

إن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له ، وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة  
هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له ، وقد تنادى المسلمون من كل  
مكان : هلموا إلى يثرب ! فلم تكن الهجرة تخلصاً فقط من الفتنة والاستهزاء ،  
بل كانت تعاوناً عاماً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن .

وأصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن  
يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه ، وأصبح ترك المدينة — بعد الهجرة إليها —  
نكوصاً عن تكاليف الحق ، وعن نصرته الله ورسوله ، فالحياة بهاديين ، لأن قيام  
الدين يعتمد على إعزازها .

وفي عصرنا هذا ، أعجب اليهود بأنفسهم ، وعانق بعضهم بعضاً مهيناً ، لأنهم  
استطاعوا تأسيس وطن وقوى لهم ، بعد أن عاشوا — مشردين — قروناً طوالاً

---

== المشركين وأيضاً يبعد جداً أن يخاطب عليه الصلاة والسلام هذا الرجل بقوله :  
« أي عدو الله لأفرعن لك » . ويؤيد ما ذكرنا رواية الطبراني لهذه القصة عن عروة  
مرسلاً وفيها : « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يرعكم هذا الصوت فإنه عدو  
الله إبليس ، ليس سمعه أحد ممن تخافون » . وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرح  
بالشيطان : يا ابن أرب هذا عمك فسأفرغ لك » قال الهيثمي ٤٧/٦ : « وفيه ابن لهيعة ،  
وحديثه حسن وفيه ضعف » .

ونحن لا ننكر جهد اليهود في إقامة هذا الوطن ، ولا حماس المهاجرين من كل فج للعيش به ، ومحاولة إحيائه وإعلائه .

واسكن ما أبعد البون بين ما صنع اليهود اليوم — أو بتعبير أدق ، ما صنع لليهود اليوم — وبين ما صنع الإسلام وبنوه لأنفسهم ، يوم هاجروا إلى يثرب نجاة بدعوتهم ، وإقامة لدولتهم .

إن اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف ، وحاكوا مؤامراتهم في ميدان السياسة الغربية الذميمة على الإسلام وأهله . فإذا العالم كله يهجم على ناسطين بالمال وال سلاح والنساء والدهاء ، فلم يستطع مليون يربى حصرتهم الخيانات في مآزق ضيقة أن يصنعوا شيئاً ، فهاجموا على وجوههم في الأرض ، نتيجة اتفاق « أمريكا وروسيا وإنجلترا وفرنسا » و ... ملوك العرب على خذلان أولئك العرب التمساء . وبذلك قام الوطن القومي لليهود ، وبثت الدعاية لتشجيع الهجرة إليه ، وإسداء العون له ، من دهاقين السياسة والذل ، في أنحاء لدنيا !! .

أين هذا الخضيض ، من رجال أخلصوا لله طواياهم ، وترفعت عن المآرب همهم ، وذهلوا عن المتاع المبدول والأمان المتاح . واستقموهم المثل العليا — وحدها — في عالم مبعج بالعم البكم ، وربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبرأة التي اعتنقوها : وتبعوا صاحبها المتجرد المكافح ، وهو لا بنى يقول : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » !!

إن المدينة الضالة التي تعشقها الفلاسفة ، وتخيلوا فيها الكمال جاءت في سطور الكتب ، دون ما صنع المهاجرون الأولون ، وأثبتوا به أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة .

إن المسلمين — بإذن رسول الله — هرعوا من مكة وغيرها إلى « يثرب » يحدوهم اليقين ، وترفع رؤوسهم الثقة .



ليست الهجرة انتقال موطن من بلد قريب إلى بلد ناء ، ولا ارتحال طالب  
حقوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة .

إنها ! كراه رجل آمن في سريره ، متمد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه ،  
وتضحية أمواله والرجاء بشخصه فحسب ، وإشعاره - وهو يصفى مركزه - بأنه  
مستباح منسوب ، قد يهلك في أوائل الطريق أوتهايتها . وبأنه يسير نحو مستقبل  
مبهم ، لا يدري ما يتمخض عنه من قلق وأحزان ، ولو كان الأمر مغامرة فرد  
بنفسه لقليل : مغامر طياش ، فكيف وهو ينطلق في طوال البلاد وعرضها ، يحمل  
أهله وولده ؟ وكيف وهو بذلك رضى الضمير ، وضاء الوجه ؟ !

إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش ! وإيمان بمن ؟ بالله الذي له مافي  
السموات والأرض ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وهو الحكيم الخبير .

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن ، أما الهيباء الخوار القلق ، فما يستطيع  
شيئاً من ذلك إنه من أولئك الذين قال الله فيهم : « وَآوْاْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ  
اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِكُمْ مَا فَمَلَوْهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ » .

أما الرجال الذين اتفقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم في مكة ، وقبضوا منه أنوار  
الهدى ، وتواصوا بالحق والصبر . فإنهم نفروا - خفافاً - ساعة قيل لهم : هاجروا  
إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمنون مستقبله .

ونظر المشركون ، فإذا ديار ب - (مكة) كانت عامرة بأهلها قد أنفرت ، ومحال  
مؤنسة قد أمحلت .

مر عتبة ، والعباس ، وأبو جهل ، على دار عمر بن ربيعة بعد ما غلقت ، فقد  
هاجر رب الدار . وزوجته ، وأخوه أحمد - وكان رجلاً ضريراً البصر - ونظر عتبة  
إلى الدار تحفق أبوابها ببابا ، ليس بها ساكن ! فلما رآها تصفر الريح في جنباتها قال :  
وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ، ستدر كها للنكباء والحووب

ثم قال : أصبحت الدار خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل للعباس هذا من عمل ابن أخيك ، فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا ..

وأبوجهل بهذا الكلام تبرز فيه طبائع الطغاة كاملة .

فهم يجرمون ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم ، ويقهرون المستضعفين ، فإذا أبو الاستكانة ، فأبأؤهم علة المشكلات ومصدر القلاقل .. !!

وكان من أول المهاجرين « أبوسلمة ، وزوجه ، وابنه » فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ وأخذوا منه زوجته ، فغضب آل أبي سلمة لرجلهم ، وقالوا : لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجادبوا الغلام بينهم ، فخلعوا يده وذهبوا به وانطلق أبوسلمة وحده إلى المدينة ، فكانت أم سلمة - بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها - تخرج كل غداة بالأبطح ، تبكي حتى تمسى ، نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها . وقال : ألا تخرجون من هذه المكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها وولدها ، فقالوا لها : الحق بزواجك ، إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبتك ، وهاجرت إلى المدينة ...

ولما أراد « صهيب » الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيرا . فكثر مالك عندنا ، وبلغت ، الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك فقال لهم صهيب : رأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم ! قال : فإنى قد جعلت لكم مالى . فباغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ربح صهيب ! (٢) .

---

(١) حديث صحيح ، ذكره ابن هشام في « السيرة » ( ٢٨٩-١ ) مطلقاً مرسلًا . وقد وصله الحاكم ( ٣٩٨٣-٣ ) من حديث ثابت عن أنس ومن حديث أبيوب عن عكرمة مرسلًا ، نحوه . وقال الحاكم . ( صحيح على شرط مسلم ) وهو كما قال وله شاهد من حديث صهيب نفسه ورواه الطبراني كما في المجموع ( ٦٠ - ٦٠ ) ، والبيهقي كما في ( البداية ) ( ٩٧٣/٣ - ١٧٩ ) .



وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحدانا . حتى كادت مكة تخلو من المسلمين . وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دار يأزر إليها ، وحصن يحتمى به وتوجست خيفة من عواقب هذه المرحلة الخطيرة في دعوة محمد . وهاجت في دماؤها غرائز السبع المفترس حين يخاف على حياته .

إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يزال في مكة ، وهو — لا بد — مدرك أصحابه اليوم أو غداً ، فلتعجل به قبل أن يستدير إليها ..

### في دار الندوة

واجتمع طواغيت مكة في دار الندوة ، ليتخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر . فرأى بعضهم أن توضع القيود في يد محمد صلى الله عليه وسلم وبشد وثاقه . ويرمى به في السجن لا يصله منه إلا الطعام ، ويترك على ذلك حتى يموت ..

ورأى آخر أن ينفي من مكة فلا يدخلها . وتنفض قريش يديها من أمره . وقد استبعد هذان الاقتراحان لعدم جدواهما . واستقر الرأي على الاقتراح الذي أبداه « أبو جهل » . قال أبو جهل : أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً . ثم تعطى كل فتى سيفاً صارماً ، ثم يضربونه — جميعاً — ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، ولا أظن بني هاشم يقومون على حرب قريش كافة ، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أدينهاها .

ورضى المؤمنون بهذا الحل للمشكلة التي حيرتهم : وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه . وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين »

إن هذا الحكم لم يتخذ في مجلس سر ، بل في اجتماع عام . ومن الطبيعي أن يعلم به رسول الله ، وأن يعرف حقيقة وضعه في مكة ، إنهم لا ينتظرون به إلا موعد التنفيذ ، ثم يقدمه الطعام قرباناً للأصنام !!

على أن رسول الله لم يكن ليوعز إلى أصحابه بالهجرة ويتخلف عنهم .  
لقد رسم الخطة التي يذهب بها إلى « يثرب » حين ندب المسلمين للهجرة إليها  
روى الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله — وهو يومئذ  
بمكة — للمسلمين : « قد أريت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين  
لأبنتين <sup>(١)</sup> » فهاجر من هاجر قبل لمدينة حين ذكر ذلك رسول الله ، ورحم <sup>(٢)</sup>  
إلى المدينة فهاجر من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين .

## هجرة الرسول

حين عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك مكة إلى المدينة ، أتى الوحي  
الكريم في قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل « وقُلْ : رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ  
صِدْقٍ وَأُخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ \* واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا » <sup>(٣)</sup> .  
ولا نعرف بشراً أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ( ١٨٦ / ٨ ) والحاكم ( ٣ / ٤ - ٤ ) والبيهقي ( ٩ / ٩ ) من حديث عائشة ، والبخاري ( ٣٥٤ / ١٢ - ٣٥٥ ) ومسلم ( ٥٢ / ٧ ) وابن ماجه ( ٤٥٥ / ٢ ) من حديث أبي موسى نحوه .  
(٢) بدأ رجوعهم ، وظل حتى السنة السادسة للهجرة العامة .

(٣) هو من حديث ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ثم  
أمر بالهجرة وأنزل عليه : قلت . فذكر الآية أخرجه الترمذي ( ٤ / ١٣٧ ) والحاكم  
( ٣ / ٣ ) والبيهقي ( ٩ / ٩ ) وأحمد ( رقم ١٩٤٨ ) من طريق قابوس بن أبي ظهان  
عن أبيه ( وليس في المسند والبيهقي . ) عن أبيه عن ابن عباس وقال الترمذي . « حديث  
حسن صحيح » . وقال الحاكم : « صحيح الاستياذ ورفقه الذهبي . وفيه نظر فإن قابوس  
بن أبي ظهان أورده الذهبي في « الميزان » ونقل عن ابن حبان أنه قال فيه : « رىء  
الحفظ بنفرد عن أبيه بما لا أصل له ، فربما رفع المرسل ، وأسند الموقوف ولذلك قال الحافظ  
في « التقريرت » « فيه لين » .



الذى لاقى في جنب الله مالا لاقى . ومع ذلك فإن استحقاق التأييد لأعلى لا يعنى التفريط قيد أنملة في استجماع أسبابه وتوفير وسائله .

ومن ثم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكم خطة هجرته ، وأعد لكل فرض عدته ، ولم يدع في حسبانها مكاناً للحفظ العمياء .

وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة ، وأن يقوم بها كأنها كل شيء في النجاح

ثم يتوكل — بعد ذلك — على الله ، لأن كل شيء لا قيام له إلا بالله .

فاذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك ، فإن الله لا يلومه

على هزيمة بلى بها . وقلمما يحدث ذلك إلا عن قدر قاهر يذر المرء فيه !!

وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً . ثم يحىء عون أعلى

يجعل هذا النصر مضاعف الثمار .

كالسفينه التي يشق عباب الماء بها ، ربان ماهر ، فاذا التيار يساعدها والريح

تهب إلى وجهتها . فلاتمكت غبر بعيد حتى تنهى إلى غايتها في أقصر من وقتها المقرر .

وهجره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة جرت على هذا

القرار . فقد استبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم معه علياً وأبا بكر ، وأذن لسائر

المؤمنين بتقدمه إلى المدينة .

فأما أبو بكر فان الرسول صلى الله عليه وسلم قال له حين استأذنه ليهاجر :

لا تعجل ، لعل الله أن يجعل لك صاحباً<sup>(١)</sup> . وأحس أبو بكر كأن الرسول صلى

الله عليه وسلم يعنى نفسه بهذا الرد !

(١) رواه ابن اسحاق ( ٧ / ٢ ) بدون إسناد : لكن معناه فيما أخرجه البخارى

( ٧ / ١٨٣ - ١٩٧ ) من حديث عائشة الطويل في الهجرة بلفظ : « وتجهز أبو بكر قبل المدينة »

فابتاع راحلتين فخبسهما في داره ، يعلفهما إعداداً لذلك .  
وأما على فإن الرسول صلى الله عليه وسلم هياه لدور خاص ، يؤديه في هذه  
المغامرة المحفوفة بالأخطار !

قال ابن إسحاق : فحدثني من لا أتهم عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، أنها  
قالت . كان لا يخطيء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر ،  
أحد طرفي النهار إما بكرة ، وإما عشياً ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه  
رسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه . أتانا رسول الله صلى  
عليه وسلم بالهاجرة ، في ساعة كان لا يأتي فيها . قالت : فلما رآه أبو بكر قال :  
ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الساعة إلا لأمر حدث . فلما دخل .  
تأخر أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند رسول  
الله أحد إلا أنا وأختي أسماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عني من  
عندك ! قال : يا رسول الله ، إنما هما ابنتاي .

وما ذاك ؟ — فذاك أبي وأمي —

قال : إن الله أذن لي في الخروج والهجرة . فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول  
الله ؟ قال : الصحبة ...

قالت عائشة : فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم . أن أحداً يبكي من  
الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي . !!

ثم قال : يا بني الله إن هاتين الراحلتين كنت أعدتهما لهذا فاستأجرا عبد الله

— فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رسلك فإنني أن يؤذن لي . فقال أبو بكر :  
هل ترجو ذلك بأني أنت ؟ قال : نعم . فخبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ليصعبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السم — وهو الجبطن — أربعة أشهر . رواه أحمد  
أيضاً له (١٩٨/٦) ثم وجدت له شاهداً من حيث ابن عمر بلفظ الكتاب رواه الطبراني  
بسند قال الهيثمي (٦٢/٦) « فيه عبد الرحمن بن بشير الدمشقي ، ضعفه أبو حاتم » .



ابن أريقط - وهو مشرك - ( ١ ) يدلّهما على الطريق . ودفعنا إليه راحلتيهما فكانتا عنده برعاهما لميعاده (١) ..

قال ابن إسحاق : ولم يعلم - فيما بلغني - بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج - يقصد نوى الخروج - إلا على وأبو بكر وآله . أما على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتخلف حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته ..

### درس في سياسة الأمور

ويلاحظ أن النبي عليه الصلاة والسلام كتم أسرار مسيره . فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسة . ولم يتوسع في إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم . وقد استأجر دليلاً خبيراً بطريق الصحراء ليستعين بخبرته على مغالبة للطاردين ونظر في هذا الاختيار إلى الكفاية وحدها . فإذا اكتملت في أحد ، ولو مشركاً استخدمه وانتفع بموهبته .

ومع هذه المرونة في وضع الخطة فإن النبي عليه الصلاة والسلام أصر أن يدفع

(١) أخرجه ابن إسحاق (٢/٢ - ٣ من ابن هشام) ونسبه شيخه الذي لم يسم ، لكن قد سماه ابن جرير (٢/١٠٣) في رواية عن ابن إسحاق فقال : « قال حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبيد بن الله الحسين التميمي قال : حدثني عروة بن الزبير به ومحمد بن عبد الرحمن هذا في عداد المجاهدين : «أوردت ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل» (٣/٣١٧٢) وذكر أنه روى عن جماعة وعنه ابن إسحاق . ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . لكنه لم ينفرد بالحديث فقد أخرجه ابن جرير (٢/١٠١ - ١٠٣) من طريق هشام بن عروة به نحوه . وإسناده صحيح . وأخرجه البخاري وأحمد من طريق الزهري قال : « عروة به ، مع شيء من الاختصار .

ثمن راحلته . وأبى أن يتطوع أبو بكر به ، لأن البذل في هذه الهجرة ضرب من العبادة ينبغي الحرص عليه وتستبعد النيابة فيه .

واتفق الرسول عليه الصلاة والسلام مع أبي بكر على تفصيل الخروج ، وتخيروا الغار الذي يأرون إليه ، تخيروا جنوباً في اتجاه اليمن لتضليل المطاردين . وحددوا الأشخاص الذين يتصلون بهم في أثناء اللجأ إليه ، ومهمة كل شخص .

ثم عاد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بيته ، فوجد قريشاً بدأت تضرب الحصار حوله ، وبعثت بالفتيان الذين وكل إليهم اغتيال محمد عليه الصلاة والسلام وتفريق دمه بين القبائل ! !

وأوعز الرسول عليه الصلاة والسلام إلى علي بن أبي طالب في هذه الليلة الرهيبة أن يرتدى برده الذي ينام فيه ، وأن يتسجى به على سريرته . وفي هجعه من الليل وغفلة من الحرس ، أنزل الرسول عليه الصلاة والسلام من بيته إلى دار أبي بكر ثم خرج الرجال من خوخه في ظهرها . . . إلى غار ثور . . . إلى الغار الذي استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة ، ومستقبل حضارة كاملة ، وتركته في حراسة الصمت والوحشة والانعطاع . . . !

## في الغار

وسارت الأمور على ماقدرا ، وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لما يمايقول الناس فيهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من أخبار . وأمر عاصم بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار . فكان عبد الله بن أبي بكر في قريش يسمع ما يأمرون به وما يقولون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر . ثم يأتيهما إذا أمسى فيقص عليهما ما علم ، وكان عاصم في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله من عندهما إلى مكة ، أتبع عاصم بن فهيرة أثره بالغنم ، يعني عليه .



وتلك هي الحيلة البالغة . كما تفرضها الضرورات المعتادة على أى إنسان ..

وانطلق مشركو مكة فى آثار المهاجرين يرصدون الطرق ، ويفتشون كل مهرب وراحوا ينقبون فى جبل مكة وكهوفها ، حتى وصلوا - فى دأبهم - قريباً من غار ثور ، وأصت الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه إلى اقدام المطاردين ، تخفق إلى جوارهم ، أخذ الروح أبا بكر ، وهمس يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو نثار أحدهم تحت قدمه لآنا » فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما <sup>(١)</sup> .

ويظهر أن المطاردين داخلهم القنوط الله العثور عليهما فى هذا الفج ، فترا كضوا عائدتين ، وروى أحمد <sup>(٢)</sup> : « أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا الجبل - جبل ثور - اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت . فقالوا : لو دخل ها هنا أحد ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليال » .

ورواية أحمد حسنة ، وإن لم ترد بها السنن الصحاح ، ولم يرد كذلك ذكر الحائث باضت على فم الغار أو غير ذلك .

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٠٧/٧) ومسلم (١٠٩/٧) وغيرهما من حديث أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه .

(٢) فى للسند (رقم ٣٥١) من طريق عثمان الجزرى أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس به . وحسن المؤلف إسناده ، وكأنه تبع فيه ابن كثير فى « البداية » (١٨٨-١٨/٣) . وتبعه أيضاً الحافظ فى « الفتح » (١٨٨/٧) وفى تحسينه نظر قان عثمان الجزرى وهو ابن عمرو بن ساج قال العقيلي « لا يتابع فى حديثه » ولهذا قال الحافظ ابن حجر فى « التقريب » : فيه ضعف . ولا يقويه الشاهد الذى ذكره ابن كثير ، وابن حجر من رواية الحسن البصرى فإنه - مع كونه مرسل - فيه يشار الخفاف وهو ابن موسى وليس بثقة كما قال ابن معين ، والنسائى ، وضعفه غيرهما .

قال الله تعالى في ذكر الهجرة : « إلا تنصروهُ فقد نصرهُ الله ، إذا أخرجهُ  
الذين كفروا ثانی اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله  
معنا فأنزل الله سكينة عليه ، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا  
السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » .

والجنود التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين  
من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق إنما أعم من أن تكون مادية أو  
معنوية وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل في ضخامتها ، فقد تفتك جرثومة  
لا تراها العين بجيش ذى لب « وما يعلم جنود ربك إلا هو »

ومن صنع الله لنبيه أن تعصى عنه عيون عداته وهو منهم على مد الطرف ،  
ولم يكن ذلك محابة من القدر لقوم فرطوا في استكمال أسباب النجاة ، بل هو  
مكافأة من القدر لقوم لم يرعوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها ، وكم من  
خطة يضعها أصحابها فيبلغون بها نهاية الإيقان تمر بها فترات عصيبة لأمر فوق  
الإرادة أو وراء الحساب . ثم تستقر أخيراً وفق مقتضيات الحكمة العليا وفي حدود  
قوله تعالى : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

### في الطريق إلى المدينة

مرت ثلاث ليال على مبيت الرسول عليه الصلاة والسلام في الغار ، وخذ  
حماس المشركين في الطلب . وتأهب المهاجران لإستئناف رحلتهما الصعبة .  
وجاء « عبد الله بن أريقط » في مواعده ومعه رواحله قد أعلفها لإستقبال  
صفر بعيد . وتزود الركب ثم سار على اسم الله .  
غير أن قریشاً ساءها أن تحقق في استرجاع محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه  
فجملت دية كل واحد منهما جائزة لمن يحيى بهما أحياء أو مواتا .

ومائتان أومائه من الإبل في الصحراء تروى بركوب المخاطر وتحمل المشاق



وقد قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشركين لن يألوا جهداً في الإساءة إليه، فالتزام في سيره جانب المحاذرة، وأعانهم مهارة الدليل على سلوك دروب لم تعتدها للقوائل، ثم أطاق الزمام للرواحل فمضت تصل النهار بالليل.

رمى بصدور العيس منخرق الصباً فلم يدر خلق<sup>ته</sup> بعدها أين يما؟  
فلما مروا بجى مدلج مصعدين، بصر بهم رجل من الحى فقال: لقد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، ما أظنها إلا محمداً عليه الصلاة والسلام وأصحابه فقطن إلى الأمر سراقه بن مالك ورغب أن تكون الجائزة له خاصة فقال: بل هم فلان وفلان قد خرجوا لحاجة لهم... ومكث قليلاً ثم قام فدخل خبائه وقال لخادمه: اخرج بالفرس من وراء الخباء وموعدك خلف الأكمة.

قال سراقه: فأخذت رمحي وخرجت من ظهر البيت وأنا أخط بزجه الأرض، حتى أنيت فرسى فركبتها، فعدتها ففرت بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسى فخررت عنها! فقامت..

وامتطى سراقه فرسه مرة أخرى وزجرها فانطلقت حتى قرب من الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه، وكان أبو بكر يكثر الالتفات يتبين هذا العذر الجسور، فلما دنا عرفه فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان ماضياً إلى غايته - : هذا سراقه بن مالك قد رهقنا! وما أتم كلامه حتى هوت الفرس مرة أخرى ملقية سراقه من على ظهرها، فقام معفراً ينادى بالأمان!!

ووقع في نفس سراقه أن الرسول عليه الصلاة والسلام حق فاعتذر إليه وسأله أن يدعو الله له وعرض عليهما الزاد والمتاع. فقالا: لا حاجة لنا، ولـكن عم<sup>نا</sup> عنا<sup>الطلب</sup> (١)، فقال: قد كفيتم، ثم رجع فوجد الناس جادين في البحث عن محمد

(١) إلى هنا أخرجه البخاري (١٩٠/٧ - ١٩٢) والحاكم (٦/٣ - ٧) من حديث سراقه بن جهم: وبقيّة الفصة إلا السطر الأخير أخرجه مسلم (٢٣٦/٨ - ٢٣٧) من حديث البراء بن عازب والسطر المذكور عند البخاري (٢٠٠/٧) من حديث أنس وراوه أحمد أيضاً (٢١٢/٣).

عليه الصلاة والسلام وصاحبه ! فاجعل لا يلقى أحداً من الطلب إلا رده وهو يقول :  
كفيتم هذا الوجه !

أصبح أول النهار جاهداً عليهما ، وأمسى آخره حارساً لهما ... !!

### دعاء

إن أسفار الصحراء توهي العمالة الآمنين . فكيف بركب مهدر الدم  
مستباح الحق ؟

ما يحس هذه المتاعب إلا من صلى نارا لقد برزنا لوهج الظهيرة يوماً  
فكادت الأشعة البيضاء المنعكسة على الرمال تخطف أبصارنا . فعدنا منمضين  
نستبقى من عيوننا ما خفنا ضياعه .

وعندما تصبح وتمسى وسط وهاد ونجاد لا تنتهى حتى تبدأ ، تخال العالم كله  
مهامه مغبرة الأرجاء داكنه الأرض والسماء .

وجرت عادة المسافرين أن يأووا في القيلولة إلى أى ظل ، فى بطاح ينتعل كل  
شئ فيها ظله ، حتى إذا جنحت الشمس المغيب ، تحركت المطايا اللاعبة تغالب  
الجفاف والكرى .

وللعرب طاقة احتمال هذا الشظف ، مع قلة الزاد والرى .

وقد مر بك أن الرسول — وهو طفل — قطع هذه الطريق ، ذهب مع  
أمه لزيارة قبر أبيه ثم عاد وحده !

وإنه — الآن ليقطعها وقد بلغ الثالثة والخمسين ، لا لزيارة أبويه اللذين ماتا  
بالمدينة بل لرعاية رسالته التى تشبث بأرض يثرب جذورها ، بعد ما تبرمت مكة  
بها وبصاحبها وبمن حوله ...

إنه أرسخ أهل الأرض يقينا بأن الله ناصره ومظهر دينه ، بيد أنه أسيف  
للفظظة التى قوبل بها ، وللجحود الذى لاحقه من بدء رسالته حتى اضطره إلى



المهجرة على هذا النحو العنيف ، ها هو ذا يخرج من مكة وقد أعلن سادتها عن  
الجوائز المغرية لمن يقتاله ...

روى أبو نعيم <sup>(١)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجراً  
إلى الله قال :

« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً . اللهم أعنى على هول الدنيا وبوائق  
الدهر ومصائب الليالى والأيام . اللهم أصحبنى فى مفردى ، وأخلفنى فى أهلى ،  
وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، وأليك رب  
فجبنى ، وإلى الناس فلا تسكنى . رب المستضعفين وأنت ربى . أعوذ بوجهك  
الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصالح عليه  
أمر الأواین والآخرين أن تحل على غضبك ، وتنزل بى سخطك . وأعوذ بك من  
زوال نعمتك وفجأة نقمتهك ، ونحول عافيتك وجميع سخطك . لك العتبى عندى خير  
ما استطعت . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

• • •

ومما يلفت النظر أن انطلاق الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة شاع فى  
حوائب الصحراء ، وكأن أسلاك البرق طيرته إلى أقصى البقاع . فلم به البدو  
والحضر على طول الطريق حتى يثرب ، بل إن المحال التى عرج بها وصل نبؤها  
إلى أهل مكة بعد أن انصرف عنها .

والناس يعجبون بقصص البطولة ، وتستثيرهم ألوان التحدى ، وهم يتناقلون  
الأخبار السيالة على الألسن ، فيضفون عليها ثياب الأساطير وقد سرت قلوب

---

(١) عزاه إليه ابن كثير ( ١٨٧ / ) من طريق محمد بن اسحاق قال : بلغنى ان رسول الله  
صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجراً الى الله يريد المدينة قال : فذكر الدعاة قلت :  
وهذا اسناد ضعيف معضل .

كثيرة بقلب محمد عليه الصلاة والسلام على من تبعوه ، وترجمت عواطفها هذه شعراً يتغنى به ولا يعرف قائله !! ..

من ذلك ما روى عن أسماء (١) بنت أبي بكر قالت : مكثنا ثلاث ليال ما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل رجل من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر :

جزى الله رب الناس خير جزائه      رفيقاً — بين حلا خيمتي أم معبد  
هم — انزلا بالبر ثم تروحا .. !      فأفلاح من أمسى رفيق محمد  
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم      ومقعداً لها للمؤمنين بمرصدا .. !

قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن وجهه إلى المدينة !

من القائل ؟ تذكر الرواية أنه من الجن ! وتلك عادة العرب في نسبة شعرها فلـكل شاعر عندهم شيطان .. ! (٢)

(١) إسناده معضل : قال ابن إسحاق كما في السيرة ( ٢ / ٤ — ٥ ) : « فحدثت أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : .. فكثنا ثلاث ليال وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب ، وإن الناس يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول : فذكر الأبيات وبعضها عن غير ابن إسحاق كما ابن هشام .

(٢) أقول : إذا جاز هذا على العرب في جاهليتها أفيجوز ذلك عليهم في اسلامهم وقد نور الله به قلوبهم أن تتدنس بشيء من الأوهام ؟ أيجوز أن يقال في حق أسماء إنها أطلقت اسم « الجن » بل « الشيطان » على « المؤمن » ؟ وما هي الضرورة التي تلجئ حضرة المؤلف إلى هذه التأويلات البعيدة بل الباطلة ؟ ! ألا ترى في الرواية — كما ذكرنا — أن الجن كان الناس يتبعونه يسمعون صوته وما يرونه ؟ ! أفهذا من صفات الإنسي ؟ ! خير المؤلف أن يعرض عن ذكر هذه الرواية مطافاً — ولا سيما وهي ضعيفة .



والراجع أن الآيات المذكورة من إنشاد مؤمن يكتف إيمانه بمكة ويتسمع أخبار المهاجرين فيبدي فرحته بما يلقون من توفيق ، ويجد متنفساً لشاعره المتوارية في هذا الغناء المرسل .

والآيات تشير إلى واقعة عرضت للرسول عليه الصلاة والسلام في أثناء رحلته . فقد مر على منازل خزاعة . ودخل خيمة أم معبد ، فاستراح بها قليلاً ، وشرب من لبن شاتها .

## الوصول إلى المدينة

وكذلك ترامت أخبار المهاجر العظيم وصاحبه إلى المدينة . فكان أهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد ، ويتشوقون إلى مقدمه بلمحة . فإذا اشتد عليهم الحر عادوا إلى بيوتهم يتواعدون الغد ، وملء جوارحهم الترقب ، والقلق ، والرجاء .

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول لثلاث عشرة سنة من البعثة برز الأنصار على عادتهم منذ سمعوا بمخرج الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم ، ووقفوا بظاهر المدينة ينتظرون طلوعه ويودون رؤيته . فلما حيت الظهيرة وكادوا يأسون من مجيئه وينقلبون إلى بيوتهم . صعد رجل من اليهود على أطم من أطامهم ، لبعض شأنه ، فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه يتقاذفهم السراب . وتذوَّبهم الرواحل

---

— من أن يتأولها هذا التأويل المستكرَّم وجدت الحديث موصولاً أخرجه الحاكم (٩/٣ — ١٠) من حديث هشام ابن حبيب وقال : « صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وفيما نقله نظر وقال الهيثمي (٥٨/٦) : رواه الطبراني وفي إسناده جماعة لم أعرفهم » لكو للحديث طريقين آخوين أوردهما الحافظ ابن كثير في « البداية » (٣/١٩٢ — ١٩٤) فأخذت هذه الطرق لا ينزل عن رتبة الحسن والله أعلم .

رويداً رويداً إلى المدينة ، إلى وطن الإسلام الجديد ، فصرخ اليهودى بأعلى صوته :  
يا بنى قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء ، هذا جدكم الذى تنتظرون ...

فأسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم ، وسمع التكبير برُج أنحاء  
المدينة ، وايسست « يثرب » حلة العيد ومباهجه .

قال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب  
ابن عمير ، وابن أم مكتوم . فجاءا يقرئان الناس القرآن ، ثم جاء عمار ، وبلال .  
وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين راكباً . ثم جاء رسول الله صلى الله عليه  
وسلم . فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به ، حتى رأيت النساء والصبيان  
والإماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء <sup>(١)</sup> .

يا عجباً لنقائض الحياة واختلاف الناس ! إن الذى شهرت مكة سلاحها لتقتله ،  
ولم ترجع عنه إلا مقهورة استقبلته المدينة وهى جزلانة طروب ، وتنافس  
رجالها يعرضون عليه المنعة والعدة والعدد ...

ومن الطريف أن كثيراً من أهل المدينة لم يكن رأى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، فلما قدم الركب لم يعرفوه من أبى بكر لأول وهلة حتى أن العواتق  
كن يترأينه فوق البيوت يقلن . أيهم هو ؟ .

ونزل النبي صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة  
ليلة أسس خلالها مسجد قباء . وهو أول مسجد أسس فى الإسلام . وفيه نزل قوله  
تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه  
رجال يحبون أن يتطهروا » .

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٠٨/٧ - ٢٠٩/٨ ، ٥٦٨) والطيالسى (٩٤/٢)



## استقرار المدينة

رجل العقيدة يسير طوعاً لها ، ويمجد طمأنينته حيث تقرر عقيدته وتلقى  
الرحب والسعة .

والناس يزدنون معادتهم فيما تعلق به همهم وجاشت به أمانيتهم ، وهم ينظرون  
إلى الدنيا وحظوظهم منها على ضوء مارسب في نفوسهم من عواطف وأفكار ..  
فطالب الزعامة يرضى أو ينقم ، وينشط أو يكسل . بمقدار قربه أو بعده من  
أمله الحبيب .

أنظر إلى المتنبي كم مدح وهجا ؟ وكيف انتقل من الشام إلى مصر ، ومن مصر  
إلى غيرها ، وانظر إلى ذكره أحاديث الناس عنه وعن بنيته .

يقولون لي ما : ما أنت ؟ في كل بلدة وما تبغى ؟ ما تبغى جل أن يسمى

والذي جل أن يسمى صرح به في كل مكان آخر فطلب أن تناط به ضيعة  
أو ولاية ! ! أي بعض ما وضعته الحظوظ في أيدي الملوك والملاك ، وإنه ليتعجل  
هذا الأمل من كافور فيقول :

أبا المسك هل في الكأس فضل أنا له ؟ فإني أغنى منذ حين وتشرب !

والمتنبي في نظري أهل - بكفايته - للمناصب الرفيعة . ولكن التطلع إلى  
الدنيا بهذه النزق والإلحاح ، محكوم بالمشيئة التي ذكرتها الآية : « من كان  
يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » .

ومن الناس من يعشق الجمال ويجري وراء النساء ويمجد في المتعة بهن نهمة  
يسكن بعدها ويستكين . ويقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور العيون

ومنهم من يبحث عن المال ويقضى صحابة نهاره وشرط ليله يتبع الأرقام  
في دنايره ، يحصى ما وقع في يده ويتربص بما لم يقع . وربما ذهل عن طعامه  
ولباسه في غريزة الاقتناء التي سدت عليه المنافذ .

\* \* \*

إلى جانب هذه الأصناف تجد فريقاً آخر من البشر لا يطبق الكف عن  
إسداء الجميل ، وبذل النصيحة ، ورعاية الصالح العام . وإفناء ذاته في سبيل الفضائل  
التي ملكت لبه وعمرت قلبه ...

إنه يبيت مسهداً لو فرط في واجب ... راحته الكبرى في نشدان الكمال .  
وسعادته القصوى يوم يدرك منه سهماً ...

وأصحاب الرصالات رهناء ما تحملوا من أمانات ضخمة ، ففنائهم ومغارمهم  
وحالهم وترحالهم وصدقاتهم وخصوماتهم ترجع كلها إلى المعاني التي ارتبطوا بها .  
وحيوا لأجلها ...

وصاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله ضرب من نفسه المثل القذ للمكافئين .  
فخذ أخذ على عاتقه تمزيق الأسداف التي ألقت على العالم ليلاً كثيفاً من الشرك  
والخرافة لم يفتح أحد في ثنيه عن عزمه أو تعويق مسيره أو ترضيته برغبة أو ردعه  
برهية ، وفئت أمام عينيه فوارق الزمان والمكان ، فالغريب عنه إذا عرف الحق  
قريب ، ووطنه إذا تذكر للهدى فهو منه برى . والمؤمنون به آخر الدهر هم  
إخوانه وإن لم يشاهدوه .

ولقد عاش في مكة ثلاثة وخمسين عاماً حتى ألقاها وألفته ، لكنه اليوم يخرج  
منها إلى وطن جديد يرى فيه امتداد قلبه وثمار غرمه .



والرجال الذين تتبع سعادتهم من قلوبهم ويرتبون أمام ضمائرهم بمبادئهم  
لا يكرمون بيعة بعينها إلا أن تكون صدى لما يرون .  
فلا غرو إذا دخل محمد صلى الله عليه وسلم المدينة دخول الوامق الممتز . .  
واستبشر بما آتاه الله فيها من فتح . وتوسم من وراء هذه الهجرة بشار  
الخير والنصر .

ثوى في قریش بضع عشرة حجة	يذكر لو يلقى حبيباً مواتياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه	فلم يرَ من يؤدى ولم يرَ واعياً
فلما أتانا واستقرت به النوى	وأصبح مسروراً بطيبة راضياً
وأصبح لا يخشى ظلامه ظالم	بعيد ولا يخشى من الناس باغياً
بذلنا له الأموال من جل مالنا	وأفسنا عند الوغى والتأسيا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم	جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا رب غيره	وأن كتاب الله أصبح هادياً

\* \* \*

إن تنظيم الهجرة واستقبال اللاجئين الفارين بدينهم من شتى البقاع ليس بالعمل  
السهل . وفي عصرنا الحاضر تعتبر هذه الحال مشكلة تحتاج إلى الحل السريع ؟  
ومتى خلت حياة الرجل العظيم من المشكلات ؟  
وصادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة ( يحمى ) الماريا ، فلم تمض  
أيام حتى مرض بها أبو بكر ، وبلال .  
واستوخم الصحابة جو المهجر الذى آواهم . ثم أخذت تستيقظ غرائز الحنين  
إلى الوطن المفقود .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصبر الصحابة على احتمال الشدائد .  
ويطلبهم بالمزيد من الجهد والتضحية لنصرة الإسلام وقال : « لا يصبر على لأواء

المدينة وشذتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة ، ولا يدعها  
رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه « (١) .

وهذا ضرب مع جمع القلوب على المهجر الجديد حتى تطيب به وتنفر  
من مغادرته .

وعن عائشة قالت . لما قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وعك أبو بكر  
وبلال ، فدخلت عليهما فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ وبابلال كيف تجدك ؟ وكان  
أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل أمرىء مصَّبَح في أهله والموت أدنى من شرك نعله .  
وكان بلال إذا أفلح عنه يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد ، وحولى إذخر وجليل  
هل أردن يوماً مياه بحنة وهل يبدون لحامة وطفل ؟ (٢)

قالت : فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : اللهم حبب  
إلينا المدينة كحبنا مكة ، أو أشد ، اللهم وصححها وبارك لنا في مدنها وصاعها ،  
وانقل حماتها وأجمعها بالبحفة « (٣)

وعن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل بالمدينة ضعف  
ما جعلت بمكة من البركة » (٤)

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم ( ١١٣ / ٤ ) وأحمد ( رقم ١٥٨٣ ) من حديث سعد  
ابن أبي وقاص بتقديم الجملة الأخرى على الأولى . ورواه البزار من حديث عمر بنحو ما في  
الكتاب ، قال الهيثمي ( ٣٠٦ / ٣ ) ورجاله رجال الصحيح .  
(٢) جبال مكة .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري ( ٩٩ / ٧ — ٢١٩ ) وأحمد ( ٦٥ / ١ ) ٢٢١ ،  
— ٢٢٢ ، ٢٣٩ — ٢٣٩ ، ٣٦٠ ) ورواه مسلم ( ١١٩ / ٤ ) مختصراً بدون الآيات  
وهو رواية لأحمد ( ٥٦ / ٦ ) ،

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري ( ٧٨ / ٥ ) ومسلم ( ١١٥ / ٤ ) وأحمد ( ١٤٢ / ٢ )



وعن أبي هريرة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بأول  
التمر قال : اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارنا وفي مدّنا وفي صاعنا ، بركة مع  
بركة ، اللهم إن إبراهيم عبدك ونبيك وخليك ، وإني عبدك ونبيك ، وإني أدعوك  
لمكة ، وأنا أدعوك للمدينة بمثل مادعاك لمكة ومثله معه » ثم يعطيه أصغر من  
يحضر من ولدان ...<sup>(١)</sup>

بهذا التشويق والإقبال ارتفع الروح المعنوي بين المسلمين ، واتجهت القوى  
الفتية إلى البناء ، متناسية الماضي وما يضم من ذكريات ، إن الهجرة الخالصة  
لا تعود في هبة ولا ترجع عن تضحية ولا تبكي على فائت ، بل هي كما قال الشاعر :  
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد      إليه بوجه آخر الدهر تقبل ... !!

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٤ / ١١٧) .





( ٥ )

أسس البناء للهجرة المجدية

ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس ، همها أن تعيش بأى أسلوب ، أو تحتفظ  
طريقها في الحياة إلى أى وجهة ، وما دامت تجد القوت واللذة ، فقد أراحت  
واستراحت .

كلا كلا ، فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله ، وتوضح نظرهم إلى  
الحياة ، وتنظم شئونهم في الداخل على أنحاء خاصة ، وتسوق صلاتهم بالخارج إلى  
غايات معينة .

وفرق بين امرئ يقول لك : همى في الدنيا أن أحيأ فحسب ! وآخر يقول  
لك : إذ لم أحرس الشرف ، وأصن الحقوق ، وأرض الله ، وأغضب من أجله ،  
فلا سمعت بى قدم ، ولا طرفت لى عين . . . ؟ !

والمهاجرون إلى المدينة ، لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء ثراء أو استعلاء .  
والأنصار الذين استقبلوهم وناصربو قومهم العداء . وأهدفوا أعناقهم للقاصي  
والداني ، لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق . . .

إنهم — جميعاً — يريدون أن يستضيئوا بالوحي ، وأن يحصلوا على رضوان  
الله ، وأن يحققوا الحكمة العليا التي من أجلها خلق الناس ، وقامت الحياة . . .  
وهل الإنسان إذا حجد ربه ، واتبع هواه ، إلا حيوان ذميم ، أو شيطان  
رجيم ؟ ؟ .

من هنا شغل رسول الله صلى الله عليه وسلم — أول مستقرة — بالمدينة  
بوضع الدعائم التي لا بد منها لقيام رسالته . وتبين معالمها في الشئون الآتية :

١ — صلة الأمة بالله .

٢ — صلة الأمة بعضها ببعض الآخر .

٣ — صلة الأمة بالأجانب عنها ، ممن لا يدينون دينها .



## المسجد

ففي الأمر الأول مآدر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بناء المسجد ، لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت ، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين ، وتنقى القلب من أدران الأرض ، ودماس الحياة الدنيا .

والمروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بنى مسجده الجامع حيث بركت ناقته ، في مربد اغلامين يكفلهما « أسعد بن زرارة » ، وكان الغلامان يريدان النزول عنه لله ، فأبى الرسول عليه الصلاة والسلام إلا ابتياعه بثمنه ! وكان المربد قبل أن يتخذ مصلى كهذه المصليات التي تنتشر في ريفنا . كانت تنبت فيه نخيل وشجر غرقد ، وتختفي في ترابه بعض قبور للمشركين .

فأمر الرسول بالنخل فقطع ، وبالقبور<sup>(١)</sup> فنبشت ! ؟ وبالحرب فسويت . وصنفوا للنخيل قبلة للمسجد<sup>(٢)</sup> — والقبلة يومئذ بيت المقدس — وجعل طوله مما يلي القبلة إلى المؤخرة مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك تقريباً ، وجعلت عضاداتها من الحجارة ، وحفر الأساس ثلاثة أذرع ، ثم بنى بالابن ، واشترك الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حمل اللبنة والأحجار على كواهلهم .

وكانوا يروحون عن أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء .. بهذا الفناء

الاهم لا عيش إلا عيش الآخرة      فافقر للأنصار والمهاجرة ! !

وقد ضاعف حماس الصحابة في العمل رؤيتهم النبي عليه الصلاة والسلام بجهد

(١) هي أجدات أتى عليها البلى « حتى هجرت » فلا يدفن بها أحد .

(٢) ثبت هذا في « الصحيحين » وغيرهما من حديث أنس .

كأحدهم ، ويكره أن يتميز عليهم ، فارتجز بعضهم هذا البيت :

لئن قعدنا والرسول يعمل      لذاك منا العمل المضلل !!

وتم المسجد في حدود البساطة ، فراشه الرمال والحصباء . وسقفه الجريد ، وأعمدته الجذوع ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وقد تفلت الكلاب إليه فتغدو وتروح .

هذا البناء المتواضع الساذج ، هو الذي ربي ملائكة البشر ، ومؤدبي الجبابرة وملوك الدار الآخرة ، في هذا المسجد أذن للرحمن لنبي يؤم بالقرآن خير من آمن به ، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل .

إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي ، تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادى فهو ساحة للعبادة ، ومدرسة للعلم ، وندوة للأدب ، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليدهى لباب الإسلام ، لكن الناس — لما أعياهم بناء النفوس على الخلائق الجليلة — استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة ، تضم مصابين أقراماً !! .

أما الأسلاف الكبار فقد أنصرفوا عن زخرفة المساجد وتشبيدها إلى زكية أنفسهم وتقويمها ، فكانوا أمثلة صالحة للإسلام . . .

والمسجد الذى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم همته إلى بنائه قبل أى عمل آخر بالمدينة ، ليس أرضاً تحمى العباد فوقفها ، فالأرض كلها مسجد ، والمسلم لا يتقيد فى عبادته بمكان .

إنما هو رمز لما يكثر له الإسلام أعظم أكرام ، ويتشبه به أشد تشبه وهو وصل العباد بريهم وصلاً يتجدد مع الزمن ، ويتكرر مع آناء الليل والنهار فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد ، وتجهل اليوم الآخر ، وتخلط المعروف بالمنكر ! .



والحضارة التي جاء بها الإسلام . تذكر أبدأ بالله وبلقائه وتمسك بالمعروف ،  
وتبغض في المنكر ، وتقف على حدود الله . . .

ولقد شاهد يهود المدينة ومشركوها هذا الرسول الجديد يحتشد مع صحبه في  
إقامة المسجد ، يمهده للصلاة ، فهل رأوا سيرة تريب أو مسلكا يغمز ؟ ؟

روى البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف <sup>(١)</sup> قال : كانت أول خطبة خطبها  
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله  
ثم قال : « أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن الله ليصعقن أحدكم ،  
ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه — ليس له ترجمان ولا حاجب  
يحجبه دونه — : ألم يأتك رسولي فبلغك ؟ وآيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما  
قدمت لنفسك ؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير  
جهنم ، فمن استطاع أن يقى نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد  
فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام  
عليكم وعلى رسول الله . . . !!!

## الاخوة

أما عن الأمر الثاني — وهو صلة الأمة بعضها ببعض الآخر — فقد أقامه  
الرسول صلى الله عليه وسلم على الإخاء الكامل . الإخاء الذي تمحى فيه كلمة

(١) هذا ؛ خطأ ؛ وإنما رواه البيهقي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال :  
فذكره . هكذا أورده الحافظ ابن كثير في « البداية » ( ٢١٤ / ٣ ) ثم أعلاه بالإرسال  
وقد روى ابن جرير ( ١١٥ / ٢ - ١١٥٥ ) بسند صحيح عن سعد بن عبد الرحمن الجمحي  
أنه أبلغه عن خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . في أول جمعة صلاها بالمدينة فذكرها  
وهي مغبرة كل المغيرة لخطبة أبي سلمة ؛ وهي ضعيفة أيضاً لأنها معضلة ؛ الجمحي هذا يروى  
عن أتباع التابعين مثل هشام بن عروة : وغيره .

« أنا » ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها ، فلا يرى لنفسه كياناً  
دونها ، ولا امتداداً إلا فيها . . .

ومعنى هذا الإخاء ، أن تذوب عصبية الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام .  
وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن . فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا  
بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً . لا لفظاً فارغاً ،  
وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا نحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر . . . !!  
وكانت مواطن الإيثار والمواساة والمؤانسة تبرز في هذه الأخوة ، وتتلأ  
المجتمع الجديد بأروع الأمثال . . .

حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين ، فما نزل مهاجرى على  
أنصارى إلا بقرعة ! ! وقدر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلوه ، ولا نالوا  
منه إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف .

روى البخارى : أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين  
عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع : فقال سعد لعبد الرحمن . إني أكثر  
الأنصار مالا ، فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك ! فسمها  
أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك  
ومالك ، أين سوقكم ؟ ؟

فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ! ثم  
تابع الفدو . . . ثم جاء يوماً ، وبه أثر صفرة <sup>(١)</sup> ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :  
« مهيم <sup>(٢)</sup> » ؟ قال : تزوجت !



قال : « كم سقت إليها » قال : نواة من ذهب !

وإعجاب المرء بسماحة « سعد » لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن ، هذا الذي زاحم اليهود في سوقهم ، ونزهم في ميدانهم ، واستطاع - بعد أيام - أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه ، إن علو الهمة من خلائق الإيمان ، وقبح الله وجوه أقوام انتسبوا للإسلام فأكلوه ، وأكلوا به حتى أضاعوا كرامة الحق في هذا العالم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة . لم يتميز عنهم بلقب إعظام خاص ، وفي الحديث : « لو كنت متخذاً من أمي خليلاً لاتخذته - يعني أبا بكر - خليلاً - ولكن إخوة الإسلام أفضل » (١)

والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة ، فحيث يشيع الجهل والنقص والجن والبخل والجشع ، لا يمكن أن يصح إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جملوا على شمائل نقية ، واجتمعوا على مبادئ رضية ، ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله .

فسمو الغاية التي التقوا عليها ، وجلال الأسوة التي قادتهم إليها ، نبياً فيهم خلال الفضل والشرف ، ولم يدعوا مكاناً لنجوم خلة رديئة .

ذلك ، ثم إن محمداً عليه الصلاة والسلام كان إنساناً ، تجمع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخيرات ، فكان صورة لأعلى قمة من السكال يمكن أن يبلغها بشر ، فلا غرو إذا كان الذين قبسوا منه ، وداروا في فلسكه ، رجالاً يهيون بالنجدة والوفاء والسخاء .

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده ، ولا يتكلف استخراج بالآلات والآقال

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ( ١٤/٧ ) من حديث ابن عباس بهذا اللفظ .

والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم ، وإنما هي أثر تخاص الناس من نوازع الأثرة والشح والضعفة .

وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين ، لأنهم ارتقوا - بالاسلام - في نواحي حياتهم كلها ، فكانوا عباد الله إخوانا . ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض !!

على أن تنوبها بقيمة التماسي النفساني في تأسيس الإخاء ، لا يمنع الحاكم من فرضه على الناس نظاماً يؤخذون بحقوقه أخذاً ، فإذا لم يؤدوها طواعياً أدونها كرهاً وذلك كما يجبرون على العلم ، والجنديّة ، وأداء الضرائب ، وغير ذلك .

\* \* \*

وقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقعة « بدر » حتى نزل قوله تعالى : « وألوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم » فألغى التوارث بعقد الأخوة ، ورجع إلى ذوى الرحم . وروى البخارى عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ... »

قال : كان المهاجرون - لما قدموا المدينة - يرت المهاجري الانصارى دون ذوى رحمه ، للأخوة التى آخى النبي عليه الصلاة والسلام بينهم . فلما نزلت : « ولكل جعلنا موالى ... » نسخت ثم قال « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ، ويوصى له .

\* \* \*

روى في تفصيل هذا الإخاء أن النبي صلى الله عليه وسلم تأخى مع على وتأخى حمزة مع زيد ، وأبو بكر مع خارجة ، وعمر مع عتبان بن مالك .. الخ ومن العلماء من يشك في أخوة الرسول عليه الصلاة والسلام مع على .



ولكن ما صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل علياً منه بمنزلة هارون  
من موسى يؤيد هذه الرواية<sup>(١)</sup> : وليس يחדش هذا من منزلة أبي بكر  
ولا استحقاقه الصدارة.

• • •

## غير المسلمين

أما الأمر الثالث ، وهو صلة الأمة بالأجانب عنها ، الذين لا يدينون بدينها ،  
فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سن في ذلك قوانين السباح والتجاوز التي  
لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي ، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار  
دين آخر ، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط  
هو رجل مخطيء بل متحامل جريء .!

---

(١) قلت : كلا ، لا تأييد ، فإن الأخوة المذكورة أخص من تلك للنزلة ، ولا يثبت  
الأخص بالأعم ، فلا يثبت إثبات الأخوة بتخص خاص . وقد تنبعت الأحاديث الواردة فيها فوجدتها  
لا تخلو من كذاب ، ومن أشهرها ما أخرجه الترمذي (٣٢٨/٤) والحاكم (١٤٢) من  
طريق حكيم بن جبير عن جميع بن عمير عن أبي عمر قال أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
بين أصحابه فجاء على تدعى عيناه فقال : يا رسول الله أخيت بين أصحابك ولم تواخ بيني وبين  
أحد ؟ فقال رسول الله : أنت أخى في الدنيا والآخرة . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن  
غريب » وتمتبه الشارح المبارك كغوري بقوله : « حكيم بن جبير ضعيف مرمرى بالتشيع » قلت :  
ذهل هو والترمذي عن علته الحقيقية وهي « جميع بن عمير » هذا . قال الذهبي في الميزان :  
« قال ابن حبان . رافضى يضم الحديث وقال إن عميرا كان من أكاذيب الناس » ثم ساق  
له الذهبي هذا الحديث ، وقدرناه أيضاً سالم بن أبي حنيفة الكاهلي أخرجه الحاكم متابعاً لحكيم  
ابن جبير ، فتمتبه الذهبي في « التخليص » بقوله : « قلت : جميع انهم ، والكاهلي هالك ،  
قلت : كذبه ابن أبي شيبة وموسى بن هارن . وقال الدارقطني : هو في عداد من يضع  
الحديث » ومن شاء الاطلاع على بقية الأحاديث وعللها فليراجع « المجموع » (١١١/٩)  
واللالي للصنوعة (١٩٩ ، ١٩٤ ، ٢٠١) .

عندما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وجد بها يهوداً توطنوا  
ومشركين مستقرين .

فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للابعاد أو المصادرة والخصام ، بل قبل —  
عن طيب خاطر — وجود اليهود والوثنية ، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة  
للدلد ، على أن لهم دينهم وله دينه .

ونحن نقتطف فقرات من نصوص المعاهدة التي أبرمها مع اليهود ، دليلاً على  
إتجاه الإسلام في هذا الشأن .

جاء في هذه المعاهدة ، أن المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم  
وجاهد معهم أمة واحدة .

وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة <sup>(١)</sup> ظلم ، أو إثم ، أو  
عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم !!  
وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ..

وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر  
محدثاً <sup>(٢)</sup> ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ،  
ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ..

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما دامو محاربين .

وأن يهود بني عوف أمة من المؤمنين .

لل يهود دينهم والمسلمين دينهم .

وأن لليهود بني النجار والحارث وساعدة وبني جشم وبني الأوس النخ .

مثل ما لليهود بني عوف .

وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب

أهل هذه الصحيفة .



وأن بينهم النصيح والنصيحة والبر ، دون الإثم .  
وأنه لم يأتهم امرؤ بحليفه ، وأن النصر المظلوم ، وأن الجار كالنفس غير مضار  
ولا آثم .

وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ...  
وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .  
وأن من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن ، إلا من ظلم . وأنهم ...  
وأن الله جار لمن برواقي<sup>(١)</sup> .. » .

وهذه الوثيقة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة لنشر  
السكينة في ربوعها ، والضرب على أيدي العابدين ومدبري الفتن أيا كان دينهم .  
وقد نصت - بوضوح - على أن حرية الدين مكفولة .

فليس هناك أدنى تفكير في محاربة طائفة أو إكراه مستضعف . بل تكاثفت  
العبارات في هذه المعاهدة على نصرة المظلوم ، وحماية الجار ، ورعاية الحقوق الخاصة  
والعامة ، واستنزل تأييد الله على أبر ما فيها وأتقاه ، كما استنزل غضبه على من  
يخون ويفش ..

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو . وأقرت حرية  
الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها ، والعودة فيها لمن يحفظ حرمتها .  
ويلاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه المعاهدة أشار إلى العداوة  
القائمة بين المسلمين ومشركي مكة وأعلن رفضه الحاسم لموالاتهم وجرم إصدااء أى  
عون لهم وهل ينتظر إلا هذا الموقف من قوم لا يزال جروحهم تقطر دماً لبني  
قريش وأحلافها عليهم ؟

أكان لليهود صادقين في موافقتهم على هذا العهد .

(١) روى هذه الوثيقة ابن إسحاق ( ١٦/٢ - ١٨٠ ) بدون إسناد .

أغلب الظن أنهم لم يكونوا جادين حين ارتضوه وقبلوا إنفاذه .  
وآفة اليهود أن يرتبط الوفاء بهابدى المنفعة المرجوة منها . فإذا بدا أن المعاهدة  
المبرمة لا تحقق المطامع المبتغاة ، قلّ التمسك بها والتمست الفرص للتحلل منها .  
وقد كان اليهود يبنون عظمتهم للماديه والسياسية على تفرق العرب ، قبائل  
متناحرة ، فلما دخل العرب في الإسلام وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى وتماحلت  
الأيام تؤكد أن الإسلام سوف يصنع من العرب أمة واحدة . . استشعر اليهود  
القلق وصاورتهم الهموم ، وشرعوا يفكرون في الكيد لهذا الدين والتربص بأتباعه .  
ثم إن اليهود في المدينة يكونون البيئة التي تتوافر فيها سوءات الثدين المصنوع .  
والاحتراف للسمح بمبادئ السماء وأبرز خلال هذه البيئات الحقد والنفاق والتمسك  
بالقشور والولع بالجدل . ومن وراء ذلك قلوب خربة ، ونفوس معوجة .  
وربما اقتبسوا من جوارهم للعرب بعض فضائل الصحراء ، كالكرم والشجاعة  
بيد أن انطواءهم العنصرى غلب على سيرتهم . فالتصقت هذه الفضائل بنفوسهم  
كما تلتصق أوراق الزينة بالجدران المشوهة ...

وكان المتوقع أن يرحب اليهود بالإسلام . فإذا لم يرحبوا به فليكونوا أبطالاً  
من الوثنيين في خاصيته . فإن محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى توحيد الله ، وإصلاح  
العمل ، والاستعداد لحياة أرقى في الدار الآخرة والدين الذي جاء به ، وقرموسى ، وأعلى  
شأنه . ونوّه بكتابه . وطلب من اليهود أن ينفذوا أحكامه ، وبازموا حدوده .

لكن اليهود صمموا - أولاً - صمت المستريب . ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالجحود  
وهذا الترحيب المتوقع تلمح دلالة في كثير من الآيات فإن عبدة الأصنام . إذا  
أنكروا النبوة ، فأهل الكتاب يحب أن يشهدوا بها « ويقول الذين كفروا .  
لست مرسلًا . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب »  
وعبدة الأصنام إذا رفضوا التذكير بالله . فأهل الكتاب أحق بأن يخشعوا إذا



وجدوا من يذكرهم به « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون .  
غير أنك تدهش ، إذا تجد المرأة على الله ، والنفور من أحكامه ، ووصفه بما لا يليق . شائعة بين اليهود ، شيوعها بين المشركين !  
فإذا غضب الإسلام على من ينسب إلى الله ولداً ، بشراً أو حجراً ، فماذا ترى حين يصف رب السموات والأرض بالفقر والبخل ؟  
« وقالت اليهود : يدُ الله مغلولة » غلت أيديهم ! ولعنوا بما قالوا ..  
« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء » سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق .

\*\*\*

على أن الإسلام يدع أولئك الجحدة في ضلالهم ، فلا يستأصل كفرهم بالسيف ، ويكتفى بأن يمان دعوته ، ويكشف حقيقته ، ويملاً الجو بآياته ومعامله .  
فمن استراح إليها فدخل فيها ، فيها ونعمت وإلا فهو وشأنه . ولا يطالبه الإسلام بشيء إلا الأدب والمسالمة ، وترك الحق يسير ، من خير عائق أو نكير .  
ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فمد يده إلى اليهود مصافحاً ، وتحمل الأذى مسامحاً ، حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به ومحو دينه ، إستدار إليهم ، وجرت بينهم من الوقائع ، ما منقص أخباره في موضعه ....

\*\*\*

بتقوى الله والاخلاص له ، دُعمت الناحية الروحية في هذا المجتمع الجديد .  
وبالإخاء الحق ، تماسك بنيانه وتوثقت أركانه ...  
وبالعدل والمساواة ، والتعاون ، رُسِمت سياسة الأجانب ، وهو مل أنباع الأديان الأخرى .  
ومن ثم استقرت الأوضاع . ووجد المسلمون متسعاً لتجديد قواهم وترتيب شئونهم

## المصطفون الأخيار

إن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أتيح لهم ما لم يتح لغيرهم من منابع الصفاء ، ووسائل الارتقاء .

إن مشاعرك ترق عندما تسمع النغم العذب ، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الرائعة ، بل إن الذين يحضرون تمثيل بعض الروايات المثيرة بصيغهم جوقة القصة المنتملة ، فيضحكون ، ويبكون ، ويهدأون ويضجون .. فما ظنك بقوم يتبعون رجلا تكلمه السماء ، ويتفجر من جوانبه الكمال ، ويسكب على من حوله آيات الطهر ؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير ، دفع بها إلى الأمام ، وإذا علقت بمسالكتهم شهوة ، نقاها فرد عليها سناءها . إن للأطباء إشعاعاً يغمر البيئة التي يظهرون فيها ، وكما يقترب المصباح الخامد من المصباح المشتعل فيضيء منه ، تقترب النفوس المعتادة من الفرد الممتاز ، فتنتطوي في مجاله . وتمشي في آثاره !!

وقد التف بمحمد صلى الله عليه وسلم فريق من الربانيين الأتقياء ، كانوا له تلاميذ مخلصين ، فزكت - بصحبته - نفوسهم ، وشفقت طباعهم ، حتى أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب .

ولا تحسبن العقل الجبار - مهما أوتى من نفاذ - يستطيع إدراك الكمال بقوته الخاصة . فإذا لم تسدده عناية عليا . فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر غاية أو يهتدى طريقاً ، كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتكاثر أمام عينه للضباب فإنه يحكم القيادة ، ويضبط الآلات ، ويرسل أنوار مصابيح في أحشاء الغيوم المتراكمة . فإذا لم يتلاق إرشاداً يحدد له مكانه ويعرفه كيف يهبط .. فإنه سيظل يحلق عبثاً .. ثم تهوى به الريح في مكان سحيق .

وكم من فلاسفة عاجلوا شئون الكون والحياة . فمنهم من ضل عن الحق هلى



طول بحثه عنه ، فلم يصل إليه قط ! ومنهم من استغرق في الوصول إليه أحواما طوالا .  
ولومشى وراء الرسل لانهى إليه فى أيام قصار ، وهو فى مأمن من الشرود والعتار !

ثم إن الإنسان ليس عقلا فحسب ، إنه — قبل ذلك — قلب ينبغى أن يسلم  
من الأهواء والآثام ، وأن ينبجو من الشقاوة والظلام ، وأن يكون فى حنايا صاحبه  
قوة تسوق إلى الخير والحب ، وحاديا يهفو إلى الجمال والرحمة ..

والمرسلون الكرام يتعهدون ضمائر البشر بالتعليم والتربية .

وأشبه الناس بهم من اقتفى آثارهم وأخذ فى طريقهم وأول أولئك قاطبة .  
من محبوبهم فى حياتهم ، وقاسموهم أعباء دعوتهم ومغارم جهادهم ..

قال عبد الله بن مسعود : « من كان مستنفا فليستن بمن مات فإن الحى لا تؤمن  
عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام . كانوا أفضل هذه الأمة ،  
أبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا . اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه .  
فأعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ،  
فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .. »

ولاشك أن أصحاب محمد يرجحون أصحاب موسى وعيسى .

فإن تاريخهم فى الإيمان والجهاد وإبلاغ الدعوة إلى الأخلاف كاملة مضبوطة ،  
غير منقوصة ، ولا محرفة ، لا يشبه أى تاريخ آخر ..

ومنحن نسوق هذه المقدمة بين يدي الكلام عن الأذان ، وكيف شرع ؟ فإن  
ميلاد هذه الشميرة العظيمة ، يحمل معه آيات بينه عن عظمة النفوس إذا صفت  
فنضحت بالحق ، وسكن إليها الإلهام ...

قال ابن إسحاق : وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ، إنما

يجتمع الناس إليه للصلاة حين موافقتها بغير دعوة . فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل بوقا كبوق يهود الذي يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فنحت ليضرب به المسلمون للصلاة . فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بني الحارث النداء ، فأتى رسول الله فقال : يا رسول الله ، إنه طاف بي هذه الليلة طائف ، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده ، فقلت يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ قال : قلت ندعو به إلى الصلاة .. قال : ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت ما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله . حتى على الصلاة ، حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح حتى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله . فلما أخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ! فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك . فلما أذن بها بلال سمعه عمر وهو في بيته فخرج إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يجر رداءه يقول : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذي رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فله الحمد<sup>(١)</sup> . وفي رواية :

(١) حديث أخرجه ابن إسحاق في « المفازي » ( ١٩/٢ — ٢٠ ) : حدثني محمد ابن إبراهيم الحارث عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد عبيد ربه عن أبيه وهذا سند حسن ، وقد أخرجه أبو داود والدارمي وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وأحمد كلهم من طريق ابن إسحاق به وأخرجه الترمذي مختصراً . وقال : « حديث حسن صحيح . وصححه جماعة من الأئمة ذكرتهم في كتبهم » ( صحيح سنن أبي داود ) ( رقم ٥١٢ ) وله شاهد مختصر من رواية أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار أخرجه أبو داود ( رقم ٥١١ من صحيح أبي داود — ولم يطبع ) وأخرجه البيهقي ( ٣٩٩/١ — ٤٠٠ ) .



فأمر رسول الله بلالا فأذن به<sup>(١)</sup> . قال الزهري : وزاد بلال في نداء الصلاة —  
الغداة : الصلاة خير من النوم مرتين . فأقرأها رسول الله<sup>(٢)</sup> .

وفي رواية أخرى رأى عمر في المنام : لا تجملوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ،  
فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بما رأى وقد جاء النبي عليه الصلاة  
والسلام الوحي بذلك .

فما راع عمر إلا بلال يؤذن فقال رسول الله حين أخبره بذلك : قد سبقك  
بذلك الوحي<sup>(٣)</sup> .

وهذا يدل على أن الوحي قد جاء بتقرير ما رآه عبد الله بن زيد . .

هذه الكلمات الطيبة التي ترتفع بين الحين والحين ، تقرب الأذان ، وتوقظ  
القلوب وتصيح بالناس : هلموا إلى الله .. وعلمها في رؤيا صالحة ذهن نير ، فأمر بها إلى

---

(١) لا حاجة لهذه الرواية فإن معناها في التي قبلها .

(٢) أخرجه ابن ماجه ( ١ / ٥٤١ ) عن الزهري بسند ضعيف . ورواه بنحوه أحمد  
( ٤٣ / ٤ ) من قول سعيد بن المسيب وفي سنده انقطاع ، لكن معنى الحديث صحيح فإن له  
شواهد كثيرة أوردت بعضها في « الثمر المستطاب » ، في فقه السنة والكتاب منها عن أنس  
قال : كانت التثويب في صلاة الغداة إذا قال المؤذن حي الفلاح قال : « الصلاة خير من النوم »  
مرتين أخرجه الدارقطني والطحاوي والبيهقي ( ١ / ٤٢٣ ) وقال : « إسناده صحيح » ( تنبيه )  
لا يخفى على الفقيه أن بلالا كان يؤذن الأول للفجر ، فإذا ضمننا هذا إلى ما تقدم ينتج منه  
أن السنة أن يقال : « الصلاة خير من النوم » في الأذان الأول لا الثاني ، وهذا ما جاء به  
النص فقال ابن عمر : كان في الأذان الأول بعد الفلاح ، « الصلاة خير من النوم الصلاة خير  
من النوم » أخرجه الطحاوي ( ١ / ٨٢ ) وغيره بسند حسن كما قال الحافظ في « التلخيص »  
( ٣ / ١٦٩ ) . وفي الباب عن أبي مخذولة .

(٣) ذكر « ابن هشام » ( ٢ / ٢٠ ) فقال : وذكر ابن جريج قال لي عطاء : سمعت  
عبيد بن عمير الليثي ، فذكره . وهذا — مع انقطاعه — مرسل .

رسول الله ، يرويها كما ألقيت في روعه ، لتكون نداء المسلمين إلى الصلاة ما أقيمت  
على ظهر الأرض صلاة ..

وتجاوب النفوس مع الوحي هو غاية التألق وقة الحق ، وهو أمانة على أن  
الهدى أصبح غريزة فيها ، فهي تستقيم عليه في اليقظة والنوم ، وتتجه إليه على  
البدئية وبعد التروى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربط أصحابه بالوحي  
النازل عليه من السماء ربطاً موثقاً ، يقرؤه عليهم ويقرأونه عليه ، لتكون هذه  
المدارس إشعاعاً بما على الصحاب من حقوق الدعوة وتبعات الرسالة ، فضلاً عن  
ضرورة الفهم والتدبر !!

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ على القرآن !!  
فقلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ! قال : إني أحب أن أسمعه من غيري !  
قال : فقرأت له سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية « فكيف إذا جئنا من  
كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » قال حسبك الآن ، فالتفت إليه ،  
فإذا عيناه تذرفان <sup>(١)</sup> ..

زاد في رواية « شهيداً ما كنت فيهم .. »

وإذا كان الاهتداء إلى ألقاظ الأذان قد ترشحت له سريرة مصفاة ،  
مشغوفة بالعبادة ، مشغولة بالحق ، فإن من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم  
كذلك ، من اندمجوا في معاني الإيمان ، وخلصوا لمعنى الرسالة حتى إن  
الله أمر رسوله أن يقرأ عليهم بعض سور القرآن ، تنوياً بمكانهم عند الله  
ورسوخهم في آياته .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢/٨ ، ٧٧ ، ٧٠) ومسلم (١٩٦/٣) والرواية ونصها  
« عن ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم : شهيداً عليهم مادمت فيهم أو ما كنت فيهم  
(شك مسمر الراوى) . »



عن أنس بن مالك قال قال رسول الله لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك » لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين . . » ، قال أبي : وسماني ؟ قال : نعم ، وفي رواية « الله سماني لك ؟ قال : نعم . قال : وقد ذكرت عند رب العالمين ؟ قال : نعم قال : فذرفت عيناه . . » (١) .

• • •

## معنى العبادة

وسر الارتقاء الروحي والجماعي الذي أدركه صحابة محمد أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح ، فلم يشعروا في الفعل له بما يشعر به الكثيرون من عنف وتكلف ، ولا يعانون من شرود وحيرة . !

هناك طبيعتان في الإنسان غير منكورتين ، الإعجاب بالعظمة والعرفان للجميل . فعندما ترى آلة دقيقة أو جهازاً عجيباً أو صورة رائعة أو مقالا بليغاً فإنك لا تنتهي من تبشّير حسنه حتى تنطوي جوارحك على الإعجاب بصاحبه ، فإن الذكاء العميق والافتقار البارز بجمالناك تنحى من تلقاء نفسك احتراماً للرجل الذكي القدير . !

وكذلك عندما يسدي إليك معروف أو تمتد يد إليك بنعمة إنك تذكر هذا

---

(١) أخرجه البخاري ( ٨ / ٩٠٠ ، ٥٨٩ - ٥٩٠ ) والرواية الأخرى له ولمسلم ( ٢ / ١٩٥ ) وأحمد ( ٣ / ١٣٠ ، ١٨٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤ ) وعنده الرواية الأخرى . ورواه الترمذي ( ١ / ٣٦٨ ) والحاكم ( ٣ / ٢٠٤ ) وصحاحه وأحمد ( ٥ / ١٢٢ - ١٢٣ ، ١٢١ « ١٨٢ » ) من حديث « أبي » نفسه ، وأحمد أيضاً ( ٣ / ٤٨٩ ) من حديث أبي حبه البدرى .

الصنيع لمن تطوع به ، وعلى قدر ضخامة ما نلت من خير ، يلهج لسانك بالثناء ويمتلي  
فؤادك بالحمد ، كما قال الشاعر :

أفادتكم السماء منى ثلاثة      يدى ، ولسانى ، والضمير المحجبا !!

ورسول الإسلام جاء يشير هاتين الطبيعتين نحو أحق شئ بهما ، أأنت  
تعجب بالعظمة وتحتمنى بصاحبها ! أأنت تقدر النعمة وتشكر مسديها !

إنك ترمق ، بإجلال ، مخترع الطيارة ، وكلما رأيتهما تشق الفضاء زدت إشادة  
بعبقريته ! فما رأيك فيمن يدفع الألوف المؤلفة من الكواكب تطير في جو السماء  
من غير توقف ولا عوج ؟ وما رأيك فيمن خالق عقل هذا المخترع ، وأودع في  
تلايف مخه الذكاء الذى وصل به إلى مراعك واستشار إعجابك ؟

أليس ربك ورب كل شئ أحق بأن تعرف عظمته وتفتح عبوك على آثار  
قدرته ... ؟

فإذا عرفت عظمته من عظمة الوجود الذى يحيط بك خجلت من التهجم عليه  
ونسبة مالا يليق إليه !! وقلت مع العارفين « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه  
فقدنا عذاب النار » .

إنك لو استضافك شخص كريم ورأيت البشاشة في وجهه والسماحة في - قراه  
حفظت له - ماحييت - هذه المنة ، وسعيت جهدك كي تكافئه عليها ، وحدثت  
من تعرف بسجايها هذا المضيف الكريم ، فما رأيك فيمن تولى أمرك بنعمائه من  
المهد إلى اللحد ؟ فأنت لا تطعم إلا من رزقه . ولا تسكس إلا من ستره ، ولا تأوى  
إلا إلى كنفه ، ولا تنجو من شدة إلا بإنقاذه ... !!

إن محمداً صلى الله عليه وسلم وصل الناس برهم على ومضات لطاف من تقدير  
العظمة ورعاية النعمة ، فهم إذا انبعثوا لطاعته كانوا مدفوعين لأداء هذه الطاعات  
بأشواق من نفوسهم ورغبات كامنة تميش بتوقير العظيم وحمد المنعم ...



والعبادة ليست طاعة القهر والسخط ، ولكنها طاعة الرضا والحب .  
والعبادة ليست طاعة الجهل والغفلة ، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة !  
قد تصدر الحكومة أضرأ بتسكير البضائع قيقبل التجار كارهين ، أو أضرأ  
بمخفض الرواتب فيقبل الموظفون ساخطين .

وقد تشير إلى البهيمة المعجاء فتفقد إليك لا تدري إلى مرتعها تسير أم إلى  
مصرعها .

تلك أنواع من الطاعات بعيدة عن معنى العبادة التي شرع الله للناس فالعبادة  
التي أجزاها الله على الألسنة في الآية الكريمة « إياك نعبد وإياك نستعين » والتي  
جعلها حكمة الوجود وغاية الأحياء في قوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا  
ليعبدون » تعنى الخضوع المقرون بالمعرفة والمحبة ، أي الناشيء عن الإعجاب بالعظمة  
والعرفان للجميل ..

وقد اطردت آيات القرآن تبني سلوك المؤمنين على هذه العمدة الراسية .  
فهى — إذ تعرف الناس بالله — تريهم صحائف مشرقة من خلقه البديع ،  
وفضله الجزيل ، تمزق ما نسجته الغفلة على الأعين من جهالة وجحود .  
« الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج  
به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجروا فى البحر بأمره وسخر  
لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر داثبين ، وسخر لكم الليل ،  
والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن  
الإنسان لظلوم كفار »

إن الرجل لا يقوم بالعمل العظيم وهو منساق إليه بالسياط السكاوية ، إنما  
تولد الإجابة ويبلغ الشئ درجة الإحسان بما يقارنه من رغبة ورضا .  
فإذا أقبل المرء بفكره وقلبه على معتقد ، وهب له نفسه وحس ، وعاش بحلم به  
فى منامه وينشط له فى يقظته ، وذلك يرقى به صعداً فى فهم مبدئه وإجادة خدمته .

ومن ثم فإن الإسلام لا يحفل بالإيمان النظري البحت ولا يقبله إلا ليكون مسلماً إلى ما بعده ، وهو الإيمان بالعقل والعاطفة معاً .

لا بد من تلوين الوجردان في قضايا الإيمان ، ليس بمسلم من يعرف الله ويكرهه ولا قيمة لمسلم يعرف الله ووجدانه خال باهت ، فلا إعجاب فيه ولا شكران . كما أنه لا غمط فيه ولا جحود .

والمسلم كل المسلم هو الذي يعرف الله معرفة اليقين ، ويضم إلى هذه المعرفة إحساساً يعترف بمجادة الجيد ونعماء المنعم ، تباركت أسماؤه !

والإيمان بهذه المثابة هو الإيمان المنتج ، وهو صانع العجائب ، وباني الدول ، ومقيم الحضارات السنية هو الذي يجعل الفرد يستحلي التكاليف المنوطة بعنقه ، فيقبل على أدائها ، وكأنها رغبات نفس ، لا واجبات دين . .

أتظن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما قام يصلي حتى تورمت أقدامه كان يغالب الألم الناح في بدنه كما يغالبه التلميذ المذنب ، عندما يوقف الساعات الطوال معذباً مهاناً ؟

كلا . . كلا . . إن استعذابه للمناجاة واستغراقه في الخشوع أذهلاه عما به ، وغلبا على بؤادر الألم الناشئ من طول الوقوف . .

والرجل الموفور الحماس ، الفائر العاطفة ، قد يظل يعمل ويدأب حتى يصل في عمله ودأبه إلى درجة يصعب منالها على القاعدين البادرين .

ووزن الأمور عند أصحاب الإيمان والهمم غير وزنها عند أصحاب الريبة والعجز ، أترى حذيفة بن اليمان عندما انطلق يتعرف أحوال المشركين في غزوة الخندق ، في ليلة باردة ، قارصة الجو ، لائحة السبرات :

لا ينبغي الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خيشومه الذئب !  
لقد انطلق وهو يقول عن نفسه : كأنما أسير في حمام . .



هذه حرارة الإيمان غمرت — بدائها — الرجل ، وجملته ينفذ في كبد الليل للبارد وكأنه منهم مسدد .

هذا الإيمان المرتكز على العواطف المتقدمة ، هو الذى أشعل للمعارك الطاحنة ، وقاد إلى النصر المظفر ، وهو الذى هدم ما تركز قرونًا طويلة ، من سلطان الظلم والبغي ، بعد ما ظن أنه لن يطيح أبداً .

وأساسه ما علمت من تغلغل الإيمان في العقل والعاطفة معاً ، يفتدو شجرته الباسقة مزبد من معرفة الله ، والشعور بعظمته ونعمته .

ذلكم أسلوب القرآن في تعريف الناس بالله . إنه أسلوب يقيمهم على عبودية الحب والتفانى ، لا على عبودية التحقير والمهوان ، عبودية الإعجاب بالعظمة والإقرار بالإحسان ، لا للعبودية المهمة التي تصدر الإرادة وتزرى بالإنسان .

« قل : الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى الله خيرٌ أمّا يشركون ؟ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ؟ بل هم قومٌ يَعْدِلُونَ !

« أمّن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رَواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ .. أإله مع الله ؟ ! بل أكثرهم لا يعلمون ! .

« أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون .

« أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون .

أمّن يبدأ خلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

إن هذا التساؤل المتواصل السريع ، يفتح على النفس آفاقاً بعيدة من الإيمان الذكي ، ويجعلها تهرع إلى الله متجردة ، تنفر من شوائب الشرك نفور الرجال الكبار من عبث الصبية .

وآيات النظر والتفكير . يدور — أغلبها — على هذا المحور الثابت .

وربما احتاجت النفس — في ساعات غرورها — إلى لون من أدب القمع والتوعد بكبح جماحها ، وهذا لا يتنافى — البتة — مع الأصل الذي قررناه آنفاً ، فإن قسوة الأب مع ولده — حيناً — لا تغير من طبيعة الحنان فيه .

والقرآن إذ يحرك المواهب السامية في الإنسان — بعرض آثار القدرة العليا عليه — قد يردف ذلك بوخزات توقظ الإحساس المخدر ، ليلتفت ويعقل ، لا لينكش ويجهن .

قال الله تبارك وتعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، ثُمَّ يَهْبِجُ بِهِ فُتْرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يجعله حطاماً . إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » .

ويقول بعد ذلك : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ الْإِسْلَامَ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »

• • •

وقد سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم المنهج نفسه في غرس الإيمان ورعاية ثماره .

وكانت سيرته في لاقبال على الله درساً حياً ، ينعم الأئمة بإجلال الله وإعظامه والمسايرة إلى طاعته . والنفور من عصيانه .

وكانت القلوب تنفتح على هدى الله ورسوله ، فما تسمع بعده شيئاً .



عن جبير بن مطعم سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ الآية « أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون ا . أم عندكم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ » كاد قلبي أن يطير ... ١١ (١) .

ومد الإيمان من فكرة في الرأس إلى عاطفة في القلب ، تجعل الرجل ينبض باليقين والإخلاص ، هو من صميم السنة . وهو مهاد الخلال الفاضلة التي سادت المسلمين وأعلنت شأنهم ، وهو معنى الحديث المشهور « ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . ومن أحب عبداً لا يحبه إلا الله . ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار .. (٢) »

ومن ذلك أيضاً أن يتغافل الإيمان بالرسالة والمغالة بصاحبها إلى حد ينسى الإنسان معه نفسه فهو — عن حب واندفاع ، لاعت تكليف ورهبة — يفدى الرسالة وصاحبها بالنفس والنفيس .

عن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام وهو آخذ بيد عمر فقال عمر : يا رسول الله ، لأنت أحب إلى من كل شيء إلا نفسي ! فقال الرسول صلى الله عليه وسلم . لا — والذي نفسي بيده — حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال عمر : فإنه الآن لأنت أحب إلى من نفسي ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر (٣) .. ، أي الآن فقط تم إيمانك .

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري ( ٨٤٩/٩ ) من حديث جبير بن مطعم ،  
(٢) حديث صحيح . أخرجه البخاري ( ٥١/١ - ٥٢ ) ومسلم ( ٤٨/١ ) وغيرهما  
عن حديث أنس .  
(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري ( ٤١٥/١١ ) وأحمد ( ٢٣٣/٤ ) من حديث  
عبد الله ابن هشام .

وهذا الحديث يحتاج إلى إيضاح . إن الفضائل لا يجوز أن تطيش بها كفة .  
وقد احترّم الناس خالق الوفاء في السموات ، لما ترك ابنه يذبح ، مؤثراً أن  
تسلم ذمته ، ويرد إلى من إثمته وديعته .

والمرء إذا ضحى بنفسه فداء شرفه ، فقد أدى واجبه .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يطلب من الناس أن يقدموا فيه صوة اللحم والدم ،  
ولا أن يرغبوا بنفسه عن أنفسهم لموتوا كي يحيا أو ليهونوا كي يعظم ، أو ليفقدوا  
أجدادهم الخاصة بأرواحهم وأموالهم ، أو ليتأله فوقعهم ، كما تأله فرعون وأمثاله  
من الجبابرة .

كلا كلا ، فمحمد يريد من المؤمنين أن يقدموا فيه معنى الرسالة وأن يقتدوا  
فيه مثلها العالية ، وأن يصونوا — في شخصه — معالم الحق للمنزل وما أثر الرحمة العامة .  
إن الأنبياء لم يحيو لأنفسهم ، والمصيبة فيهم لا تنزل بهم أو بأهلهم خاصة .

إنهم يحيون للعالم كله . أليسوا مناط هدايته القامة وسعادته العامة ؟

فلا غرو إذ كانت تفديتهم من أصول الإيمان ومعاقده الكمال .

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أهلاً لأن يحب وماتعرف الدنيا رجلاً فاضت  
القلوب إجلاله ، وتقافى الرجال في حياطته وإكباره مثل ما يعرف ذلك لصاحب  
الرسالة المظنى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

### قيادته تهوى إليها الأئمة

عن عبد الله بن سلام قال : أول ما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة  
انجفل الناس إليه ، فكنفت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستشيتته علمت أن  
وجهه ليس بوجه كذاب قال : وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : —



« يا أيها الناس أفشوا السلام . وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام ،  
فدخلوا الجنة سلام »<sup>(١)</sup> .

إن أضواء الباطن تنضح على الوجه فتقرأ في أساريه آيات الطهر ، وقد ذهب  
عبد الله يستطلع أخبار هذا الزعم المهاجر . فنظر إليه يحاول استكشاف حقيقته ،  
فكان أول ما طمأن إليه بعد التثبت من أحواله ، أن هذا ليس بكاذب ، والملاح  
العقاية والخلق لشخص ما ، لا تعرف بنظرة خاطفة ، ولكن الطابع المادى الذى  
يضاف على الروح الكبير ، كثيراً ما يكون عنواناً صادقاً على ما وراءه .

على أن الذين عاشروا محمداً صلى الله عليه وسلم أحبوه إلى حد الهيام ، وما  
يغالون أن تندق أعناقهم ولا يחדش له ظفر .

وما أحبوه كذلك ، إلا لأن أنصبت من الكمال الذى يعشق عادة لم يرزق  
بمثله بشر .

كان ثومان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحب له ، قليل الصبر  
عنه فأتاه ذات يوم ، وقد تغير لونه ، يعرف الحزن فى وجهه ، فقل له رسول الله  
صلى الله عليه وسلم . ما غير لونك ؟ فقال : يا رسول الله ، ما بى مرض ولا وجع ،  
غير أنى إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى أفاق ، ثم إنى إذا ذكرت  
الآخرة أخاف ألا أراك لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين ، وإنى إن دخلت الجنة  
كنت فى منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخلها لم أرك أبداً فنزل قوله تعالى :  
( ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين  
والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا )<sup>(٢)</sup> .

(١) حديث صحيح أخرجه الترمذى (٣١٣/٢) وابن ماجه (٤٠٠/١-٤٠١) والحاكم  
(١٣/٣) واحمد (٤٥١/٥) وقال الترمذى : « حديث صحيح » وقال الحاكم : صحيح على  
شرط الشيخين « ووافقه الذهبي . وهو كما قال .  
(٢) رواه الواحدى فى « أسباب النزول » (ص ٢٢) تعليقا عن الكلبي . وقال —

وفي الحديث . المرء مع من أحب (١) والمقصود حب الأسوة . لأحب  
الهوس ، فإن الرجل إذا أحب من هو مثله أو أعلى منه ، فأساس هذا الحب تفتح  
قلبه لخلال النبل التي خصوا بها . وعظمة المواهب التي يزم بها القدر .

وآثار الشجاعة والكرم لا يرحب بها الجبن الشحيح . إنما يهيئها في أصحابها  
من أوتي حظاً منها ، وهو بسبيله إلى استكمال مافاته من تمامها .

فمن نعمة الله أن يالحق بالعلماء من يشق فيهم جمل العظمة . ولذلك قال بعد  
الآية السابقة : « ... ذلك الفضل من الله وكفى بالله عابداً » .

والحق أن التابع المحب شخص فاضل .

ففي الدنيا كثير من الأخساء الذين إن علوا ، حقروا من دونهم . وإن دنوا ،  
كرهوا من فوقهم ! فما تدري متى تخلوا نفوسهم من أحاسيس البغضاء والضعة ؟  
أما عشاق المبدى ، المجرده ، فما إن وجدوا رجلها المنشود حتى يحيطوا به ،  
وتلمع عيونهم حباً له ، أى حباً للمبادئ التي حييت فيه وانصرفت به .

وما كان ربك ليضيع هذا اليقين ولا أصحابه الأبرار .

عن أنس قال : لما كان اليوم الذي دخل النبي صلى الله عليه وسلم فيه المدينة أضواء منها

فذكره . وهذا مع إعضاله فإن الكلبي كذاب : لكن أخرجه الطبراني في « المعجم الصغير »  
( ص ١٢ ) ومن طريقه أبو نعيم في « الحلية » ( ٣٢٥ / ٧ ) وعنه الواحدى ( ص ١٢٣ ) .  
وابن مردويه والمقدسى « في صفات الجنة » من حديث عائشة مختصراً ليس فيه قوله ما غير لولئك  
وقال المقدسى : لا أرى بإسناده بأساً » وله شاهد من حديث ابن عباس وآخر من مرسل  
سميد بن حنبل وغيره أوردها الحافظ ابن كثير في البداية ( ١ / ٥٥٢ - ٥٢٣ )

( ١ ) حديث صحيح أخرجه البخارى ( ١٠ / ٤٥٩ - ٦٢ ) ومسلم ( ٨ / ٤٣ ) من حديث  
أنس وابن مسعود وأبي موسى . وهو حديث متواتر كما قلنا ابن كثير وغيره .



كل شيء . فلما كان اليوم الذي مات فيه ، أظلم منها كل شيء . وما نفضنا أيدينا من دفته حتى أنكرنا قلوبنا (١) .

فانظر إلى بشاشة العاطفة الغامرة : كيف صبغت الآفاق بألوانها الزاهية ، وانظر إلى حسرة الفقد : كيف تخلف سوادها السكابي على كل شيء !!  
هكذا كانت دار الهجرة لقد أحبت الله وأحبت رسوله .

فكان هذا الحب المكين سر انتصارها الرائع للإسلام ، ومبعث التضحية عن طيب نفس بكل مرتخص رغال .

وقوم يربطهم بقائدهم هذا الإهزاز الهائل ، تندكُّ أمام عزائمهم الأطوار الراسية . .

\*\*\*

سأل الحسن بن علي ، هند بن أبي هالة عن أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوصف له بدنه فكان مما قال « . . يمشى هونا ، ذريع المشية — واسع الخطو — إذا مشى كأنما ينحط من صلب — يهبط بقوة — وإذا التنف، التنف جميعاً . خافض الطرف . نظره إلى الأرض ، أطول من نظره إلى السماء . جل نظره الملاحظة — أى لا يحدق — يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام .

قلت : صف لى منطقه . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحران ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة . طويل السكوت ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه — لا بأطرافه — ويتكلم بجوامع الكلم ،

(١) حديث صحيح أخرجه الترمذى (٤٩٥/٤) والحاكم (٥٧/٣) وأحمد (٢٢١/٣ : ٢٦٨) وقال الترمذى « حديث صحيح » وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي وهو كما قال . ورواه الداريمى (٤١/١) بنحوه وسنده صحيح أيضاً على شرط مسلم وهو رواية للحاكم وأحمد (١٢٢/٣) .

فضلاً ، لا فضول فيه ولا تقصير ، دَمًا ، ليس بالجافي ولا المهين . يعظم النعمة وإن دقت . لا يذم شيئاً ، ولم يكن يذم ذَوَاقاً — ما يطعم — ولا يمدحه . ولا يُقام لغضبه ، إذا تُعرض للحق بشئ ، حتى ينتصر له . ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها — سماحة — إذا أشار ، أشار بكفه كلها . وإذا تعجب قلبها . وإذا غضب ، أعرض وأشاح . وإذا فرح ، غص طرفه . جلُّ ضحكه التَّبَسُّم . ويفترقه عن مثل حَبِّ الغمام ...

وقال ابن أبي هالة يصف مخرجه — على الناس — : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزن لسانه إلا عما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ويوليهم عليهم . ويحذر الناس ، ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره .

يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس . ويحسن الحسن ويصونه ويقبح القبيح ويؤهنه . معتدل الأمر غير مختلف . لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملؤا .

الكل حال — عنده — عتاد . لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره .. الذين يلونه من الناس خيارهم . وأفضلهم عنده ، أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة ، أحسنهم مؤاماة ومؤازرة .

ثم قال — يصف مجلسه — : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . ولا يوطن الأماكن — لا يميز لنفسه مكاناً ، إذا انتهى إلى القوم ، جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك . ويعطى كل جلسائه نصيبه ، حتى لا يحسب جلسيه أن أحداً أكرم عليه . من جالسه أو قاومه لحاجة ، صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول . قد وسمع الناس بسطه وخلقه . فصار لهم أباً ، وصاروا عنده فى الحق متقاربين ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء ،



وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات . ولا تؤن فيه الحرم - لا تخشى فلتاته -  
يتعاطفون بالتقوى . يوقرون الكبير ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ،  
ويؤنسون الغريب .

وقال يصف سيرته : كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ  
ولا غليظ ، ولا صخاب . ولا فحاش ، ولا عتاب . ولا مدّاح ، يتغافل عما لا يشتهي  
ولا يقنط منه ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار . وما لا يعنيه . وترك  
الناس من ثلاث : لا يذم أحداً ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما  
يرجو ثوابه . إذا تكلم ، أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . وإذا سكث  
تكلموا . لا يتنازعون عنده الحديث . من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ .  
حديثهم حديث أولهم . يضحك مما يضحكون منه . ويعجب مما يعجبون منه .  
ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها  
فأرفدوه . ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ . (١)

\* \* \*

هذه خطوط فصار . لما يراه الناس من مظاهر الكمال في سيرة النبي « الحمد »

(١) حديث ضعيف أخرجه بطوله الترمذي في « الشمائل » ( ١ / ٣٨ ) من  
طريق جميع بن عمرو بن عبد الرحمن المجلي قال : حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة  
زوج خديجة بكى أبا عبد الله عن ابن أبي هالة عن الحسن بن علي وهذا سند ضعيف جميع  
بن عمر هذا ضعيف وقال أبو داود : « أخشى أن يكون كذاباً » . وأبو عبد الله التميمي  
مجهول كما في « التقريب » وابن أبي هالة اسمه هند ابن أبي هالة وهو مستور ترجمه ابن أبي  
حاتم ( ٤ / ١١٧ ) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . ونقل الحافظ في ترجمة أبيه من  
« التهذيب » عن أبي داود قال في هذا الحديث . « أخشى أن يكون موضوعاً » وأشار  
البخاري إلى أنه لا يصح . ( راجع ترجمة هند ابن أبي هالة في « الجرح والتعديل » مع  
التعليق عليه .

أما حقيقة ما بنى عليه هذا الرسول الكريم من أمجاد وشمائل ، فأمر لا يدرك كله . ومعرفة العطاء لا يطبقها كل أحد ، فكيف بعظيم ، خلافة القرآن ؟ إن الأمة التي أخرجت للناس في المدينة بلغت الأوج .

كانت تعمل وتجاهد لله وحده . وتسعى إلى غايتها المرموقة في جذل وثقة . التفت حول نبيها التفاف التلاميذ بالمعلم ، والجند بالقائد ، والأبناء بالوالد الحنون . وتساندت فيما بينها ، بالأخوة المتبادلة المتناصرة ، فهم نفس واحدة . في أجسام متعددة ، ولبنات مشدودة ، في بناء منسق صلب . وأدارت علاقاتها بالآخرين على العدل والبر . فليس يظلم في جوارهم برىء ، أو يحرم من الطافهم عان .

ورغم ما وقع عليها من بغي قديم . فقد جعلت الإسلام يجب ما قبله . فمن تطهر من جاهليته وتاب إلى ربه فلا نظر إلى ماضيه . بل ينضم إلى الأمة المسلمة عضواً كريماً فيها ، تغفر سيئاته ليستقبل - بصالح عمله - كتابه الجديد . أما الذين بقوا يكفرون ويصدون ، فلا بد من الإبعاد لهم ، حتى تخلص الأرض من كفرهم وصدوم .

( إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ) .

كانت هذه الأمة تسكحح لله وتصل مساءها بصباحها في عبادته ، وقد حزمت أمرها على واحد من اثنين ، إما أن تحيا لله ، وإما أن تموت فيه !

ولو ذهبت توازن بين المسلمين يومئذ وبين سائر العالم ، لرأيت عناصر الغلب والإمتياز تتجمع - لديهم - صاعدة . على حين تقور - في كيان الملل الأخرى - زلازل حاطمة ، فلا غرو إذا صاروا - بعد سنين معدودات - دولة فتية ، تقضي لربها ولنفسها ما تشاء .



ثم إن الشرائع المفصلة أخذت تنزل في المدينة منظمة أحوال المسلمين الخاصة والعامة ومبينة قواعد الحلال والحرام على تدرج ، إلى أن وصلت إلى وضعها الأخير كما سجلها تاريخ التشريع .

فقامت الحدود ، وفرضت الزكاة ، والصيام ، وزيدت ركعات الصلاة لأول العهد بيثرب .

عن عائشة فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين فأقرب صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر . . (١)

وما يذكر أن النبي بنى بالسيدة عائشة في غضون السنة الأولى للهجرة وكان قد عقد عليها قبل الهجرة . . (٢)

وسنحدث عن تعدد الزواج ، وزوجات الرسول في موضع آخر .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري ( ١ / ٣٦٨ - ٣٦٩ ) ومسلم ( ٢ / ١٤٢ ) عنها وفي رواية للبخاري ( ٨ / ٢٤ ) قالت . ( فرضت الصلاة ركعتين ؛ ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ففرضت أربعاً وترك صلاة السفر على الأولى » .

(٢) هذا معنى ما صح عن عائشة قالت تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم متوفى خديجة قبل مخرجه إلى المدينة بسنتين أو ثلاث وأنا بنت سبع سنين فلما قدم المدينة جاءني نسوة . . . ثم أتني بي رسول الله فبنى بي وأنا بنت تسع سنين . رواه البخاري ( ٧ / ٨ ) وأحمد ( ٥ / ٢٨٠ ) واللفظ له ومسلم أيضا ( ٤ / ١٤٠ ) وفي رواية له عنها « تزوجني صلى الله عليه وسلم في شوال وبني في شوال : . . »

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...

...the ... of the ...



(٦)

الكفاح السدامي

دخل الإسلام المدينة وأحزاب الكفر تطارده من كل ناحية فأوى المسلمون إلى مهجرهم كما يأوى الجندي إلى قلعة الشائخة ، وأخذوا يستعدون حتى لا تقحم عليهم من أقطارها . وهم تعلموا من السنين الفبر التي مرت عليهم في مكة أن الضعف مدرجة إلى الهوان مزلة إلى الفتنة ، والمرء لا يقدر العافية حق قدرها إلا بعد الإبلال من المرض ، ولا يعرف قيمة الغنى إلا عند التخلض من ذل الحاجة .

ومن أولى من المهاجرين والأنصار بالإفادة من هجر الماضي ؟

ذلك نبينهم تعقبه القتل ألف ميل ليقتالوه ، سواد المهاجرين نهب ما لهم وسلبت دورهم وشردوا من البلد الحرام . إن « حالة الحرب » قائمة - يقيناً - بين طغاة مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد ، ومن السفه تحميل المسلمين أوزار هذا الحصار .

على أن العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه تجاوزت قريشا إلى غيرهم من مشركي الجزيرة الضالة ولن تذهب الفروض بنا بعيداً ، فإن عبدة الأصنام من أهل المدينة نفسها شرعوا يجاهرون بخصومتهم للإسلام . وانضم إلى هؤلاء وأولئك ، اليهود الذين أوجسوا خيفة من انتشار هذا الدين . واندحار الوثنية العربية أمامه . . .

فما بد - إذا - من التأهب لكل طارئ ، والتربص بكل هاجم ، وتجهيز القوة التي تؤدب المجرمين يوم يتناولون !

والقتال الذي شرعه الإسلام وخاض معاركه الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ، وهو أشرف أنواع الجهاد ، وقدينا في كتبنا<sup>(١)</sup> الأخرى - بالاستدلال

---

(١) الإسلام والاستبداد السياسي « و » التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام .



العلمى والاستقرار التاريخى - أن الحروب التى اشتبك فيها الإسلام - على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه - كانت فريضة لحماية الحق ، ورد للظالم ، وقمع العدوان ، وكسر الجباية .

أما تخرص المستشرقين والحقده على الإسلام من أهل الأديان الأخرى والادعاء بأن المسلمين جنحوا إلى القوة حيث لامبرر لها ، فذلك كله لغو طائش ، وهو جزء من الحملة المدبرة لمحو الإسلام من الأرض ، واستبقاء أهله عبداً للصليبية والصهيونية وما إليهما .

وما من أيام للقتال فيهن أوجب على المسلمين من أيام يهدد فيها الإسلام وآله بالقضاء .

وتتألب عليه شتى القوى ، بل يصطلىح ضده الخصوم الألداء ، محاولين سحقه إلى الأبد .

وقد وقع ذلك فى صدر الإسلام ، قبل الهجرة وبمدها ، ووقع فى هذه الأيام فسقطت أوطان الإسلام فى أيدي لصوص الأرض ، تم رسمت أخبث السياسات للذهاب به رويداً رويداً .

فكيف تستغرب الدعوة إلى التسليح ، والإهانة بأهل النجدة أن يوطنوا أنفسهم على التضحية فى سبيل الله ؟

كيف تستنكر صناعة الموت فى أمة يتوالب حولها الجزارون من كل فج ؟

كلا كلا « ولا يحسبنَّ الذين كفروا سبقوا ، إنه لا يصجزون \* وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين ، من دونهم لا تعلمونهم \* الله يعلمهم \* وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون \* وإن جنحوا للسلم فاجنح »

لها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .

\* \* \*

وتمشياً مع توجيه الوحي وسياسة الواقع ، وحفاظاً على حق الله وحق الحياة  
درب النبي صلى الله عليه وسلم رجاله على فنون الحرب ، واشترك معهم  
في التمارين والمناورات والمعارك ، وعد السعى في هذه الميادين خطوات إلى أجل  
القرب وأقدس العبادات ، له بذلك بقل شوكة الكفر ، ويكسر عن  
المسلمين أذاه .

« فقاتل في سبيل الله لا تكاف إلا نفسك وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى  
اللَّهُ أَنْ يَكْفٍ بِأَسْ الذِّينَ كَفَرُوا \* وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكُّلًا »  
عن عتبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر  
يقول : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي  
ألا أن القوة الرمي <sup>(١)</sup> .

والحديث ينوه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم في كسب المعارك .

والرمي أعم من أن يكون بالسهم أو بالرصاص أو القنابل .

وعن تميم اللخمي ، قال : قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هـ — الذين الغرضين  
— تتردد بينهما — وأنت شيخ كبير يشق عليك ؟ قال عقبة : لولا كلام سمعته من

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم ( ٥٢ / ٦ ) وأبو داود ( ٣٩٤ / ١ ) والترمذي  
( ١٢٢ / ٣ ) وابن ماجه ( ١٨٨ / ٢ ) وأحمد ( ١٥٧ / ٤ ) من حديث عقبة بن عامر  
وصححه الحاكم ( ١٣٨ / ٢ ) على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي .



رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعانه . قال : وما ذاك ؟ قال سمعته يقول : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا ! »<sup>(١)</sup> .

فانظر كيف يبقى الشيوخ المسنون على دربتهم في إصابة الهدف ، ومهارة اليد ونشاط الحركة . إن الإسلام يفترض المقدرة على القتال فيوجبها على الشباب والشيوخ جميعاً .

وعن أبي نعيم السلمي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة » فبلغت يومئذ عشرة أسهم ، وسمعته يقول « من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة »<sup>(٢)</sup> .

وعن عقبة بن عامر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله عز وجل لا يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : ١ — صانعه يحتسب في عمله الخير . ٢ — والرامي به . ٣ — ومنبله ، الممد به ، فارموا واركبوا . وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، كل هو باطل ، ليس من اللهو محموداً إلا ثلاثة :

١ — تأديب الرجل فرسه . ٢ — وملاعبته أهله . ٣ — ورميه بقوسه ، فإنهم من الحق ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه ، فإنها نعمة تركها أو كفرها<sup>(٣)</sup> .

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم ( ٥٢ / ٦ ) ، وروى الجملة الأخيرة منه أصحاب السنن من طريق أخرى يأتي الكلام عليها .

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود ( ١٦٥ / ٢ ) والنسائي ( ٥٩ / ٢ ) وأحمد ( ٣٨ / ٤ ) والحاكم ( ٩٥ / ٢ ) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي ! وإنما هو على شرط مسلم وحده فإن تابعيه معدان بن أبي طلحة لم يخرج له البخاري وروى عنه الترمذي ( ٧ / ٢ ) الجملة الأخيرة وقال : « حديث حسن صحيح » وكذلك رواه ابن ماجه ( ١٨٨ / ٢ ) نحوه لكن من طريق أخرى . وهو رواية لها ك ( ٩٦ / ٢ ) وكذا النسائي ( ٦٠ / ٢ ) (٣) في سنده اضطراب كما قال الحافظ العراقي في « تخريج الإحياء » ( ٢٥٢ / ٦ ) وبيانه : أنه رواه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي سلام عن خالد بن زيد — ( ١٥ — فقه السيرة )

وعن ابن عمر « الحيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة »<sup>(١)</sup>.

وهذا ترغيب من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، في تعليم الفروسية ، وإبراز لون معين من ألوان القتال لا يحط من قيمة الألوان الأخرى ، أو يؤخر منزلتها .  
ألا ترى كيف حض النبي على تعلم القتال في البحر بقوله : « غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر » ، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها والمائد فيه . — الذي يصيبه الدوار والقيء — كالمتشحط في دمه »<sup>(٢)</sup>.

== عن عقبة ، به . أخرجه أبو داود ( ٣٩٣/١ — ٣٩٤ ) والنسائي ( ١٢٠/٢ ) والحاكم ( ٩٥ / ٢ ) وأحمد ( ١٤٦ / ٤ ؛ ١٤٨ ) . وخالفه يحيى بن أبي كثير فقال : حدثنا أبو سلام عبيد الله الأزرق عن عقبة بن عامر ، أخرجه الترمذي ( ٦ / ٣ ) وابن ماجه ( ١٨٨ / ٢ ) وأحمد ( ١٤٤ / ٤ ، ١٤٨ ) وقال الترمذي : « حديث حسن » وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي ، وكأنهم لم يقفوا على هذا الاضطراب الذي نبه عليه الحافظ العراقي رحمه الله ؛ وأيضاً فإن له علة أخرى . هي جهالة خالد بن زيد وعبد الله بن الأزرق . وهو بن زيد بن الأزرق . فسواء كانت الرواية عن هذا أو ذاك فهي معلولة للجهالة . نعم ذكر الحاكم للحديث شاهداً من حديث أبي هريرة وقال : إنه : صحيح على شرط مسلم ، فتعقبه الذهبي بأن فيه سويد بن عبيد العزيز وهو متروك .

(١) حديث صحيح مرفوع أخرجه البخاري ( ٤١/٦ ) ، ٤٣ ، ومسلم ( ٣١/٦ ؛ ٣٢ ) من حديث ابن عمر وعروة البارقي وليس في حديث ابن عمر : « الأجر والغنيمة » فلو عزى الحديث لعروة كان أولى .

(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم ( ١٤٣ / ٢ ) من حديث عبد الله بن عمرو : وقال « صحيح على شرط البخاري » ووافقه الذهبي . وهو كما قالوا وإعلال للناوي له تبعاً لابن الجوزي بأن فيه خالد بن يزيد ؛ يروي الموضوعات عن الأنبيات خطأ فاحش ، لأن خالداً هذا ، لا ذكر له في سند الحديث عند الحاكم ، فالظاهر أنه عند غيره ممن خرج الحديث وبمدوروده من طريق آخر صحيح ، لا يضره رواية أحد المتهمين له .



والدول تحتاج إلى المكتائب في البر والأساطيل في البحر والجو وكل سلاح  
عون لأخيه في إدراك النصر ، وأسبق الجند إلى رضوان الله أعظمهم نيلاً من  
العدو ، وأرعاهم لدمام أمته وشرف عقيدته ، سواء مشى ، أم رمى ، أم أبحر ،  
أم طار .

### سرايا . . .

فلما استقر أمر المسلمين ، أخذوا يرسلون سراياهم المسلحة ، تجوس خلال  
الصحراء المجاورة ، وتخترق طرق القوافل المارة بين مكة والشام ، وتستطلع أحوال  
القبائل الضاربة هنا وهناك .

١ - ففي رمضان من السنة الأولى التقى « حمزة بن عبد المطلب » في ثلاثين  
من المسلمين ، بأبي جهل يقود قافلة لقريش ، ومعه ثلاثمائة راكب . وقد حجز  
بينهما مجدى بن عمر الجهنى فلم يقع قتال .

٢ - وفي شوال من السنة نفسها ، سار عبيدة بن الحارث في ستين راكباً إلى  
وادي رابغ . فالتقى بمائتي مشرك على رأسهم أبو سفيان ، وقد ترامي الفريقان  
بالنبل ولم يقع قتال .

٣ - وفي ذي القعدة خرج « سعد بن أبي وقاص » في نحو عشرين رجلاً  
يعترض عيراً لقريش فقاتله .

٤ - وفي صفر من السنة الثانية خرج الرسول بنفسه بعد أن استخلف سعد  
ابن عباد على المدينة ، وسار حتى بلغ ودان يريد قريشاً وبني ضمرة ، فلم يلق  
قريشاً ، وعقد حلفاً مع بني ضمرة .

٥ - وفي ربيع الأول من السنة نفسها ، خرج الرسول على رأس مائتين من  
المهاجرين والأنصار إلى « بواط » معترضاً عيراً لقريش يقودها أمية بن خلف  
ومعه مائة من المشركين فقاتله .

٦ - وفي جمادى خرج إلى العشرة من بطن « ينبع » . وأقام شهراً ، صالح

فيه بنى مدالج .

٧ - ثم أغار كرزين جابر القهري على المدينة ، واستاق سرحها ، فخرج النبي

في طلبه حتى بلغ وادي سفوان قريباً من « بدر » فلم يدركه . ويسمى المؤرخون

هذه « غزوة بدر الأولى » .

الحكمة في توجيه هذه السرايا على ذلك النحو المتتابع تملخص في أمرين :

أولها : إشعار مشركي يثرب ويهودها وأحرب البادية الضاربين حولها

بأن المسلمين أقوياء : وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم . ذلك الضعف الذي مكن

قريشاً في مكة من مصادرة عقائدهم وحریاتهم ، واغصاب دورهم وأموالهم ، ومن

حق المسلمين أن يعنوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضالة شأنها ، فإن المتربصين

بالإسلام في المدينة كثراً . وإن يصددهم عن النيل منه إلا الخوف وحده . وهذا

تفسير قوله تعالى « ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم

لا تعلمونهم الله يعلمهم » .

والصنف الأخير هم المنافقون الذين يبطنون البغضاء للإسلام وأهله ، ولا يمنعونهم

من إعلان السخط عليه إلا الجبن وسوء المغبة ، أما الأولون فهم المشركون

والصوص الصحراء وأشباهم ممن لا يبطلون - لولا هذه السرايا - الهجوم على

المدينة واستباحة حاماها .

وقد كان من الجائز أن تتكرر حادثة « كرزين جابر » السابقة . وتجتري

البدو على تهديد المدينة حيناً بعد حين غير أن هذه السرايا الزاحفة قتلت نيات

الطمع وحفظت هيبة المسلمين .

والأمر الآخر - في حكمة بعث السرايا - إنذار قریش عقبى طيشها .



فقد حاربت الإسلام ، ولا تزال تحاربه ، ونسكت بالمسلمين في مكة ، ثم  
خلت ماضية في غيها ، لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل في دين الله . ولا  
تسمح لهذا الدين أن يجد قراراً في بقعة أخرى من الأرض ، فأحب الرسول صلى  
الله عليه وسلم أن يشعر حكام مكة ، بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار  
الفادحة ، وأنه قد مضى - إلى غير عودة - ذلك العصر الذي كانوا يعتدون فيه  
على المؤمنين ، وهم بمأمن من القصاص . . .

والمستشرقون الأوربيون ينظرون إلى هذه السرايا كأنها ضرب من قطع  
الطريق . وهذه النظرة صورة للحقد الذي يعنى عن الحقائق ، ويتيح للهوى أن  
يتكلم ويحكم كيف يشاء .

وقد ذكرنى هذا الاستشراق المفرض بما حكموه عند قمع الإنكباب لثورة  
الأهلين في أفريقيا الوسطى - مستعمرة كينيا - وهم يطلبون الحرية لوطنهم  
ويحاولون إجلاء الأجانب عنه . . .

قال جندي إنكليزي لآخر - يصف هؤلاء الإفريقيين - : إنهم وحوش ،  
يقصرون أن أحدهم عضنى وأنا أقتله !!!

إن هذه الأضحوكة صورة من تفكير المستشرقين في إنصاف أهل مكة  
والنهي على الإسلام وأصله . . .

### سرية عبد الله بن جحش

وفي رجب من الحنة الثانية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن  
جحش في رهط من المهاجرين ، وكتب له كتاباً . وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد  
يومين من مسيره .

فإذا نظر فيه ووعى ما كلفه الرسول به ، مضى في تنفيذه غير مستكره أحدًا من أصحابه فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه : أمض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، وترصد بها قريشًا ، وتعلم لنا من أخبارهم .

فقال عبد الله : سمعًا وطاعة ، وأطلع أصحابه على كتاب الرسول قائلًا : إنه نهاني أن استكره أحدًا منكم ، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فينطلق معي ، ومن كره ذلك فليرجع . . فلم يتخلف منهم أحد ، غير أن البعير الذي كان يتعقبه « سعد بن أبي وقاص » و « عتبة بن غزوان » ندَّ منهما فشغلا بطلبه ، ومضى عبد الله برفاقه حتى نزل أرض نخلة . فمرت غير قريش فهاجها عبد الله ومن معه ، فقتل في هذه المعركة « عمرو بن الحضرمي » وأسرا اثنان من المشركين ، وعاد عبد الله بن جحش بالقافلة والأسيرين إلى المدينة .

ويظهر أن هذا القتال وقع في آخر رجب ، أي في الشهر الحرام .  
فلما قدمت السرية على رسول الله قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، ووقف التصرف في العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهم المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله وكثر في ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي حاسمًا هذه الأقاويل ومؤيدًا مسلك عبد الله تجاه المشركين .

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير .  
وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل » (١) .

(١) أورده ابن هشام ( ٢/٥١ - ٦ ) عن ابن إسحاق قال ابن إسحاق في آخره « والحديث في هذا عن الزهري وبزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وقد رواه البيهقي في « سننه الكبرى » ( ٩/١٢ ) بسند صحيح عن الزهري عن عروة مرسلًا به ولكنه لم يسبق



إن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساع لها . فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله ! فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداسها فجأة ، فأصبح انتهاكها كرها معرة وشناعة ؟ ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر قتل نبيهم وسلب أموالهم ؟ لكن بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عند ما تكون في مصلحته .

---

فاذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتفضها هدم القوانين والدساتير جميعاً .

---

فالقانون المرعى - عنده في الحقيقة - هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب .

وقد أوضح الله عز وجل أن المشركين لن يحجزهم شهر حرام أو بلد حرام عن المضي في خطتهم الأصلية ، وهي سحق المسلمين ، حتى لا تقوم لدينهم قائمة فقال :

« وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا »

ثم حذر المسلمين من الهزيمة أمام هذه القوى الباغية والتفريط في الإيمان الذي شرفهم الله به ، ونظ سعادتهم في الدنيا والآخرة بالبقاء عليه فقال : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

وزكى القرآن عمل « عبد الله » وصحبه . فقد نفذوا أوامر الرسول بأمانة

---

== الحديث بتأمله بل طرفاً من أوله ثم أحال على باقيه . وقد وصله هو وابن أبي حاتم من طريق سليمان التميمي عن الحضرمي عن أبي السوار عن جندب أبي عبد الله به مختصراً وليس فيه قوله صلى الله عليه وسلم . « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » وسنده صحيح إن كانا حضرمي هذا هو ابن لاحق فقد قيل إنه غيره وإنه مجهول ورجحه المصنف في التهذيب والله أعلم ، ثم رأيت البيهقي قد ساق في موضع آخر من السنن ( ٩ / ٥٨ - ٥٩ ) حديث عروة بتأمله ما أمرتكم . . . »

وشجاعة وتوغلوا في أرض العدو مسافات شاسعة ، متعرضين للقتل في سبيل الله  
متطوعين لذلك من غير مكره أو مخرج .

فكيف يجزون على هذا بالتقريع والتخويف ؟ قال الله فيهم .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ  
رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَنُورٌ رَّحِيمٌ » .

والقرآن في فعال هذه السرية ، لم يدع مجالاً للهوادة مع المشركين المعتقدين  
بما كان له أثره البعيد لدى المسلمين وخصوصهم .

فبعد أن كان أغلب المكتتبين في السرايا السابقة من المهاجرين أخذت .  
البعوث الخارجة تتألف من المهاجرين والأهوار معاً .

وزاد الشعور بأن الكفاح المرتقب قد يطول مداه ، وتكثر تبعاته ولكنه  
كفاح مستحب ، مقرون بالخير العاجل والآجل .

وأدركت مكة أنها مؤاخذه بما جد أو يجحد من سيئاتها ، وأن تجارتها مع  
الشام أمست تحت رحمة المسلمين .

وهكذا اتسعت الهوة ، وزادت بين الفريقين الجفوة .

وكان هذه الأحاديث الشداد هي المقدمة لما أعده القدر بعد شهر واحد من  
وقوعها عندما جمع رجالات مكة . وخيرة أهل المدينة على موعد غير منظور  
في « بدر » .

## معركة بدر

ترامت الأنبياء إلى « يثرب » أن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف  
الشام عائدة إلى مكة ، تحمل لأهلها الثروة الطائلة . ألف بعير موقرة بالأموال  
يقودها « أبو سفيان بن حرب » مع رجال لا يزيدون عن ثلاثين أو الأربعين !



إن الضربة التي تنزل بأهل مكة — لو فقدوا هذه الثروة — موجعة حقاً ،  
وفيهما عوض كامل لما لحق المسلمين من خسائر في أثناء هجرتهم الأخيرة . لذلك  
قال الرسول عليه الصلاة والسلام : هذه غير قريش ، فيها أموالهم ، فأخرجوا  
إليها ، لعل الله ينقلكموها (١) .

لم يعزم الرسول على أحد بالخروج ولم يستحث متخلفاً ، بل ترك الأمر المرغبة  
المطلقة ثم سار — بعد — بمن أمكنه الخروج .

وكان الذين صحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المرة يحسبون أن مضيقهم  
في هذا الوجه لن يعدوا ما ألفوا في السرايا الماضية ، ولم يدركوا بخلد واحد منهم أنه  
مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام ! ولو علموا لاتخذوا أهبتهم كاملة ، ولما سمح  
لمسلم أن يبقى في المدينة لحظة ! لذلك فترت الهمم عندما وردت أخبار أخرى بأن  
القافلة المطالبة غيرت طريقها .

واستطاع قائدها « أبو سفيان » أن ينجو من الخطر المحدق به ، بعد أن  
أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم لحماية أموالهم ، ويستثير حميتهم للخروج في تعبئة ترد  
كل هجوم .

وغالب النبي صلى الله عليه وسلم هذا الفتور المارض ، وحذر صحابة من هتفي  
العودة السريع إلى المدينة أن فاتهم مال مكة وخرج إليهم رجالها !  
وأصر على ضرورة تعقب المشركين كيف كانوا .

وذلك قوله تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً  
من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون  
إلى الموت وهم ينظرون » .

---

(١) حديث صحيح رواه ابن هشام ( ٢ / ٦١ ) عن أبي إسحاق بسنده الصحيح عن  
ابن عباس .

والذين كرهوا لقاء قريش ، ما كانوا إليها بوا الموت ، واسكنهم لم يعرفوا  
الحكمة في خوض معركة مباغطة دون إتقان ما ينبغي لها من مدة وعدد ، بيد أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزن الظروف للملابسة الأمر كله ، فوجد الإقدام  
خير من الإحجام ، ومن ثم قرر أن يضي . فإن الحكمة من توجيه هذه البعوث  
المسلحة تضييع سدى لوعاد على هذا النحو .

وقد اختفت — على عجل — مشاعر التردد ، وانطلق الجميع خفاقا إلى غايتهم .  
والمسير بإزاء طريق القوافل إلى « بدر » ليس سفراً قاصداً أو نزهة لطيفة .  
فالمسافة بين « المدينة » و « بدر » تربو على ١٦٠ كيلو مترا ، لم يكن مع  
الرسول وصحبه غير سبعين بعيراً يعتقبونها .

روى أحمد<sup>(١)</sup> عن عبد الله بن مسعود ، قال : كنا يوم بدر ، كل ثلاثة على  
بعير — أى يتعاقبون — وكان أبو لبابة وعلى بن أبي طالب زميلي رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، قال : فكانت هقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا له :  
نحن نمشي عنك — ليظل راكبا — فقال : « ما أتما بأفوى منى على المشى ، ولا  
أنا بأغنى عن الأحر منكما » !!

وبعث المسلمون عيونهم يتعرفون أخبار قريش : أين القافلة وأين الرجال  
الذين قدموا لحمايتها ؟

\* \* \*

حين أحس أبو سفيان الخطر على قافلته ، بعث « ضمضم بن عمرو الغفاري »  
إلى مكة يستصرخ أهلها حتى يسارعوا إلى استنقاذ أموالهم .

(١) في السند ( رقم ٢٩٠١ ، ٢٩٦٥ ) وسنده حسن . وأخرجه الحاكم ( ٢٠/٣ )

وقال : « حديث صحيح على شرط مسلم » !



واستطاع « ضمنهم » هذا إزعاج البلدة قاطبة : فقد وقف على بعيره بعد أن  
جدع أنفه ، وحول رحله ، وشق قميصه ، بصيح : يامشر قریش اللطيمة اللطيمة !  
أموالكم مع أبنی سفیان ، عرض لها محمد صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، لا أرى  
أن تدركوها ، العوث العوث !

فتجهز الناس جميعا ، فهم إما خارج وإما باعث مكانه رجلا ، وانطلق سواد  
مكة وهو يغلى ، يمتطى الصعب والذلول . فكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا ، معهم  
مائتا فرس يقودونها . ومعهم القيان يضربون بالدفوف ويغنيون بهجاء المسلمين . .

وولوا وجوههم إلى الشمال ، ليدركوا القافلة المارة تجاه يثرب هابطة إليهم .

لكن أبا سفیان لم يستتم في انتظار النجدة المقبلة ، بل بذل أقصى ماله من  
حذر ودهاء ، لخاتلة المسلمين والإفلات من قبضتهم ، وقد كاد يسقط بالعرير جمعا  
في أيديهم وهم يشتدون في مسيرهم نحو بدر ، غير أن الحظ أسعفه !

روى أنه أتى مجدى بن عمرو ، فسأله : هل أحسست أحدا ؟ فقال : مارأيت  
أحدا أنكره . إلا إنى رأيت راكبين أناخا إلى هذا الثقل . ثم استقيا في شن لها  
ثم انطلقا فأتى أبو سفیان مناخهما ، وتناول بعرات من فضلات الراحاتين ثم فتحا  
فإذا فيها النوى . فقال : هذه والله علائف يثرب ! وأدرك أن الرجلين من أصحاب  
محمد . وأن جيشه هنا قريب !

فرجع إلى العير بضرب وجهها عن الطريق ، شاردًا نحو الساحل ، تاركا بدرا  
إلى يساره . . . فنجاه .

ورأى أبو سفیان أنه أحرز القفلة فأرسل إلى قریش يقول : إنما خرجتم لتمنعوا  
عيركم ورجالكم وأموالكم . وقد تجاهها الله . فارجموا . فقال أبو جهل : والله  
لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم ثلاثا ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر  
وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا !

وهذا الذى عالن به أبو جهل ، هو ما كان يحاذره الرسول عليه الصلاة والسلام فإن تدعيم مكانة قريش . وامتداد سطوتها فى هذه البقاع — بعد أن فعلت بالمسلمين ما فعلت — يعتبر كارثة للإسلام ، ووفقاً لنفوذها ، وهل كانت السرايا مخرج من المدينة إلا لإعلاء كلمة الله وتوهين كلمة الشرك ، وإظهار عبدة الأصنام بمظهر الذى لا يملك نفعا ولا ضرا ؟

لذلك لم يلتفت الرسول لقرار القافلة ، التفاته ضرورة التجوال المسامح فى هذه الأنحاء . إبرازاً لهذه المعانى القوية . وتمكيناً لصداها فى القلوب .

\* \* \*

ومضت قريش فى مسيرها . مستجيبة لرأى أبى جهل حتى نزلت بالعدوة القصوى من وادى بدر ، وكان المسلمون قد انشروا من رحيلهم المضى إلى العدوة الدنيا .

وهكذا اقترب كلا الفريقين من الآخر ، وهو لا يدري ما وراء هذا اللقاء الرهيب .

وهبط الليل فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علياً والزبير وسعداً ، يتحسسون الأحوال ويلتفحسون الأخبار ، فأصابوا غلامين لقريش كانا يمدانهم بالماء ، فأتوا بهما ، ومألوهما — ورسول الله قائم يصلى — فقالا : نحن سقاة قريش . بعثونا نسقيهم من الماء .

فكره القوم هذا الخبر ، ورجوا أن يكونا لأى سفیان — لاتزال فى نفوسهم بقايا أمل فى الاستيلاء على القافلة ! — اضربوهما ضرباً موجعاً حتى اضطر الغلامان أن يقولوا : نحن لأى سفیان ! فتركوهما ، وركع رسول الله وسجد سجدة تيه وسلم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما . . !

صدقا والله إنهما لقريش ، ثم قال للغلامين : أخبرانى عن قريش ! قالوا : هم وراء هـذا الكتيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : كم القوم ؟



قالا : كثير ! قال : ما عدتهم ؟ قالوا : لاندري ! قال كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا :  
يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً ، فقال رسول الله . القوم ما بين التسعمائة إلى الألف ،  
ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو  
البختري بن هشام . وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ،  
وطبيعة بن عدى ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وعمر بن هشام ،  
وأمية بن خلف ... الخ .

وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت  
إليكم أفلاذ كبدها ... (١)

وانكشف وجه الجد في الأمر . إن اللقاء المرتقب سوف يكون مرّاً المذاق  
لقد أقيمت قريش تحب في خيلائها ، تريد أن تعمل العمل الذي يرويه القصيد ،  
وتذرع المطايا به البطاح ، ونحسم به صراع خمسة عشر عاماً مع الإسلام ، لتنفرد  
— بعدها — الوثنية بالحكم النافذ ...

ونظر الرسول حوله ، فرجد أولئك المؤمنين بين مهاجر باع في سبيل الله  
نفسه وماله . وأنصارى ربط مصيره وحاضره بهذا الدين لذي انتداه وآوى أصحابه .  
فأحب أن يشعر القوم بحقيقة الموقف . حتى يبصروا — على ضوءه — ما يفعلون .  
إن المرء قد تفجؤه أحداث عارة وهو ماض في طريقه — يحتاج في مواجهتها  
لأن يستجمع مواهبه ، وأن يستحضر تجاربه ، وأن يقف أمامها حاد الانتباه .  
مرهف الأعصاب ، وهذه الامتحانات المباغطة أدق في الحكم على الناس وأدل على  
قيمتهم ، من الامتحانات التي يعرفون ميعادها . ويقدمون إليها ، واثقين مستعدين .

(١) أخرجه ابن هشام (٢/٦٥) عن ابن اسحاق حدثني يزيد بن رومان عن عروة  
ابن الزبير بهذه القصة . وهذا إسناد صحيح لكنه مرسل . وقدرناه أحمد (رقم ٩٤٨)  
من حديث علي ابن أبي طالب دون قوله : ثم قال لهما ... « وسنده صحيح ، ورواه  
مسلم (٥/١٧٠) مختصراً من حديث أنس .

والمسلمون الذين خرجوا لأمر يسير ، ما لبثوا أن القوا أنفسهم أمام امتحان  
مشاق ، تيقظت له مشاعرهم ، فشرعوا ، بقلوبهم — على عجل — تكاليفه ونتائج  
هوان منطلق اليقين القديم فأهاج القوم إلى الخطة الفذة التي لا محيص عنها للمؤمن .  
استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس . فقام أبو بكر الصديق ، فقال  
وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو . فقال :  
يا رسول الله ، امض لما أراك الله : فنحن معك . والله لا نقول لك ما قال بنو  
إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن : اذهب  
أنت وربك فقاتلا إفا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك  
الغمام لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعاه .  
ثم قال : أشيروا على أيها الناس — وإنا يريد الأنصار — وذلك أنهم كانوا  
عدد الناس ، وأهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا نرأى من ذمامك  
حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا  
ونسائنا .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها  
نصره إلا ممن دهمه بالمدينة .

فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ . والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال :  
أجل . فقال . قد آمنا بك وصدقناك . وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك  
على ذلك عهداً — ودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة لك . فامض يا رسول الله لما  
أردت ، فنحن معك . فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته ،  
لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً .  
إنا الصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله بريك منا ما تقر به عينك ،  
فسر على بركة الله .



وفي رواية : املك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره ، فانظر  
الذي أحدث الله إليك فامض ، أنصل حبال من شئت واقطع حبال من شئت ،  
وعاد من شئت وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ،  
وما أخذت منا ، كان أحب إلينا مما تركت .

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سعد » ونشطه ثم قال : سيروا  
وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين . والله لكأني أنظر إلى مصارع  
القوم .. (١)

(١) رواه ابن هشام ( ٢ / ٦٣ — ٦٤ ) عن ابن اسحاق بدون إسناد . والرواية  
الأخرى أخرجه ابن مردويه من طريق محمد بن عمر وابن علقمة بن وقاص الليثي عن أبيه  
عن جده قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب  
الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال أبو بكر « الحديث نحوه ذكره ابن كثير ( ٢٦٤ / ٣ )  
وهذا مرسل وكذلك رواه ابن أبي شيبة كما في « الفتح » ( ٢٣٠ / ٧ ) وعن عبد الله بن  
مسعود قال : شهدت من المقداد بن الأسود — هو بن عمرو — مشهداً لأن أكون صاحبه  
أحب إلى مما عدل . أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال : لا تقول  
كما قال قوم موسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا ولسنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين  
يديك وخلقت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وصبره قوله . ورواه البخاري  
( ٢٣٠ / ٧ ) والحاكم ( ٣ / ٣٤٩ ) وصححه ووافقه الذهبي . وأحمد ( رقم ٣٦٩٨ ؛ ٤٠٧ ،  
٤٢٧٦ ) ، ورواه الطبراني من حديث أبي أيوب الأنصاري . قال الهيثمي « ٧٤ / ٦ » .  
« وإسناده حسن » . وفي حديث أنس المشار إليه آنفاً عتد مسلم ؟ قال : فقال رسول  
الله صلى الله عليه وسلم : هذا مصرع فلان ؛ قال ويضع يده على الأرض ههنا وههنا قال  
فما طأ أحدكم عن موضع لم يد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

تأهب المسلمون لخوض المعركة ، وعسكروا في أدنى ماء من بدر .

فجاء الحباب من المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : رأيت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلك الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ! قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، أمدض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه ، ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأي . ثم أمر بإفرازه ! فلم يجيء نصف الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب ، وامتلكوا مواقع الماء (١) .

وقضى المسلمون ليلاً هادئاً الأنفاس منير الآفاق ، غمرت النقة قلوبهم وأخذوا من الراحة قسطهم ، وتساقط عليهم مطر خفيف رطب حولهم الجو وجعل نسائم الصباح تهب عليهم فتعشش صدورهم وتجدد أملهم ، وكان الرمل تحت أقدامهم دهساً تلبد وتماصك ، وجعل حركاتهم عليه ميسرة « إذ يغشيك الدهس أمانة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ولا يربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفقد الرجال ، وينظم الصفوف ، ويسدى

(١) رواه ابن هشام ( ٢ / ٦٦ ) عن ابن إسحاق قال : أخذت عن الرجال من بقي سلمة أنهم ذكروا أن الحباب .. « وهذا سند ضعيف لجمالة الواسطة بين ابن إسحاق والرجال من بقي سلمة . وقد وصله المالك ( ٣ / ١٠٦ ؛ ١٢٧ ) حديث الحباب وفي سنده من لم أعرفه وقال الذهبي في « تلخيصه » : « قلت حديث منهكر وسنده » كذا الأصل ولعله سقط منه « وه » أو نحوه ررواه الأموي من حديث ابن عباس كما في البداية ، ( ٣ / ١٦٧ ) وفيه السكتين وهو كذاب !



النصائح ، ويذكر بالله والدار الآخرة . ثم يعود إلى عريش هي له فيستغرق في الدعاء الخاشع ، ويستغيث بأمداد الرحمن . . .

ووقف أبو بكر إلى جوار الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يكثّر الابتهاال والتضرع . ويقول فيم يدعو به « اللهم إن تترك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض » وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم نصرك » ويرفع يده إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه .

وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ويسوى عليه رداءه ويقول — مشفقاً عليه من كثرة الابتهاال — : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وتزاحف الجمعان وبدأ الهجوم من قبل المشركين ، إذ هجم الأسود بن عبد الأسد على الحوض الذي بناه المسلمون قائلاً : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أولاً هدمنه ، أو لأموتن دونه ، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب ، فضربه ضربة أطارت نصف ساقه ، ومع ذلك حبا إلى الحوض يبغى اقتحامه ، وتبعه حمزة يقاتله حتى قتله فيه ! فبرز من المشركين هتبه وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة . فخرج للقائهم فتية من الأنصار ، فنادوا : يا محمد أخرج إلينا أ كفاءنا من قومنا وقيل إن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه هو الذي استرجع أولئك الأنصار رغبة منه أن تكون عشيرته أول من يواجه العدو في مثل هذا الموقف . فقال : قم يا عبدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علي . فبارز عبدة عتبة ، وبارز حمزة

(١) حديث صحيح ، أخرجه مسلم ( ١٥٦/٥ — ١٥٧ ) وأحمد ( رقم ٢٠٨ ، ٢٢١ ) من حديث عمر بن الخطاب ، وبعضه في البخاري ( ٢٣١/٦ ) من حديث ابن عباس .

شيبه . وبارز على الوايد . فأما حمزة فلم يمهل شيبه أن قتله ، وكذلك فعل على مع خصمه ، وأما عبيدة وعتبة . فقد جرح كلاهما الآخر ، فسكر حمزة وعلى بأسيا فبهما على عتبة فأجهزوا عليه ، واحتملا صاحبهما . فجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفرشه الرسول قدمه فوضع خده على قدمه الشريف وقال يا رسول الله لو رأي أبي أبو طالب لعلم أني أحق بقوله :

ونسلمه حتى نُصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم أسلم الروح .. (٢)

واستشاط الكفار غضبا للبداية السيئة التي صادفتهم فأمطروا المسلمون وابلامن سهامهم ، ثم حمى الوطيس وتهاتت السيوف ، وتصايح المسلمون . أحد أحد وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكسروا هجمات المشركين ، وهم مرابطون في مواقعهم . وقال إن اكتنفكم القوم فانضحوا عنكم بالنبل ، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا (٣)

فلما اتسع نطاق المعركة واقتربت من قمتها كان المسلمون قد استنفدوا جهد

(١) روى القصة إلى هنا ابن هشام ( ٦٧/٤ ) عن ابن إسحاق بدون إسناد ، ورواها أبو داود ( ٤١٦/١ ) من حديث على بدون قصة الأسود وإسناده صحيح وكذلك رواه أحمد ( رقم ٦٤٨ ) .

(٢) وهذا القدر أورده ابن كثير ( ٣٧٤/٣ ) وقال : رواه الشافعي « ولم يذكر عن . ورواه بنحوه الحاكم ( ١٧٨ / ٣ ) من حديث ابن شهاب مرسل وليس فيه « ثم أسلم الروح » ويدل على ضعف هذه الزيادة أن الحاكم روى من حديث ابن عباس أن عبيدة ابن الحارث مات بالصفراء . ونصره من بدر فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك وسنده حسن ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٣) رواه ابن إسحاق ( ٦٨/٣ ) بدون سند ، وفي البخاري ( ٢٤٥/٧ ) عن أبي أسيد قال لنا رسول الله يوم بدر : إذا أكتبوكم فارمواهم واستبقوا نبلكم .



أعدائهم والحقوا بهم خسائر جسيمة . والنبي في عريشه يدهو الله ويرقب بطولة رجاله وجسدهم . قال ابن اسحاق <sup>(١)</sup> : خفق النبي عليه الصلاة والسلام خفقة في العريش ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر أنك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النعم !! »

لقد انعقد الغبار فوق رؤوس المقاتلين ، وهم بين كره وفر جند الحق يستبسلون لنصرة الرحمن وجند الباطل قد ملكهم الفرور فأغراهم أن يغالبوا القدر .

فلا عجب إذا نزلت ملائكة الخير تنفث في قلوب المسلمين روح اليقين . وتعضهم على الثبات والإقدام .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه إلى الناس فخرضهم قائلاً : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً . مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

إن التأميل في الآخرة هو بضاعة الأنبياء ، وهل لأصحاب العقائد وفداة الحق من راحة إلا هناك ؟

وعمل هذا التحريض عمله في القلوب المؤمنة .

روى أحمد <sup>(٢)</sup> أن المشركين لما دنوا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام الانصاري

(١) في «الفارزى» وعند ابن هشام (٢٨/٢ = ٦٩) بدون سند ولا كنه وصله الاموى عن طريق ابن اسحاق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعيبر وهذا سند حسن وسكت عنه ابن كثير (٢٨٤/٣) .

(٢) في السند (١٣٦/٣ = ١٣٧) بدون الايبيات . وكذلك — أخرجه مسلم (٤٤/٦ — ٤٥) . والحاكم (٤٢٦/٣) مستدركا على مسلم قوم . أخرجه كاهن من حديث أنس ، مسلم أيضاً من حديث البراء مختصراً . أما الأبيات فغراها الحافظ ابن كثير (٢٧٧/٣) لابن جرير .

يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ! قال نعم . قال : يخ يخ قال رسول الله : وما يملك على قول يخ يخ ؟ قال لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها !

قال : فإياك من أهلها ...

وأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن . ثم قال لئن أنا حببت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها حياة طويلة . فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد إلى النقي وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضه النقاد

غير النقي والبر والرشاد

فما زال حتى قتل . !

ووهت صفوف المشركين تحت مطارق هذا الإيمان الزاهد في متاع الحياة الدنيا . وراعهم محمد عليه الصلاة والسلام . وقد نزل بنفسه إلى الميدان يقاتل أشد القتال . ومعه أصحابه يشتدون نحو عدوهم لا يبسالون شيئا ، فأكسرت قريش وأخذها الفرع .

وصاح النبي عليه الصلاة والسلام - وهو يرى كبرياء الكفر تترغ في التراب - « شامت الوجوه ... » <sup>(١)</sup>

فانهزمت قريش ...

وذلك قول الله في كتابه : « إِذْ يُوحَىٰ رَبِّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَالَتْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ ، فَأَضْرِبُوا »

(١) حديث حسن وهو من رواية عبد الله بن نعلبة المتقدمة . وله شاهد من حديث حكيم بن حزام قال الهيثمي ( ٨١/٦ ) : « رواه الطبراني وإسناده حسن »



تَفُوقَ الْأَعْنَاقِ وَآضُرِبُوا مِنْهُمْ كُلُّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ،  
وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ ، وَأَنَّ  
الْمُكَافِرِينَ هَٰذَا أَبَ النَّارِ .

• • •

وحاول هأبوه جهل أن يقف سيل الهزيمة النازل بقومه ، فأقبل بصرخ بهم ،  
وغشاة الغرور لا تزال ضاربة على عينيه . « واللوات والعزى لا ترجع حتى نفرقهم  
في الجبال . خذوهم أخذاً . »

وماذا تفعل صيحات الطيش بإزاء الحقائق المكتسحة ؟ لكن أبا جهل - والحق  
يقال - كان تمثالا للعناد إلى آخر رمق ، والطمس المنسوج على بصيرته جزء من  
كيانه لا ينفك عنه أبداً ، لذلك أقبل يقاتل في شراسة وغضب وهو يقول :

ما تنقم الحرب الشمس مني ؟ بازل عامين حديث سني !

لمثل هذا ولدني أمي .

وأحاطت به فلول المشركين يقولون : أبو الحكم لا يخاص إليه ، فكان بينهم  
وسط غابة ملتفة . بيد أن هذه الغابة لم تلبث أن تهاوت جذعا جذعا ، أمام حماس  
الؤمنين الذين اشتد بأسهم ، وأغرتهم بشارُ الفوز ، وساد هتافهم الموقمة وهم  
يقولون : أحد أحد !

قال عبد الرحمن بن عوف : إني أفي الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يميني  
وهن يساري فتيان حديثا السن ، فكأنني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سرّاً  
من صاحبه : ياعم ، أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به ؟ قال : عاهدت  
الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ! وقال لي الآخر سرّاً من صاحبه مثله .

قال : فما سرني أني بين رجائين مكلمهما .

فأشرت لهما إليه . فشدا عليه مثل الصقرين ، فضرباه حتى قتلاه ، وهما ابنا عفراء <sup>(١)</sup> ويظهر أنهما تركاه بين الحياة والموت ، وقد استشهد البطلان في هذه الواقعة ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصرعهما يدعو لهما ويذكر صنيعهما <sup>(٢)</sup> .

أما أبو جهل فقد سقط مكانه يلفظ أنفاسه ، وتفرق المشركون بعده بدءاً ، وتركوا سيقانهم — للريح ، تبعثرهم في فجاج الصحراء ، كما تبعثر كنيباً من الرمل المنهار .

ومر عبد الله بن مسعود بالقتلى فوجد أبا جهل فيهم ، لا يزال به رمق ، فجثم على صدره يبغى الإجهاز عليه ، ونحرك « أبو جهل » يسأل : لمن الدائرة ؟ قال عبد الله :

لله ورسوله ، ثم استلقى عبد الله : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال له : وبماذا أخزاني ؟ هل أعمد من رجل قتله قومه ؟ وتقرس في عبد الله ثم قال له : أأنت ربيعنا بمكة ؟

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٤٦/٧) ومسلم (١٤٨/٥ — ١٤٩) وأحمد (رقم ١٦٧٣) واستدركه الحاكم (٤٢٥/٣) فوهم ، وقوله : « وهما ابنا عفراء » هكذا في رواية البخاري ، وعند الآخرين : « والرجلين معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء » وهي رواية للبخاري (١٨٩/٦ — ١٩٠) فلعل الرواية الأولى على طريقة التغليب .

وانظر « الفتح » (٢٣٦/٧)

(٢) الجزم بهذا خطأ بين لأنه من رواية الواقدي بدون سند ! كما في ابن كثير (٢٨٩/٣) وحتى لو سلم سندُه وكان رجاله ثقات لم يصح لأن الواقدي منهم بالكذب . ويدل على ضعف هذه الرواية أن معاذ بن عمرو مات في زمن عثمان كما جزم به البخاري وغيره (راجع ابن هشام ١٧٢/٢) .



فجمل عبد الله يهوى عليه بسيفه حتى خمد (١).

ولقى مثل هذا المصير الفاجع سبعون صنديداً من رؤوس الكفر بمكة دارت عليهم كؤوس الردى فتجرعوها صاغرين . وسقط في الأسر سبعون كذلك .

وفراً بقية التسعمائة والخمسون يروون لمن خلفهم أن الظلم مرتعه وخيم ، وأن البطر يجر في أعقابه الخزى والعار .

• • •

وفتح المسلمون عيونهم على بشاشة الفوز تضحك لهم خلال الأرض والسماء . إن هذا الظفر المتاح رد عليهم الحياة والأمل والكرامة ، وخلصهم من أغلال ثقـال « ولقد نصركم الله ببدر » وأنتم أذلّة فأتقوا الله اعلمكم تشكرون » .

وكانت عدة من استشهد منهم أربعة عشر رجلاً ، استأثرت بهم رحمة الله فذهبوا إلى عليين ثبت عن أنس بن مالك ، أن حارثة بن سراقة ، قتل يوم بدر ، وكان في النظارة ، أصابه سهم طائش فقتله ، فجاءت أمه فقالت : يا رسول الله ، أخبرني عن حارثة ؟ فإن كان في الجنة صبرت ، وإلا فليدين الله ما أ صنع - تعنى من النياحة - وكانت لم تحرم بعد ! ! فقال لها الرسول : ويحك أهبات ؟ إنها جنان ثمان ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى ... (٢)

(١) رواه بنحوه ابن هشام ( ٧٢/٢ ) عن ابن إسحاق بدون إسناد وبعضه في الإسناد ( رقم ٤٢٤٦ ) والبيهقي ( ٦٢/٩ ) عن ابن مسعود بسند منقطع ، وقصة قتل ابن مسعود لأبي جهل صحيحة رواها البخاري ( ٢٣٥/٧ ) ومسلم ( ١٨٣/٤ - ١٨٤ ) وأحمد ( ١١٥/٣ ، ١٢٩ ، ٢٣٦ ) من حيث أنس .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري ( ٢٠/٦ - ٢١ - ٢٤٣/٧ ) .

فإن كان هذا جزاء النظارة الذين اختطفتم سهام طائشة ، فكيف بمن خاض إلى المنايا الغمرت الصعاب ؟ ...

في هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والإخوة بالإخوة . خالفت بينهم المبادئ . ففصلت بينهم السيوف وفي عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنيهم ، ومزقوا أغلى الأواصر الإنسانية في سبيل ما يعتقدون . فلا عجب إذا رأيت الآن المؤمن بغضب أباه الملاحد ، ويخضع في ذات الله . والقتال الذي دار به « بدر » سجل صوراً من هذا النوع الحاد : كان أبو بكر مع رسول الله ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبي جهل ، وكان عتبة بن ربيعة أول من بارز المسلمين . وكان ولده أبو حذيفة من خيار أصحاب النبي . فلما سحبت جثة عتبة لترمى في القليب ، نظر الرسول إلى أبي حذيفة ، فإذا هو كئيب قد تغير لونه ! فقال له : يا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام فلما رأيت ما أصابه وذكرت مآلات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنتني ذلك !

فدعاه رسول الله بخير . وقال له خيراً .. (١)

وأمر رسول الله بقتل المشركين فطرحوا في القليب . وروى أنه قال عند مرآهم بثس عشيرة النبي كينتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني وانصرني الناس (٢) فلما ووريت جثتهم وأهيل التراب

(١) حديث ضعيف رواه ابن هشام ( ٧٥/٢ ) ! عن ابن إسحاق بلاغا .

(٢) حديث ضعيف رواه ابن هشام ( ٧٤/٢ ) عن إسحاق قال : حدثني بعض أهل العلم . وهذا اسناد متصل . وقد رواه أحمد ( ٧٠/٦ ) من طريق إبراهيم .



على رفاتهم ، انصرف الناس وهم يشعرون أن أئمة الكفر قد استراح الدين  
والدنيا من شرورهم إلا أن النبي استعاد ماضيه الطويل في جهاد أولئك القوم .  
كم عالج مغاليقهم وحاول هدايتهم ؟ . وكم ناشدتم الله وخوفهم عصيانه وتلا  
عليهم قرآنه ؟

وهم — على طول التذكير — ينجحون ، وبالله وآياته ورسوله يستهزئون  
فخرج<sup>(١)</sup> النبي في جوف الليل حتى بلغ القليب المطوى على أهله وسمعه الصحابة يقول  
« يا أهل القليب يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن

= عن عائشة مرفوعاً بلفظ : « حزاكم الله شراً من قوم نبي ، ما كان أسوأ الطرد ،  
وأشد الكذب » ورجاله ثقات لكنه منقطع بين إبراهيم وهو النخعي وبين عائشة .

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن إسحاق ( ٧٤/٢ ) : حدثني حميد الطويل عن أنس  
به وهذا سند صحيح وحمد وإن كان مدلساً فإن ما يرويه معتمداً عن أنس بينهما ثابت  
البناني كما ذكروا في ترجمته وهو ثقة من رجال الشيخين وقد أخرجه أحمد ( ١٠٤/٣ ؛ ١٨٢ )  
من طرق عن حميد به . وقال الحافظ ابن كثير ( ٢٠٢/٣ ) إنه على شرط الشيخين «  
قلت : وقد وصله مسلم ( ٢٦٣/٨ ) وأحمد ( ٢١٩/٢ ، ٣٧٧ ) من طريق حماد بن سلمة  
عن ثابت عن أنس ورواه أحمد ( ١٤٥/٣ ) من قتادة عن أنس لكن رواه البخاري  
( ٢٤٠/٧ — ٢٤١ ) من طريقه قال : ذكر لنا أنس عن أبي طلحة : جملته من سند  
أبي طلحة وهو الأصح كما قال الحافظ ابن كثير وابن حجر . ثم أخرجه مسلم والطحاوي  
( ٩٧/٢ — ١٠٨ ) ترتيب الشيخ أحمد البنا وأحمد ( رقم ١٨٢ ) من طريق سليمان  
ابن المغيرة عن ثابت عن أنس عن عمر . فالظاهر أن أنس / منه صلى الله عليه وسلم وإنما  
رواه عنه بواسطة الصحابة . فكان تارة يرسله . وتارة يوصله . والحديث رواه غير من  
ذكر من الصحابة عبد الله بن عمر . أخرجه البخاري ( ٢٤٣/٧ ) وغيره . وفي الباب  
عن مسعود وابن عباد وغيرهما وأما إنكار عائشة الذي ذكره المؤلف في التعليق فقد  
أنكره العلماء وبينوا أن الصواب بجانب الذين رووا هذا الحديث . راجع « البداية »  
لأبي الكثير . و « الفتح » لابن حجر . وعند أبيه لا تعارض بين روايتهم وروايتها .  
بل اجمع بينها هو الصواب كما بينته في « أحكام الجنائز وبدعها » ولعله يطبع قريباً .

هشام ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً !  
فقال المسلمون : يا رسول الله أتنادي قوماً جيئوا ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول  
منهم ! ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني <sup>(١)</sup> .

كانت واقعة بدر في السابع عشر من رمضان لسنة من الهجرة . وقد أقام  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ثلاثاً : ثم قفل عائداً إلى المدينة بسوق أمامه  
الأسرى والغنائم ! ورأى قبل دخولها أن يعجل البشرى إلى المسلمين المقيمين فيها  
لا يدرون مما حدث شيئاً .

فأرسل « عبد الله بن رواحة » و « زيد بن حارثة » مبشرين يؤذنان الناس  
بالنصر العظيم .

قال « أسامة بن زيد » . فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول  
الله ! وكان زوجها عثمان بن عفان قد احتبس عندها بمرضها بأمره . وضرب رسول  
الله بسهمه وأجره في بدر <sup>(٢)</sup>

\* \* \*

## محاسبة وعتاب

برغم ما سجله التاريخ من تحمل وموااساة بين الأنصار والمهاجرين فإن متاعب  
العيلة . ومشكلات الفقر تمتشت خلال المجتمع الجديد ، إن سترها التعفف حيناً .

---

(١) تنكر عائشة هذا الحديث محتجة بقول الله (وما أنت بمسمع من في القبور \* إن أنت  
إلا نذير) ونقول : إن اللفظ الذي قاله الرسول : ما أنتم بأعلم لما أقول منهم .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه البيهقي (١٧٤/٩) بسند صحيح من حديث أسامة ورواه بنحوه  
الحاكم (٤٨/٣) عن الزهري مرسلًا . وفي الباب أحاديث أخرى تراجع في « المجموع »  
(٨٣/٩ — ٨٤) .



أبرزتها الحاجة حيناً آخر ، والأزمات التي تصاحب تكوين دولة من العدم ومط  
أم تكيد لها وتترص بها الدوائر ، يجب أن تتوقع ، وأن توطن النفوس على  
احتمالها . وألا تكون حدة الشعور بها سبباً في ضعف السيرة وعجز الهمة ...

وقد أخذ الله المسلمين — قبل معركة بدر وبعدها — بأمور بدرت منهم ،  
يجب لهم أن يتنزهوا عنها . مهما بلغ من شدة الدوافع والمبررات لارتكابها .  
فهم يوم خرجوا من يثرب لملاقاة مشركي مكة ، تعلقت أمانيتهم بإحراز العير  
وما تحمل من ذخائر ونفائس ...

حقاً إنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وضجّحوا في سبيل الله بأنفسهم  
وأولادهم ... فليمضوا في طريق الفداء إلى المرحلة الأخيرة ، ومهما عضهم الفقر  
بنائه ، فليكن التنكيل بالكافرين أرجح في ميزانهم من الاستيلاء على الغنيمة .  
« وإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ  
الشُّوْكَ تَكُونَ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُنَحِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ  
الْكَافِرِينَ » .

ومن هذا القبيل تسابقهم بعد النصر إلى حيازة الغنائم ومحاولة كل فريق  
الاستئثار بها ، عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي فشهدت معه بدرأ  
فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون  
وأكبت طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله  
لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ،  
قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين  
خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا نحن نحينا منها العدو وهزمناه ،  
وقال الذين أحدثوا برسول الله : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ،  
فأنزل الله « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ « فقسّمها رسول الله بين المسلمين <sup>(١)</sup> .

هذا التنازع المؤسف إثر البأساء الشاملة التي لحقت بالمهاجرين والأنصار على السواء . وقد نظر رسول الله إلى مظاهر هذا البؤس على أصحابه وهم خارجون إلى بدر، فرثى لحالم ، وتألّم لما بهم ، وسأل الله أن يكشف كرباتهم فعن عبد الله بن عمرو <sup>(٢)</sup> قال : خرج رسول الله يوم « بدر » في ثلثمائة وخمسة عشر رجلا من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : اللهم إنهم جِياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فأحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا ، وبامنهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حلين واكتسبوا وشبعوا » .

إن الجوع والعري عندما يطول أمدها يتركان في النفوس ندوبا سيئة ، ويدفعان الأفكار في مجرى ضيق كالح على أن هذه الأزمات إن أخرجت العامة وأهاجتهم إلى طلب الغذاء والكساء لأنفسهم وذرائعهم بحرص ومجاهرة ، فإن المؤمنين الكبار ينبغي أن يتماسكوا ، وأن يكتموا أحاسيس الفاقة الملحة فلا يتنازعوا على شيء .

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد ( ٣٢٣ / ٥ — ٣٢٤ ) والحاكم ( ٣٢٦ / ٢ ) من طريق مكحول عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت . وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي ! وأبو أمامة لم يره مكحول كما قال أبو حاتم فهو منقطع ، ومن هذا الوجه أخرجه ابن مشام ( ٧٦ / ٢ ) عن ابن إسحاق . ومن ط يقه أحمد ( ٣٢٢ / ٥ ) لكن له شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود ( ١٣٠ / ١١ ) والحاكم وقال : « صحيح الاسناد » ووافقه الذهبي وهو كما قالوا . وبه صح الحديث .

(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود ( ١٣٢ / ١ — ١٣٣ ) والحاكم : ( ١٤٥ / ٢ ) والبيهقي ( ٥٧ / ٩ ) وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ! وإنما هو حسن فقط ، وحسنه الحافظ في « الفتح » ( ٢٣٣ / ٧ ) .



وذلك الأدب هو ما أخذ الله به المسلمين ، وافتتح به السورة التي تحدثت عن القتال في بدر..

ذلك أن الخاصة من الرجال هم قدوة غيرهم ، فإذا ساءت أخلاقهم للضوابط العارضة واضطرب مسلكهم فسيكون سواد الشعب إلى مزالق الفوضى أسرع.. وقد رأينا « الألمان » في الحرب العالمية الأولى و « الإنجليز » في الحرب العالمية الثانية شدد عليهم الحصار حتى هزلت الأجسام ، واصفرت الوجوه ، وما صارت الجماهير هذه المجاعات إلا وراء قادتها المصابرين المتجملين .

ومما حاسب الله عليه المسلمين حساباً شديداً موقفهم بإزاء الأسرى ، فإن الرغبة في استبقائهم للانتفاع من ثرواتهم غابت الآراء الأخرى بضرورة الانتصاف من مآثمهم السابقة ، حتى يكونوا نكالا لما بين أيديهم وما خلفهم وموعظة للمتقين ...

استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ! وإنى أرى أن تأخذ منهم للفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمسكتني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه . وتمسك علياً من عقيل بن أبي طالب ، فيضرب عنقه ، وتمسك حمزة من فلان أخيه ، فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فعدوت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر وهما يبكيان ! فقلت : يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تبأ كيت لبكائكما ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة .

وأنزل الله تعالى : « ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . فولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (١) .

إن الوقوع في الأسر لا يعنى صدور عفو عام عن الجرائم التي اقترفتها الأسرى أيام حريتهم ، وهؤلاء الطغمة من كبراء مكة ، لهم ماض شنيع في إيذاء الله ورسوله ، وقد أبطرتهم منازلهم ، فساقوا عامة أهل مكة إلى حرب ، ما كان لها من داع ، فكيف يتركون بعد أن استمكنت الأيدي من خناقهم ؟

أذلك لأن لهم ثروة يفتدون بها ؟ ما كان يليق أن ينظر المؤمنون إلى هذه الأعراض التافهة متناسين ما فرط من أولئك الكفار في جنب الله .

إنهم مجرمو حرب — بالإصطلاح الحديث — لأسرى حرب ، وقد ندد القرآن بخيانتهم لقومهم بعد كفرهم بنعمة الله عليهم فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها ، وبئس القرار » .

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه مسلم ( ١٥٦/٥ — ٢٥٧ ) وأحمد ( رضم ٢٠٨ : ٢٢ ) والبيهقي ( ٦٧/٩ — ٦٨ ) من حديث عمر .



وهناك نصوص توصي برعاية الأسرى وإطعامهم ، وتشعر القوائين الرحمة في معاملتهم ، وهذا ينطبق على جماهير الأسرى من الأنباع والعامّة .

أما الذين تاجروا بالحروب ، لإشباع مطامعهم الخاصة فيجب استئصال شأفتهم ، وذلك هو الإثخان في الأرض .

إن الحياة كما تتقدم بالرجال الأخيار ، فإنها تتأخر بالعناصر الخبيثة ، وإذا كان من حق الشجرة لكي تنمو أن تقلم . فمن حق الحياة ، لكي تصلح ، أن تنقى من السفهاء والعتاة والآثمين ، ولن يقوم عرض أبداً عن هذا الحق ، ولو كان القناطير المقلطرة من الذهب ، وقد أسمع الله نبيه وصحابته هذا الدرس ، حتى إذا وعوه وتديروه عفا عنهم ثم أباح لهم — من رحمته بهم — الانتفاع بما أخذوا من فداء فقال « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ » .

## في أعقاب بدر

شده العرب قاطبة للنصر الحاسم الذي ناله المسلمون في بدر ، بل إن أهل مكة استنكروا الخبر أول ما جاءهم ، وحسبوه هذيان مجنون ، فلما استبان صدقه صمق نفر منهم فهلك لتوه ، وماج بعضهم في بعض من هول المصاب لا يدرى ما يفعل . . .

وكما استبعد أهل مكة الهزيمة على أنفسهم حتى جوبهوا بمارها ، استبعد مشركوا المدينة ويهودها ما قرع آذانهم من بشرىات الفوز ، وذهب بعضهم إلى حدّ اتهام المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض اختلاق ، وظلوا يكابرون حتى رأوا الأسرى مقرنين في الأصفاة ، فسقط في أيديهم .

وقد اختلفت مسالك الأحزاب الكافرة بإزاء المسلمين بعد هذا القلب الذي

مكن للإسلام وأهله ، وجعل سلطانهم مهيباً في المدينة وما حولها ، ومد نفوذهم على طريق القوافل في شمال الجزيرة ، فأصبح لا يمر بها أحد إلا بإذنهم .

فأما أهل مكة فقد انطوا على أنفسهم ، يداوون جراحهم ، ويستعيدون قواهم ويستعدون لنيل ثأرهم . ويعلنون أن يوم الانتقام قريب ، ولم تزد المزيمة إلا كرهاً للإسلام ، ونقمة على محمد وصحبه ، واضطهاداً لمن يدخل في دينه ، فكان من ينشرح صدره للإسلام يخفى به أو يعيش ذليلاً مستضعفاً .

ذلك في مكة ، حيث كانت الدولة للكفر .

أما في المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة ، فقد اتخذت العداوة للإسلام طريق الدس والنفاق والخاتلة ، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً وقلوبهم تغلي حقداً وكفراً ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي .

روى أسامة بن زيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب — كما أمرهم الله تعالى — ويصبرون على الأذى :

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو الذي أمره الله به — حتى أذن فيهم<sup>(١)</sup> .

فلما غزا بدرأ ، وقتل الله فيها من قتل من صناديد قريش ، وقفل رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه منصورين غانمين معهم أسراهم ، قال « عبد الله بن

(١) حديث صحيح رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ، واسناده صحيح كما قال الحافظ ابن

كثير في « التفسير » ( ١٥٣/١ ) .



أبيّ » ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه ( أي استقر ) فلا مطمع في إزالته ) فبايعوا رسول الله صل الله عليه وسلم على الإسلام فأسلموا . .  
على أن هذا الخداع لاذ به فريق من الكفار في الوقت الذي عان فيه فريق آخر من اليهود يسخطهم على محمد ، وألمهم للهزيمة التي أصابت قريشاً في « بدر » بل إن كعب بن الأشرف — من رجالات اليهود — أرسل القصاص في رثاء قتلاهم والمطالبة بثأرهم !

ولقد اتسعت شقه للعداوة بين المسلمين واليهود إثر هذا الموقف النابي .  
ثم حاول اليهود أن يحقروا من شأن النصر الذي حظى به الإسلام ، مما مهد للأحداث العنيفة التي وقعت بعد ، ودفع اليهود ثمنها من دمهم ، أفرادا وجماعات .  
أما البدو والضاربون حول المدينة وعلى طرق القوافل ، فهم قوم همل ، لا يهمهم شيء من قضايا الكفر والإيمان ، إنما يهمهم اكتساب القوت من أي وجه ، والحصول عليه ولو عن طريق السلب والنهب . وتاريخهم الحديث مع قوافل الحجاج شاهد صدق على أنهم لا يرعون حرمة ولا يخشون إلا القوة ، ولولا بطش السعوديين بهم ما أمن طريق الحج قط ! وقد سبق لهم استيلاء نعم المدينة ، وما ورثوه من جاهلية طامسة ، جعل قلوبهم مع مشركي الجزيرة ، وقد ذهروا لانتصار المسلمين في بدر ، وأخذت جموعهم تحتشد ، تبغى انتهاز فرصة الإغارة على المدينة ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم نهض إلى جموعهم فشتتها ولم يبق في إرهابهم متاعب ذات بال .

### بدء الصراع بين اليهود والمسلمين

لم تحدث المسلمين أنفسهم بنقض عهود اليهود ، ولا فكروا في طردهم من أرض الجزيرة ، بل على العكس ، توقع المسلمون منهم أن يكونوا عوناً لهم ( ١٧ - فقه السيرة )

في حرب الوثنية المخرفة وتدعيم عقيدة التوحيد ، ورجا المسلمون أن يصدق اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم فيما يشبهه الله من تنزية ومجد ، وأن تكون صلتهم بالكتب القديمة وألفهم لأحاديث المرسلين سبيلاً في إقناع العرب الأميين بأن الرصالات السماوية حق والإيمان بها واجب .

وهذه المشاعر الحسنة تمشي مع القرآن النازل يومئذ ، يؤسسها ويؤكد لها :  
« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، آتَتْ مُرْسَلًا . قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » .

« وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابِ » .

بيد أن لليهود كانوا عند أسوأ الظن فلم تمض أيام على اختلاطهم بالمسلمين في المدينة حتى شرعوا يخرجون صدورهم ويعينون عليهم ، ولو أنهم كذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم كما كذبوا بعبسى من قبل ، واعتقدوا أن ما وراء توراتهم باطل باطل ، واكتفوا بأداء عبادتهم في بيعهم ، وحيسوا في أفواههم المطاعن على أنبياء الله ... لتركهم المسلمون وشأنهم يكفرون إلى قيام الساعة ، دون حرب أو ضرب .

أما أن يجتهد المسلمون في بناء دولتهم فيجتهد هؤلاء في نقضها . أما أن يصطدم الإسلام بالشرك فينضم بنو إسرائيل بعواطفهم وألسنتهم ودعايتهم ضد محمد وصحبه فهذا مالا يستساع .

وفي فرحة المسلمين بانتصارهم في بدر ، لم يستح أولئك اليهود أن يقولوا لرسول الله عليه الصلاة والسلام : « لا يفرئك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . أما والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس ! »



وقد نزل الوحي ينذر هؤلاء بسوء المنقلب « قل للذين كفروا : مستغلبون  
وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فئة  
تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد  
من يشاء \* إن في ذلك لآية لأولي الأبصار .

والآية الأخيرة تذكير بما وقع في بدر .

وأول من كشف عن ضعفه وهزأ بالإسلام وأهله ، يهود بنى قينقاع ، المقيمين  
داخل المدينة نفسها ، وكظم المسلمون غيظهم ، وانتظروا مائة مخض عنه الليالي من  
مكر اليهود .

وسعى هؤلاء إلى حتفهم بظلمهم فقد حدث أن امرأة عربية قدمت بحليها في  
سوق بنى قينقاع ، فجلست إلى صائغ هناك ، فاجتمع حولها نفر من اليهود  
يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها وهي غافلة فعقده  
إلى ظهرها .

فلما قامت انكشفت سوءتها وضحك اليهود منها ! وصاحت المرأة فوثب  
رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، وهكذا طارت  
الشرارة ووقعت الحرب بين المسلمين وبنى قينقاع .

وكان ذلك في منتصف شوال في السنة الثانية من الهجرة .

لجأ اليهود إلى حصونهم يقاتلون فيها ، ففرض الرسول صلى الله عليه وسلم  
عليهم الحصار ، وأحكمه خمس عشرة ليلة ، حتى اضطروا إلى التسليم ، ورضوا بما  
يصنعه رسول الله في رقابهم ونسائهم وذريقتهم فلما أمكن الله منهم جاء عبد الله بن أبي  
سفيان يا محمد أحسن في موالى - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ،  
فكرر ابن أبي مقلته : أحسن في موالى . فأعرض عنه الرسول . فأدخل يده في

جرب درعه ، فتغير لون النبي وقال له : أرسلني ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظلالاً .  
ثم أعاد أمره وهو مغضب : أرسلني ويحك ! قال ابن أبي : لا والله لا أرسلك حتى  
تحسن في موالى ، أربعمائة حاصر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود  
تحصدهم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله :  
هم لك <sup>(١)</sup> على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورنا بها .

فرحلوا إلى « أذرعات » بالشام ولم يبقوا هناك طويلاً حتى هلك أكثرهم .  
أما كان خيراً لهم أن يؤدوا حقوق الجوار ، ويعرفوا قيم العهود ، ويبقوا في  
المدينة آمنين موفورين ؟ لقد تعجلوا الشر فباءوا به . . . وفي حوار عبد الله بن أبي  
مع الرسول عليه الصلاة والسلام نزل قوله تعالى : فترى الذين في قلوبهم مرض  
يسارعون فيهم يقولون : نخشى أن نصيبنا دائرة فمسى الله أن يأتي بالفتح  
أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أمرُوا في أنفسهم نادمين <sup>(٢)</sup> . ويحسن  
أن نقابل في سيرة هؤلاء اليهود ، وسر نعتهم الشديدة على الإسلام ونبهه وتحيزهم  
المعيب إلى الوثنية في نضال الإسلام معها .

أصحح أن نزاع اليهودية والإسلام كان سياسياً لادنياً ؟ وأن الانفراد بالسلطان  
في الجزيرة العربية هو مبعث هذا الخصام الحاد ؟  
إن التغافل في فهم العواطف والمشاعر الإنسانية ، يفسر كثيراً من المواقف

---

(١) إلى هنا رواه ابن هشام ( ٢ / ١٢١ ) عن ابن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن  
قتادة مرسلأما بآقيه فلم أقف عليه الآن .

(٢) راه ابن اسحاق ( ٢ / ١٢١ ) عن عبادة بن الوائد بن عبادة بن الصامت وابن  
جبر عن عطية العوفي وعن الزهري . وكلها مراسلات . وقد أشار ابن كثير في تفسيره  
( ٢ / ٦٨ ) إلى تضعيف نزول الآية في ابن أبي والله أعلم .



الغامضة . لقد رأينا المسلمين في مكة يتحمسون للنصرانية في صراعها مع الجوسية  
ومحزونون لانكسار الروم أمام الفرس . مع أن الإسلام لم يكن قد اتصل بعد  
بالنصارى اتصالاً يبرر هذا الحماس . لكنه الشعور الطبيعي الوحيد الذي ينتظر  
من الرجل المخلص لدينه ، فالمسلمون أصحاب كتاب يدعو إلى التوحيد ، والنصارى -  
وإن اضطرب فهمهم لمعنى التوحيد وشابوا الحق بالخرافة - فهم - على كل حال -  
أهل كتاب ، ويعتبرون أعلى مرتبة من عبدة النار ، فالرغبة في انتصارهم على الوثنية  
الصرخة الشريك ، ضرب من الوفاء للإسلام نفسه ! ومن الاحترام للحقيقة التي  
معك أن تقترب مما يقرب منها ، وأن تباعد عن كل ما يبعد عنها .

وقد كان المشركون من أهل مكة منطقيين مع أنفسهم حين رحبوا بانتصار  
الفرس ، وعدوه رمزاً لغلبة الوثنية في كل صورها على أديان السماء جميلة . . .

فما معنى أن يفضب اليهود والموحدون - كما يزعمون - من انتصار الإسلام على  
الشرك . وبم يفسر حنوهم على القتل من عبدة الأصنام ، وسعيهم الحثيث لتغليب  
كفة الوثنية العربية على هذا الدين الجديد ؟ ؟ ؟

إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين وأن  
سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوي ، وأنهم لا يكثرثون بما يقترب  
من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة ، لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهم  
الغالبة وأثرتهم اللازمة . ومن ثم شكك القرآن في قيمة الإيمان الذي يدعيه  
القوم :

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا : نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا  
وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ \* قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ

أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين \* ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ... »

والظاهر أن طوائف اليهود التي عاشت بين العرب كانت عصابات من المرتزقة اتخذت الدين عنواناً لمطامع اقتصادية بعيدة . فلما تَوَّهم أن هذه المطامع مهددة بالزوال ، ظهر الكفر الخجوة فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين .

ولم يعرف أولئك شرفاً في حرب الإسلام . ولم يقفهم حد أو عهد في الكيد له فلم يكن بد من إجلائهم ، وتنظيف الأرض منهم .

وقد تعقب المسلمون كل غادر بعهد . مجاهر بحرب الله ورسوله ، مؤيد لقريش ورأيها ، مظهر للعطف والأسف على ما أصابها . . تعقب المسلمون هؤلاء الطغام من زعماء يهود وسراهم بالقتل والإرهاب .

ومن أولئك الذين نفذ فيهم العقات العادل « كعب بن الأشرف » فإن كعباً هذا سافر إلى مكة - من المدينة - يواسي مشركيها المهزومين في بدر . ويحرصون على إدراك ثأرهم من محمد صلى الله عليه وسلم وصحابه . وهو الذي سأله أبو سفيان أناشدك الله . أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأينا أهدى إلى ربك وأقرب إلى الحق ؟ إننا نطعم الجزور الكوماء ونسقي اللبن على الماء . ونطعم ما هبت الشمال .

قال له كعب : أنتم أهدى منهم سبيلاً فأنزل الله على رسوله .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجيبات والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » .

وعاد كعب إلى المدينة سافر العداوة ، بعيد الجراءة ، حتى أنه صاغ قصائد الغزل في بعض النساء المسلمات ... وليس بعد ذلك صبر ، فأهدر المسلمون دمه .



وبعث إليه النبي من استنزله من حصنه لياقي جزاءه الحق .

ذهب إليه « محمد بن مسلمة » و « أبو نائلة » بعدما استأذنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقولوا فيه ما يطمئن اليهودي إلى تبرمهما بالاسلام ، أتاه « محمد ابن مسلمة » فقال له : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا ، وإنى قد أتيتك أسئلتك !! . قال كعب : والله لئلمنه ! قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا . قال : نعم ، ارهنونى قلت : أى شىء تريد ؟ قال ارهنونى نساءكم ! قال : كيف ترهنك نساءنا وأنت أجل العرب ؟ .

قال : فترهنون أبناءكم . قال : يسب ابن أحدنا فيقال : رهن فى وسق أو وسقين من تمر . ولكن ترهنك السلاح ...

وصنع أبو نائلة ما صنع محمد بن مسلمة ، قال لليهودى : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ! عادتنا العرب ، ورمقنا عن قوس واحدة ، وقطعت علينا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدها وجهد عيالنا ! ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، ورضى كعب - أخيراً - أن يسلفهم نظير ارتهان أسلحتهم .

وإلى هذا قصدوا ، فإن كعبا لن ينكر السلاح معهم وهو الذى طالب منهم .

وفى ليلة مقمرة انطلقوا إلى حصنه ليقبضوا ما توعدوا عليه : فقالت امرأته وقد سمعت النداء : أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم ، قال كعب : لو دعى الفتى لطعنة لأجاب ، فنزل متوشحاً تنفح منه رائحة الطيب . واستدرجه القوم فى الحديث والسير ، ثم زعم أبو نائلة أنه يريد أن يشم الطيب من شعره ، فصرح فيه يده وهو يقول : ما رأيت كالليلى طيباً أعطر ، وزهى ككعب بما سمع ! وعاد

أبو نائلة فوضع يديه في شعر اليهودي حتى إذا استمكن من فؤديه قال لصحبه : دونكم  
عدو الله ، فاختلفت عليه أسيافهم <sup>(١)</sup> . دخلت في بدنه الأسلحة التي طلبها رهاناً  
بدل النساء والأبناء ..

وصاح كعب صبيحة لم يبق معها حصن إلا أوقدت عليه النار استجلاء للخبر  
فلما طلع الصباح علمت يهود بمصرع جبارها ، فذب الرعب في القلوب العنيدة ،  
وأسرعت الأفاعى إلى حجورها تخنبيء فيها ..

لقد أجدت العصا حين أعيت النصيحة وبطل المقال . ولزم اليهود حدودهم  
فلم يتجرأوا على المسلمين بسب ، وظهر كأنهم لن يمالئوا على الله ورسوله مشركاً  
بعد اليوم ...

وهكذا تغرس الرسول عليه الصلاة والسلام - إلى حين - لمواجهة الأعراب  
المشركين ..

## مناوشات مع قريش

لم يغتر المسلمون بانصر الذي نالوه في « بدر » ولم يفتروا عن مراقبة خصومهم  
والإعداد لهم . وقد علموا علم اليقين أن مكة لن تنى عن الانتقام لنفسها وإن تستكين  
للكارثة التي حلت بها .

(١) حديث صحيح ، رواه ابن هشام ( ١٢٣ / ٢ — ١٢٤ ) عن ابن إسحاق حدثني  
عبد الله بن المغيث ابن أبي بردة به نحو ، وهذا سند ضعيف مرسل أو معضل ، وعبد الله  
هذا ترجمه ابن أبي حاتم ( ١٧٤ / ٢ ) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . ورواه البخاري  
( ١٨٥ / ٥ — ١٥٧ ، ١٠٩ / ٦ — ١٢٠ ، ١٦٩ / ٧ — ٢٧٢ ) ومسلم ( ١٨٤ / ٥ ) ؛  
وأبو داود ( ١٣٦ / ١١ ) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه نحوه ، والظاهر  
أن سياق الكتابة مركب من الروايتين . والحديث رواه البيهقي ( ٨١ / ٩ ) من حديث  
جابر . ثم رواه من حديث موسى بن عقبة معضلاً .



ورأى أبوسفیان — حفظاً لمكانة قومه وإبرازاً لما لديهم من قوة — أن يجعل عملاقيل المغارم ظاهر الأثر . فقرر أن يفاجئ المدينة بغارة خاطفه يعود عقيبها وقد رد لقريش بعض سمعتها ، وألحق بالمسلمين ما يستطيع من خسائر .

تم إن أباسفیان كان نذر الأيس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً صلى الله عليه وسلم ، وينبغي أن يبر في قسمه .

فخرج في مائتي راكب حتى وصل إلى مساكن بني النضير في جنح الليل — بأطراف المدينة — ، ونزل على « سلام بن مشكم » من سادة اليهود . فتعرف منه أخبار المسلمين ، وتدارسوا أجدى الطرق لإيذائهم والإفلات من قواهم .

واهتدى أبوسفیان إلى العمل الذي وفي به يمينه ، وحقق به غايته ، فهجم برجاله على ناحية يقل لها : العريض . وحرقوا أسواراً من نخيل بها ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لها فقتلوهما . ثم لاذوا بالفرار عائدين إلى مكة .

وشعر المسلمون بما حدث . فانطلقوا وراء أبي سفیان ورجالهم يطاردونهم ويبتغون الإيقاع بهم وأحس المشركون بالطب فجدوا في الهرب . والمسلمون يقطعون الصحراء خلفهم راغبين في اللحاق بهم ، فلما أحس أبوسفیان بالخطر أخذ يتخفف من الأزواد التي يحملها حتى تمكن من النجاة . وعثر المسلمون في طريق المطاردة على هذه المؤن وأكثرها من السويق فسموا هذه المناوشة الطريفة غزوة السويق !

○ ○ ○

ولم تقل قريش من هذه الغارة الفاشلة شيئاً يرفع رأسها ففكرت أن تتجنب الصدام بالمسلمين حتى تحين الفرصة المواتية وليكن ألى لها ذلك ، وتجارتههم تمر في الغدو والرواح بالمدينة ؟ .

قال صفوان بن أمية لقريش : « إن محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل

قد وادعواهم ، ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ؟ . وإن أقمنا في دارنا هذه .  
أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام  
في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء » فقال له الأسود بن عبدالمطلب . تنكب الطريق  
على الساحل . وخذ طريق العراق . ودله على فرات بن حيان من بني بكر بن وائل  
ليكون رائدكم في هذه الرحلة .

وخرجت عبر قریش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن  
نعيم بن مسعود ، قدم المدينة يحمل أنباء هذه القافلة ، وخطة سيرها . واجتمع في  
مجلس شرب - قبل تحريم الخمر - بسليط بن النعمان فباح له بسرها . فأسرع سليط  
إلى النبي صلى الله عليه وسلم يروي له القصة ، فبعث النبي لوقته « زيد بن حارثة » في  
مائة راكب يعترضون القافلة . فلقوها زيد عند ماء يقال له القرادة ، فاستولى عليها  
كلها : وكانت تحمل مقادير كبيرة من الفضة ، وفر المشركون مذعورين . فلم يقع  
في الأسر غير فرات بن حيان .

فلما جرى به إلى المدينة دخل في الاسلام ...

ولقد حزنّت مكة لهذه النكبة الجديدة ، وزادها ذلك إصراراً على المطالبة  
بثأرها ، والتهوؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة . فكان ذلك وما سبقه من أحداث  
التمهيد القوي لمعركة «أحد» في السنة الثالثة للهجرة .

\* \* \*

ولا يفوتنا إذ نتابع النشاط العسكري للإسلام في سنتيه الأولىين بالمدينة ،  
أن نذكر بعض الشؤون الهامة الأخرى . فقد توفي خنيس بن حذافة السهمي زوج  
حفصة ابنة عمر بن الخطاب . وهو رجل صالح ممن شهدوا بدرًا . فلما تأيمت منه ،  
أراد أبوها أن يتخير لها زوجًا . قال عمر : فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه  
حفصة ، فقلت : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ! ! فقال ما أنظر في أمري !  
فلبث ليالي ثم لقيته فعرضت عليه . فقال : قد بدا لي ألا أتزوج .



قال عمر : فلقيت أبا بكر فقلت له : إن شئت أنكحك حفصة ابنة عمر :  
فصت ولم يرجع إلى شيئاً ، ! فكنت عليه أوجد منى على عثمان . .

فلبثت ليالى فخطبها منى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحها إياه . فلقيني  
أبو بكر فقال : لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ؟  
فقلت : نعم ، فقال : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت على إلا أنى كنت  
علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها . فلم أكن لأفشى سر رسول  
الله ولو تركها لقبيلتها (١) ...

وانجاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مصاهرة عمر بعد مصاهرة أبي بكر .  
ثم تزويجه ابنته فاطمة لعل بن أبي طالب وتزويجه ابنته أم كلثوم لعثمان - بعد وفاة  
رقية - يشير إلى إن النبي صلى الله عليه وسلم يبغي من وراء ذلك توثيق الصلات  
بالرجال الأربعة . الذين عرف بلاؤهم وفداؤهم للإسلام ، فى الأزمات التى مرت  
به وشاء الله أن يجتازها بإسلام .

ومن السنة الثانية للهجرة فرض صيام رمضان ، وزكاة الفطر وبينت أنصبه  
الزكاة الأخرى . ومن أجل ماوقع فى هذه السنة تحويل القبلة من بيت المقدس  
إلى الكعبة المطهرة . وقد كان هذا الانتقال مثار تغيظ اليهود واستنكارهم  
الشديد .

كانوا - قبله - يؤملون فى متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام لهم ( ١ ) ولعل  
أساس موادعتهم له ظنهم الإفادة منه واستغلال أنصاره ! فلما تميز الإسلام بقبلته  
الجديدة ، امتلأت أنفسهم باليأس . ودفعتهم خيبة الرجاء إلى تشديد الحملة على الإسلام  
وتبلييت السوء له .

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخارى ( ٩ / ١٤٤ - ١٤٥ ، ١٥٢ ) والنسائى  
( ٢ / ٧٥ - ٧٦ ، ٧٧ ) وأحمد ( رقم ٧٤ ) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وقد أحبط القرآن حرب الجدل التي شنها اليهود إثر تغيير القبلة .

« سيقول السفهاء من الناس : ما ولّاهم هن قبلتهم التي كانوا عليها ؟  
 قل : لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

« والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله .. »

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر .. »

إن الله رب الأزمنة والأمكنة جميعاً ، وتوجيه أمة إلى قبلة معينة ، لا يعني انحصاراً في إحاطته ، أو قصوراً في ربوبيته . لقد كانت عودة المسلمين إلى الكعبة رجوعاً إلى الأصل الذي بناه أبو الأبياء إبراهيم . وفي العودة إلى الأصل ، تنزه عن الانحرافات التي حدثت بعد من الذراري الضالين ، وخصوصاً بنى إسرائيل . لم يهدأ بال قریش مذغشياً في « بدر » ماغشياً وكان ماجد من الحوادث بعد لا يزيد أحقادها إلا ضرماً . فلما امتدات السنة ، كانت مكة قد استكملت عدتها واجتمع إليها أحلافها من المشركين ، وانضم إليهم كل ناظم على الإسلام وأهله . فخرج الجيش التأثر في عدد يربو على ثلاثة آلاف .

ورأى أبو سيفان قائده أن يستصحب النساء معه ، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرمانهم وأعراضهم ؟ وكانت الترات القديمة والغليظ السكمان يشعل البغضاء في القلوب ، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير .

وفي أوائل شوال من السنة الثالثة ، وصل الجيش الزاحف إلى المدينة ، فنزل قريباً من جبل « أحد » وأرسل خيله ترعى زروعها الممتدة هناك !

واجتمع المسلمون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يتدبرون أمرهم .



أينخرجون لمقاتلة العدو في العراء أم يستدرجونه إلى أزقة المدينة ، حتى إذا دخلها  
قاتله الرجال في الطارق ، وقاتله النساء من فوق أسطح البيوت ؟؟

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل إلى الرأي الأخير ، وأيده فيه رجال  
من أولى النظر والروية . وقال عبد الله بن أبي : هذا هو الرأي ! لكن الرجال  
الذين لم يشهدوا بدرأ ، تحمسوا للخروج ، وقالوا : كنا نتمنى هذا اليوم وندعو  
الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ! وظاهرهم الشباب الطامح في الاستشهاد . وبدأ  
أن كثرة المسلمين تميل إلى البروز للملاقاة العدو فدخل الرسول صلى الله عليه وسلم  
بيئته وخرج منه لا بساً عدته ، متهيئاً للقتال .

وشمر القوم أنهم امتكروا الرسول صلى الله عليه وسلم على رأيهم ، وأظهروا  
الرغبة في النزل على رأيهم ! بيد أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد غضاضة من  
الاضطراب بين شتى الآراء . فقال : ما ينبغي لنبي لبس لأمة أن يضعها حتى يحكم  
الله بينه وبين عدوه (١) .

وقال : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبىتم إلا الخروج . فعليكم بتقوى الله ،  
والصبر عند البأس . وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه (٢) ..

ثم خرج في ألف رجل حتى نزل به « أحد » إلا أن عبد الله بن أبي انسحب

(١) رواه ابن هشام ( ١٢٦ / ٢ - ١٢٨ ) عن ابن إسحاق عن الزهري وغيره مرسلًا  
وقد وصله أحمد ( ٣٥١ / ٣ ) من طريق أبي الزبير عن جابر نحوه وسنده على شرط مسلم  
غير أن الزبير مدلس وقد عنعنه . ولكن له شاهد من حديث ابن عباس الذي أخرجه  
البيهقي كما في « البداية » ( ١١ / ٤ ) بسند حسن فالحديث صحيح وقد رواه أحمد أيضا ( رقم  
٢٦٠٩ ) والحاكم ( ١٢٨ / ٢ - ١٢٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ) وصححه ووافقه الذهبي وهو  
حديث طويل في غزوة أحد سيأتي بعض فقراته في الكتاب .

(٢) ذكره ابن كثير ( ٤ / ١٢ - ١٣ ) من رواية موسى بن عقبة معضلا .

في الطريق بثلاث الناس . قائلًا ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ومحتجًا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك رأيه وأطاع غيره .. !!

فتبعهم عبد الله بن حرام - والد جابر بن عبد الله - ينصحهم بالثبات ؛ ويؤنبهم على العودة ، ويذكرهم بواجب الدفاع عن المدينة ضد المغيرين ، إذا لم يكن لهم إيمان بالله واليوم والآخر ، وثقة بالإسلام ورسوله .

فأبى « ابن أبى » الاستماع إليه . وفيه ومن انسحب معه نزلت الآية :  
« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم : تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا .  
قألوا : لو نعلم قتالًا لا تبعنكم » هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان »

\* \* \*

عسكر المسلمون بالشعب من « أحد » في عدوة الوادى ، جاءلين ظهرهم إلى الجبل . ورسم النبي صلى الله عليه وسلم الخطة لكسب المعركة . فجاءت محكمة رابعة . وزع الرماة على أما كنهم وأمر عليهم عبد الله بن جبير - وكانوا خمسين رجلًا - وقال : انضحوا الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ! إن كانت الدائرة لنا أو علينا فالزموا أما كنكم ، لا تؤتينا من قيلكم (١) ! وفي رواية قال لهم : احموا ظهورنا إن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ! وإن رأيتمونا نغتم فلا تشركونا ! واطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن فرقة الرماة قد أمنت بهذه الأوامر المشددة مؤخرة جيشه فأقبل يتعهد مقدمته . وأمر ألا ينشب قتالًا إلا بإذنه .

(١) حديث صحيح . أخرجه ابن هشام ( ١٢٩ / ٢ ) عن ابن إسحاق بدون إسناد ، وله شواهد كثيرة ، منها عن البراء بن عازب أخرجه البخارى ( ٢٨٠ / ٧ ) وأبو داود ( ٤١٥ / ١ ) وأحمد ( ٤ / ٢٩٣ ؛ ٢٩٤ . ومنها عن ابن عباس . وهو الرواية الثانية التي في الكتاب . أخرجه أحمد والحاكم وصححه كما تقدم قريباً .



وظاهر هو نفسه بين درعين<sup>(١)</sup> ، وأخذ يتخير الرجال أولى النجدة والبأس ليكونوا طليعة المؤمنين حين يلتحم الجمعان .

إن عدد المسلمين على الربع من المشركين . وإن يعوض هذا التفاوت إلا الأشخاص الذين يوزنون بالألوف وهم آحاد .

روى ثابت<sup>(٢)</sup> عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمسك يوم « أحد » بسيف ثم قال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فأحجم القوم . فقال أبو دجانة : أنا آخذه بحقه فأخذه ففلق به هام المشركين ، قال ابن إسحاق : كان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يخالع عند الحرب ، وكانت له عصاة حمراء إذا اعتصب بها ، علم أنه سيقا تل حتى الموت فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم تعصب وخرج يقول .

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل  
ألا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول  
ويعنى بعدم قيامه في الكيول . ألا يقاتل في مؤخرة الصوف ، بل يظل أبداً في المقدمة .

ثم تدانت الفئتان وأذن النبي صلى الله عليه وسلم لرجاله أن يجالدوا العدو ، وبدأت مراحل القتال الأولى تثير الغرابة . كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم ، لا بضع مئات قلائل ! وظهروا المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين .

(١) حديث صحيح ، أخرجه الحاكم ( ٢٥ / ٣ ) وعنه البيهقي ( ٤٦ / ٩ ) من حديث الزبير بن العوام . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وهو حسن الإسناد عندي وأخرجه الترمذي ( ٢٨ / ٣ ) واستغربه . وله شواهد كثيرة ، منها ، عن السائب بن يزيد عن رجل قد سماه . أخرجه أبو داود ( ٤٠٤ / ١ ) والبيهقي . وبقية الشواهد تراجع في « المجموع » ( ١٠٨ / ٦ - ١٠٩ ) .

(٢) كذا وقع في تاريخ ابن كثير ( ١٥ / ٤ ) معزواً لأحمد ، فنقله المؤلف كذلك وإنما هو عن ثابت عن أنس ، كذلك أخرجه أحمد ( ١٣٣ / ٣ ) ومسلم أيضاً ( ١٥١ / ٧ )

خرج حنظلة بن أبي عامر من بيته حين سمع هواتف الحرب ، وكان حديث  
عمد بعرس ، فأنخلع من أحضان زوجته ، وهرع إلى ساحة الوعى حتى  
لا يفوته الجهاد .

إن حادى التضحية كان أملك لنفسه وأملاً لحسه من داعى اللذة . فاستشهد  
البطل وهو جنب !!

وسادت روح الإيمان المحض صفوف المجاهدين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك  
انطلاق الفيضان ، تقطعت أمامه السدود .

وقف طلحة بن أبي طلحة العبدري حامل لواء قریش يتحدى ، داعياً إلى  
البراز ، فوثب إليه الزبير بن العوام حتى صار معه على جملة ، ثم اقتحم به الأرض  
فألقاه عنه وذبحه بسيفه !!

وأقبل أبو دجانه معلماً بعصا بقة الجراء لا يلقى مشركاً إلا قتله ، وكان أحد  
المشركين قد شغل نفسه بالإجهاز على جرحى المسلمين فى المعركة ! قال كعب بن  
مالك : وإذا رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته . فمضيت حتى كنت من  
ورائه ثم قتت أقدر المسلم والكافو ببصره ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة ،  
فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف ،  
فبلغت وركه ، وتفرق فرقتين ! ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى  
يا كعب ؟ أنا أبو دجانة ...

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتل الليوث المتهتاجة . وصمد لحملة اللواء من بنى  
عبد الدار فانتص ارواحهم فرداً فرداً .

قال « وحشى » غلام جبير بن مطعم : قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد  
فأنت عتيق ، قال : فخرجت مع الناس ، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف  
الحبشة فلما أخطى بها شيئاً . فلما التقى الناس فخرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته  
كأنه الجمل الأورق ، يهد الناس بسيفه هداً ، ما يقوم له شىء ! فوالله إني لأنهيأ له  
أريده وأستر منه بشجرة أو بحجر ليدنومنى . إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما



رآه حمزة قال : هلم إلى يا ابن مقطعة البظور ؟ قال : فضربه ضربة كأما اختطفتم رأسه . فهزرت حربتي . حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقعت في ثنته — أحشائه — حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوى فقاب ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أنيته فأخذت حربتي ورجعت إلى المعسكر ففقدت فيه . إذ لم تسكن لي بغيره حاجة ، إنما قتلتته لأعتق .

ومع الخسارة الفادحة التي نالت المسلمين بقتل حمزة فإن جيشهم القليل ظل مسيطراً على الموقف كله ، وحمل لواء المسلمين في هذا القتال « مصعب بن عمير » الداعية العظيم فلما استشهد حمل اللواء على بن أبي طالب « واستبق المهاجرون والأنصار في ميدان الشرف ، وأخذ اللواء الإسلامي يتقدم خطوة خطوة . وشعار المسلمين في هذا الالتحام « أمت أمت » .

وكانت نسوة قریش ذائبات على استنهاض رجالهن ، يضربن بالدفوف ، ويحرضن على القتال ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان .

فكانت تقول — حاثثة بنى عبد الدار على إبقاء لواء مكة مرفوعاً :

ويها بنى الدار      ويها حماة الأدبار

ضرباً بكل بقار !!

وتؤز قومها على القتل منشدة :

إن تقبلوا نفاق      ونفرش المارق !!

أو تدبروا نفارق      فراق غير وامق !!

وقد بذات قریش أقصى جهدها لتحطيم عنفوان المسلمين . لكنها أحست العجز وانكسرت همتها أمام ثبات المسلمين وإقدامهم .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره وصدق وعده ، فخشعوا بالسيوف حتى كشفهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها .

روى هبـد الله بن الزبير عن أبيه قال : والله لقد رأيتني أنظر إلى خـدم  
— سوق — هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، مادون أخذهن قليل  
ولا كثير ...

• • •

قد يجد المرء نفسه في حفل يموج بالأنوار ، وتنتشر في أجوائه الأشعة المبهرة  
ثم يقع خلل مفاجيء يقطع التيار ، فإذا المصابيح تغم ، ثم يسود المـكان ظلام  
موحش مقيم ! .

إن هذا مثل التحول المستنكر الذي قلب سير الحوادث في معركة ( أحد ) .  
لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنساني عرضت لفريق من الجند ، فأوقعت  
الارتباك في صفوف الجيش كله ، فضاعت في ساعة نزع كل المكاسب التي أحرزتها  
الشجاعة النادرة ، والتضحية البالغة . . !

لقد علمت كيف شدد الرسول عليه الصلاة والسلام على الرماة أن يلزموا  
أما كنهم صيانة لمؤخرة المسلمين ، وأوصاهم ألا يبرحوها أبداً ، ولو رأوا الجيش  
تتخطفه الطير ؟ غير أن إثارة من حب الدنيا عصفت بهذه الوصاية في ساعة غفلة ؟  
فما إن رأى الرماة الهزيمة حلت بقريش والنساء يهمن في الجبل ، والرجال يولون  
الأدبار ، والغنائم التي خلفها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادي ... حتى غادروا  
مواقعهم هابطين إلى الميدان ، يبعون انتهاب أنصبتهم من الأسلاب والأموال ؟

وكان فرسان المشركين بقيادة ( خالد بن الوليد ) محصورين ، لا يجدون ثغرة  
ينفذون منها إلى قلب المسلمين إلى أن حلت الهزيمة ، فلما رأى خالد أن مؤخرة  
المسلمين انكشفت . فلم يبق عليها حارس ، اهتبل الفرصة على عجل ، فاستدار بالخيـل



وأحرق بمقصوده منحدرأ عليهم من حيث لا يحتسبون . ورأى الفارون من قريش بوادر هذا النغير الطارى ، فتراجعوا حتى إن امرأه تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية ، هى التى رفعت لواء قريش من التراب بعد أن سقط وصرع حملته ؟ وثاب المشركون إلى رايتهم وخيالتهم . فأحيط بالصحابة من الأمام والخلف ووقعوا بين شقى الرحى ..

على أن الرجال الأحرار لا يصادون بسهولة ، إنهم شد هوالمأ حدث . ولكنهم أخذوا يقاتلون بحماسة ، وإن كان هدفهم هذه المرة أن ينجوا فحسب ! أن يبصروا طريقاً يخلصهم من هذا المأزق المضوض !

واستشهد كثير وهم يحاولون شق طريقهم . واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبى . فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته وشججه فى وجهه فأثقله وتفجر منه الدم<sup>(١)</sup> . وشاع أن محمداً قتل ، ففرق المسلمون ، ودخل بعضهم للمدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل . واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون كيف يفعلون ..

إلا أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل بصيحه بالمومنين : إلى عباد الله . إلى عباد الله ! فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلاً ، غير أن للشركين بصروا بهم فهاجموهم ! ووقف طلحة بن عبيد الله ، وسهل بن حنيف ، إلى جوار الرسول عليه الصلاة والسلام . فأصيب طلحة بسهم فى يده فشلهما .

وأقبل أبى بن خلف الجمحى على النبى عليه الصلاة والسلام وكان قد حلف

(١) رواه ابن جرير فى تاريخه عن السدى مرسلًا كما فى « البداية » ( ٢٣/٤ ) ؛ وكسر رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج رأسه ثابت فى مسلم ( ١٧٩/٥ ) من حديث أنس ؛ ورواه البخارى ( ٢٩٢/٥ ) معلقاً .

أن يقتله . وأيقن أن الفرصة سانحة فجاء يقول : يا كذاب ابن تفر ! وحمل على الرسول بسيفه .

فقال النبي : بل أنا قاتله إن شاء الله . وطمئه في جيب درعه طعنة وقع منها يخور خوار الثور ، فلم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم حتى مات <sup>(١)</sup> .

ومضى النبي صلى الله عليه وسلم يدعو المسلمين إليه ، واستطاع — بالرجال القلائل الذين معه — أن يصعد فوق الجبل ، فأنحازت إليه الطائفة التي اعتصمت بالصخرة وقت الفرار .

وفرح النبي عليه الصلاة والسلام أن وجد بقية من رجاله يتمتع بهم ، وعاد هؤلاء صوابهم إذ وجدوا الرسول حياً ، وهم يحسبونه مات ..

ويبدو أن إشاعة قتل النبي سرت على أفواه كثيرة ، فقد مر أنس بن النضر بقوم من المسلمين وألقوا أيديهم وانكسرت نفوسهم فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال : وما تصنعون بالحياة بعده ؟

قوموا فموتوا على ما مات عليه ... ثم استقبل المشركين فما زال يقاتلهم حتى قتل ..

ولم تتوان قريش من جانبها في مهاجمة الرسول ومن انحاز إليه من أصحابه بغية الإجهاز عليه وعليهم . وصرت ساعة عصيبة من أخرج الساعات في تاريخ الدنيا ، وفرسان المشركين ورماتهم يحملون — بعناد وإلحاح — لتحقيق أمنيتهم .

(١) هو من حديث السدي المتقدم . وقال ابن كثير : انه غريب جداً وفيه نكاره . لكن هذا النادر وهو قصة قتله صلى الله عليه وسلم لأبي بن خلف له شاهد من رواية أبي الأسود عن عروة بن الزبير ؛ ومن رواية الزهري عن سعيد بن المسيب كافي (البداية) (٢٢/٤) وكلاهما مرسل .



فقتل بين يدي النبي خلق كثير وهم يناخون دونه ، جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه ، ثم سقط بين حي وميت ، وترس عليه أبو دجانة بظهره فكان النبل يقع فيه ولا يتحرك .

روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم « أحد » في وسبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما أرهقه المشركون قال : من يردم عني وله الجنة ؟ فقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ! ثم أرهقوه فقال من يردم عني وله الجنة ؟ فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله : ما أنصفنا أصحابنا — يعني من فروا وتركوه !

وتركت هذه الاستبانة أثرها ، ففترت حدة قريش في محاولة قتل الرسول وثاب إليه أصحابه من كل ناحية وأخذوا يلحون شملهم ويزيلون ثعالبهم . وأمر النبي صحبه أن ينزلوا قريشاً من القمة التي احتلوها في الجبل قائلاً : ليس لهم أن يعلونا . فحصبوهم بالحجارة حتى أجلوهم عنها <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

إن الإفلات من عواقب هذا الانكسار الشنيع عمل لا يقل — في خطره — عن الانتصار الأول وقد اتجه عزم الرسول إلى بذل كل جهد ممكن في سبيل مقاومة قريش حتى لا تظفر بشيء ما غنيمية باردة . بل حتى تثقل بها مغارمها فلا تطمع في مزيد من إيذاء المسلمين فكان ينشل السهام من كنانته ويهطئها سعد بن أبي وقاص ويقول لهم فذاك أبي وأمي <sup>(٢)</sup> . وكان أبو طلحة الأنصاري رامياً ماهراً في إصابة الهدف قاتل دون رسول الله فكان إذا رمى رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هو من حديث السدي المتقدم .

(٢) رواه البخاري ( ٢٨٧/٧ ) من حديث سعد .

شخصه ينظر أين يقع سهمه ويرفع أبو طلحة صدره قائلاً : هكذا بأبي أنت وأمي ، لا يصيبك سهم ، نحوى دون نحر ك<sup>(١)</sup> ويقول : أنى جلد يا رسول الله فوجهنى فى حوائجك وصرنى بما شئت !! وقد نجح الرماة حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رد المشركين الذين حاولوا صعود الجبل وبذلك أمكن المسلمين الشاردين أن يلحقوا بالنبي ومن معه .

إلا أنهم جاءوا وكأنما خرجوا من عماية ، حتى أن بعضهم — من فرط الغيظ والذهول — قاتل أمانة لا يدري من يقاتل ، فقاتل اليمان والد الصحابي المعروف حذيفة وصرح حذيفة : أبا أبا ! دون جدوى .

ولما تجمعت فلول المسلمين بعد هذا الكر والفر كان الإعياء قد نال منها أى منال لولا أن الله قذف فى قلوبهم السكينة . وأعاد إليهم — بعد هذا الزلزال — الأمل والثقة فسكنوا حول رسول الله يرقبون ما يجد . وداعب الكرى أجفان البعض من طول التعب والسر ، فإذا أغفى وصقط من يده السيف عاودته اليقظة فتأهب للعراك من جديد ! وهذا من نعمة الله على القوم « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانةً نُماساً يَفْشَى طائفةً مِنْكُمْ ... »

ولم تكن قریش أقل من المسلمين معاناةً لأهوال ذلك اليوم العصيب .

فقد تعبت جد التعب فى الجولة الأولى فلما أذيل لها وطمعت أن تجعل المعركة حاسمة قاصمة وجدت المسلمين أصلب هوداً . دون إفنائهم صعب لا يستطيع احتمالها فاكثفت مما ظفرت بالإياب .

وظن المسلمون — لأول وهلة — أن قریشاً تنسحب لتهاجم المدينة نفسها .

---

(١) رواه البخارى ( ٨٨٩/٧ — ٢٩٠ ) من حديث أنس . وكذلك أخرجه أحمد ( ١٠٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٨٦ ) وعنده فى رواية قول أبى طلحة : « انى جلد ... »



فقال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب : أخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة . فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزهم فيها .

قال علي : فخرجت في آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل واتجهوا إلى مكة<sup>(١)</sup> .

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أنعمت ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، اعل هُبل ! فقال رسول الله لعمر : قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل . لا سواء . قتلانا في الجنة وقتلناكم في النار .

فقال له أبو سفيان : هلم إلي يا عمر .

فقال رسول الله لعمر : انتبه فانظر ما شأنه . فجاهده .

فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟

فقال عمر : اللهم لا ، وأنه ليسمع كلامك الآن . قال . أنت عندى أصدق من

ابن قميئة — وهو الذي زعم أنه قتل النبي .

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان في قتلاكم مثله ، والله ما رضيت ولا سخطت وما نهيت ولا أمرت<sup>(٢)</sup> .

(١) رواه ابن هشام ( ١٤٠/٢ ) عن ابن إسحاق بدون اسناد .

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وإسناده حسن كما تقدم في أول معركة أحد : **ب**وله شاهد من حديث البراء عند البيهقي وغيره وقد سبق تخريجه قريباً . وشاهد آخر من حديث ابن مسعود أخرجه أحمد ( رقم ٤٤١٤ ) وفيه حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب وقد سمع منه في حالة الاختلاط كما سمع منه قبلها ولهذا قال الحافظ ابن كثير ( ٤١/٤ ) : ( هذا إسناد فيه ضعف ) وهذا هو الصواب خلافاً لقول الشيخ أحمد محمد شاكر : إنه صحيح . ذهل عماد ذكر من سمعه —

ولما انصرف أبوسفیان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل نعم هو بيننا وبينك موعد<sup>(٢)</sup> .

### عبر المحنة

موقعة « أحد » فياضة بالعمظات الغوالي والدروس القيمة . وقد نزلت في أدوارها وحوادثها ونتائجها آيات طوال . وكان لها في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام أثر عميق ظل يذكره إلى قبيل وفاته . كانت امتحاناً ثقیلاً الوطأة محض المرأى ومزق النقاب عن محبوبتها . فامتاز النفاق عن الإيمان ، بل تميزت مراتب الإيمان نفسه نعرف الذين ركوا الدنيا بنعالمهم فلم يعرجوا على مطمع من مطامعها والذين مالوا إليها بعض الميل فنشأ عن أطعامهم التافهة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروعة .

بدأت المعركة بانسحاب ابن أبى وهو عمل ينطوى على استهانة بمستقبل الإسلام وغدر به فى أخرج الظروف . وتلك أبرز خسائس النفاق .

والدعوات — إبان امتدادها وانتصارها — تفرى الكثير بالأنضواء تحت لوائها فيختلط الخالص بالمفرض ، والأصيل بالدخيل . وهذا الاختلاط مضر أكبر الضرر بسير الرسائل الكبيرة وإنتاجها .

ومن مصلحتها الأولى أن تصاب برجات عنيفة تعزل الخبث عنها وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التحميم فى أحد .

---

== منه فى الاختلاط . وقد صحح فضيلة الشيخ كثير أ من الأحاديث فى تعليقه على المسند وغيره . كلها من هذا الطريق . فليتنبه لهذا .

(١) لم أجده الآن عند غير ابن اسحاق .



ما كان الله ليذرك المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب . »

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفنا عن طوية المنافقين ، فافتضحوا ، أمام أنفسهم وأمام الناس . قبل أن تعلن عن نفقهم السماء ..

فإذا تجاوزت السفوح التي يدب عليها أولئك المنافقون ، وثبت إلى ذراً شائخة للآيمان البعيد الغور . الدقى العنصر . يتمثل في مرحلة الهجوم المظفر الذي ابتداء به القتال ، ثم مرحلة الدفاع النبيل الهائل الذي حمل المسلمون عبثه . عند ما ارتدت الكرة للمشركين ، ورجعت كفتهم .

إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم ويوجهون زمامه بعزماتهم ، هم الذين صلوا هذه الحرب ، وحفظوا بها مصير الإسلام في الأرض .

روى أن « خيشمة » قتل ابنه في معركة « بدر » فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت والله - عليها حريصاً . حتى ساهمت ابني في الخروج ، فخرج - في القرعة - سهمه . فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة ، يسرح في ثمار الجنة وأثمارها . يقول : إلحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً .

ثم قال . وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرانقته ، وقد كبرت سني وورق عظمي ، وأحببت لقاء ربي . فداع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة ابني خيشمة في الجنة . فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام له . فقتل به « أحد » شهيداً . (١)

وكان « عمرو بن الجموح » أعرج شديد العرج . وكان له أربعة أبناء شباب يفزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما توجه إلى « أحد » أراد أن يخرج

(١) لم ألق عابه الآن

معه . فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة . فلو قعدت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد .

فأتى عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : إن بنى هؤلاء يمنعوني أن أجاهد معك . ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بـرجتى هذه فى الجنة !! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد . وقال لـبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ؟ فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل يوم أحد شهيداً .. (١)

وقال نعيم (٢) بن مالك : يابى الله لا تحرمنا الجنة — وذلك قبل نشوب القتال — فوالذى نفسى بيده لأدخلنها !! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بم ؟ قال : بأبى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت . واستشهد يومئذ ...

وقال عبد الله بن جحش فى ذلك اليوم : اللهم أبى أقسم عليك أن ألقى العدو غداً فيقتلونى ، يبقروا بطنى ، ويمجدعوا أنفى وأذنى . ثم تسألنى : فبم ذلك ؟ فأقول : فىك .. (٣) ؟

(١) رواه ابن هشام (٢ / ١٣٩) عن ابن اسحاق قال : وحدثنى أبى اسحاق بن يسار عن أشياخ من بنى سلمة به ، وهذا سند حسن إن كان الأشياخ من الصحابة ، والا فهو مرسل . وبعضه فى المسند (٥ / ٢٩٩) من حديث أبى قتادة : رضى الله عنه وزاد : « فقتلوا يوم أحد ، هو وابن أخيه وهولى لهم ، فر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . كئأنى أنظر إليك تمنى بـرجلك هذه صحبته فى الجنة » وسنده صحيح .  
(٢) الصواب « النعمان بن مالك » وفى ترجمته أورد هذا الحديث الحافظ فى « الاصابة » من طريق مسندى . فهو مرسل .

(٣) أخرج هذا الأثر الحاكم (٣ / ١٩٩ - ٢٠٠) من طريق سعيد بن المسيب : قال : قال عبد الله بن جحش ... وقال « صحيح على شرط الشيخين لولا ارسال —



هذه صورٌ للرجولة الفارعة التي اصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها .  
فنادى أمامها ، واضطربت من تحت أقدامه الأرض ، فمارح شيئاً في بداية القتال ، ولا انتفع بما ربح آخره .

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلى اليوم . وما يقوم للإسلام صرح ، ولا ينكشف عنه طغيان ، إلا بهذه القوى المذخورة المضغوطة في أفئدة الصديقين والشهداء . .

من سرُّ هذا الإلهام ؟ من مشرق هذا الضياء ! من مبعث هذا الاقتدار ؟  
إنه محمد ! إنه هو الذي ربى ذلك الجيل الفذ ، ومن قلبه الكبير أترعت هذه القلوب ، تفانياً في الله ، وإيثاراً لما عنده .

وقد أصيب هذا النبيّ الجليل في « أحد » أصيب في بدنه إذ دخلت حلقات المنقر في وجهه . فأكب عليه أبو عبادة يعالج انتزاعها بفمه ، فما خلصت من لحمه حتى سقطت معها ثنيته<sup>(١)</sup> . ونزف الدم — بغزارة — من جراحته ، كلما سكب عليه الماء ازداد دافقاً ، فما استمسك حتى أحرقت قطعة من حصير فأصقت به<sup>(٢)</sup> .

---

== فيه » ووافقه الذهبي قلت : لكن له شواهد موصلة وأخرجه البغوي كما في « الإصابة » من طريق اسحاق بن سعد بن أبي وقاص حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال : فذكره بنحوه وزاد وفي آخره : قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وأنت أنفه وأذنه لمعلنان في خبط .

(١) ذكره ابن هشام (١٣٥/٢ — ١٣٦) من طريق اسحاق بن يحيى بن طلحة عن عيسى بن طلحة عن عائشة عن أبي بكر وقد وصله الطيالسي (٩٩/٢١) فقال : حدثنا ابن المبارك عن اسحاق به . وكذلك وصله الحاتم (٢٦/٨ — ٢٨) — ووقع في سنده تحريف — وقال : « صحيح الإسناد » فتعقبه الذهبي بقوله : « قلت : اسحاق متروك » وكذا قال الهيثمي (١١٢/١٦) بدأت عزاه للبخاري .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٩٨/٧) ومسلم (١٧٨/٥) وغيرهما من حديث  
مسلم بن سعد :

وكسرت كذلك ربايعته ، وكسرت البيضة على رأسه . ومع ذلك فقد ظل  
معتقداً للذهن ، يوجه أصحابه إلى الخير حتى انتهت المعركة .

ثم أصيب في أهله ، فقتل « حمزة » بحربة انقرزت في أحشائه ، وجاءت  
« هند » امرأة أبي سفيان ، فاستخرجت كبده من بطنه ، ولا كتبها بقمها ثم  
لفظتها لإفجاء المرارة .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزُ حمزة ، ويحبه أشد الحب ، فلما  
رأى شناعة المثلة في جسمه ، تألم أشد الألم ، وقال : إن أصاب بمثلك أبداً ،  
ما وقفت قط موقفاً أغيظ إلى من هذا <sup>(١)</sup> ، بيد أن التسليم لله لم يلبث أن مسح  
الأحزان العارضة ، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفقد أصحابه ويخفف  
ما نزل بهم ، ويسكب من إيمانه على نفوسهم ما يملؤها عزاء ورضاً عن الله ،  
واسمكة لقضائه <sup>(٢)</sup> .

روى الإمام أحمد <sup>(٣)</sup> : لما كان يوم أحد ، وانكفاً المشركون قال رسول  
الله صلى الله عليه وسلم : استتروا حتى أثنى على ربي عز وجل !

فصاروا خلفه صفوفاً فقال : اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت

(١) هو من حديث سهل بن سعد المتقدم آنفاً .

(٢) حديث لا يصح ؛ ذكره ابن هشام ( ١٤١ / ٢ ) بدون اسناد ؛ ولم أجده عند  
غيره وقد نقله عنه الحافظ ابن كثير ( ٤٠ / ٤ ) وابن حجر في « الفتوح » ( ١٩٧ / ٨ )  
ولم يوصله .

(٣) في المستد ( ٤١٤ / ٣ ) والحاكم أيضاً ( ٥٠٧ / ١ ؛ ٢٣ / ٣ — ٢٤ ) وقال :  
الحاكم : « صحيح على الشيخين » قلت : إنما هو فقط صحيح فان فيه عبيد بن رفاعه  
ولم يخرج له الشيخان ومن أخطاء الذهبي أنه في أحد الوضعين وافق الحاكم على تصحيحه  
وفي الموضع الآخر قال : « والحديث مع نظافة اسناده منكر » كذا قال ؛ ولم أعرف  
لقوله وجهها : والله أعلم :



ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضلّت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ولا مبعد لما قربت . اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك . ورزقك .

اللهم : إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم : إني أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف . اللهم : إني عائد بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا . اللهم : حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم : توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين اللهم : قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم : قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب . إله الحق ..

• • •

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في « أحد » على عكس ما نزل في « بدر » من آيات ، ولا غرو فحساب المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر . في المرة الأولى قال :

« تربدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أحذرت عذاب عظيم » .

أما في « أحد » فقال :

« منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة \* ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » .

حسب الخطئين ما لحقهم من أضرار الهزيمة ، وفي القصص العاجل درس يذكّر الخطيء بسوء ما وقع فيه .

وقد أتجهت الآيات إلى مزج العتاب الرقيق بالدرس النافع وتطمين المؤمنين ،  
حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يقل قواهم ، حسرة تشل  
انتاجهم ...

« قد خلت من قبلكم سننٌ فسيرُوا في الأرضِ فانظروا كيفَ كانَ  
عاقبةُ المكذِبينَ \* هذا بيانٌ للناسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ \* ولا تهنوا  
ولا تحزنوا وأنتمُ الأعلوَنَ إن كنتمُ مؤمنينَ » .

ثم مضى الوحي يعلم المسلمين ما جهلوا من سنن الدين والحياة . أو  
يذكّرهم بما نسوا من ذلك . فبين أن المؤمن — مهما عظمت بالله صلته —  
فلا ينبغي أن يغتر به أو يحسب الدنيا دانت له ، أو يظن قوانينها الثابتة  
طوع يديه .

كلا كلا . فاحذر البالغ والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة ،  
ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له ، وأن شيئاً منها لن يكون عليه ،  
وأن أمجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار في طريق  
الفشل الذريع .

« إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القومُ قرحٌ مِثْلُه . وتلك الأيام نداؤُها  
بين الناسِ » .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنةَ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم  
ويعلم الصابرين ؟ »

وأولو الأهماب يستحيون أن يطالبوا السلامة الغالية بالتمنّي التافه . وهم يبدون  
استعدادهم للتضحية بانفسهم لقاء ما ينشدون . بيد أن الاستعداد أيام الأمن يجب  
ألا يزول أيام الروع .



إن الإنسان — في عافيته — قد يتصور الأمور سهلة مبسطة ، وقد يتأدى به ذلك إلى المجازفة والخذاع .

فليحذر المؤمن هذا الموقف ، وليستمع إلى تأنيب الله لمن تمنوا الموت ، ثم حادوا عنه لما جاء .

« وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونََ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » ١ .

ثم عاتب الله عز وجل من سقط في أيديهم ، وأنكسرت هممتهم ، لما أشيع أن الرسول عليه الصلاة والسلام مات . ما كذلك يسلك أصحاب العقائد ! إنهم أتباع مبادئ لا أتباع أشخاص .

ولو افترض أن الرسول صلى الله عليه وسلم قتل وهو ينافح عن دين الله ، فحق على أصحابه أن يشبثوا في مستنقع الموت ، وأن يردوا المصير نفسه ، الذي ورده قائدهم ، لا أن ينهاروا ويتخاذلوا ..

إن عمل محمد عليه الصلاة والسلام ينحصر في إضاءة الجوانب المعتمدة من فكر الإنسان وضميره . فإذا أدى رسالته ومضى ، فهل يسوغ للمستنير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منها !

لقد جمع محمد الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله . والذين ارتبطوا به ، عرفوه إماماً لهم في الحق ، وصلة لهم بالله .

فإذا مات عبد الله ، ظلت الصلة الكبرى بالحى الذى لا يموت ، باقية نامية :  
« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وََمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .

وقد استطرد النظم الكريم يبصر المؤمنين بمواطن العبرة فيما نالهم ، ويعلمهم كيف يتقون في المستقبل هذه المآزق ، وينتهز هذه السكوبة العارضة فيعزل عن جماعة المسلمين من خالطوهم على دخل ، وعاشروهم على نفاق .

ولئن أفادت وقعة « بدر » في خذل الكافرين ، إن وقعة « أحد » أفادت مثلها في فضح المنافقين ، ورب ضارة نافعة ، وربما صحت الأجسام بالعلل .

ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر في هذه الموقعة ، درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة . فالجماعة التي لا يحكمها أمر واحد ، أو التي تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح في صدام ، بل لا تشرف نفسها في حرب أو سلام .

والأمم كلها . مؤمنها وكافرها ، تعرف هذه الحقيقة . ولذلك قامت الجندية على الطاعة التامة ، وعندما تشتبك أمة في حرب ، تجعل أحزابها جبهة واحدة وأهواءها رغبة واحدة ، وتحمّد كل تمرّد أو شذوذ ينجم في صفوفها .

وإحسان الجندية كإحسان القيادة :

فكما أن إصدار الأوامر يحتاج إلى حكمة ، فإن إتقادها يحتاج إلى كبح وكبت . ولكن عقي الطاعة في هذه الشئون ، تمود على الجماعة بالخير الجزيل .

وأمرع الناس إلى الشعب والتمرد ، من أقصوا عن الرئاسة وهم إليها طامحون . وكان عبد الله بن أبي مثالا لهذه الفئة التي تضحي بمستقبل الأمة في سبيل أطاعها الخاصة . . .

أما الرماة الذين عصوا الأوامر بلزوم أما كنهم مهما كانت أطوار القتال فقد مرت بهم فترة ضعف وذهول ، تيقظت — خلالها — بقيمة في أنفسهم من حب الدنيا ، والإقبال على عرضها الزائل فكان إثر ذلك ما كان :



ولذلك لما دهش المسلمون للكارثة التي قبلت عليهم الأمور ، بين الله لهم أنهم هم مصدرها : فما أخلفهم موعداً ، ولا ظلمهم حقاً :

(أولاً أصابكم مصيبةٌ قد أصبتم مثليها قلتم : أسي هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قديرٌ) .

إن الإسلام يشترط الكمال لعمل وقبوله . الإيمان والاحتساب ، والتجرد .

### شهداء أحد

أخذت قريش طريقها إلى مكة وقد استخفها النصر الذي أحرزته .

إنها طارت به على عجل ، كأنها غير واثقة بما نالت بعد الهزيمة التي حاقت بها  
أول القتال !!

وأقبل المسلمون يتحسسون مصابهم في الرجال . ويجهزون القتلى لمضاجعهم التي يبرزون منها للقاء الله يوم ينفخ في الصور .

روى ابن إسحاق<sup>(١)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رجل ينظر إلى

(١) أخرجه من طريق محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني مصرحاً بسماعه منه مرفوعاً به ، كما في سيرة ابن هشام (٣/١٤٠ — ١٤١) وهذا إسناد مفضل وقد رواه الحاكم (٣/٣٠١) من طريق محمد بن إسحاق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فذكره . وأنا أخشى أن يكون سقط من السند «محمد» بن عبد الله بن عبد الرحمن ، بن إسحاق ، وعبد الله بن عبد الرحمن فإنهم لم يذكروا ابن إسحاق في الرواية عن عبد الله بن عبد الرحمن ، وعليه يكون الحديث مرسلًا وبه أعله الذهبي لأن عبد الله هذا تابعي وأما أيوه عبد الرحمن بن أبي صعصعة فصحابي فلو أن سند الحاكم سلم من السقط لكان الحديث متصلًا ولما أعله الذهبي بالإرسال والله أعلم . والحديث رواه مالك في الموطأ (٢/٢١) عن يحيى بن سعيد له معضلا ، ونقل =

ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا . فنظر ، فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق . فقال له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أنظر ، أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ فقال : أنا في الأموات ، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم سلامي ! وقل له : إن « سعد بن الربيع » يقول لك . جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته ! وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم . إن « سعد بن الربيع » يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خُصص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف ... !!

قال : ثم لم أبرح حتى مات ، وجئت النبي عليه الصلاة والسلام فأخبرته خبره . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفن الشهداء حيث قتلوا . ورفض أن ينقلوا إلى مقابر أسرىهم .

قال جابر بن عبد الله : لما كان يوم أحد جاءت عمتي بأبي لتدفنه في مقابرنا ، فنادى منادى رسول الله : ردوا القتلى إلى مضاجعهم<sup>(١)</sup> .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى « أحد » في توب واحد . ثم يقول : أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإن أشير إلى أحدهما

---

== السيموطي في « تنوير الحوالك » عن ابن عبد البر قال : « هذا الحديث لا أحفظه ولا أعرفه إلا عند أهل السير فهو عندهم مشهور معروف » قلت : قد رواه الحاكم أيضاً من حديث زيد بن ثابت قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع ... وقال الحاكم : صحيح الإسناد « ووافقه الذهبي » وفي سننه أبو صالح عبد الرحمن بن عبد الله الطويل ، ولم أجد الآن ترجمته .

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٦٣/٢) والنسائي (٢٨٤/١) وابن ماجه (٢٦٤/١)

وأحمد (٢٩٧/٣) ؛ ٣٠٧ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ) بسند صحيح عن جابر .



قدمه في اللحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء ! وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم ، ولم يغسلهم . . (١)

ولما انصرف عنهم قال : أنا شهيد على هؤلاء ، ما من جريح يجرح في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك (٢) .

• • •

إن معركة « أحد » تركت آثاراً غائرة في نفس النبي عليه الصلاة والسلام ظلت تلازمه إلى آخر عهده بالدنيا . في هذا الجبل الذاكن الجاثم حول « يثرب » أودع (محمد) أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه . فالصفوة النقية التي حملت أعباء الدعوة ، وعادت في سبيل الله الأقر بين والأبعدين ، واغتربت بعقائدها قبل الهجرة وبعدها ، وأنققت وقاثلت ، وصبرت وصابرت ، هذه الصفوة اختط لها القدر مثواها الأخير في هذا الجبل الأشم فتوسدت ثراه راضية مرضية . وكان رسول الله يتذكر سير أولئك الأبطال ومصابيرهم فيقول : (أحد) جبل يحبنا ونحبه (٣) .

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٣/١٦٣ — ١٦٥ ؛ ١٦٩ ؛ ٣٠٠/٧) والنسائي (٢٨٨/١) والترمذي (١٤٨/٢) وصححه ، وابن ماجه (٤٦٠/١) وأحمد (٤٣١/٥) من حديث جابر أيضاً .

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد (٤٣١/٥ ، ٤٣٢) وابن هشام (١٤٢/٢) كلاهما من طريق ابن إسحاق : حدثني الزهري عن عبدالله بن ثعلبة بن صغير المعذري سرفوعاً . وهذا سند صحيح وابن صغير صحابي صغير فهو مرسل صحابي وهو حجة . وكذلك أخرجه للبيهقي (١١/٤) من طريق ابن عيينة عن الزهري به وأخرجه أيضاً من طريق أخرى عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه به . وإسناده صحيح أيضاً .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري (٣٠٢/٧) ومسلم (١٢٤/٤) وغيرهما من حديث أنس وغيره .

فلما حانت وفاته جعل آخر عهده بذكريات البطولة، أن يزور قتلى «أحد» وأن يدعو الله لهم، وأن يعظ الناس بهم !!

عن عقبه بن عامر قال . صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى «أحد» بعد ثمانين مديناً كالمودع للأحياء والأموات . ثم طلع المنبر فقال: إني بين أيديكم فرط . وأنا عليكم شهيد . وإن موعدكم الحوض . وإني لأنظر إليه من مقامى هذا . وإني لست أخشى عليكم أن تشرکوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها . !!  
قال عقبه : فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله (١) .

• • •

على أن المسلمين دفنوا موجدتهم في أفئدتهم ، ولم يستسلموا لأحزان المصاب الذي حل بهم ! وكان تكاثر خصومهم حولهم سبباً في أن يقاوموا عوامل الخور . وأن يبدروا للناس بقية من قوة ترد عنهم كيد المتربصين . على نحو ما قال الشاعر :

وَجَلْدِي لِلشَّامِتِينَ أَرْيَهُمْ أَنِي لِرَبِّ الدَّهْرِ لَا أَتَضَمُّعُ

وقد كانت الهزيمة في «أحد» فرصة انتهزها المنافقون واليهود ، وكل ذى غش على محمد عليه الصلاة والسلام ودينه وأصحابه فقارت المدينة كالمرجل المتقد وكشف عن عداوته من كان قبلاً يوارى بها . وتحدث الكافرون بالإسلام عن خذلان السماء لآبى المرسل من عند الله .

فرأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعيد تنظيم رجاله على عجل ، وأن يتحمل

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (١٦٤/٣ ، ٢٧٩/٧ — ٢٨٠ : ٣٠٢) ومسلم

(٧/٧) وأحمد (١٤٩/٤ ، ١٥٣ ، ١٥٤) والبيهقي (١٤/٤) .



الجريح مع السليم على تكوين جيش جديد ، يخرج في أعقاب قريش ليطاردها  
ويمنع ماقد يجد من تكرار عدوانها ١١

كانت معركة « أحد » في السبت ، خمسة عشر من شوال ، وكان خروج هذا  
الجيش في الأحد ستة عشر منه ...

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بلغوا حراء الأسد (١)  
واقتربوا من جيش أبي سفيان ، وكان رجال قريش - بعد أن ضمهم الفضاء الرحب -  
قد عادوا إلى التفكير فيما حدث . وأخذوا يتلاومون : يقول بعضهم لبعض : لم  
تصنعوا شيئاً . أصبتم شوكة القوم ، ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، وقد بقيت منهم  
روس يجتمعون لكم !

إلا أن هذا التفكير نزل إثر ما عرفت قريش أن المسلمين عبأوا قواهم وخرجوا  
يستأنفون القتال .

وحار المشركون في أمرهم ، أيعودون لحرب لا يأمنون مغبتها ، وربما أفقدتهم  
ثمار النصر الذي أحرزوه ؟ أم يعضون - لتوهم - إلى مكة ؟ وفي هذه الحال يتحسن  
مركز المسلمين ، وتخف مرارة الهزيمة التي لحقتهم .

وقد رأى « أبو سفيان » أن يغتم الأوبة الراجعة ، وأن يبعث إلى المسلمين من  
يقذف بالرهب في قلوبهم ، ويخبرهم أن قريشاً عادت لاستئصال شأفتهم بعد أن  
تبين لها خطؤها في تركهم ١٠٠

وعسكر المسلمين بـ « حراء الأسد » ثم جاءهم دسيس أبي سفيان ،

(١) رواه ابن هبيرة عن أبي الأسود عن غروة بن الزبير مرسلاً كما في البداية وذكره  
إسحاق بن همام عن ابن إسحاق بدون سند .

يفريهم بالعودة إلى يثرب نجاة بأنفسهم من كرة المشركين عليهم ، وهم لا يقدر  
على ملاقاتهم !

بيد أن المسلمين قبلوا التحدى ، وظلوا في معسكرهم يوقدون النار طيلة ثلاث  
ليال في انتظار قريش التي ترجح لديها أن النجاة بنفسها أولى فعادت إلى مكة .  
وعاد المسلمون إلى المدينة ليدخلوها مرة أخرى ، أرفع رءوساً ، وأعز جانباً .  
وفي هذه المظاهرة الناجحة ، وفيمن اشتركوا فيها على ألم الجراح وإرهاق التعب  
وفي ثباتهم على التثييط واطمئنانهم إلى جانب الله ، نزلت الآيات السكرية .

( الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَأَنفَضُوا الْيَمِينَ وَالشَّيْءَ الَّذِي فِي يَمِينِهِمْ  
مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا  
لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ  
رَبِّهِمْ إِلَى دِيَارِهِمْ فَأَتَى الْيَهُودَ مَدْيَنَ فَجَاوَبَهُمُ سُورَةُ الْأَنْعَامِ )

## آثار واحد

انتقض على الإسلام كثير ممن هادنه أو داهنه .

وبرغم مظهر البأس الذي أبداه المسلمون في مطاردة المشركين حتى « حراء  
الأسد » فإن هزيمة « أحد » كانت أبعد غرراً مما يظنون .

لقد جرأت عليهم أعراب البادية ، وفتحت لهم أبواب الأمل في الإغارة على  
المدينة وانتهاب خيرها .

كما أن يهود عالتوا بسخريتهم ، وتركوا وصاوس الفش تلح عليهم ، وتكدر  
سيرتهم مع المسلمين ..

ومن أصعب الأمور قياد الأمم عقب الهزائم الكبيرة وقياد الدعوات بعد



الانكسارات الخطيرة . وإن كان الرجال يستسلمون الصعب ، ويصابرون الأيام حتى يجتازوا الأزمات .

وقد جاءت السنة الرابعة للهجرة ، والمسلمون لما يداروا جراحاتهم في «أحد» إلا أن الأحداث لا تنتظر ، فقد أخذ البدو يتحركون نحو المدينة ، يحسبون أن مافيهما أصبح غنيمة باردة ، وأول من تهيأ لغزو المدينة بنو أمية ، فسارع رسول الله إلى بعث أبي سلمة على رأس مائة وخمسين رجلاً ، ليبعث القوم في ديارهم قبل أن يقوموا بغاراتهم<sup>(١)</sup> .

ولم يلق أبو سلمة عناء في تشتيت أعدائه واستيقاق نعمهم أمامه ، حتى عاد إلى المدينة مظفراً ، وأبو سلمة يعد من خيرة القادة الذين صحبوا رسول الله وسبقوا إلى الإيمان والجهاد معه وقد عاد من هذه الغزاة مجروحاً ، إذ نقر جرحه الذي أصابه في «أحد» ، فلم يلبث حتى مات .

وحاول «خالد بن سفيان الهذلي» أن يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبي عبد الله بن أنيس فقتله<sup>(٢)</sup> وهو يجتهد في تأليب القبائل للهجوم على المدينة .

---

(١) ذكر هذه السرية ابن كثير في «البداية» (٦١/٤ — ٦٢) من طريق الواقدي بإسناد له معضل ! والواقدي متروك !  
(٢) رواه أبو داود (١٩٦/٢) والبيهقي (٢٥٦/٣) وأحمد (٤٩٦/٤) من طريق ابن عبد الله بن أنيس سماء عن أبيه وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢٩٥ / ١) «إسناد جيد» وقال الحافظ بن حجر في «الفتح» (٣٥٠/٢) «إسناذه حسن» . قلت : وابن عبد الله بن أنيس سماء البيهقي في روايته «عبيد الله» وكأنه تحريف من الناسخ أو الطابع ؛ فقد أورده ابن أبي حاتم فيمن اسمه «عبد الله» مكبراً . وقال : «روى عن أبيه» وروى عنه محمد بن إبراهيم التيمي «ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً» . وقد روى عنه محمد بن جعفر بن الزبير أيضاً وهو الذي روى عنه هذا الحديث والله أعلم .

وثارت « هذيل » لرجلها بأن أمانت على تسليم أسرى المسلمين إلى أهل مكة في غزوة الرجيع .

وأصل قصة « الرجيع » هذه ، أن وفداً من قبائل عضل والقارة ، قدم على رسول الله يذكر أن أنباء الإسلام وصلت إليهم ، وأنهم يحتاجون إلى رجال يعلمونهم الدين ويقرئونهم القرآن . فأرسل النبي معهم رهطاً من الدعاة برأسهم « عاصم بن ثابت » فانطلق الجميع حتى إذا كانوا بين « عسفان » و « مكة » قريباً من مياها « هذيل » شـمر الدعاة بأن أصحابهم غدروا بهم واستصرخوا هذيلاً عليهم ...

وفزع الدعاة إلى أسلحتهم يقاتلون الغادرين ومن أعانهم من قبيلة هذيل ، وماذا يجدى قتال نفر يعدون على الأصابع لنحو مائة من الرماة ، وراءهم قومهم يشدون أزرهم ؟ لذلك لم يلبث عاصم وصحبه أن قتلوا .

واستسلم للأسر منهم ثلاثة نفر ، « خبيب » و « زيد بن الدثنة » و « عبد الله ابن طارق » . فاسترقهم الهذليون وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوه بها . ومعنى بيعهم بمكة تسليمهم للقتلة المنربصين . فإن أولئك النفر ، من الرجال الذين قاتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في « بدر » و « أحد » . ولأهل مكة لديهم ترات يودون الاشتقاء منها . وقد حاول عبد الله الإفلات من هذا المصير فقتل . وأما « خبيب » و « زيد » فأخدهما رجال قريش ليقتلوهما ، أخذاً بثأرهم القديم .

فأما « زيد » فابتاعه صفوان بن أمية ، ليقتله بأبيه ، ولما خرجوا به من الحرم ، اجتمع حوله رهط من قريش - فيهم أبو سفيان بن حرب - فقال له أبو سفيان - حين قدم ليقتل - : أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك ، تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال : والله ما أحب أن محمداً الآن



في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي .  
فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .  
ثم قتل زيد .

وأما « خبيب » فقد اشتراه عقبة بن الحارث ليقتله بأبيه ، فلما خرجوا به « خبيب »  
من الحرم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا قالوا :  
دونك فاركع . فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال :

أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة  
فكان « خبيب » أدل من سن هاتين الركعتين عند القتل ثم رفعوه على خشبة .

فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسلك فبلغه الغداة ما يصنع بنا ، ثم  
قال : — اللهم احصهم عدداً . واقتلهم بدماء ولا تقادر منهم أحداً<sup>(١)</sup> واستقبل الموت  
وهو ينشد :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً      على أي جنب كان في الله مصرعي  
وذلك في ذات الإله وإن يشأ      يبارك على أوصال شلوي ممزع

\* \* \*

حزن المسلمون لفقدانهم عاصماً وصحبه ، ولمصرع أسيرهم على هذا النحو

---

(١) رواه ابن هشام ( ١٦٧/٢ — ١٦٩ ) عن ابن إسحاق حدثني عاصم بن عمر  
ابن قتادة مرسل . وهذا سند صحيح لولا الإرسال ؛ لكن رواه البخاري في صحيحه  
( ٣٠٣/٧ — ٣٠٨ ) وأحمد ( ١٩٤/٢ ؛ ٤١٠ ) موصولاً من حديث أبي هريرة نحوه  
وفيه الآيات الآتية .

الفاجع ، فقد خسر فريقاً من الدعاة الآ كفاء الشجعان ، يحتاج إليهم الإسلام في هذه الفترة من تاريخه . ثم إن اضطهاد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجساً وقلقاً : إذ أن ذلك المسلك دل على مبلغ طماعية العرب في أهل الإيمان واستهتارهم بأرواحهم وجراتهم على النيل منهم ، دون تخوف أو محاذرة قصاص !

ومع أن هذه الواقعة توجب على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أى وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة ، إن أن ضرورة بث الدعوة - مهما فدحت الخسائر - جعلت النبي ينظر إلى هذه التوضيحات على أنها أمر لا بد منه . كالتاجر الذى يتحمل المغارم الثقيلة حيناً من الدهر ، لأن الانسحاب من السوق بغية تجنبها - قضاء عليه . فهو يبقى متحملاً حتى تهب الريح من جديد ، رُخاء تعوض ما فقد . وذاك سر استجابة الرسول لأبى براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأمانة حين عرض عليه أن يرسل وفداً من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد .

وقد أبدى النبي خشية من أن يصاب رجاله بسوء ، وسط قبائل ضارية لا يؤمن ذمامها . فقال أبو براء : أنا لهم جار<sup>(١)</sup> !!

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا بئر معونة . وكانوا سبعين من خيار المسلمين يعرفون بالقراء ، يحفظون بالنهار ويصلون بالليل ، ويحيون على هذا النسق الرتيب بين جهاد للحياة ورغبة في الآخرة .

فلما أمرهم الله سول بالمسير لإبلاغ رسالات الله ، خرجوا ، وما كانوا يعرفون أنهم - جميعاً - يمشون الخطأ إلى مصارعهم في أرض انتشر الغادرون في فجائها ...

---

(١) رواه ابن هشام (١٧٤/٢) عن ابن إسحاق بسند صحيح مرسل . كذلك رواه الطبراني عن ابن إسحاق كما في « المجمع » ( ١٢٨/٦ - ١٢٩ ) ورواه الطبراني أيضاً من حديث كعب بن مالك رضى الله عنه نحوه قال الهيثمي « ورجاله رجال الصحيح » .



وحينما انتهى القراء إلى « بئر معونة » بعثوا أحدهم - حرام بن ملحان - إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في هذه البقاع ، فأعطاه كتاب النبي الذي يدعو فيه إلى الإسلام فلم ينظر « عامر » في الكتاب وأمر رجلا من أتباعه أن يقتال حامل الرسالة ، فما شعر حرام إلا وطعنة بجلاء تخرق ظهره وتنفذ من صدره ، وكان هذه الشهادة المفاجئة لاقت رجلا يقيمها من قديم فقد صاح حرام على أثر ذلك فرّت ورب الكعبة . !

ومضى « عامر » في غشمه ، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم ، فانضمت إليه قبائل « رعل » و « ذكوان » و « القارة » فهجم بهم عامر على القراء الوادعين .

ورأى هؤلاء الموت مقبلا عليهم من كل صوب ، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى ، إذ استطاع الأعراب الهجم أن يغشوهم في رحالهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم .

وكان في سرح القراء إثنان لم يشهدا هذه المأساة . منهم « عمرو بن أمية الضمري » ولم يعرفا النبا الحزن ، إلا من أفواج الطير المتوحشة ، تنطلق نحو المعسكر محوثة حول الجثث الملقاة على الرمل الأعفر ، طاعمة مما تستطيع اختطافه بأظفارها ومناقرها . قالوا : والله إن لهذه الطير أشأنا فأقبلا لينظرا فإذا القوم مخرجون في دماهم ، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة ! قال زميل عمرو له : ماذا ترى ؟ قال عمرو : أرى أن نالحق برسول الله فنقص عليه الخبر . لكن زميله كره هذا الرأي وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعى المنذر لذلك أجاب عمرو ابن أمية قائلا : ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر ! وما كنت لأبقى حتى أقص خبره على الرجال ! وهجم على الأعراب يقتلهم حتى قتل

وأخذ عمرو أسيراً . فاعتقه « عامر بن الطفيل » كبير الغادرين عن رقبة زعم أنها على أمه !

• • •

ورجع « عمرو » إلى النبي حاملاً معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين ، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة « أحد » إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ، وأولئك ذهبوا في غدر شائن .

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظاً ، وهم لم يضيّقوا بخسائرهم فحسب بل الذي أخرج مشاعرهم في هذه الحادثة ، أنها كشفت عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غل كامن على الاسلام وأهله ، غل عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء ، وأباح لكل قادر أن يلحق الأذى بالمومنين متى شاء وكيف شاء .

وفي طريق « عمرو » إلى المدينة لقي رجلين ظنهما من بني عامر فقتلهما ثأراً لأصحابه ، ثم تبين أنهما من كلاب ، وأنهما معاهدين للمسلمين .

ولما قدم « عمرو » على الرسول عليه الصلاة والسلام وأخبره الخبر ، قال النبي للناس <sup>(١)</sup> : إن إصحابكم أصيبوا ، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا <sup>(٢)</sup>

ثم قال النبي لعمرو : لقد قتلت قتيلين لأدينتهما <sup>(٣)</sup> وانشغل بجمع ديانتها من المسلمين وحلفائهم اليهود !

• • •

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ( ٢١٢ / ٧ ) عن طريق هشام بن عروة عن أبيه مرسل . لكن رواه بنحوه موصولاً من حديث انس ( ٣٠٩ / ٧ : ٣١٠ : ٣١١ ) ؛ والطبراني من حديث ابن مسعود كما في « المجموع » ( ١٣٠ / ٦ ) .

(٢) رواه الطبراني وابن هشام من طريق ابن إسحاق بسنده مرسل . وقد تقدم قريباً .



إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوباً كثيرة ، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل : وارتقاهم المزيد من الفتح ، زاد ضمن الضاعين ، وقد كان الناقون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » ، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم . فخير أن هذه الكراهية اختفت أمدأ بعد انتصار « بدر » ، بل لعل هذا النصر أغرى جمهوراً من الضعاف والمترددين بالإنصواء تحت علم الهدى الجديد . فلما تقلبت الآية بالمسلمين ، ولحقهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت ، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان .

وقد قلنا : إن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك هذه الحال بعد « أحد » فبذل جهده لاستبعاد هيبة المسلمين ويوطد ما اضطرب من مكانتهم ، ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين المشركون يظنون الفرصة سانحة لإتباع « أحد » بمثلها أو أشد ، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد .

على أن الخسائر تلاحقت بالمسلمين في « الرجيم » و « بئر معونة » كما مر بك ودخل الإيمان في محنة بعد أخرى ، ومع هذه البأساء لم يفقد الرجال الواثقون صلتهم بربهم ، واطمئنأنهم إلى غدهم ، وشرعوا يردون الضربة بمثلها ، فلما تحرك اليهود في هذه الآونة العصيبة ليقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتوان في إنزال العقوبة الرادعة بهم .

### إجلاء بني النضير

وتفصيل ذلك انقدر أن النبي عليه الصلاة والسلام ذهب إلى منازل بني النضير ليستعين بهم في دية القتيلين اللذين قتلها « عمرو بن أمية » صرجه من بئر معونة ، فلما فاضهم الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمر أظهروا الرضا بمعونته ، فجلس

إلى جنب جدار من بيوتهم ، ينتظر وفاءهم بما وعدوا . لكن يهود خلا بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا :

إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — خلوا بال واطمئنان — فمن رجل يعلو ظهر هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، ويريحنا منه ؟

وحين أوشك اليهود على إنفاذ مكيدتهم ألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخطر المدبر له فنهض — عجلاً — من جوار البيت الذي اضطجع إلى جداره ، وقفل راجعاً إلى المدينة .

وشعر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بغيبه ، فقاموا في طلبه فإذا رجل مقبل من المدينة يخبرهم أنه رآه يدخلها ، فأسرعوا يلحقون به ، فلما انتهوا إليه . أخبرهم بما كادت له يهود ، وقد عرف — بعد — أن عمرو بن جحاش هو الذي أراد قتل النبي بالقاء الرمح عليه ، ولم ينج الشقي من عواقب جرمه ، ولا نجا قومه ، فإن رسول الله مالبث أن استدهى محمد بن مسلمة وقال له اذهب إلى بني النضير فمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يساكنوني بها ، وقد أجلتهم عشرة فمّن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه (١)

ولم يجد يهود مناصاً من الخروج ، فأخذوا يتجهزون للرحيل ، بيد أن منافق المدينة ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ، أرسلوا إليهم : أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه ! فعادت لليهود ثقتهم ، وامتقر رأيهم على المذوأة ، وأرسلوا للنبي

---

(١) رواه نحوه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » في غزوة بني النضير بدون إسناد لكن روى البيهقي — كما في تفسير ابن كثير ( ٣٣٣/٤ ) — بسند عن محمد بن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بني النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام ؛ ورجاله ثقات غير محمود بن مسلمة ترجمة ابن أبي حاتم ( ٢٩٠١/٤ ) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . فهو في عداد المجهولين .



صلى الله عليه وسلم يقولون له : لن نخرج ، فافعل ما بدالك ، ثم احتسبوا  
محصونهم واستمدوا للقتال ، وزادهم إصراراً على المقاومة ما ترمى إليهم من أن  
ابن أبي أعد ألفي مقاتل لنصرتهم ، ونهض النبي صلى الله عليه وسلم لناجزة  
القوم وتحدثى من ينضم إليهم من قبائل اليهود الأخرى أو من مشركى العرب  
وفرض الحصار على مساكن بنى النضير ، وأمر بتقطيع نخيلهم<sup>(١)</sup> . ثم جد  
الجد ورأى اليهود للوت ، ووقع الرعب فى قلوب أعوانهم ، فلم يحاول أحد أن  
يسوق لهم خيراً أو يدفع عنهم شراً مع أن اشتباك المسلمين بمخومهم فى هذه الفترة  
المرجحة من تاريخهم . لم يكن مأمون العواقب . وقد رأيت كلب العرب عليهم  
وفتكهم الشنيع ببعوثهم ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة ، تجعل  
استسلامهم بعيد الاحتمال وتجعل فرض القتال معهم مخوفاً بالملكاه إلا أن الحال  
التي جدت بعد مأساة « بئر معونة » وما قبلها ، زادت حساسية المسلمين بحراهم  
الاغتيال والفدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً وضاعفت نفقتهم على  
مقترفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بنى النضير بعد همهم باغتيال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم - مهما تكن النتائج .

وقد جاءت النتيجة فى مصلحتهم بأسرع مما يتصورون ، فاندحر اليهود ، ونزلوا  
على حكم المنتصر الذى أذن لهم بالجلأ عن ديارهم ، ولهم ما حملت إبلهم من أموال  
ما عدا السلاح<sup>(٢)</sup> .

وفى هذه المعركة نرات سورة الحشر بأكملها ، فوصفت طرد اليهود فى صدرها

---

(١) هذا الأمر صحيح أخرجه الشيخان ، غيرهما من حديث ابن عمر .  
(٢) رواه الحاكم ( ٤٨٣/٢ ) من حديث عائشة ، وفيه نزول الآية الآتية ؛ وقال :  
صحيح على شرط الشيخين « ووافقه الذهبي ! وإنما هو صحيح فقط لأن زيد بن المبارك  
الصنعاني وشيخه محمد بن نور ليسا من رجالهما .

« هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فاناهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار . »

ثم فضح القرآن مسلك منافقى المدينة الذين حاولوا إغاثة يهود ، فى غدرها وحربها ، وحرصوها على مقاتلة المسلمين بما وعدوها من إمداد وعتاد فقل :

« ألم تر إلى الذين نافقوا ؟ يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتكم لنينصرنكم والله يشهد إنهم لكادبون \* لئن أخرجوا لا يخرجون معكم \* ولئن قوتلوا لا ينصرونهم \* ولئن نصرهم ليولين الأدار ثم لا ينصرون . »

وبهذا النصر الذى أحرزه المسلمون دون تضحيات ، توطن سلطانهم فى المدينة ، وتخاذل المنافقون عن الجهرة بكيدهم ، وأمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد « أحد » وتواثبوا على بهوث الدعاة يقتلون رجالها فى نذالة وكفران .

\* \* \*

وتأديباً لأولئك الغادرين خرج النبى عليه الصلاة والسلام بجوس فىافى نجد ، ويطلب ثأر أصحابه الذين قتلوا فى « الرجيع » و « بئر معونة » ، ويأتى بذور الخوف فى أفئدة أولئك البدو القساء حتى لا يعاودوا منا كرم التى ارتكبوها مع المسلمين .



وقام النبي صلى الله عليه وسلم - تحقيقاً لهذا الغرض - بفزوات شتى أرهبت القبائل المغيرة وخطت بمشاعرها الرعب ... فأضحى الأعراب الذين صردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا في رموس الجبال بعدما قطعوا الطرق على الدعوة ردحاً من الزمن وفي مقدمة هؤلاء . بنو لحيان وبنو محارب ، وبنو ثعلبة من غطفان .

فلما خضد المسلمون شوكتهم ، وكفكفوا شرهم ، أخذوا يتجهزون للملاقاة عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قريش . وحقّ لمحمد وصحبه أن يخرجوا ليواجهوا أباسفيان وقومه ، وأن يديروا ربحي الحرب كرة أخرى ، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء .

## بدر الآخرة

لم ينشط أبوسفيان للوفاء بالبيعة الذي ضربه عند منصرفه من «أحد» بلى خرج من مكة متثاقلاً يفكر في عقبى القتال مع المسلمين ، وهو - بعد - لما يتخذ لهذا القتال أهيته التي يودها . إن قومه هزموا في «بدر» على كثرة مددهم ووفرة عدتهم ، واستخلصوا النصر في «أحد» بعد جهد فاشل .

ولولا الخطأ الذي وقع فيه جيش التوحيد ، ماظفرت قريش بهذه الفرقة . لذلك ما كاد أبوسفيان يقترب من «الظهران» حتى بدا له في الرجوع فصاح بقومه : يامعشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جرب ، وإني راجع فأرجعوا ...

وهكذا انسحبت قريش من المعركة المنتظرة .

أما المسلمون فإنهم نفرُوا للملاقاة المشركين على استعداد وحامة ، حتى وصلوا إلى ماء «بدر» فمسكروا حوله ، يعلنون وفاءهم بكلمتهم ، وتأهبهم للحرب الموعودة

وظلوا ثمانية أيام يرتقبون مقدم أهل مكة ، ويمسحون عن سمعتهم آخر ما تركت هزيمة (أحد) من غبار .. وكان ذلك في شعبان من السنة الرابعة من الهجرة .

## دومة الجندل

وانتقل زمام المفاجأة إلى أيدي المسلمين بعد أن نكصت قريش عن مواجهتهم .  
فالتفتوا إلى الشمال ، بعد أن توطدت مهابتهم في الجنوب .  
وشمال الجزيرة يحاور سلطان الروم القديم ، والعرب الضاربون هناك لالبحشون بأس أحد بعد القيصر .

وقيصر نفسه لا يتوقع أن تنبت في الجزيرة قوة تناوئه أو تتجاهله .  
وجاءت الأخبار إلى المدينة أن القبائل حول دومة الجندل — قريباً من الشام —  
تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وقد بلغ بها الطيش حدّاً ، فكررت معه  
أن تهاجم المدينة ، وأن جمعاً كبيراً احتشد بها للاندفاع في هذه الغارة !  
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من المسلمين ، يكمّن بهم نهاراً ،  
ويسير ليلاً حتى يفاجئ أعداءه وهم غارون . والمسافة بين يثرب و «دومة الجندل»  
خمس عشرة ليلة ، قطعها المسلمون بمعونة دليل ماهر . فلما بلغوا مضارب خصومهم ،  
اجتاحوها مباغتتين ، فقرت الجموع المتأهبة للسطو ، وأصاب المسلمون سوائهم  
ورعاهم وكانت لبنى تميم .

أما أهل الدومة فقرروا في كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً ،  
وأقام الرسول عليه الصلاة والسلام عدة أيام يبعث السرايا ، ويبعث رجاله هنا  
وهناك . فلم يثبت للقائهم هارب .

وعاد المسلمون إلى المدينة ، وكان توجههم لعرب الشمال في ربيع الأول من

السنة الخامسة .



هندما كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد كانت مخاصمته تتخذ طريق  
الجهرة والتهجم دون مبالاة . فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة ،  
ملكته عداوته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة ، فأمسى الكيد له يقوم  
على المكر والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعان بها الأقوياء . واثمار  
الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام . بل  
إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجهة .

وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التي تصيب العدو ، وإن كان  
بعضها يستحي من استخدامه الرجل الشريف !

وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته بأسلوب  
تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد ، ويغلب عليها الضعف ،  
أسلوب اللمز والتعريض حيناً ، والإفك والافتراء حيناً آخر .

وكما توطلت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضعفاً  
عليهم وتربصاً بهم . وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنتهم الرسول بالجلاء ، فلمالم  
يقف مد الإسلام شيء ، ولم تهدء هزيمة ، وأخذت القبائل العادية تختفي واحدة تلو  
أخرى ، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم تنكشف نياتهم للسوء إلا  
على فلتات الألسنة ومزالق الطباع . فكانت سيرتهم تلك ، مشارفتن شداد  
تأذى منها رسول الله والمؤمنون شيئاً غير قليل .

وظهر ذلك جلياً في « غزوة بني المصطلق » . فإن الأنباء أتت الرسول عليه  
الصلاة والسلام بأن هذه القبيلة تجمع له وتستعد لقتاله وأن سيدها الحارث بن أبي  
ضرار قد استمكن عدته لهذا المسير فسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين  
الطفيء الفتنه قبل اندلاعها .

وخرج مع الرسول عليه الصلاة والسلام هذه المرة جميع المنافقين الذين لم يعتادوا

الخروج قبلاً . ولعل ثقتهم بانتصار محمد عليه الصلاة والسلام أغرتهم بالذهاب معه ، ابتغاء الدنيا لا انتصاراً لدين .

وانتهى المسلمون إلى ماء يسمى « المريسيع » اجتمع لديه بنو المصطلق ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب أن يعرض الإسلام على القوم . فنادى عمر فيهم : قولوا : لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم فآبوا وترامى الفريقان بالنبل .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم صحابته فحملوا عليهم حملة رجل واحد . فلم يفلت من المشركين أحد . إذ وقعوا جميعاً أسرى بعدما قتل منهم عشرة أشخاص . ولم يستشهد من المسلمين إلا رجل واحد قتل خطأ . وسقطت القبيلة — بما تملك — في أيدي المسلمين<sup>(١)</sup> .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعامل المهزومين بالإحسان : فلما جاء الحارث قائد القبيلة المنكسرة يطلب ابنته التي وقعت في الأسر ردها عليه . ثم خطبها منه<sup>(٢)</sup> .

---

(١) رواه بنحوه ابن جرير في تاريخه (٢/٢٦٠ — ٢٦٢) من طريق ابن إسحاق بسنده مرسل . وكذلك رواه ابن هشام في « السيرة » (٢/٢١٠ — ٢١٨) وهذا الإسناد مع ضعفه ليس فيه أمر عمر بعرض الإسلام . وقد أشار الزرقاني على اللواهب (٢/٩٧) لضعف هذه الزيادة . وحق له ذلك فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم ما يقتضي ضعفها فقال ابن القيم في « الزاد » (٦/١٥٨) بعد ذكر نحوه ما هنا من القتال .

« هكذا قال عبد الرحمن بن خلف في سيرته وغيره وهو وم فإنه لم يكن بينهم قتال وإنما أغار عليهم على الماء فسي ذرارهم وأموالهم كما في الصحيح : أغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون وذكر الحديث » راجع « فتح الباري » (٧/٣٤٦) .

(٢) هذا غير صحيح ، وقد أشار لذلك ابن هشام في سيرته (١/٣٦٧) فإنه ذكر هذه الرواية بدون إسناد وصدرها بقوله : « ويقال » والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم —



وتزوجها فاستحي الناس أن يسترقوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأطلقوا  
من بأيديهم من الأسرى ! فكانت جوبرية بنت الحارث من أئمن الناس  
على أهلها . فقد أعتق في زواجها مائة أهل بيت من بني المصطلق ...

على أن هذا النهر ليس شابه من أعمال المنافقين ما عكر صفوه وأنسى المسلمين  
حلاوته ، فإن خادماً لعمر كان يسقى له من ماء المريسيع ، ازدحم مع مولى ابني  
خوف من الخزرج وكادا يقتتلان على الورود - شأن الخدم الطائشين - فصاح  
الأول : ياللهاجرين ، وصاح الآخر : يا للأنصار ! واستمع إلى صياح الأتباع  
عبد الله بن أبي ، وكان في رهط من قومه ، فرأى الفرصة سانحة لإثارة حفاظهم  
وإحياء ما أماته الإسلام من نغرات الجاهلية فقال : أو قد فعلوها ؟ نأثرونا وكأثرونا  
في بلادنا أما والله لنرجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعرس منها الأذل . ثم أقبل على  
قومه - ولم تزل له فيهم بقية وجاهة - يلومهم ويحرضهم على التنكر للرسول عليه  
الصلاة والسلام وصحبه فذهب « زيد بن أرقم » إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقص  
عليه الخبر وأسرع بن أبي إلى رسول الله يبرئ نفسه وينفي ما قاله !!

ورأى الحاضرون أن يقبلوا كلام بن أبي رعاية لمنزله ، وقالوا : الغلام -  
يعنون : زيد بن أرقم - أوهم ، ولم يحفظ ما قيل .

على أن الحقيقة لم تفت النبي صلى الله عليه وسلم فأحزنه ما وقع ، ووجد خير  
علاج له شغل الناس عنه حتى يعفى على آثاره ، فأصدر أمره بالارتحال في ساعة  
ما كان يروح في مثلها ، ومشى بالناس سائر اليوم حتى أمسوا ، وطيلة الليل حتى  
أصبحوا ، وصدر يومهم الجديد حتى آذتهم الشمس ثم نزل بهم .

== قضي عنها كتابتها وتزوجها دون أن يخطبها من أيها فإنها كانت أميرة كما رواه ابن  
إسحاق بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها . ومن طريقه أخرجه أحمد ( ٣٧٧/٦ )  
وابن هشام ( ٢/٢١٨ - ١١ ، ٣٦٤ ) وفي حديثهما قصة إطلاق الأسرى .

فما إن وجدوا مس الأرض حتى وقفوا نياماً ! وتابع الرسول عليه الصلاة والسلام رواده حتى عاد إلى المدينة .

ونزلت سورة المنافقين ، وفيها تصديق ما روى زيد بن أرقم « يقولون : إن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل » والله العزة ولرسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » (١) .

لم يدُر بخاطر أحد أن هذه الأوبة المتعجلة سوف تتمخض عن أكتوبة دنيئة يحيك أطرافها « عبد الله بن أبي » ثم يرمى بها بين الناس ، فتسير الوباء الفاتك .

إن هذا الرجل حلف كاذباً بعد أن أنكر مقلته الثابتة ، ولو أن الجبان ذهب يطلب النجاة من عقباها ، لكان ذلك أجدى عليه ، لكنه لم يزد — على السماح الذي قوبل به — إلا خسة وخصاماً والبون بعيد بين أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله . لقد كان « أبو جهل » خصماً لدوداً لكل من دخل هذا الدين ، وكان طاغية عنيداً لا تنتهي لجأته ، إلا أنه كان كاضح المقترص لا يحسن الالتواء والوقية ، حمل السيف في وضح النهار ، وما زال يقاتل به حتى صرع .

أما عبد الله بن أبي ، فقد اختفى كالمقرب الخائنة ، ثم شرع يلسم الغافلين . قبع هذا المنافق في جنح الظلام . وبدأ ينفث الإشاعات المريبة .

وتدلى — في غوايته — إلى حضيض بعيد ، فلم يبال أن يتهم على الأعراض المصونة ، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات .

في عودة الرسول صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق إلى المدينة ، نبت حديث الإفك وشاع ، واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شرره في كل مكان .

---

(١) هذا تمام مرسل ابن إسحاق الذي ذكرته آنفاً .



قاسدين - من وراء هذا الأسلوب الجديد في حرب الإسلام - أن يدمروا على الرسول صلى الله عليه وسلم بيته ، وأن يسقطوا مكانة أقرب الرجال لديه ، وأن يدعوا جمهور المسلمين - بعد ذلك - يضطرب في عماية من الأسى والغم !!

والوصول إلى هذه الغاية ، استباح ابن أبي لنفسه أن يرمى بالفحشاء سيده لما تجاوز مرحلة الطفولة البريئة ، لا تعرف الشر ، ولا تهتم بمفكر ، ولا تحسن الحياة إلا في تلك النبوة العالی . وهي التي تربت في حجر صديق ، وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة . وتلقف العامة هذا الحديث الغريب ، وهم في غمرة الدهشة لا يدرون مبلغ الخطر السكامن في قبوله ونقله .

إليك سرداً لهذا الحديث المفتعل على لسان السيدة التي تعرضت له وبرئت منه .

### حديث الإفك

قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتن خرج سهمها خرجت معه . فلما كانت « غزوة بني المصطلق » خرج سهمي عليهن ، فارتحلت معه ! قالت : وكان النساء إذ ذك يأكلن العلق ، لم يهيجهن اللحم فيثقلن ، وكنت إذا رحل بعيري جلست في هودجى ، ثم يأتى القوم فيحملوننى يأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه ، ثم يضعونه على ظهر البعير ويشدون به بالحبال وبعدئذ ينطلقون . قالت : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذاك توجه قافلاً ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات فيه بعض الليل . ثم أذن مؤذن فى الناس بالرحيل فتهيئوا لذلك وخرجت لبعض حاجتى ، وفى عنقى عقد لى ، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، ورجعت إلى الرحل فالتمت عقدى فلم أجده ! وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فعدت إلى مكاني الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته .

وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى البعير - وقد كانوا فرغوا عن إعداده -  
فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ،  
ولم يشكوا إنى به ثم أخذوا برأس البعير وانطلقوا !!

ورجعت إلى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب . لقد انطلق الناس ! قالت :  
فتلفقت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى وعرفت أنى لو أفتقدت لرجع الناس إلى  
فو الله إنى لمضطجعة ، إذ مر بى « صفوان بن المعطل السامى » وكان قد تخلف  
لبعض حاجته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على - وقد  
كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب - فلما رآنى قال : « إنا لله وإنا إليه  
راجعون » ظمينة رسول الله ؟ وأنا متلفقة فى ثيابى !!

ما خلفك برحمتك الله ؟ قالت : فما كآمتة ، ثم قرب إلى البعير : اركبى ،  
واستأخر عنى . قالت : فركبت وأخذ برأس البعير منطلقاً يطلب الناس فو الله  
ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزلوا ، فلما اطمأنوا طاع الرجل  
يقود بى البعير ، فقال أهل الإفك ما قالوا . وارتج المعسكر ، ووالله ما أعلم بشيء  
من ذلك .

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، وليس يبلغنى من ذلك  
شيء ، وقد أنهى الحديث إلى رسول الله وإلى أبوى ، وهم لا يذكرون لى منه  
كثيراً ولا قليلاً . إلا إنى قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم بعض  
لفظه لى فى شكواى هذه .

فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل على وعندى أمى تمرضى قال : كيف نبيكم ؟  
لا يزيد على ذلك . قالت : حتى وجدت فى نفسى - غضبت - فقلت يا رسول الله  
- حين رأيت مارأيت من جنائى لى - : لو أذنت لى فأنقذت إلى أمى ؟ قال :  
لا عليك قالت : فأنقذت إلى أمى ولا علم لى بشيء مما كان ، حتى نقيت من وجهى  
بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوماً عرباً ، لانتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى



تتخذها الأعاجم ، نعاها ونكرها ، إنما كنا نخرج في فصح المدينة ، وكانت النساء يخرجن كل ليلة في حواشيهن . فخرجت ليلة لمض حاجتي ومعى أم مسطح ، فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت في مرطها فقالت : تعس مسطح ؟ قلت : بئس لعمر الله — ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرأ !!

قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟ قلت : وما الخبر ! فأخبرتني بالذى كان من أهل الإفك . قلت : أو قد كان هذا ؟  
قالت : نعم . والله لقد كان !

قالت عائشة : فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى . ورجعت ، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى . وقلت لأمى : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟ قالت : أى بنية ، خفى عنك فوالله أقل ما كانت امرأة حسناء . عند رجل يحبها ، ولها ضرائر ، إلا كثرن وكثر الناس عليهما .

قالت : وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطبهم — ولا أعلم بذلك — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ؟

والله ما علمت عليهم إلا خيراً . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى ! قالت : وكان كبر ذلك عند « عهد الله ابن أبى » فى رجال من الخزرج ، مع الذى قل « مسطح » و « حمزة بنت جحش » وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن امرأة من نسائه تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً . وأما « حمزة » فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارنى بأختها . فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة ، قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ،

إن يكونوا من « الأوس » نكفكمهم ، وإن يكونوا من إخواننا « الخزرج »  
فمرنا أمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم . فقام « سعد بن عبادة » -  
وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً - فقال : كذبت لعمر الله ، ما تضرب أعناقهم  
إنك ما قلت هذه المقالة إلا وقد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك  
ما قلت هذا .

فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ..  
وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين شر ، ونزل رسول الله صلى  
الله عليه وسلم ، فدخل على ودعا « علي بن أبي طالب » و « أسامة بن زيد »  
فاستشارهما . فأما « أسامة » فأثنى خيراً ثم قال : يا رسول الله ، أهلك ، وما نعلم  
منهم إلا خيراً . وهذا الكذب والباطل !  
وأما ( علي ) فقال : يا رسول الله إن النساء لكثير . وإنك لقادر على أن  
تستخلف . وسل الجارية فإنها تصدقك .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ( بريرة ) يسألها ، وقام إليها على فضربها  
ضرباً شديداً وهو يقول : اصدقني رسول الله ! فتقول : والله ما أعلم إلا خيراً وما  
كنت أعيب على عائشة ، إلا أني كنت أعجن عجيني ، فأمرها أن تحفظه ،  
فقام عنه ، فتأتى الشاة وتأكله ! !

قلت : ثم دخل على رسول الله وعندي أبواي ، وعندي امرأة من الأنصار  
وأنا أبكي وهي تبكي ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :  
يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فأتني الله ، وإن كنت قد فارت  
سوءاً مما يقول الناس ، فتوبني إلى الله يقبل التوبة عن عباده ..

قالت : فوالله ، إن هو إلا أن قال لي ذلك حتى قلص دمي ، فما أحس منه  
شيئاً ، وانتظرت أبوي أن يجييا مني فلم ييتكما !



قالت عائشة : وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأننا من أن ينزل الله في قرآننا ، لكنني كنت أرجو أن يرى النبي عليه الصلاة والسلام في نومه شيئاً يكذب الله به عني ، لما يعلم من براءتي . أما قرآننا ينزل في ، فوالله ، لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك .

قالت : فلما أرى أبوي يتكلمان ! قلت لهما : ألا تحييان رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقالا : والله لا ندري بما نجيبه ، قالت : والله ما أعلم أهل البيت دخل عليهم ، ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام . ثم قالت : فلما استعجبا عليّ استعبرت فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله بما ذكرت أبداً ، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول للناس - والله يعلم أني بريئة - لأقولن ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني قالت : ثم التمت اسم يعقوب فما أذكره فقلت : أقول ما قال أبو يوسف ( فصبر جميل<sup>ه</sup> والله المستعان على ما تصفون ) .

فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسجى بثوبه ووضعت وسادة تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فرغت وما باليت ، وقد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالم . وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول الله مجلس وإنه لينحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شاتٍ ، فجلس يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشري يا عائشة ، قد أنزل الله عز وجل براءتك فقلت : الحمد لله ، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم الآيات :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ

هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الآثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم» (١).

والغريب أن الحد أقيم على من ثبتت عليهم تهمة القذف ، وهم ( حسان بن ثابت ) و ( مسطح ) و ( حنّة ) أما ( عبد الله بن أبي ) مدرّ الحملة وجرثومتها الخفية ، فإنه كان أحذر من أن يقع تحب طائلة العقاب . لقد أوقع غيره ثم أفلت بنفسه ...

وكتاب السيرة على أن ( حديث الإفك ) و ( غزوة بني المصطلق ) كانا بعد الخندق لكننا تابعنا ( ابن القيم ) في اعتبارها من حوادث السنة الخامسة قبل هجوم الأحزاب على المدينة . والتحقيق يساند ( ابن القيم ) ومتابعيه . فستعلم أن ( سعد بن معاذ ) قتل في معركة الأحزاب . مع أن لسعد في غزوة بني المصطلق شأنًا يذكر . إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام اشتكى إليه (٢) عمل ابن أبي ولا يتفق أن يستشهد سعد بن معاذ في غزوة الخندق ثم يحضر بعد ذلك في بني المصطلق ، لو صح أنها وقعت . في السنة السادسة .

## غزوة الأحزاب

أيقنت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربت كل طائفة مفردة . وأنها ربما تبلغ أمثلها إذا رمت الإسلام كقلة واحدة وكان زعماء

(١) هذه القصة صحيحة رواها بهذا السياق ابن إسحاق بأسانيد صحيحة عن عائشة . ومن طريقه أخرجه ابن هشام في « السيرة » ( ٢/٢٠٠ - ٢٢٢ ) وهي عند البخاري ( ٧/٤٤٧ - ٣٥ ) ومسلم ( ٨/١١٣ - ١١٧ ) بنحو ما هنا .

(٢) لعله وم أو سبق قلم ، فإن للشتكى إليه إماما هو أسيد بن حضير كما في سيرة ابن هشام ( ٢/٢١٧ ) . على أن إسناده مرسل فلا حجة فيه . وفي الباب مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أشياء صحيحة فيراجيم لها « فتح الباري » ( ٢/٣٤٥ ) .



يهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة ، فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضد الإسلام وحشدهم في جيش كثيف ينزل محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه في معركة حاسمة .

وذهب نفر من قادة اليهود إلى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، وكانت قريش قد أخلفت عندها مع النبي عاماً .

وهي لا بد خارجة لقتال المسلمين إنقاذاً لسمعتها وبرأ بكلمتها .

وها هم أولاء رجالات يهود يحالفونهم على ما يبتغون فلا مكان لتوجس أو إخلاف .

والغريب أن أحبار التوراة أكدوا لعبدة الأوثان في مكة أن قتال محمد صلى الله عليه وسلم حق ، واستئصاله أرضى الله ! لأن دين قريش أفضل من دينه . وثقليد الجاهلية أنضل من تعاليم القرآن ! ، وسرت قريش بما سمعت ، وزادها إصراراً على العدوان . فواعدت اليهود أن تكون معها في الزحف على المدينة .

رترك زعماء اليهود قريشاً إلى أعراب « غطفان » فمقدوا معهم حلفاء متشابهين لما تم مع أهل مكة ودخل في هذا الحلف عدد من القبائل الناقصة على الدين الجديد

وبذلك نجح سياسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وعرف المسلمون مبالغ الخطر المحدق بهم ، فرسموا — على عجل — الخطة التي يدفعون بها عن دعوتهم ودوائهم ، وكانت خطة فريدة لم تسمع العرب — قبلاً — بمثليها ، وهم الذين لا يعرفون إلا قتال الميادين المكشوفة .

أما هذه المرة فإن المسلمين حفروا خندقاً عميقاً يحيط بالمدينة من ناحية السهل ويفصل بين المنعبرين والمدافعين .

وأقبلت الأحزاب في جمع لا قبل للمسلمين برده .

قربش في عشرة آلاف من رجالها ومن تبعهم من « كذابة » و « تهامة »  
و « غطفان » في طليعة قبائل « نجد » .

وبرز المسلمون بعد ما جعلوا نساءهم وذرايرهم فوق الآطام الحصينة من يثرب .  
ثم انتشروا على حدود مدينتهم مسندين ظهورهم إلى جبل سلع ، ومرابطين على  
شاطئ الخندق الذي احتفروه بعد جهود مضنية ، وبلغت عدتهم في هذه المعركة  
نحو ثلاثة آلاف مقاتل .

\* \* \*

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة في  
مساحة ممهدة ليس طريق النصر . فما عسى أن تصنع قلة مؤمنة مكافحة مع هذا  
السيل الدافق ؟

لذلك لجأ إلى هذه المكيدة ، ويروى أن الذي أشار بها « سلمان الفارسي »  
وتقدم النبي رجاله لإحكامها وإنجازها ، فأخذ يحفر بيده ويحمل الأتربة والأحجار  
على عاتقه وتأمي به الرجال الكبار ممن لم يألفوا هذا العمل قط ، فشهدت يثرب  
منظراً عجيباً ، وجوهاً ناصعة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفتوس وتحمل  
المكاتل ، وتعرى من لباسها وزينتها لتلبس حللاً من نسج الغبار المتراكم  
والعرق والغوب !! .

قال البراء بن عازب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم  
الخندق حتى اغبر بطنه وهو يقول :

والله لو لا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا  
فأنزلن مكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا



إن الألى قد بَنَوْا علينا إذا أرادوا فتنة أَيْنَا (١)

وهذا الغناء من شعر « عبد الله بن رواحة » كان المشتغلون في الخندق يزيحون التعب عن أعصابهم بالاستماع إلى نغمه وترديد الكلمات الأخيرة من مقاطعة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمد صوته بها معهم فيقول : لاقينا ، أَيْنَا (٢) مما يعيد إلى أذهاننا صور « الفعلة » الذين يحفرون الترع بالريف ، أو يبنون القصور بالمدن .

إن الدفاع عن الإسلام ، ومخافة الفتنة لو انتصر المشركون ، جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته يعالجون هذا العمل الثقيل ، ونفوسهم راضية منقبطة ، مع ما يلقون فيه من عناء وصعوبة .

ولا تحسبن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعميق الخندق وقذف أتربة من قبيل التمثيل الذي يحسنه بعض الزعماء في عصرنا . كلا . كلا .

إن الرجولة الكادحة الجادة في أنبل صورها . كانت تقتبس من مسلك الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه للمعة . يقول البراء : لقد وارى عنى التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر (٣) .

أجل إنه استغرق في العمل مع أصحابه . فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثيل .. وكان الفصل شتاء ، والجو بارداً وهناك أزمة في الأفوات تعانيها المدينة التي توشك أن تتعرض لحصار عنيف ، وليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس

---

(١) حديث صحيح أخرجه الشيخان في صحيحهما .

(٢) حديث صحيح وهو رواية للبخاري عن البراء بن عازب .

(٣) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ( ٣١١/٧ ) .

فلو تعرض المحصور لسورات القابضة ، فزالق الاستسلام للذليل أمامه تنجرُّ به إلى الحضيض لذلك اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم في تدعيم القوى المعنوية لرجاله ، حتى يوقنوا بأن الضائقة التي تواجههم سحابة صيف عن قليل تقشع .

ثم يستأنف الإسلام مسيره بعد ، فيدخل الناس فيه أفواجا ، وتندك أمامه معاقل الظلم ، فلا يصدر عنها كيد ، ولا تخشى منها فتنة .

ومن إحكام السياسة أن يقارن هذا الأمل الوامع مراحل الجهد الماضي .

قال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان ، وحذيفة ، والنعمان بن مقرن ، وستة من الأنصار في أربعين ذراعا — من الأرض التي كلفوا بحفرها — فحفرنا حتى وصلنا إلى صخرة بيضاء كسرت حديدنا وشقت علينا ، فذهب سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره عن هذه الصخرة التي اعترضت عملهم وأعجزت معاولهم .

فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وأخذ من سلمان المعول ، ثم ضرب الصخرة ضربة صدمتها . وتطاير منها شرر أضاء خلل هذا الجو الداكن . وكبر رسول الله عليه الصلاة والسلام تكبير فتح ، وكبر المسلمون . ثم ضربها الثانية فكذلك ثم الثالثة فكذلك .

تفتت الصخرة تحت ضربات الرجل الأيد الجلد ، الموصول بالسماء الراسخ على الأرض ، ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى صحبه وقد أشرق على نفسه الكبيرة شعاع من الثقة الغامرة والأمل الحلو ، فقال — يحدث صحبه عن الصنا المنقذ بين حديد المعول وحدة الصخر — : لقد أضاء لي في الأولى قصور الخيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . وفي الثانية أضاء القصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي



ظاهرة عليها . وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . فأبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعود صادق (١) ! .

فلما انسابت الأحزاب حول المدينة وضيقوا عليها الخناق لم تطرف نفوس المسلمين شعاعاً بل جاهاوا الحاضر المرّ وهم موطدو الأمل في غد كريم « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله . وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » .

أما الواهون والمرتابون ومرضى القلوب . فقد تندروا بأحاديث الفتح ، وظنوها أمانى المغرورين وقالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الخيرة ومدائن كسرى ، وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا .

وفيه قال الله تعالى : « وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً » .

\* \* \*

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب . فقتل الفريقين من المؤمنين والكفار يعدون على الأصابع . ومع تلك الحقيقة فهي من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام إذ أن مصير هذه الرسالة العظمى كان فيها

(١) ضعيف جداً بهذا السياق رواه ابن جرير في تاريخه من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده . و « كثير » هذا متروك بل قال الشافعي وأبو داود ركن من أركان الكذب وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه (١٠٠/٤) « حديث غريب » وقصص الصخرة ثبتت في صحيح البخاري (٣١٧/٧) من حديث البراء مختصراً ، وهي عند أحمد (٣٠٣/٤) من حديثه مطولاً ، واسناده حسن كما قال الحافظ في « الفتح » (٣١٧/٧) ، فيحسن جملة مكان حديث « كثير » .

أشبه بمصير رجل يمشى على حافة قمة سامقة ، أو حبل ممدود ، فلو اختل توازنه لحظة وفقد السيطرة على موقفه ، لهُوى من مرتفعه إلى وادٍ سحيق ، ممزق الأعضاء ، ممزق الأشلاء ، ولقد أُمسى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يتهدها بالفرق ليلاً أو نهاراً . وبين الحين والحين يتطلع المدافعون : هل اقتحمت خطوطهم في ناحية ما من منطقة الدفاع ؟ وكان المشركون يدورون حول المدينة غضاباً يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها فينفسوا عن حنقهم المكتوم ، ويقطعوا أوصال هذا الدين الثائر .

وعرف المسلمون ما يترص بهم وراء هذا الحصار ، فقرروا أن يرابطوا في مكانهم ينضحون بالنبل كل مقرب ، ويتحملون لأواء هذه الحراسة التي تنظم السهل والجبل ، وتتسع ثغورها يوماً بعد يوم وهم كما وصف الله تعالى : ( إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم . وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هـ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ) .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو ، فإن فرض الحصار وترقب نتائجها ليس من شيمهم . فخرج عمرو بن عبدود ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، وأقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على حافة الخندق . فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، وضربوا خيلهم فقتلته . وأحس المسلمون الخطر المقرب ، فأسرع فرسانهم يسدون هذه الثغرة يقودهم علي بن أبي طالب .

وقال علي لعمر بن عبدود ، وهو فارس شجاع معلم : يا عمرو إنك عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، قال : أجل . فقال له علي : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ، قال عمرو :







































## مع قريظة

انفضت حشود الأحزاب حول المدينة ، وعادت المطى بها من حيث أنت  
تذرع رحاب الصحراء وليس تحمل معها إلا الفشل والخيبة ، وثقى يهود قريظة  
وخدمهم ، أو بقوا وبقيت معهم غدرتهم التي فضحت طواياهم ، فأصبحوا وأمحووا  
أشبهه بالمجرم الذي ثبتت إدانته ، فهو يرقب — بوجه كالح — قصاص  
العدالة منه .

وكانت مشاعر التغيظ في أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها ،  
إنهم هم الذين استخرجوا العرب استخراجاً ، واستقدموهم إلى دار الهجرة  
ليجتاحوها من أقطارها ، ويستأصلوا المسلمين فيها ، إن جراحات المسلمين لطردهم  
من ديارهم ومطاردتهم في عقيدتهم ، واستباحة أموالهم ودمائهم لكل ناهب  
ومغتال ، لما تندمل بعد ، بل لن تندمل أبداً ، فكيف ساغ لأولئك الخونة  
من بنى إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطه لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا  
النحو الذليل ؟

ثم ما الذي يجعل بنى قريظة خاصة — وهم لم يروا في جوار محمد إلا البر  
والوفاء — يستديرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كي يشركوهم في  
قتل المسلمين وسلبهم ؟

وها قد دخل في حصونهم حي بن أخطب رأس العصاة التي طافت بمكة ونجد  
تخرض الأحزاب على الله ورسوله ، وتزعم أن الوثنية أفضل من التوحيد . .  
لذلك ، ما إن وثق المسلمون من منصرف الأحزاب عن المدينة حتى أمر  
رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً يأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا  
يصلين العصر إلا في بنى قريظة<sup>(١)</sup> .

(١) حديث صحيح ، أخرجه ابن هشام ( ٢ / ١٩٤ — ١٩٥ ) عن ابن اسحاق  
حدثني الزهري به مراسلاً ، وقد أخرجه البخاري ( ٣٢٧ / ٧ ) ومسلم ( ١٦٢ / ٥ ) وغيرها  
من حديث ابن عمر ، به دون قوله : « من كان سامعاً مطيعاً » .

والأذان للقتال في هذه الضحوة المشرقة بالظفر والنجاة قرع مسامع المسلمين  
ندياً جلياً ، فهم في غمرة من الشعور بتأييد الله وملائكته لهم ، أين هم اليوم  
مما كانوا عليه بالأمس القريب ؟ إنهم مدينون بحياتهم وكراماتهم للعناية  
العليا وحدها ..

أما خصومهم ، فإن قوى الكون المسخر بإذن الله هي التي فضت جموعهم  
وفلت حدودهم . فلاخرو إذا قال رسول الله للمؤمنين - محدثاً عن الروح الأمين - :  
« ما وضعت الملائكة السلاح بعد .. » إن الله يأمرك بالمشير إلى بنى قريظة ،  
فإني عامد إليهم فمزلزل بهم (١) .

وقد صدم الرسول بالأمر وشدد على المسلمين أن يسارعوا في إنفاذه روى  
البيهقي أن رسول الله قال لأصحابه : عزمت عليكم أن لاتصلوا صلاة العصر حتى  
تأتوا بنى قريظة ، فغربت الشمس قبل أن يأتوهم . فقالت طائفة من المسلمين :  
إن رسول الله لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا . وقالت طائفة : والله إنا لنرى عزيمة  
رسول الله ، وما علينا من أثم . فصلت طائفة إيماناً واحتساباً . وترك طائفة إيماناً  
 واحتساباً ، ولم يعنف رسول الله واحداً من الفريقين (٢) .

وذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر مادامت عن اجتهاد برىء  
سليم ، والناس غالباً أحدرجلين ، رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة

---

(١) هو من حديث الزهري للتقدم . لكن أصح جبريل النبي صلى الله عليه وسلم  
بالمسير ثابت في صحيح البخاري (٣٢٧/٣) والمسنند (٥٦/٦ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ٢٨٠)  
من حديث عائشة .

(٢) حديث صحيح رواه البيهقي في « دلائل النبوة » من حديث عبيد الله بن كعب ،  
وحديث عائشة ؛ واخرجه عنها الحاكم (٣ / ٣٤ - ٣٥) وصححه على شرط الشيخين  
ووافقه الذهبي ؟



لا يعدوها ورجل يتبين حكمتها ويستكشف غايتها ، ثم يتصرف في نطاق ملوعى من حكمتها وغايتها ، ولو خالف الظاهر القريب .

وكلا الفريقين يشفع له إيمانه ، واحتسابه ، سواء أصاب الحق أو ندب عنه ! ومن العلماء من أهدر الوقت المعين للصلاة بعذر القتال . وذلك مذهب البخارى وغيره ، وهذا - عندى - أدنى إلى الصواب . فإن ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدد رسالة المسلم في الحياة ، بل إنه لا يفهم دينه فهماً صحيحاً إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب .

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى . فيها الفرائض وفيها النوافل . ولا بد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . فالرجل الذى يستكثر من أعمال التطوع في الوقت الذى يهمل فيه فرائض لازمة . رجل ضال .

والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان . كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم . وكما أن الجسم لا يقوم بالمواد النشوية وحدها ، أو الزلالية وحدها ، بل لا بد من امتثال جمل متنوعة من الغذاء ، وإلا تعرض الجسم لعلل قد تنهك أو تقتله .

فكذلك الدين ، إنه لا قيام له في كيان الفرد أو في صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض الملونة ، تصون حياته وتضمن عافيته ونماءه . وعلى المسلم أن يقسم وقته وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة فلا يشغلها واجب عن واجب . وبالأخرى لا تشغله نافلة عن واجب ! .

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مباغلة بنى قريظة قبل أن يستكملوا علتهم ويقووا حصونهم ، هو الواجب الأول في تلك الساعة فلا ينبغى أن ينشغل المسلم عنه ولو بالصلاة .

فحذر وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال .

وتستطيع — على ضوء هذا الإرشاد النبوي — أن تحكم على مسالك المسلمين اليوم إن المدرس الذي ينشغل عن تعليم تلامذته . والتاجر الذي ينشغل عن تسيير ثروته ؛ والموظف الذي ينشغل عن أداء عمله لا يقبل الله من أحدهم عذراً أبداً في تضييع هذه الفرائض ولو كان أحدهم قد عاقه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة . أو قرأ ألف آية ، أو عد أسماء الله الحسنى سبعين ألف مرة . كما يفعل جهال المتصوفة .

ذلك أنه انشغال عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم تطلب وتعطيل لأمة يستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها في محاربة جهلها ونقرها وموضاها .

والجهاد العام فريضة لا يغض من قدرها شيء ؛ ولا تراحمها عمو وقها عبادة كما رأيت .



حمل راية المسلمين إلى حصون قريظة على بن أبي طالب واستبق المسلمون يمتشدون حولها ، حتى إذا اقترب الجيش من منازل اليهود كان القوم لا يزالون على غرايتهم ، فقد نظروا إلى المسلمين ثم سبوا رسول الله ونساءه مبعاً قبيحاً .

فراى على أن يصرف النبي صلى الله عليه وسلم بعيداً عن أولئك السفهاء ، فاعترض طريقه وهو مقبل قائلاً . يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث فقال : لم ؟ أظنك سمعت لى منهم أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله قال : لو رأوني ، لم يقولوا من ذلك شيئاً .

فلما دنا من حصونهم قال : يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم همته (٢) ؟ : قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولاً :

(١) ضعيف أخرجه ابن اسحاق عن الزهري مرسلًا ؛ وعنه ابن هشام ( ١٩٤/٢ ) - ( ١٩٥ ) ؛ ورواه الحاكم ( ٣٤/٣ - ٣٥ ) من حديث ابن عمر ؛ وإسناده ضعيف .



هذه خلال اليهود ، يسهون إذا أمنوا ، ويقتلون إذا قدروا ، ويذكرون  
الناس بالمثل العليا إذا وجلوا ، ليستفيدوا منها وخدم لاشيء آخر .

أما اليهود ، فهي آخر شيء في الحياة يقفون عنده .

على أن سفاهتهم لم تغفهم . فقد أحكم المسلمون الحصار عليهم ، وأمسكوا  
بمخناقهم فاستيقن القوم أن الامتسلام لا يحيص عنه ، وامتلات قلوبهم باليأس  
والفرزع .

قال « كعب » سيد بني قريظة . يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون  
وإني عارض عليكم خلا لا ثلاثا ، فخذوا أيها شتم . قالوا : وما هي ؟

قال نقابع هذا الرجل ونصدقه . فوالله لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل ، وإنه  
الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم  
قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا . ولا نسبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم عليّ فهل فلتقتل أبناءنا ونساءنا . ثم نخرج إلى محمد وأصحابه  
رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وأصحابه  
فإن هلك ، هلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن ظهر ، فلعمرى لنجدن  
النساء والأبناء .

قالوا نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟

قال : فإن أبيتم عليّ هذه ، فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد  
وأصحابه قد أمنوا فيها . فأنزلوا علينا نصيب منهم غرة ؟

قالوا : نفسد سبتنا علينا ومحدث فيه مالم يحدث من كان قبلنا ؟

قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما .

وحاول بنو قريظة أن يظفروا بصلح كالذي ناله إخوانهم بنو النضير من قبل ،

بيد أن المسلمين أبوا عليهم إلا أن يسلموا دون قيد أو شرط ، فإن ما أسلف هؤلاء

من جرم بين وغدر شائن ، أحفظ عليهم الصدور ، فلم يبق فيها مكان لسلاح ،  
وتمحض الموقف للعدل المجرد يقرُّ الأمور في نصابها كيف يشاء .

واستقدم اليهود — وهم محصورون — أبا لبابة بن عبد المنذر يستشيرونه .  
أنزلون على حكم محمد ؟ فقال لهم : نعم ، وأشار إلى حلقه ، كأنه يذبحهم إلى أنه  
الذبح ؟ ثم أدرك — لفوره — أنه خان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففضى هاماً  
على وجهه حتى أتى مسجد المدينة . فربط نفسه على سارية فيه . وحلف ألا يفك  
حتمها حتى يتوب الله عليه .

وقد قبل الله منه ندمه ، ونزلت فيه بعد أيام الآية ( وآخرون اعترفوا  
بذنوبهم خايطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله  
غفور رحيم ) .

واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة سمح المسلمون في اثنتائها لليهود الذين رفضوا  
الغدر بالرسول عليه الصلاة والسلام أيام الأحزاب أن يخرجوا فجزؤهم عن وفائهم  
خيراً . وخلو سبيلهم ، ينطلقون حيث يرغبون .

ثم قرروا أن يهجموا على الحصون المغلقة ويقتحموها عنوة .

فصاح على : يا كتيبة الإيمان — ومعه الزبير بن العوام — والله لأذوقن ماذاق  
حزاة أو لأفتحن حصنهم فقال بنو قريظة : يا محمد نزل على حكم سعد بن معاذ .

فاستنزلوا من حصنهم وسيقوا إلى محبسهم ، حتى جاء سعد بن معاذ ليقضي  
في حلفائه بما يرى ..

وكان « سعد » سيد الأوس وهم حلفاء قريظة في الماهلية ، وقد توقع يهود أن  
هذه الصلة تنفعهم ، وتوقع الأوس أيضاً من رجلهم أن يتساهل مع أصدقائهم  
الأقدمين ، فلما استقدمه الرسول عليه الصلاة والسلام ليصدر حكمه . جاء من



الخيمة التي برّض فيها إيرا صابته بسهام الأحزاب واكتنفه قومه يقولون له :  
يا أبا عمرو ، أحسن في مواليك ...

لكن سعداً لم ينس - في ضجيج الرجاء الموجه إليه - أن الإسلام وأبناءه ،  
والمدينة وثمارها وحرثها ونسائها وحرمانها ، لم تنج من وطأة الأحزاب الهاجمين ،  
إلا بأعجوبة خارقة . وأن بنى قريظة هؤلاء ومن آوؤهم ، كانوا المحرضين والشركاء  
المقبوحين في هذه الحرب التي أعلنت لاستئصال للتوحيد الحق واجتياح أهله .

ولم ينس سعد : كيف نقضت قريظة عهداً ، واستقبلته بالألفاظ البذيئة عندما  
ذهب ينأشدها الوفاء ! ألم يقل لهم يومئذ : أخشى عليكم مثل يوم بنى النضير  
وأمر منه ؟ فكان ردهم عليه ، أكلت أيرأيتك !!

لذلك مالئ سعد أن صاح بقومه - وقد أكثروا عليه الرجاء - : قد آن  
لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم .

• • •

وحكم سعد أن يقتل الرجال ، ونسبى الذرية وتقسّم الأموال ، وأفرأيت هذا  
للقضاء الحازم قائلًا لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات (١) .

وحفرت الخنادق بسوق المدينة لتنفيذ هذا الحكم ، وسبق إليها مقاتلة لليهود  
أرسالا - طائفة بعد أخرى - ليدفعوا ثمن خيانتهم وغدرهم .

قال اليهود لسيدهم كعب وهم يساقون لمصارعهم : ما تراه يصنع بنا ؟ قال .  
أفي كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعي لا ينزع وإنه من ذُهب به منكم  
لا يرجع ؟ هو - والله - القتل .

---

(١) حديث صحيح أخرجه الإسحاق وعنه ابن هشام (١٩٧/٢) عن علقمة بن  
وقاص الليثي مرسلاً ؛ اسكن أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري دون  
قوله : « من فوق سبع سموات » فهذا ضعيف .

أجل . هو القتل . وأما تقع تبعات الحكم به على من تعرض له بسوء صنيعة ،  
وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتحقق ، ولو قد تحققت لكان ألوف  
المسلمين هلكي تحت أقدام الأحزاب المنسابه من كل ناحية يحرضهم ويؤازرهم  
أولئك اليهود .

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سبباً في هذه الكارثة التي حلت  
ببني قريظة ، ولو أن حيي بن أخطب وأضرابه مكثوا في جوار الإسلام وعاشوا  
على ما أوتوا من مغنم ، ما تعرضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الخطير .  
لكن الشعوب تدفع من دمها ثمناً فادحاً لأخطاء قادتها .  
وفي عصرنا هذا ، دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثماً باهظة ،  
لأثرة السياسة الخدوعين ..

ولذلك ينعي القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها غيرهم قباهم :  
( أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ .  
جَهَنَّمَ : يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ! ) ...

لقد جرى بحُبيي ليلقي جزاءه . وحُبيي - كما علمت - جرثومة هذه الفتن ؟  
فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أما والله ما لمت نفسي في  
عداوتك ، ولست من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ،  
لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة ، كتبها الله على بني إسرائيل ! ثم جلس ،  
فضربت عنقه !

وفي ذلك يقول الشاعر :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه      ولكنه من يخذل الله يخذل  
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها      وقلقل يبغي العز كل مقلقل



والحق أن من مشركي قريش ومن رجال يهود أناساً واجهوا الموت بثبات .  
ولن تعدم المبادئ الباطلة والنحل الهازلة أتباعاً يفقدونها بالأرواح والأموال  
غير أن شيئاً من هذا لا يجعل الباطل حقاً ، ولا الجور عدلاً .

إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس ، هو موقفهم من المسلمين اليوم .

فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود في صمت وهم يحتلون فلسطين .

والغريب أن اليهود تركوا من نصب لهم المجازر في أقطار أوروبا ، وجبنوا عن  
مواجهتهم بشرية ! واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم من اثني عشر قرناً ،  
فنكلوهم على النحو المخزي القاصح ، الذي لا يزال قائماً في فلسطين ... تشهده  
وتؤيده ونسائده ، دول الغرب .



في طرد الأحزاب ودخر قريظة ، نزلت الآيات ( وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۚ  
وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِياصِيهِمْ ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ  
الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۚ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ  
وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ) .

فقد المسلمون في هذا الصراع ، مع المشركين أولاً ، ومع أهل الكتاب ثانياً ،  
عدداً يسيراً من رجالهم منهم « سعد بن معاذ » . أجاب الله دعوته فمات شهيداً  
من جراحته التي أصابته يوم الأحزاب بعد أن شفى الله غيظه من يهود قريظة وبعد  
أن تبين فشل قريش في هجومها على المدينة ، وانقلابها لتغزى في عقر دارها ،  
للتغزو الآخرين .

ولم تنته الخصومة بين المسلمين واليهود بأهزام قريظة وانكسار شوكتها ، فإن

بعض مؤلبي الأحزاب على الإسلام قرّ إلى خيبر لا إذا بمحصولها مستظهاً  
بإخوانه فيها ، مثل أبي رافع بن أبي الحقيق ، وهو شريكٌ حمي في التطواف  
بالقبائل يستجلبها إلى يثرب بغية الإتيان على الإسلام وأهله وأبس يؤمن لليهود  
شر ما بقيت لهم قدرة على فعله . وقد صور حديث الرسول نقمة اليهود على الإسلام  
بقوله : « ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله <sup>(١)</sup> » ولا نعرف لهذه النقمة الدفينة علة ،  
إلا انحراف أصحابها عن الجادة . ومن حق المسلمين أن يحذروها ، وأن لا يدعوا  
لها بقية تنموا على الزمن .

لذلك خرج من المدينة خمسة من الخوارج ذاهبين إلى خيبر ، بغيتهم القضاء على  
أبي رافع وإلقاء الذعر في قلوب شيعته وقد أمر الرسول عليهم عبد الله بن عتيك  
ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة ... <sup>(٢)</sup>

وقدم المغامرون أرض خيبر . وانتهوا إلى دار ابن أبي الحقيق وقد أظلمهم  
المساء . قال عبد الله بن عتيك لصاحبه . — عند ما دنوا من الحصن — : امكثوا  
أنتم حتى أنطلق أنا فأناظر . قال : فاحتلت لأدخل الحصن ، فإذا الخدم فقدوا  
حماراً لهم فخرجوا بقبس بطلبونه ، فحشيت أن أعرف ، ففطيت رأسي وجلست  
كأنى أقضى حاجة .

فقل البواب — بعدما استرجعوا حاجتهم — : من أراد أن يدخل فليدخل  
قبل أن أغلقه ، فدخلت واختبأت في مربوط الدواب عند باب الحصن .

وتعشى أبو رافع وصاحبه ، وأخذوا يسرون حتى ذهببت ساعة من الليل ثم  
انصرف عنه جلساؤه قائلين إلى بيوتهم ، وهدأت الأصوات فما أسمع حركة .

---

(١) حديث ضعيف أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » ( ٣١٦ / ٨ ) وقال  
« حديث غريب جداً » .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري عن البراء بن عازب .



وخرجت . وأنا أعرف أين وضع البواب مفاتيح الحصن فأخذتها وفتحت الباب حتى إذا أحس بي القوم انطلقت على مهل . ثم عمدت إلى أبواب غرفهم فغلقتها من ظاهر . ثم صعدت إلى أبي رافع - حيث يبيت في العلالى - فإذا البيت مظلم قد أطفئ سراجة . فلم أدر : أين الرجل ؟ . فقلت : يا أبا رافع ! قال : من هذا ؟ فعمدت نحو الصوت فضربته ، فصاح ولم تغن الضربة شيئاً .

وجئت كأنى أغيبه فقلت : مالك يا أبا رافع ؟ - وغيرت صوتى - قال : لأملك الويل ، دخل على رجل فضربنى بالسيف ! فعمدت إليه فضربته ضربة ثانية . فصاح ، وقام أهله ، فجئت مرة أخرى إليه وهو مستلق على ظهره فأجهزت عليه ثم خرجت دهشاً حتى أتيت السلم أريد أن أنزل ، فسقطت منه فأنخلعت رجلى ، فعصبتها وأتيت أصحابى أحجل .

وعاد القوم إلى المدينة يبشرون من وراءهم أنهم أزاحوا من طريق الدعوة عتبة كاداء .

تضمضع الكفر بعد هذه الوقعات الغليظة . ورست أصول الإسلام واطمأنت دوائه . فما انتهت السنة الخامسة للهجرة حتى أصبح المسلمون قوة تفرض نفسها وتذيق المعاندين بأسها . واستيقنت قريش وأحلافها أن رد المسامين إلى عبادة الأوثان ضرب من المستحيل كما استيقن اليهود أن خصامهم الخبيث الدين الجديد والرسالة الخاتمة لم يزد هم إلا خبالاً .

ولم تقع بعد غزوة الأحزاب هذا العام إلى أخريات السنة السادسة - أى إلى عمرة الحديبية - أحداث ذات بال .

حاولت هذيل أن تجمع للاغارة على المدينة ، فقتل قائدها خالد بن سفيان ، فقعدت وهجمصوص الأعراب على المدينة يقودهم « عيينة بن حصن » فى خيل لغطفان . واستاقوا إبلها ثم ولوا بها هاربين . غير أن سلمه بن الأكوع صرخ بأهل المدينة

منذراً . وتبع المفيرين وحده يرميهم بالنبل ويسترد منهم اللقاح المنهوبة حتى أدركه فرسان المسلمين ، فلما رأهم المشركون فروا بعد ما قتل بعضهم وتركوا ما معهم .  
ويروى البخارى أن ذلك كان بعد الحديبية لا قبلها ، والله أعلم .

وفي هذه الفترة تزوج النبي بأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت مهاجرة مع زوجها بالحبشة . فارتد صاحبها وهلك ، وبقيت وحدها .

فراى النبي - إعزازاً للسيدة التى تركت أباه - وهو زعيم مكة - وآثرت الهجرة إلى الله على البقاء فى كنفه - أن يتزوجها ، فأرسل إلى النجاشى مهرها ووكله عنه فى العقد عليها .

وتزوج كذلك زينب بنت جحش ، وسنتكم عن تفاصيل ذلك فى الباب الذى نقرده بعد تعدد الزوجات ، وزوجات الرسول - كذلك . ويقال إن الإمام وقع فى قلب « عمرو بن العاص » فى هذه الأيام .

فقد أثاره ما يلقاه محمد من ظفر ، وقال لبعض صحبه :  
إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً ، ثم اقترح عليهم أن يلحقوا بالحبشة ، ويراقبوا نتائج الصراع بين المسلمين وقومهم !! .

فلما ذهب إلى الحبشة ورأى إكرام نجاشيه للرسول ومن ينتمى إليه ، مال إلى الدخول فى دين الله ..

ولكنه كتم ما بقلبه حتى اقترب فتح مكة ، والتقى بخالد بن الوليد وكان خالد قد أجمع أمره على الإسلام وانتوى الذهاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى موهجره ليطلبه ، قال له عمرو : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسم - وضع الطريق - وإن الرجل لنبي ! أذهب - والله - فأسلم فحتى متى ؟

وسرّ عمرو أن يجده صاحباً كخالد ، فصارحه بما فى نفسه وانطلق الرجلان إلى يثرب مسلمين مهاجرين .

وقصة إسلامهما - كما قلنا - قبيل الفتح فإن خلدأ كان فى عمرة الحديبية قائداً لجيش قرىش . وهى تصد المسلمين عن زيارة البيت العتيق .



(۷)

طَوْرَجَدِيدٌ

## عمرة الحديبية

جاء تفكير المسلمين في زيارة المسجد الحرام بداية لمرحلة متميزة في تاريخ دعوتهم . أليسوا يعالنون بعزمهم على دخول مكة وهم الذين طردوا منها بالأسلحـ و حوربوا حيث استقرت بهم النوى ؟ وظلت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش لم تسفر عن نتيجة حاسمة ؟ فكيف ينوون العمرة في هذه الظروف ... ؟

والجواب أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد بهذا النسك المنشود إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم ، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكاً لقبيل يحنكر القيام عليه ويمكنه الصده عنه ، فهو ميراث الخليل إبراهيم . والحج إليه واجب على كل من بلغه أذان أبي الأنبياء من قرون :

( وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلا تَشْرِكْ بِي شَيْئاً ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ ، وَلِلرُّكَّعِ السُّجُودِ \* وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ) .

ومن ثم فليس يجوز لأهل مكة أن يحجبوا المسلمين عنه ، ولئن استطاعوا قديماً إقصاءهم ، إنهم - بعد ما وقع من قتال - لن يصروا على خطبهم القديم . وإحرام النبي وصحبه بالعمرة فحسب - وهم يريدون دخول مكة - آية على الرغبة العميقة في السلم ، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة ، وتأسيس علائق أهدأ وأرق .

ومتى يحدث هذا ؟ بعد أن استغرقت قريش جهدها في إيذاء المسلمين ، وعندما بدا فشلها الذريع في ذلك . لقد استمرت بضع سنين تقتل وتبذل من دمها ومالها



لتهزم الإسلام فلم ترجع آخر الأمر إلا بالخسائر الفادحة والأزمات المضوض ،  
على حين رخت أقدام المسلمين ، وعلت راياتهم ، وانكش عدوهم ، وهام أولاء  
يخرجون إلى مكة عباداً مخبتين لاغزاة منتقمين . أجل إنهم لا يرغبون إلا أن يذلوا  
مثل ما اغيرهم من حق الاعتمار والحج ولا يسوغ أن يحرموا من ذلك أبداً ،  
وبذلك القصد السمع المذهب ، استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم جمهور المسلمين  
وأعراب البوادي ، وآذنتهم أنه يريد العمرة ولا يريد قتالاً . وساق أمامه  
المهدي الذي سيذبح ايظهم فقراء مكة . الفقراء الذين حشدوا لاستئصاله يوم  
الأحزاب ...

أكان الكافرون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام يفقهون هذه النية ويقدرّون  
مكان صاحبها ؟

لا ... إنهم بقوا على العهد بهم من فساد الضمير ونية السوء .

فالأعراب المنتشرون حول يثرب ، ومن على شاكلتهم من المنافقين ، عرفوا  
أن أهل مكة سوف يقاتلون محمداً عليه الصلاة والسلام ، أمراً قتل ، وأنه إذا أتى  
إلا زيارة البيت — كما أعلن — فلن تدعه قريش حتى تهلكه أو تهلك  
هي دون إبلاغه مأربه ... فهي عمرة مخوفة بالأخطار في نظرهم ، والفرار منها  
أجدي !! .

ولو فرض أن الرسول عليه الصلاة والسلام نجح في مقصده هذا ، فالاعتذار  
إليه بعد عودته سهل .

( سيقول لك المخلمون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر  
لنا . يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم  
من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نقماً ؟ . بل كان الله

بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون  
إلى أهلهم أبداً \* وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء ، وكنتم  
قوماً بوراً )

وخرج المؤمنون الواقفون مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وعددهم  
قريب من ألف وأربعمائة ، وذلك في ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة .  
وساروا ملبيين يطوون الطريق إلى البيت العتيق فلما بلغوا « عسفان » على  
مراحلتين من مكة جاء الخبر إلى المسلمين أن قريشاً خرجت عن بكرة أبيها ،  
قد أقسمت ألا يدخل بلدهم مسلم ، وأن جيشهم استعد للنضال ، يقود خيله خالد  
ابن الوليد .

وبدأ شبح الحرب أمام الأعين يملأ هذه البقاع الحرمه بالدماء والأشلاء ،  
والمسلمون لم يجيئوا لهذا ، وما كان لأهل مكة أن يلجئوهم إليه . فقل رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، : يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لوخلوا بيني  
وبين سائر العرب . فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ! وإن أظهرني الله  
عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟  
فوالله لأزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه الساقفة  
— معنى إلى الموت — (١)

\* \* \*

(١) حديث صحيح أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح عن مسور بن مخرمة ومروان  
ابن الحارث ومن طريقه أخرجه أحمد ( ٣٢٣/٤ — ٣٢٦ ) وابن هشام ( ١٢٦/٢ )  
وهو قطعة من حديث طويل في صلاح الحديبية وقد أخرجه البخاري ( ٣٥١/٥ — ٣٧١ )  
وأحمد ( ٣٢٨/٤ — ٣٣١ ) من طريق أخرى عساهما بطوله . لكن عند البخاري  
وكذا أحمد أن هذا القول صدر منه صلى الله عليه وسلم بعد قصة الناقة الآتية عند عجي .  
بديل بن ورقاء إليه صلى الله عليه وسلم وإخباره إياه أنه لم يأت لحرب . وهذا أصح قطعاً  
من رواية ابن إسحاق .



ومُضياً مع الرغبة عن الثقال ، وتخليصاً للناس المقصود من شائبة تحدّ  
سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام : مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير  
طريقهم التي هم بها (١) ؟

فجاء رجل من أسلم فسلّم بهم طريقاً وعراً أجرد . شق على المسلمين اجتيازَه  
ثم أفضى بهم إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، اتّفى المسلمون عندها بينما  
ليهبطوا عند الحديبية أسفل مكة !

ولم تخف هذه الحركة عن فرسان قريش ، فتراكضوا راجعين إلى مكة كي  
يحولوا بين المسلمين ودخولها .

ومضى النبي عليه الصلاة والسلام بأصحابه في وجهتهم المحددة ، فإذا بناقته  
تبرك لا تجاوز مكانها ! ودهش الناس لما عراها فقالوا . خلأت القصوراء ! فقال  
النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلأت ، وما هو لها بخاق ، ولكن حبسها حابس الفيل  
عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم  
إياها ثم أمر الناس أن يحولوا حيث انتهى بالنفقة المسير (٢) .

ونزل المسلمون كما أمروا ينتظرون مع الغد القريب أن تفتح لهم أبواب مكة  
فيطوفوا ويسعوا ، ثم يعودوا وافرّين راجحين . إنهم واثقون من إدراك بغيتهم  
ولماذا يشكون وقد سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرى كثيرة بأنهم  
سيدخلون المسجد الحرام آمنين ، محققين رؤسهم ومقصرين ؟ .

أما قريش فقد ذعرت لهذا الزحف المباغت ، وفسّكت جادة في إبعاده عن مكة  
مهما كلفها من مغارم ، وذلك أنها نظرت إلى الأمر من زاوية ضيقه ، فرأت أن

---

(١) حديث صحيح رواه ابن إسحاق في حديث الحديبية المشار إليه انفاً ،

(٢) حديث صحيح ، من حديث الحديبية عند البخاري وغيره .

مهابتها مستنزع من أفئدة الناس قاطبة إذا دخل المسلمون بلادهم على هذا النحو .  
بعد ما وقع من حروب طاحنة .

فغير أن قريشاً تعرف حروجة موقعتها إن نشب قتال جديد .  
فحجتها فيه أمام نفسها وأمام أحلافها داحضة . وقد ينتهي بكارثة تودي  
بكيانها كله ، ولهذا سيرت الوسطاء يفاوضون محمداً عليهم بتهون موه إلى مخلص  
من هذه الورطة !!

وكان أول من جاءه « بديل بن ورقاء » في رجال من خزاعة ، فكلموه  
وسألوه : ما الذي جاء به هنا ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً  
للبيت ومعظماً حرمة .

فرجعوا إلى قريش يقولون : يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ،  
إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً لهذا البيت . فاتهموه وجبهوههم ، وقالوا :  
وإن كان جاء لا يريد قتالاً ... فوالله لا بدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تحدث بذلك  
عنا العرب ؟

ثم بعثت قريش « مكرز بن حفص » فعاد بما عاد به بديل الخزاعي .  
ثم بعثوا سيد الأحابيش « الحليس بن عاقمة » لما رآه رسول الله صلى  
الله عليه وسلم قال : إن هذا من قوم يتأهلون ، فابعثوا الهدى في وجهه  
حتى يراه (١) .

فما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي ، عاد إلى قريش قبل أن يصل  
إلى رسول الله ، إعظاماً لما شاهد فقال لهم ذلك ، فأجابوه : إجلس إنما أنت أعرابي  
لا علم لك . فاستشاط الحليس وصاح : يامعشر قريش ، والله ما على هذا حالناكم

---

(١) حديث صحيح ، رواه ابن اسحاق في حديث الحديبية



ولا على هذا عاقدناكم ، أيبصد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحليس بيده ، آتخنان بين محمد وبين من جاء له ، أو لأنقرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .. فقالوا : مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « عروة بن مسعود » وكره عروة أن يعود من مفارقة المسلمين فيسمعه رجال قريش ما يسوؤه فقال : يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وإني ولد .

وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي . ثم جئتم حتى آسيتكم بنفسى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بهم .

فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت إلى بيضتك لتفضها — ؟ إلى قومك لتجتاحهم — إنها قريش خرجت معها العوذ المطافيل — يقصد النساء والأطفال — قد لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً .

وكان أبو بكر خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ، فلما وصل في حديثه إلى التعريض بالمسلمين قال له هازئاً : أمصص بظر اللات ! أنحن نكشف عنه ؟

فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة ! فرد عروة على أبي بكر يقول : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها . ولكن هذه بهذه .

وعاود عروة حديثه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يتناول لحيته وهو يكلمه — كأنه يذبه إلى خطورة ما سيقع بقومه — إلا أن الغيرة بن شعبة ( ٢٣ — فقه السيرة )

كان يقرع يده كلما فعل ذلك وهو يقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لاتصل إليك ، فقال عروة له . ويحك ما أظنك وأغلظك ، ثم سأل النبي : من هذا يا محمد ؟

فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتنسم . هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبه . فقال عروة للمغيرة . أى غدر ، هل فعلت سوءتك إلا بالأمس<sup>(١)</sup> .

وقد رد النبي عليه الصلاة والسلام على عروة بما يقطع اللجاجة وينفي الشبهة . إله لا ينبغي حرباً ، وإنما يريد أن يزور البيت كما يزوره غيره فلا يلقي صاداً ولا راداً . ورجع عروة ينوه بإجلال الصحابة لرسول الله ، ويقول : إني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً سفرّاً وأرايكم<sup>(٢)</sup> .

• • •

إن الرجال الذين تسلموا باسم قريش في هذه المفاوضات لم تنهص لهم حجة ، بل إنهم عادوا إلى أهل مكة وهم أميل إلى ملاينة المسلمين وتمكينهم من أداء نسكهم ، ولم يلحظ بعضهم في التصريح بذلك إلا لما لمسه من كبرياء قريش وعزوفها عن الحق بعد ما تبين ، إن النزق استبد بهم وأطاش ألباسهم فقرروا ألا يدخل المسلمون البلد الحرام وليكن ما يكون ..

وبقى المسلمون في أماكنهم يلتمسون للمشكلة حلاً أخرى أفضل من اقتحام مكة في هجوم عام ، وحاول فريق من السفهاء أن يشعل المعركة ، لكن المسلمين لزموا الهدوء وملكوا أعصابهم .

(١) كانت المغيرة قبل إسلامه داهية فانسكا ؛ قتل نفراً فوداهم عروة إطفاء للفتنة .

(٢) هذا كله من تمام القصة الحديبية عند ابن إسحاق . وهو عند البخاري بنحوه .



فمن ابن عباس أن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمرهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً فأخذوا وأتى بهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فعفا عنهم وخلي سبيلهم ، وكانوا رموا في العسكر بالحجارة والنبل .. (١)

وفي فظاظه قريش وسماحه المسلمين نزل قوله عز وجل :  
« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » .

ومن السكينة التي تنزلت على المسلمين أن رسل قريش كانت تغدو على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتروح ، فلا يعترضها أحد ، أما رسل المسلمين إلى قريش فقد تعرضت للهلاك ، كاد خراش بن أمية الخزاعي يقتل ، لولا أن أنقذه الأحابيش ، فرجع وقد عقر جملة وكان النبي عليه الصلاة والسلام أرسله ليبلغ أهل مكة حقيقة مجيئه ، وأنه يريد العبادة لا الحرب ..

والرسل لا تقتل ، بيد أن غليان قريش أفقدها الوعي .

والرجل إذا فقد وعيه لا يبالي أن ينتحر ، وقد انحرف كبراء مكة عن الصراط السوي ولم يكثرثوا للمصير القاتل الذي ينتظرهم إذا ركبوا رؤسهم . فلو اصطدم المسلمون بهم ما قامت لهم قائمه ولأصبحت حرمة مكة في صميمها .

(١) ضعيف رواه ابن هشام (٢/٢٢٨) عن ابن إسحاق ؛ وفيه رجل لم يسم ورواه نحوه مختصراً أحمد (٤/٨٦—٨٧) من حديث عبد الله بن مغفل بسند صحيح وفيه أن عدد المشركين ثلاثون شاباً ؛ وفيهم نزول قوله تعالى : « وهو الذي كف أيديهم عنكم » الآية .

« وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ نَحْمُ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا »  
سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ».

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره أن تجرى الأمور على هذا النحو ،  
ورأى أن يعيد محاولاته لإقناع أهل مكة ، بتركه بزور ، ويعود لشأه .

فدعا<sup>(١)</sup> عمر بن الخطاب ليذهب إلى القوم يحدّثهم بما خرج المسلمون فيه .

فقال عمر : يا رسول الله ، ليس بمكة أحد من بنى عدى يفضب لى إن أوديت  
فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته لا تزال بمكة وإنه مبالغ عنك ما أردت .

ودخل عثمان مكة في جوار قريبه أبان بن معيذ بن العاص ، واستطاع أن يبلغ  
رسالة كاملة وأن يفهم من لقيه الحقيقة الكريمة التي جاء المسلمون قاطبة بها .  
فكان الرد الذي حظى به عثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت نطف .

فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله .

ومما يذكّر هنا أن مكة لم تخل من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات .

كانت قلوبهم معلقة بالمسلمين المحجوزين خارج مكة .

لقد انتشر الإسلام سرّاً في بيوت كثيرة طالما تشوقت إلى اليوم الذي تستطيع  
فيه أن تظهر إيمانها ، وتتخلص من سطوة الكفر عليها .

ويظهر أن عثمان اتصل بأولئك للنفر المؤمن وبشرهم بقرب الفتح ، فرأت  
قريش أن عثمان قد عدا الحدود المعهودة ، وأمرت باحتباسه ، عندها وشاع —  
لدى المسلمين — أن عثمان قتل .

\* \* \*

---

(١) من تمام القصة عند ابن إسحاق .



وحين بانفت هذه الشائعة مسامع النبي عليه الصلاة والسلام قال : لا تبرح حتى  
تفاجز القوم <sup>(١)</sup> .

ودعا الناس إلى مبايعته ، وكان تحت شجرة متشابكة الغصون . فهرع أصحابه  
إليه يبائعونه على الموت أو على أن لا يفروا .

حدث جابر بن عبد الله بعد ما كفَّ بصره قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يوم الحديبية : أنتم خير أهل الأرض ، وكنا ألفاً وأربعمائة ، ولو كنت أبصر  
اليوم لأريتكم مكان الشجرة <sup>(٢)</sup> .

وروى عن جابر أن عبداً لحاطب جاء يشكوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ويقول : لا يدخلن حاطب النار . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : كذبت ،  
لا يدخلها ، شهد بدرأ والحديبية <sup>(٣)</sup> ، وتسمى هذه البيعة « بيعة الرضوان » إظهاراً  
إلى قول الله في أصحابها :

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي  
قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » .

وقد قطعت الشجرة ونسى مكانها ، وذلك خير ، ولو بقيت لضربت عليها قبة  
وشدت إليها الرحال ، فإن الرعاع سراع التعلق بالمواد والآثار التي تقطعهم عن الله .

عن طارق بن عبد الرحمن ، انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون ، فمات : ما هذا  
المسجد : قالوا هذه الشجرة حيث بايع النبي عليه الصلاة والسلام بيعة الرضوان .

---

(١) ضعيف أخرجه ابن إسحاق وعنه ابن هشام (٢٢٩/٢) عن عبد الله بن أبي  
بكر مرسل .

(٢) صحيح أخرجه البخاري (٣٥٧/٧) .

(٣) صحيح أخرجه مسلم (١٦٩/٧) ؛ وتصديره بـ (روى) يشعر بضعفه فليحذف

فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، قال فلما كان العام المقبل نسيها فلم يقدر عليها ثم قال سعيد : إن أصحاب محمد لم يعلموها ! وعلمتموها أنتم ؟ فأنتم أعلم .

وعند أخذ البيعة من المسلمين ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحدى يديه على الأخرى وقال : هذه لعثمان <sup>(١)</sup> .

على أن عثمان لم يطل احتباسه ، فان قریشاً جزعت أن تصيبه بأذى وهو من سراها بمكان ، وسارعت إلى بعث « سهيل بن عمرو » ليعقد مع محمد صلحاً .

ولم يكن يعنيه في هذا الصلح إلا أن يرجع المسلمون هذا العام ، على أن يعودوا بعد إذا شاءوا ، وذلك إبقاء على مكانة قریش في العرب !!

\* \* \*

واستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاوض قریش وهو أرغب ما يكون في موادة القوم ، وإن كان قادراً على تحكيم السيف وإنزال خصومه على منطقته الذي آثروه منذ صدّوه عن البيت ، وتكلم « سهيل » فأطال وعرض الشروط التي يتم في نطاقها الصلح ، ووافق عليها النبي ، ولم يبق إلا أن تسجل في وثيقة يضيها الفريقان .

وحدثت في معسكر المسلمين دهشة عامة للطريقة التي سلكها رسول الله مع أوليائه ومع أعدائه .

---

(١) صحيح أخرجه البخاري (٧/٧٩١) .



فأما مع أعدائه ، فقد ذهب في ملاينتهم إلى حدود بعيدة ، وأولى به أن يقسو عليهم .

وأما مع أصحابه — فإنه على غير ما ألفوا منه — لم يستشرهم في هذا الاتفاق المقترح .

مع أنه في شئون الحرب والسلام التي سلفت ، كان يرجع إليهم ، وربما نزل على رأيهم وهو له كاره ، لكنه اليوم ينفرد بالعمل ويقر ما يكرهون ، على غير ضرورة ملجئة ..

وقد شرحنا في غير هذا المكان<sup>(١)</sup> موقف النبي عليه الصلاة والسلام في عمرة الحديبية خاصة ، وأبنا أن تقدير الأمور لم يترك للظن المعتاد . بل كان الإلهام الأعلى توجيه الصائب .

إن الله الذي عقل الناقة أن تتابع سيرها لا يأذن لهذه الكتاب أن توالى زحفها وتشرع رماحها ، وقد تحرز نهرأ أقلاً على الإسلام — في جسدواه — من سلم مباركة النتائج .

قال الزهري : فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى . قال : أوليسو بالمشركين ! . قال بلى . قال : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ! .

قال أبو بكر : يا عمر أألم غرزه — أمره — فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله !

ثم أتى رسول الله فقال أنت رسول الله ! قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين !

(١) في كتابنا : الإسلام والاستبداد السياسي .

قال : بلى .

قال أوليسو بالمشر كين؟ قال : بلى .

قال : فعلام تعطى الدنية فى ديننا؟

قال : أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى <sup>(١)</sup> .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب ، فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ! .

وأن يدتنا عيبة مكفوفة - صدوراً منظوية على ما فيها من خير - وأنه لا إسلال ، لا إغلال - لا سرقة ولا خيانة - - وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد صلى الله عليه وسلم وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأنك ترجع عنا هاتك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا

---

(١) حديث صحيح ، وهو من تمام ؛ قصة الحديبية ؛ والزهرى أحد رجال إسناده وليس من مراسلاته خلافاً لما يبدو من السياق . وقد رواه موصولاً أحمد من طريق ابن إسحاق . وهو عند البخارى وأحمد من طريق أخرى بنحوه .



عنك فدخلتها بأصحابك . فأقت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف في القرب  
لا تدخلها بغيرها .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب . إذ جاء ابن المفاوض عن  
قريش نفسه ! .. جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يريد الالتحاق بالمسلمين ، فقد  
دخل في دين الله ولقى العذاب من أهله ، وها هو ذا يرسف في الحديد ، وتثقل به  
قيوده ....

ما كان المسلمون يشكون في فتح مكة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قص  
عليهم رؤيا أنه دخلها ، وطوف بالبیت العتيق فيها . فلما رأوا ما رأوا من شروط  
المدينة ، وأمر الصلح والعودة ، وتعنت سهيل مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وافتياته  
على شخصه ، دخل عليهم من ذلك كله أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ثم جاءت  
قصة أبي جندل فزادت الطين بلة ...

ورأى سهيل ابنه فقام إليه يضرب وجهه ، وأخذ بقلبيبه ثم قال يا محمد : قد لبت  
القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا !! قال : صدقت فجعل سهيل ينتز ابنه بقلبيبه  
ويجره ليرده إلى قریش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته :

« يا معشر المسلمين ، أردد إلى المشركين بفتنوني في ديني ! »

فزاد ذلك الناس إلى ما بهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل  
لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً  
وأعطيناكم على ذلك وأعطوا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم .

ونفذت القضية ، وأعلنت خزاعة دخولها في عقد المسلمين ، وأعلنت بنوبكر .  
دخولها إلى عقد قريش ، ومضت شروط الهدنة <sup>(١)</sup> ... !

• • •

والنظرة الأولى لهذه الشروط تدل على أنها مجحفة بحق المسلمين مرضية  
لكبرياء قريش وحيثها الجاهلية ، وقد تساءل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
مستنكرين ! .

لماذا يردون إلى قريش من جاء منهم مسلماً ولا يرد قريش من جاءها من  
المسلمين مرتدأ ؟ .

وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشرط بأن من ذهب إليهم كافرين ،  
فلا رده الله ، وقد وُقِيَ المسلمون خيبته . أما المستضعفون من المسلمين . فستعي  
قريش بأمرهم ، كما عجزت عن سابقهم ، وستكون العقبي لهم .

ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه مستضعفين ؟ ثم نصرهم الله وخذل  
قريشاً أمامهم ؟ .

ثم هاجت في نفوس المسلمين مرة أخرى خيبة الأمل ، قد حُدِّثُوا أنهم  
داخلون في المسجد الحرام ، وهام أولاء قد ارتدوا عنه . لكن الرسول صلى الله  
عليه وسلم يبين أنهم عائدون إلى دخوله كما وعدوا ، فهو لم يذكر لهم أنهم سيطوفون  
به هذا العام ...

وعرا المسلمين وجوم ثقیل لهذه النهاية الكئيبة ، وزاغت نظراتهم لما ركبهم  
من الحرج المفاجيء . فلما فرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من قضية الكتاب

---

(١) هذا كله من قصة الحديبية عند ابن إسحاق والسياق له ؛ والبخاري وأحمد



قال لهم : قوموا فانحروا ثم احلقوا - ليتحللوا من همرتهم ويعودوا إلى المدينة - فلم يقيم منهم رجل ! حتى قال ذلك ثلاث مرات ! فلما لم يقيم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ - أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك - فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك .

فلما رأى المسلمون ما صنع النبي زال عنهم الذهول . وأحسوا خطر المعصية لأمره فقاموا - هجابين - ينحرون هديهم ، ويحلق بعضهم بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر لفرط الغم <sup>(١)</sup> .

• • •

ليت نيات الخير والشر تؤتى ثمارها الحلوة والمرّة بالسرعة التي ظهرت في عهد الحديبية الآنف ، إنه لم تمر أيام طوال على إبراهيم حتى كان تشدد المشركين فيه وبالا عليهم ، فأخذوا يتشكون من النصوص التي فرضوها . أو فرضتها حميتهم الغليظة - ونظر المسلمون كذلك مهورين إلى عواقب التسامح البعيد الذي أبداه النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجدوا من بر كاته ما ألجأ السنهم بالحمد !

لقد انقرط عقد الكفار في الجزيرة منذ تم هذا العقد . فإن قريشاً كانت تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء الترد والتحدى للدين الجديد . وعند ما شاع نبأ تعاهدها مع المسلمين خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها ، وتبعثرت القبائل الوثنية في أنحاء الجزيرة وخصوصاً لأن قريشاً جمدت على سياستها النفعية واهتمت بشئونها التجارية فلم تجتهد في ضم أحلاف لها ، في الوقت الذي اتسع فيه نشاط المسلمين الثقافي والسياسي والعسكري ، ونجحت دعايتهم في تألف قبائل غفيرة وإدخالها في الإسلام .

(١) صحيح : وهو من تمام قصة الحديبية عند البخاري وأحمد .

وكثيرين من المؤرخين بعد صلاح الحديبية فتحها ، بل إن الزهري يقول فيه : ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وآمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، لم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه واقد دخل في تينك السنتين - بعد الحديبية - مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج عام فتح مكة - بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف .

أما المسلمون المذبذبون في مكة ، فقد فرّ منهم أبو بصير عبيد بن أسيد ، وهاجر إلى المدينة يبغى المقام فيها مع المسلمين ، فأرسلت قريش وراءه ، اثنين من رجالها يرجعان به إليهم لتنفيذ النصوص المعاهدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمك ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدرا وإن الله جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطلق إلى قومك . وحزن أبو بصير وقال : يا رسول الله أتردني إلى المشركين ليفتنوني في ديني ؟ فلم يزد النبي عن تكرار رجائه في الفرج القريب . ثم أرسل أبا بصير مع القرشيين ليعودوا جميعاً إلى مكة<sup>(١)</sup> .

ورفض أبو بصير أن يستسلم لهذا المصير فاحتال في أثناء الطريق على سيف أحد الحارسين وقتله به ففر الآخر مذعوراً وقفل راجعاً إلى المدينة بحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما وقع لصاحبه ، وإذا أبو بصير يطلع متوشحاً بالسيف يقول : يا رسول

---

(١) رواه ابن إسحاق بدون إسناد وعنه ابن هشام (٢/٢٧٢) وقد أخرج البخاري مختصراً على قوله : فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فرفعه إلى الرجلين .



الله وقت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم وامتنعت بديني أن أفن فيه أو يعث بي .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ويل أمه ، مسعر حرب لو كان معه رجال (١) وأدرك أبو بصير أنه لا مقام له في المدينة ، ولا مأمن له في مكة ، فانطلق إلى ساحل البحر في ناحية تدعى العيص ، وشرع يهدد قوافل قريش المارة بطريق الساحل ، وسمع المسلمون بمكة عن مقامه ، وعن كلمة الرسول فيه « مسعر حرب لو كان معه رجال » فتلاحقوا بأبي بصير يشدون أزره حتى اجتمع إليه قريب من سبعين ثائراً فيهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو .

وألف أولئك المذبذبون الناقون جيشاً ، ضيق الخناق على قريش فلا يظفر بأحد منهم إلا قتله ، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها .

وإذا قريش ترسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تناشده الرحم أن يؤوى إليه هؤلاء فلا حاجة لهم .

وبذلك نزلت قريش عن الشرط الذي أمّلته تعنتاً ، وقبله المسلمون كارهين . وقصة أبي بصير وأبي جندل وإخوانهما لها دلالة مثيرة ، فهي قصة العقيدة المكافحة ، - في لؤم من الأعداء ووحشة من الأصحاب ! - وهي توضح أن الإيمان بالله أخذ طريقه إلى قلوب أولئك النفوس مجرداً من كل شيء إلا سلامة جوهره . إنهم قد فقدوا الأمداد الروحية التي تجميهم من مخالطة الرسول صلى الله عليه وسلم والإصغاء إليه وهو يتلو وينصح ، بيد أنهم عوضوا عنها من الاتصال بكتابه والاقنباس من آدابه ، فكانوا - في اهتدائهم للحق وإبائهم للضيم وإيثارهم للمغامرة - مثلاً حسناً للإسلام المكافح العزيز .

ولم يعد أبو بصير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن الإذن بالمقام معه جاء وهو محتضر ، وروى موسى بن عقبة أن رجال أبي بصير صادروا قافلة كان فيها

(١) صحيح . وهو من تمام القصة عند البخاري وأحمد .

أبو العاص بن الربيع صهر النبي صلى الله عليه وسلم — وهو لما يدخل الإسلام بعد — وأسروا من فيما ماعدا أبا العاص ، لمكانته فذهب أبو العاص إلى زينب امرأته ، وشكاهما ما وقع لأصحابه وما ضاع لهم من أموال ، وحدثت زينب رسول الله في ذلك فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس قائلاً إنا صاهرنا أُناساً ، وصاهرنا أبا العاص فنعم الصهر وجدناه . وإنه أقبل من الشام في أصحاب له من قريش فأخذهم أبو جندل وأبو بصير ، وأخذوا ما كان معهم ؛ وأن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألتني أن أجيرهم فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه ؟ فقال المسلمون : نعم<sup>(١)</sup> .

وبلغ هذا الحوار أبا جندل فأفرجوا عن الأسرى ، وردوا عليهم كل شيء . أخذ منهم حتى العقال .

ثم جاء كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بصير ليترك مكانه ويرجع حيث يحب ، وكان أبو بصير يجود بأنفاسه الأخيرة . فأت والكتاب على صدره ودفنه أبو جندل . أما أبو العاص بن الربيع فارتحل ببضائع قريش حتى قدم مكة ، فأدى إلى الناس أموالهم . حتى إذا فرغ قال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم اردّه عليه ؟ قالوا : لا ، جزاك الله خيراً ، وقد وجدناك وفياً كريماً .

قال : والله ما منعتني أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا أن تظنوا أني أسلمت لأذهب بأموالكم ، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

(١) لا يصح . لا بن عقبة رواه عن الزهري مراسلاً . كما في « الفتح » (٣٦٩/٥) والاستيعاب لا بن عبيد البر في ترجمة أبي بصير . غير أن ابن إسحاق أخرج القصة بسباق آخر ، ومن طريقه أخرجه ابن هشام في « السيرة » (٨٢/٢ — ٨٣) مراسلاً ، وقد وصله الحاكم في « المستدرک » (٢٣٦/٣) — (٢٣٧) من حديث عائشة وإسناده جيد فالأولى الاعتماد على هذا السباق دون ما في الكتاب : وله شاهد من حديث أم سلمة عند البيهقي في سننه (٩٥/٩) .



وعاد إلى المدينة فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (١) ، وكان اختلاف الدين قد فرق بينهما ، ولم ينشئ في ذلك عقداً جديداً .

• • •

وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى أولياتهن ، إما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب ، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتي أسلمن أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة ، وهن لا يستطعن . اضطربا في الأرض ورداً للكيد ، كما فعل أبو جندل وأبو بصير وأضرابهما .

وأيا كان الأمر . فإن احتجاز من أسلم من النساء تم بتعليم القرآن ، وكلف المسلمون أن يدفعوا لأزواجهن للشركهن عوضاً يستعينون به على زواج آخر إذا لم يشاءوا الدخول في الإسلام والعودة به إلى أزواجهن الأوليات .

قال الله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا مِنْ حَلٍّ لَهُمْ ، وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ) .

والآية تشير — بجانب ما فيها من أحكام — إلى ما كانت تستمتع به المرأة من استقلال فكري وكيان أدبي محترم .

ولو حدث ذلك اليوم لتساءل فريق كبير من المسلمين : من الذي يمتحن ؟ أهو رجل أم امرأة ، وإن رجلاً ، فهل يكون شاباً أو شيخاً ؟ وهل يمتحن المرأة مباشرة أو من وراء حجاب ؟

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود ( ٢٥٠/١ ) والترمذي ( ١٩٦ ) والحاكم ( ٢٣٧/٢ ) وأحمد ( رقم ١٨٧٦ ، ٢٣٦٦ ) وابن هشام في السيرة ( ٨٢/٢ ) من حديث ( ابن عباس ) . وإسناده جيد وقال الترمذي : « ليس به بأس » وصححه أحمد .

## مع اليهود مرة أخرى

بقي أمام المسلمين فريقان من الخصوم الألداء :

أعراب البادية الذين يسيحون في عرض الصحراء كالإبل السائمة لا يعفلون شيئاً ، فإذا لاح مغم طاروا وراءه ، وقلما يلقفهم حديث الإيمان بالله واليوم الآخر وبنو إسرائيل الذين ظنوا النبوة حكراً عليهم ، فهم لا يفتأون يجهلون المسلمين ويكذبون محمداً ويحقدون رسالته ، وقد أغرهم القشور التي ورثوها من التوراة فجادلوا المسلمين جدالاً طويلاً ، وحرصوا أشد الحرص ألا يعترفوا بهم ثم ذهبوا إلى حد التأليب عليهم كما رأيت ، فكانت سيرتهم مزيجاً غريباً من الحقد والكبر والدس ، ومع ما ألب جلودهم من صياط كاوية في صراعهم مع المسلمين ، فإنهم لم يتحولوا عن خطتهم المريبة قيد أنملة .

وجمت عداوة الإسلام بين الأعراب البله ، وأهل الكتاب اليهود ، وعندما فشلت الأحزاب في اقتحام يثرب ، وجنت قريظة عقي غدرها ، لم يهدأ يهود خيبر ، أو يحاولوا إصلاح شئونهم مع المسلمين ، كلا إنهم شرعوا بصلون حبالهم بظفان والأعراب الضاربين حولهم ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى ، تأكيد من جديد لحمد وصحبه ، لكن المسلمين كانوا أيقاظاً لهذه المؤامرات ، فما إن عادوا من عمرة الحديبية آخر السنة السادسة حتى توجهوا في الحرم من السنة السابعة إلى خيبر لكسر شوكة بني إسرائيل بها .

ولم يفت المسلمين ، قبل مسيرهم ، أن يفصموا الجبهة المؤلفة ضدهم من يهود وغطفان فأوهموا غطفان أن المهاجم متجه إليهم ، وأن قوة المسلمين توشك أن يلتفت بهم ، قال ابن اسحاق : بلغني أن غطفان لما سمعت بمزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر جمعت له ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا صاروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً فظنوا أن القوم خالفوهم إليهم



فرجعوا على أعقابهم ، وأقاموا في أهلهم وأموالهم ، وخلوا بين رسول الله وبين خيبر . . .

وهكذا نجحت الخطة في عزل يهود خيبر عن حلفائهم المشركين . . .  
فلما أشرف رسول الله على القرية المحصنة ، ونهياً لمنازلة أهلها ، قال لأصحابه :  
قفوا . ثم تضرع إلى الله بهذا الدعاء :

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقلن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين . فإننا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها » (١) .  
ثم قال . أقدموا باسم الله ... (٢) .

ويظهر أن اليهود ظنوا — أول وهلة — أن زحف المسلمين صوب خطفان ، فلم يعيروا الأمر التفاتاً بل أصبحوا غادين إلى حقولهم بمساحيقهم ومكاناتهم حتى فوجئوا بالمسلمين يسرون نحوهم ، فارتدوا إلى حصونهم فزعين ، وهم يقولون :  
محمد والخميس !

(١) حديث حسن ؛ أخرجه ابن هشام ( ٢ / ٢٣٦ ) عن ابن إسحاق عن أبي معتب ابن عمرو . وفيه رجل لم يسم ؛ وسماه البيهقي في روايته « صالح بن كيسان » كما في « البداية » ( ٤ / ١٨٣ ) لكن الراوى عنه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع ضعيف . ولذلك صرح البيهقي في السنن ( ٥١ / ٢٥٢ ) بتضعيف هذا الطريق لكن يشهد له ما أخرجه هر والحاكم ( ١ / ٤٤٦ ؛ ٢ / ١٠١ ) وابن السني ( رقم ٥١٨ ) من حديث صهيب رضي الله تعالى عنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها فذكره . وقال الحاكم : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي . وفيه نظر لكن له شاهداً آخر من حديث أبي لبابة بن المنذر رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن كما قال الهيثمي في « المجمع » ( ١٠ / ١٣٤ ) .

(٢) ضعيف ؛ وهو تمام حديث أبي معتب المخرج آنفاً ، وقد عرفت علته ؛ ولم أجده لهذا المصدر منه شاهداً ؛ فبقى على ضعفه .

إن اليهود — على ما ألف المسلمون من حروبهم — لا يعتمدون على تسيير الجيوش في الفضاء الرحب ، تصيب ويصاب منها ... إنهم يكرهون اللقاء في تلك الميادين المكشوفة . وديدنهم الذي لا ينفكون عنه ، هو الكفاح من وراء الجدران.

أذلك بقية من حرصهم على الحياة وتوقيهم الموت ؟

ولما رآهم النبي عليه الصلاة والسلام ، يهرعون إلى حصونهم ، أراد أن يقذف في قلوبهم الرعب فصاح : الله أكبر ، هلكت خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (١) .

والقرى الفاجرة تجر على نفسها الهلاك إن عاجلا وإن آجلا ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا شاع الزنا والربا في قرية فقد أحتل بنفسها غضب الله » (٢) .

واليهود يشيع فيهم هذا الفساد المزدوج ، فهم إلى اليوم دهاقين الربا في العالم وهم قادة التهرج والمهر ونسوتهم لا يرددن يد لأمس ، ولا ينتفى هذا أن تفهم فئة تعرف الخلق والعفة ، ولكنهم قليل . « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » والكثرة — لا القلة — هي التي تهدد مصائر الشعوب .

• • •

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري (٣٧٦/٧ — ٣٧٧) عن أنس .  
(٢) حديث صحيح أخرجه الحاكم (٣٧/٢) من حديث ابن عباس وقال : « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي . ورواه أبو يعلى عن ابن مسعود وإسناده جيد .  
« كما في الترغيب » (٥١/٣) .



وشن المسلمون هجومهم على الحصون المشيدة ، فبدأت تقادى تحت وطأتهم  
حصنا بعد حصن ، ودافع اليهود عنها دفاع المصميت ، فإن خير أخصب أرضهم  
وأمنع بقاعهم .

ولما بدأ الحصار يمتد ، وبنو إسرائيل إذا سقطت لهم قلعة تمسكوا بأخرى .  
قال رسول الله : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله  
ورسوله ! فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها ؟

فلما أصبحوا غدوا إليه متطالعين إلى أخذها ، فنادى النبي صلى الله عليه وسلم  
على بن أبى طالب فأعطاها إياه ، فقال على : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا  
مثلنا ؟ قال أنفذ ، على رملك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ،  
وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير  
من أن يكون لك حمر النعم<sup>(١)</sup> .

وإنما ساق رسول الله هذا النصيح الرشيد حتى يقطع تطمع النفوس إلى المفاتم  
المعجزة ، فإن ثروة يهود — إذا هزموا — ضخمة ، ولكن ثواب مقاتلتهم  
— إذا هتدوا — أضخم .

ولو نزل القوم على أحكام الله ، وتركوا الخلال الدنيئة التي عاشوا بها وعاملوا  
الناس بسوءها لأراحوا واستراحوا ، غير أنهم أبوا إلا الحرب : فهاجمهم على  
وشدد النكير ، حتى سقط الحصن واحتله المسلمون .  
وكان الشعار يوم خير : يا منصور أمت أمت .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى ( ٣٨٤/٧ — ٣٨٥ ) ومسلم ( ١٢١/٧ — ١٢٢ )  
عن سهل بن سعد .

وخرج من حصون اليهود فارس يدعى مرحبا فنادى فى المسلمين من يبارز ؟  
وهو ينشد :

قد عامت خير أنى مرحب      شاكى السلاح بطل مجرب  
أطمئن أحيانا ، وحينما أضرب      إذا الأيوث أقبلت تحرب

ف قيل : فتك به على بن أبى طالب ، وقيل : بل قتله محمد بن مسلمة<sup>(١)</sup> وكان  
محمود بن مسلمة أخوه قد أقيمت عليه فى أثناء الحصار رضى فصرعته فثار محمد له  
بقتل مرحب ، وبرز بعد قتل مرحب أخوه ياسر ، فتصدى له الزبير ، وكانت  
صفية أم الزبير بين النسوة اللاتى خرجن مع الجيش معاونات فى قتال بنى إسرائيل  
فخست على ابنها أن يقتل ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم . بل ابنك يقتله  
إن شاء الله ، فصرع الزبير ياسرا<sup>(٢)</sup> . . . وتشبت اليهود بما بقى من حصونهم  
يتدودون عنها ذباد اليأس ، وشدّد المسلمون عليهم الحصار ، يريدون الانتهاء من  
هذا القتال مسرعين ، فقد أجهدهم الجوع وضاق بهم المقام ، وأصيب كثير منهم  
بجمل شتى لرداءة الجو ووخامة المستنقعات ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم من  
أخبره أن اليهود لن يبالوا بهذا الحصار ، فإن لهم مشارب خفية ، يخرجون إليها  
اليل فيستقون ويعودون ، فأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بقطع مشاربهم<sup>(٣)</sup> ليكرههم  
على القتال أو التسليم ، فخرجوا واشتبكوا مع المسلمين فى صراع شديد امتد فيه

(١) قلت : والصحيح الأول لأنه ثابت فى « صحيح مسلم » ( ٩٥/٥ ) والمستدرک  
( ٣٩/١ ) من حديث سلمة بن الأكوع وقد قال الحاكم ( ٤٣٧٦/٣ ) : إن الأخبار  
كثيرة متواترة أن قاتل مرحب هو على .

(٢) ضعيف أخرجه ابن هشام ( ٢٣٩/٢ ) من طريق ابن اسحاق عن هشام بن  
عروة مضافا .

(٣) لا يصح ، رواه الواقدي مضافا كفى « البداية » ( ١٩٨/٤ ) ، ولو ائدى متروك



عدد من المسلمين بعد أن مهدوا الطريق لسقوط الحصن ، ويسمى حصن الزبير ، وهو نهاية سلسلة من القلاع تسمى الفطاة . استولى المسلمون عليها جميعاً بعدما دخلوا حصون ناعم ، والصعب ، والوطيح ، والسلام .

وبقيت هناك سلسلة أخرى نهياً للمسلمون لمهاجمتها ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على قلعة يقال لها : سموان ، فقاتل عليها أشد القتال ، وخرج منها رجل يسمى عزولا ، يبغى المبارزة ، فهجم عليه « الحباب بن المنذر » فضربه بالسيف ضربة أطاحت يده اليمنى بنصف ذراعه ، ثم وقع السيف من يده وفر اليهودي راجعاً فأدركه الحباب فقطع عرقوبه وأبرز آخر ، فقام إليه رجل من المسلمين فقتله اليهودي ، فلاحق به « أبو دجانة » فقتله وثار لصاحبه ! ثم كبر المسلمون وتحاملوا على الحصن وأمامهم « أبو دجانة » فاقتحموه بعد لآي ، ووجدوا به أثاثاً وطعاماً وغنماً ومتاعاً .

وأقلت بعض المحصورين فانضموا إلى إخوانهم بحصن البزاة وزحف المسلمون إليهم . وتراشق الفريقان بالنبل فأصيب بنان النبي صلى الله عليه وسلم في المعركة ، ولكن المسلمين استبسلوا في الكر على العدو ، حتى افتتحوا هذا الحصن الآخر ، وأخذوا من فيه باليد . ثم هم المسلمون بنصب المنجنقيات لهدموا الحصن الباقية على من اعتصم فيها ، فأيقن اليهود بالهلكة ولم يروا محيصاً من الاستسلام ، فنزل ابن أبي الحقيق . وعرض الصلح على أن يجلوا من أرض خيبر . ولهم ما حملت ركبهم ، وللمسلمين سائر ما بقي . فقبل الصلح واشترط عليهم رسول الله ألا يكتفوا ولا يغيبوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد<sup>(١)</sup> . .

فلما ثبت على بعضهم العذر بما تمت عليه شرط الصلح قتل .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البيهقي في سننه ( ١٢٧ / ٩ ) عن ابن عمر بسند صحيح وكذلك رواه أبو داود ( ٢ / ٣٨ ) .

وخضعت سائر يهود، ثم جاءت تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم بالنصف في زراعة الأرض . فقبل ، ولم يجعل ذلك على الأبد ، مخافة عبثهم ، بل قال لهم : إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم<sup>(١)</sup> .

. . .

وحدث في إبان المعركة أن عبداً حبشياً أسود كان يرى لسيدته اليهودى غنمه فلما رأى أهل خيبر يحملون السلاح ويتأهبون للحرب سألهم : ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبي . فوقع في نفس الرجل ذكر النبوة وصاحبها ، فأقبل بغمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وماله . ماذا تقول ؟ وإلام تدعو الناس ؟ فأجابه ، أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسوله . وأن لا تعبد غيره . قال للعبد ، فما لى إن شهدت وآمنت ؟ قال لك الجنة إن مت على ذلك ؟ فأسلم ثم قال : يا نبي الله إن هذه الغنم عندى أمانة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجها من عندك وارمها بالخصباء فإن الله سيؤدى عنك أمانتك ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى صاحبها ، فعلم اليهودى أن غلامه أسلم ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تهيأ الناس للقتال فوعظهم وحضهم على الجهاد . والتحم الفريقان ، فقتل العبد الأسود بين من قتل من المسلمين وحملت جثته إلى المعسكر . فروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع في القسطنطينية الذى ضم جثمان الشهيد ، ثم أقبل على أصحابه يقول : لقد أكرم الله هذا العبد ومساقه إلى خير ، رأيت عند رأسه ثلاثين من الحور العين ولم يصل لله سجدة قط<sup>(٢)</sup> .

○ ○ ○

(١) حديث صحيح . أخرجه للبغارى ( ١٧ / ٥ ) ومسلم ( ٢٧ / ٥ ) وأبو داود ( ٣٩ / ٢ ) وغيرهم من حديث ابن عمر رضيهما .  
(٢) ضعيف . ذكره ابن كثير ( ١٩٠ / ٤ — ١٩١ ) عن عروة مرسلاً وروى —



وفي هذه الغزاة أذن النبي صلى الله عليه وسلم لمن تطوع من النساء أن يخرجن معه .

قال ابن اسحاق : شهد خبير مع رسول الله نساء من نساء المسلمين ، فرضخ لهن رسول الله من الفداء — أعطاهن يسيراً — ولم يضرب لهن بسهم (١) .

وروى الإمام أحمد عن حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه قالت : خرجنا مع رسول الله في غزاة خيبر ، وأنا سادسة ست نسوة . قالت فبلغ النبي أن معه نساء فأرسل إلينا فدعانا . قالت : فرأينا في وجهه الغضب قال : ما أخرجكن وبأمر من خرجتن ؟ قلنا : نناول السهام ونسقى السويق ، ومعنا دواء للجرحى ، ونغزل الشعر فنعين به في سبيل الله . قال فانصرفن .

قالت : فلما فتح الله عليه خيبر أخرج لنا سهاماً كسهم الرجال . فقلت لها يا جدة ما الذي أخرج لكن ؟ قالت : تمرا (٢) .

ويرى ابن كثير أن الرسول أعطاهن من ثمرات الأرض كالرجال فأما أنه أسهمهن في الأرض نفسها كالرجال فلا . وهذا حق .

وفي حديث أبي داود . أن نسوة من بني غفار قلن : يا رسول الله ، قد أردنا أن

---

== البيهقي عن شريحيل بن سعيد عن جابر نحو هذه القصة . وشريحيل كان اختلط . ومن طريقه أخرجه الحاكم ( ١٣٦ / ٢ ) وصححه وتعقبه الذهبي بقوله : « بل كان شريحيل منهما » .

(١) ذكره ابن إسحاق بدون إسناد كما ذكره ابن هشام ( ٢٤٢ / ٢ ) عنه ؛ غير أنه استدل على ذلك بحديث النسوة من بني غفار الآتي ، وهو ضعيف كما سنبينه .

(٢) ضعيف وهو في للسند ( ٣٧١ / ٦ ) وكذا أبو داود ( ١ - ٤٢٩ ) ؛ وعلمته حشرج هذا فإنه لا يعرف كما قال الذهبي وأشار لذلك الحافظ في التقريب . وسكت على الحديث في « الفتح » ( ٥٩ / ٦ - ٦٠ )

نخرج معك في وجهك هذا — وهو يسير إلى خيبر — نداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وكانت صفية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود بين من أسرن من نساء خيبر وقعت في يد أحد الصحابة . فاستردها منه الرسول . ثم أعتقها وبني بها ، وجعل مهرها عتقها<sup>(٢)</sup> .

فلما اطمأن به المقام أهدت له امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية مسمومة وأكثرت من السم في ذراع الشاة لما عرفت أن الرسول يؤثرها .

وقد تنال النبي مضغة منها ، فلا کہا ثم لفظها ، وهو يقول : إن هذا العظيم ليخبرني أنه مسموم ، وكان معه « بشر بن البراء » فأساغ اللحم وازدردده .

وجيء بالمرأة الجانية فاعترفت بما صنعت ، وقالت للنبي : بلغت من قومي ما لم يخف عليك . فقلت : إن كان ملاكاً استرحمت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز عنها النبي ، ثم مات « بشر » بعدما سرى السم في جسمه<sup>(٣)</sup> ، فقليل : اقتص له منها ، وقيل : بل أسلمت وعفا عنها .

(١) ضعيف أخرجه أبو داود (٥١/١) وأحمد (٣٨٠/٦) وابن هشام (٢٤٢/٢) كلهم من طريق ابن إسحاق بإسناده عن امرأة من بني غفار ، وفيه أمية بنت أبي الصلت لا يعرف حالها كما قال الحافظ .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه البخاري ومسلم عن أنس .

(٣) حديث صحيح ، رواه هكذا ابن هشام (٢٤١ — ٢٤/٢) عن ابن إسحاق بدون إسناد . وقد رواه البخاري (١٧٦/٥) ومسلم (١٤/٧ — ١٥) من حديث أنس أن يهودية أتت النبي بشاة مسمومة فأكل منها ، فجيء بها فقليل : ألا تقتلها ؟ قال : لا . والبخاري (٢٨/٧ ، ٢٠٠/١٩ — ٢٠١) وغيره من حديث أمي هريرة نحوه وفيه إقرار اليهود بوضع السم في الشاة وقولهم : أردنا إن كنت كاذباً تستريح منك —



ومكث يهود خيبر يزرعون الأرض على النصف من نتاجهم — ، إلا أن بغضاءهم للمسلمين حملتهم على اقتراف بعض الجرائم . فقد اغتيل رجل من الأنصار وفدعت يدا عبد الله بن عمر أيام خلافة أبيه ، فخطب عمر الناس قائلاً : إن رسول الله كان عامل يهود خيبر على أن يخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله ابن عمر ، فقدموا يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصارى قبله لانشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم . . فمن كان له مال بخيبر فليملح به ، فإني مخرج يهود . فاخرجهم (١) .

ولا ريب أن الهزيمة التي أصابت بني إسرائيل في خيبر قضت على كياناتهم العسكرية في الجزيرة قضاء تاماً . فجاء يهود « فذك » يطلبون الأمان .

وقاتل يهود وادى القرى بعد مадعوا إلى الإسلام ، وأخبرهم رسول الله أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماهم . وحسابهم على الله (٢) . فلما أبوا نشبت بين الفريقين معركة محدودة ، انتهت مع الصباح بسقوط الوادى اليهودى عنوة .

وامتسلم يهود نجا .

ومد الإسلام رواقه على هذه الأرض بعد أن ظلت حيناً من الدهر في أيدي اليهود ، يعيشون عليها كما يشتهون .

— وإن كنت نبياً لم يضرك — . ومثله عند أحمد ( رقم ٢٧٨٥ ) من حديث ابن عباس وسنده حسن كما قال ابن كثير ( ١٠٩/٤ ) وعزاه الحافظ ( ١٠١/١٠ ) لابن سعد بسند صحيح . ومثله عند أبي داود ( ١٤٦/١ ) والدارمي ( ٣٣/١ ) عن جابر وهو منقطع لكن يقويه مرسل أبي سلمة عندهما . وفي حديثهما إخبار الذراع أبيه بآب الشاه مسمومة وفي الثاني منهما موت بشر مسموماً . وقد وصله الحاكم وصححه عن أبي هريرة . وسنده حسن ؛ وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قتلها .

(١) حديث صحيح . أخرجه الشيخان عن ابن عمر . وقد تقدم قريباً :

(٢) رواه « الواقدي » بدون سند كما في « البداية » ( ٢١٨ / ٤ ) .

والعظة التي نستخلصها من هذه المعارك وما أعقبها من جلاء ، أن الأرض لله يورثها من يشاء . وهو لا ينتزعها من قوم ، ويعطيها آخرين محابة . كلا . ولكن الأمة التي تفسد على النعمة تسلبها . ثم تساق النعمة إلى من يقدرها ويشكر الله عليها ! والأمة التي تتكبر مع الحرية وتتبطر ، تفقد امتلاكها لنفسها ، وحقها ، وأمرها ، لتقع في إसार الآخرين فيصرفون شئونها كما يشتهون .

وقد طبق هذا القانون على بني إسرائيل بقسوة عندما أهدروا أحكام التوراة وتبعوا الهوى ! وطبق بعد ذلك على المسلمين يوم سدرُوا في الغواية وجحدوا مآلديهم من هداية « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذهم أليم شديد » .

إن الحياة كركب وفر ، وإقبال وإدبار . والنظرة العجلى إلى تاريخ البشر توحى بأن مكان الصدارة لم يثبت لأمة من الأمم إلا ريثما تنهيا أمة أخرى لإنتزاعه .

والدول التي سادت ، أشبه بلجج البحر التي ترتفع حينئذ ثم لا تلبث أن تضمحل ووبداً رويداً حتى تنداح على الشاطئ ضميعة متظامنة ، ولا مانع من أن تعود صرة أخرى مع المد ، لتبلغ الأوج ، ثم تنفك عنها أسباب القوة فتبهط مستكيننة من جديد . وقد ملك بنو إسرائيل وعزوا بقدر حكيم ، ثم سلبوا الملك والعزة بقدر كذلك لترنهما دولة الإسلام الفتي الناهض ، وتم هذا التحول لخير البشر قاطبة .

لماذا تظاهر اليهودية الوثنية ضد الإسلام ؟ ولمصلحة من يقع هذا ؟ إن بني إسرائيل ينظرون إلى الدنيا والدين من خلال منافعهم الخاصة ، وذلك ما حدا بهم إلى مقاومة الإسلام بعنف . أما الفدر الأعلى ، فيريد أن يجعل من الأمة الجديدة رسالة تغيير شامل لما شاع في العالم أجمع من مفاسد ، ولما عرا حضارته من تصفن وركرد . فإذا وقفت حفنة من الأعراب أو حفنة من اليهود لمعترض هذا



التحول الهائل بدوافع من الحقد الرخيص أو المظالم الدنيا ، فهي التي جنت على نفسها إذا غرقت في الطوفان .

لو ظل اليهود ألف سنة أخرى في جزيرة العرب ما زادوها إلا انقساماً ، وما اكتسبت أقطار الأرض من بقائهم شيئاً ، ربما نالت مزيداً من الحبوب والفواكه التي يتقنون زراعتها ، بيد أنها لن تظفر بهذه الزيادة إلا ومعها كفل من الفساد الذي يصدره بنو إسرائيل إلى العالم مع معاملات الربا وأخلاق المهر والتحلل . أما الإسلام فقد خرج من الجزيرة يوم خرج ، رسالة إيمان وإصلاح .

ومما يحمله في طواياه من حق ونفع استحق الانتصار والانتشار .

فلما جرى على أمته من أسباب البلى والخلول ما جرى على اليهود الأولين تعرضت للطرد من أوطانها ، والتشرد هنا وهناك ، كما تعرض غيرهم ، حذوك النمل بالنمل .

## ✓ عودة مهاجري الحبشة

ووافق فتح « خيبر » قدوم « جعفر بن أبي طالب » ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة . وقد سر رسول الله أيما سرور ، لحجى هؤلاء الصحابة الكرام .

إنهم خرجوا من مكة فارين بدينتهم من الفُتَنان ، واليوم يعودون وأمر الإسلام يعلو ، وسلطانهم يمتد شمالاً إلى الجزيرة وجنوبها ، فلا خوف من غشم أو ظلم .

وعندما حلّوا بالمدينة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مبتهجاً « والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر (١) ؟ » وجعفر وإخوانه مكثوا في الحبشة

---

(١) حديث حسن ، أخرجه الحاكم ( ٢١١ / ٤ ) والطبراني في الكبير عن الشعبي مرسلًا وسنده صحيح وقد وصله الحاكم من طريق أخرى عن الشعبي عن جابر .

بضعة عشر عاماً ، نزل خلالها قرآن كثير ، ودارت معارك شتى مع الكفار ، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة ، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة - وقد فاتهم هذا كله - أنزل قدراً من غيرهم . فعن أبي موسى الأشعري .. كان أناس يقول لنا سبقناكم بالهجرة ، ودخات أسماء بنت عميس - على حفصة زوج النبي زائرة - وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها . فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء ابنة عميس . قال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء نعم ! قال عمر : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم ! فغضبت وقالت : كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم . وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة ! وذلك في الله وفي رسول الله وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيف ولا أزيد عليه . فلما جاءت النبي قالت : يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا ، قال : فما قلت له ! قالت : كذا وكذا .

قال : ليس بأحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة . ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان <sup>(١)</sup> .. ولم يمض كبير وقت على أولئك العائدين حتى اكتسبوا ما فاتهم من علم القرآن والسنة . وانتظموا في مواكب الجهاد مع من سبقوهم بإحسان .

---

— وفي سنده ضعف ، ولذلك قال الذهبي في « التلخيص » . « الصواب مرسل » وله طريق آخر رواه البيهقي كما في « البداية » ( ٣٠٦/٤ ) من طريق أبي الزبير عن جابر وفي سنده من لا يعرف . وله شاهد من حديث أبي جعفر . أخرجه الطبراني في « المعجم الصغير » ( ص ٨ ) وسنده ضعيف ، لكن أخرجه في الكبير من طريق آخر كما يستفاد من « المجموع » ( ٢٧٢/٩ ) . وبالجملة فالحديث قوى بهذه الطرق ، وقد صححه الحاكم .

(١) حديث صحيح ، أخرجه الشيخان في صحيحيهما .



وقد أشركهم النبي في مفاتيح خير<sup>(١)</sup> مع أهل الحديبية<sup>(٢)</sup> ولم يقسم لأحد غيرهم معهم . فإن الله جعل خير مكافأة سخية لمن ساروا إلى مكة ، وبايعوا على الموت تحت شجرة الرضوان .

## تأديب الأعراب

أما عبدة الأصنام من البدو فإن المسلمين شرعوا يتعقبونهم مذخلصوا من مشكلات اليهود . وأقد أشرفنا إلى أن شمل هؤلاء الأعراب انتكث بعد المواقعة التي تمت في الحديبية بين قريش والمسلمين . كانوا أمس يحاصرون دار الإسلام أحزاباً متحدة ، لكن الحال تبدلت اليوم . تمزق بنو إسرائيل وانسحب أهل مكة ، وأمكن للمسلمين أن ينفردوا بأولئك القوم قبيلة إثر قبيلة . وإن يعجز المسلمون عن حسم شرورهم ووقف قوضاهم . إن البدو جنس جاف غليظ ، وإن ننسى أنهم حتى القرن الأخير كانوا يستمرئون الفتك بقوافل الحجاج ، وقد يذبحون الحاج للدرهم معدودة .

وعلمهم بشئون الدنيا وحقوق الآخرة يعني المدرسين ، وقد بذل الإسلام جهوداً جبارة في رفع مستواهم المادي والأدبي . إلا أن اغتيال الدعاة من القراء المرين جعل الإسلام يظاهر رجاله هؤلاء بالقوة التي تمنع الشعب وتقطع دابر الفساد .

---

(١) حديث حسن ، أخرجه البخاري (٣٠٢/٨) من حديث أبي موسى .  
(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود في سننه (٤٠/٢) والحاكم (١٣١/٢) والبيهقي (٣٣٥/٦) وأحمد (٤٢٠/٣) من حديث مجمع بن جارية أن خير قسمت على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد . . . وقال الحاكم « صحيح الإسناد » ووافقه الذهبي وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الطيالسي (١٠٥/٢) والبيهقي (٣٣٤/٦) وسنده حسن في الشواهد ؛ وقد قال ابن إسحاق في « سيرة ابن هشام » (٣٤٦/٢) « وقسمت خير على أهل الحديبية من شهد خير ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها ، إلا جابر بن عبد الله . . »

وكان بث السرايا في فياف «نجد» من أهم ما شغل المسلمين بعد ما رجعوا من خيبر في صفر من السنة السابعة حتى شدوا الرحال إلى مكة لعمرة القضاء ، كما نص على مواعدها في عهد الحديبية .

ولا يعني كثيراً أن نتبع هذه السرايا في مسيرها فهي — وإن رطدت هيبة المسلمين العسكرية — أقرب إلى فرق الشرطة منها إلى الجيوش المعبأة .

والهدف الأكبر من بعثها توطيد الأمن ، ومنع الفارات على المدينة ، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة دون غدر أو خيانة .

إن أحوال هذه القبائل قريبة الشبه بأحوال قرانا في عهد الاقطاع القريب ، كان العمدة يملك ألف صوت ناخب في قريته . فالحديت عن الحرية السياسية في هذا الجو ، حديث خرافة . كذلك كان رؤساء القبائل الأولون ، تلتف حولهم عشائرم وبطونهم ليتناصروا في الحرب والسلام على ما يهوى السادة .

فإذا كثر في أولئك الحاكمين من يوصف بالأحق المطاع ، وإذا اشتغل أولئك الحق بالسكر والفر على نحو ما قال دريد بن الصمة :

يغار علينا وائر ين فيشتفي بنا إن أربنا ، أو نغير على وتر

قسمنا بذلك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحن على شطر !

أفترى أن الدعاة يسرون عزلا في هذه البيئة التي تخطف الأموال والعقائد ؟ إن العمل على توطيد الأمن شيء ، غير إكراه الناس على الإيمان ، هدف الأول إقصاء الضغط والفتنة على المجتمع حتى إذا آمن فرد في قبيل ، لم يجد من يصب عليه سوط عذاب . أما الآخر فيريد بالسوط أن يحمل الناس على عقيدة معينة . والسرايا التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يسيرها إلى كل فج كانت تحمل معها كلام الله لتقرأ منه .

« قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » فالذين آمنوا وعملوا



الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ) فالسعي لمعاجزة الآيات أمر خطير . ولو كانت معاجزة باللسان ، ما اكثر لها أحد ، فهيهات أن تغلب الخرافة الحق في معرض جدل حر ، إنها معاجزة بالسطو والقهر .

( وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعُهَا تَعْرِيفٌ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا .. ) .

وقد مضى المسلمون في نشر الدعوة داخل جزيرة العرب على ذلك الأساس العادل ومنذ أمضوا عهد الحديبية ، وهم دائبون على البلاغ والتبصرة ، ولذلك نجحوا نجاحاً ملحوظاً في هذا المضمار ، فدخلت قبائل كثيرة في عهدهم على حين انصرفت جموع الاعراب عن قريش فلم يدخل في عهدهم أحد ، وسير الأمور في هذا الاتجاه كان التمهيد الفعال لقلبة الإسلام ، ثم لفتح مكة نفسها فيما بعد .

والدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة لم تشغل النبي عن حق آخر من حقوق الله عليه ، وهو إعلام الناس كافة ، بما آتاه الله من بينات .

فليرفع السراج إلى أعلى لتصل أشعته الهادية إلى مواطن أبعد ، مواطن غرقت في الظلام دهرأ .

( وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ . أَلَا إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ؟ قُلْ : لَا أَشْهَدُ أَقُلْ : إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ . وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ) .

فليتجه إلى المجوس ، وإلى البصري ، يدعوهم إلى توحيد الله والإسلام له والخضوع لأحكامه ...

## مكاتبة الملوك والأمراء

كان الفرس يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة ، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها . وقد انتشرت ديانة المحتلين في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم ومن العتب إرجاع هذا الانتشار للحرية العقلية المحضة ، وعلى أية حال فإن المجوسية سادت الأقاليم التابعة لفرس ، والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للرومان ، وكان أمراء هذه الأقاليم يعيّنون من قبل الدول الحاكمة وينصاعون لأوامرها .

وقد رأى النبي أن يرسل بكتبه إلى رؤساء الدول الكبرى وإلى أمراء الولايات المحتلة على سواء يدعوهم إلى الله ويعرض عليهم الإسلام .  
روى مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي — وهو غير الذي صلى عليه — وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل .

. . .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم « دحية بن خليفة » بكتابه إلى قيصر الرومان ، وليس الوصول إلى قيصر بدعوة غريبة على مسامحة أمراً سهلاً ، فكيف وهى — فى نظر الرومان — من أعرابى ساذج ينتمى إلى قوم تحت سلطانهم .

وتقديراً لهذه الأوضاع ، اختار النبي لتلك المهمة من يقوم بها إيماناً واحتساباً غير مبال بعواقبها عليه ولا نتائجها عند من يدعوهم .  
فمن ابن حبان أن رسول الله قال : من ينطلق بصحيفتى هذه إلى قيصر وله الجنة ؟ فقال رجل : وإن لم يقبل ؟ قال : وإن لم يقبل ! فأخذ دحية الكتاب ومافر به إلى أرض الروم فوافق هرقل وهو مقبل على بيت المقدس يزوره عقب انحصاره على الفرس ، قربى إلى الله .



وتناول قيصر الكتاب فقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين - الفلاحين - و ( يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون (١) ) .

وقد هاجت حاشية هرقل لإكتراث القيصر بهذه الرسالة ، وازدادوا واهياً جاً عند ما عرض عليهم - لا تدري جاداً أم هازلاً - أن يعتنقوا هذا الدين ! وهرقل - في نظرنا - رجل سياسى . وأمر الدين لا يعنيه إلا بقدر ما يدعم ملكه ويدعم قوته ، وقد تولى شئون الدولة في وقت كانت الخلافات الكنسية حول طبيعة المسيح تغلغل غليان المرجل ، وتثير في الأمة انقسامات مخيفة وقد حاول التقريب بين وجهات النظر المتباينة ، وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد فعجز . وتمرد عليه اليعاقبة وغيرهم في مصر والشام .

فالكلام في الإلهيات ليس غريباً عليه ، والتقريب بين وجهات النظر - لمصلحة الدولة - ديدنه ، وامله في أعماق قلبه يحس سخف أولئك المختلفين جميعاً . وربما تألفت في نفسه ، لوقت محدود ، فكرة الخروج من عقيدة التثليث إلى بساطة التوحيد ، ثم انطفأت لما مستجره على الدولة من خلاف أشق في وهمه ، وأمر المملكة - عنده - أهم من أى شأن آخر .

وشاءت لباقة قيصر السيامى أن يستدعى دحية ، وأن يحاول إيهامه بأنه مسلم ! ثم أعطاه قدراً من الدنانير .. وصرفه !

(١) حديث صحيح من قوله « وتناول قيصر » إلى هنا أخرجه البخارى (٢١/١٣٣) . ومسلم (١٦٥/٥ - ١٦٦) عن ابن عباس .

وعاد دحيه إلى رسول الله بالنبا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كذب عدو الله ، ليس بمسلم ، وأمر بالدنانير ، فقسمت على المحتاجين <sup>(١)</sup> .

○ ○ ○

أما الولايات العربية التابعة الرومان فإن النبي أرسل إلى أمرائها يعرض عليهم الإسلام فكانت إجابتهم أحسن وأقضى من رد القيصر نفسه !

قرأ أمير دمشق خطاب الرسول له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى ملكك » <sup>(٢)</sup> .

فلما قرأه رمى به الأرض . وقال : من ينزع ملكي مني ؟ وأخذ يعد العدة قتال المسلمين .

والحارث ليس بالملك الأصيل حتى يشمخ ملكه على هذا النحو إنه مولى من قبل الرومان الغالبين ليخدم أهواءهم ، ويمشي في وكابهم فهو كنفير من ملوك الشرق في عصرنا هذا . صنعهم المستعمرون ليكونوا حبالا تنجر بها الأمم المستضعفة رواء غاصبها .

والهدية التي ردها ، هي الأمل الوحيد لجعله حاكماً شريعاً ، لو أنه قبلها وأشاعها . وبعث النبي إلى أمير بصرى — من ولايات الروم — مثل ما بعث به إلى أمير دمشق ، وحمل الكتاب الحارث بن عمير الأزدي فاعترضه في الطريق شرحبيل بن عمرو الغساني وماله : أنت من رسل محمد ؟ قال : نعم فأمر به شرحبيل فقتل

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال ؛ (ص ٢٥٥) عن بكر بن عبد الله المزني وإسناده صحيح . لكنه مرسل ؛ بيد أن الزرقاني نقل في « نرح المواهب » (٣/٢٤٠) عن « الفتح » أنه في مسند أحمد أيضاً . فليمنظر فإنه لم يذكر صحابه .  
(٢) ذكره الواقدي بدون إسناد كما في « البداية » (٤/١٦٨) .



وترامت هذه الأخبار إلى المسلمين في المدينة فجرححت كرامتهم ، وأبانت لهم  
أن علائقهم بالرومان لن تندفع في طريق العدل والاحترام إلا بعد جهود شاقة .

• • •

ورد « المقوقس » على النبي ردأ حسناً فلم يؤمن به ولم يتهجم عليه ولما قلم  
كتابه من حاطب بن أبى بلتعة قال له : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من  
خالقه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ما منع عيسى - وقد أخذه قوما ليقتلوه -  
أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت . أنت حكيم جاء من  
عند حكيم .

وكتب إلى رسول الله يقول : « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبطا سلام  
عليكم ، أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه ، وقد  
علمت أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسلك  
وبعثت لك بحاريتين لهما مكان عظيم في القبط ، وبثياب ، وأهديت لك بغلة تركبها »  
وماذا يفعل محمد بهذا ؟ لقد قبل الهدية تقديراً للعاطفة التي أملت بها ، وإن كان  
يرى أن الإيمان بالله وحده ، أفضل ما يهدي إليه ، وخير ما ينتظره ويهش له .  
وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب المقوقس . حتى يعرف القارىء أن هذه  
البعوث بلغت حداً من الفقه والخصافة يستحق الإعجاب البالغ .

قال حاطب : إن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قریش ، وأعداهم  
له اليهود . وأقربهم . إنه للنصارى ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى  
بمحمد . وما دعاؤنا إليك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل .

وكل نبى أدرك قوماً فهم أمته . فحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدرك هذا  
النبي ، ولستنا نملك عن دين المسيح ولكفنا نأمرك به .

وكان أثر هذه الدعوه ، الحارة الخطاب الذى سقناه آفا .

تلك مثل لرسائله إلى رجالات النصرانية ومواقفهم منها . وقد ساق النبي كذلك مبعوثيه إلى رؤساء المجوسية يدعونهم إلى الله . ويحدثونهم عن الدين الذي لو تبعوه نقلهم من الغي إلى الرشاد .

وقد تفاوتت ردودهم ، بين العنف واللاطف ، والإيمان والكفر . كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى « كسرى أبرويزه » ملك فارس يقول : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله . وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أدعوك بدعاية الله ، فاني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فإن أبيت فعاذك إثم المجوس<sup>(١)</sup> .

ومزق كسرى الكتاب وهو محقق .

ولعله حسب الجرأة على مكانته السامية بعض ما رماه به القدر من مصائب فقد هزمه الروم هزيمة منكرة ، وها قد جاء العرب يعلمونه ما لم يكن يعلم . وأصدر كسرى أمره إلى والي اليمن - وكانت لما نزل في حكمه - يأمره أن يرسل اثنين من رجاله الأشداء ، ليأتيا إليه بالرجل الذي نجراً على مكاتبته . و « أبرويزه » هذا رجل أحق ، ومنصبه يضاف إليه ملك الملوك ، والوثنية السياسية إذا ظاهرتها وثنية دينية . أمست ظلمات بعضها فوق بعض ، وقد غلب على الرجل السفه في تصريفه شئون الدولة وحكمه على الأشخاص والأشياء ، حتى خفاق قومه أنفسهم به . بل ضاق به أقرب الناس إليه وهو ابنه « شيرويه » فوثب عليه فقتله .

(١) حديث حسن ، رواه ابن جرير في تاريخه ( ٢ / ٨٩٥ - ٢٩٦ ) عن يزيد ابن أبي حبيب مرسلًا ؛ وأبو عبيد في « الأُمَـرَـال » ( ص ٢٣ ) عن سعيد بن المسيب مرسلًا نحوه .



ويروى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه ما صنع كسرى أبرويزه بكتابه قال  
مزق الله ملكه<sup>(١)</sup> ..

والطريف أن والى اليمن لما صدر إليه أمر كسرى سارع إلى تنفيذه .

فأرسل اثنين من لدنه من المدينة ، يعرضان على النبي عليه الصلاة والسلام أن  
ينطلق معهما ليسأل عما فعل .. !!

ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرجلين فوجدهما من ذلك النوع الذي تربيته  
الملوك في القصور كما تربي النسوة في بلادنا الديكة الرومية ... مناظر فارهة ،  
وبواطن قافهة .

فلما رأى شوار بهما مقولة ، وخذردهما ملحوة ، أشاح عنهما وقال<sup>(٢)</sup> : ويحكما  
من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا ربنا !! يعنيان كسرى ..

إن تأليه الملوك ضلال قديم ، وبعد أن انتشر الإسلام ذهبت حقيقة التأليه ،  
ثم عادت الآن آثاره وخصائصه ، فالملك يلقب صاحب جلالة ، ولا يسأل عما يفعل  
ويبطل شرائع الله ليقيم شرائع الهوى ، ويمتد هو وبطانته ، لتتكش أمامهما أمته ..

(١) حديث صحيح رواه البخاري في صحيحه ( ١٠٤/٤ ) وأبو عبيد عن سعيد بن  
المسيب مرسلًا ومرفوعاً . وروى من وجوه أخر مرسلًا ، فيراجع لها من شاء « البداية  
والنهاية » ( ٢٦٨/٤ ) .

(٢) حديث حسن ؛ أخرجه ابن جرير ( ٢٦٦/٢ - ٢٦٧ ) عن يزيد بن أبي حبيب  
مرسلًا ، وابن سعد في « الطبقات » ( ج ١ ق ٢ ص ١٤٧ ) عن عبيد الله بن عبد الله  
مرسلًا أيضًا وسنده صحيح ، ووصله ابن بشران في الأمالي من حديث أبي هريرة بسند واه .  
وفيه من الطرق الثلاث زيادة كان يحسن لإيرادها وهي « لكني أمرني ربي عز وجل أن  
أعني لحيتي ؛ وأن أحنى شاربي »

ولما سمع النبي عليه الصلاة والسلام كلام الرجلين أمرهما أن يعودا من حيث أتيا إلى والي اليمن ، وقال : أخبروه أن ربي قد قتل ربه الليلة . وكان رسول الله قد علم قبلهما بمصرع كسرى . .

وقد وقع الإسلام في قلب والي اليمن ورجله بعد هذه القصة . وانتشر انتشاراً عظيماً في الجنوب بين الطائفتين جميعاً من نصارى ومجوس .

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمير البحرين كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام ونبذ المجوسية ، حملاً إليه العلاء بن الحضرمي<sup>(١)</sup> وكان « المنذر بن معاوية » أمير البحرين ، رشيداً موقفاً ، فرحب بالدعوة وانشرح صدره لقبولها . وقد أبلغ العلاء في ترغيبه وإبراز محاسن الإسلام له .

فما قاله : « .. يا منذر إلك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة . إن هذه المجوسية شر دين .. ليس فيها تكريم العرب ، ولا علم الكتاب ، ينكحون ما يستحي من نكاحه ، ويأكلون ما يتنزه عن أكله . ويعبدون في الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة .. واست بعديم عقل ولا رأي ، فانظر : هل ينهي لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه ؟ ولمن لا يخون ألا تأمنه ؟ ، ولمن لا يخلف ألا تثق به ؟ هذا هو النبي الأمي الذي — والله — لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ! أوليته زاد في عقوه أو نقص من عقابه . إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل ، وفكر أهل النظر .. » .

وقد أسلم « المنذر » وعرض على قومه الإسلام . فنهض منهم من أعجبه فدخل فيه ،

---

(١) رواه الواقدي في آخر كتاب « الردة » بسنده عن أبي حنيفة كما في « نصب الراية » للزيلعي ( ٤١٩/٤ - ٤٢٠ ) .



ومنهم من كرهه وبقى على مجوسيته ، أو على يهوديته . فلما استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفعل بإزائهم كتب له : « . . من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » <sup>(١)</sup> .

° ° °

إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعروف المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل . لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم ، ويوسعونه جحوداً وكنوداً !

« وإذا رأوك إن يتخذوك إلهزوا : أهذا الذي بعث الله رسولا ؟ »  
فما يكون شأن الروم والعجم ، وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة ! ألا يكونون أسرع إلى السخرية وأدنى إلى الكفران ؟

بيد أن أصحاب الرسالات لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق المنكور فإن ثقتهم العميقة في سيادة فكرهم وامتداد نطاقها ، تصغر العقبات المفروضة في الطريق . ونجملها — ولو كانت الشم الرواسي — هباء منشوراً .

ولو انحصر « كارل ماركس » في حدود مذهبه — وهو فكرة مطاردة تصل بذوبها إلى السجون — لأصابه الشال وقضى عليه وعلى أفكاره ، لكنه مضى في سبيله وهو على أمل بالغ أن تقوم بتوجيهها دول كبرى . فإن كان هذا شأن الماديين من أصحاب الأفكار الضالة فلا جرم أن المرسلين للمؤيدين بالوحي يكاتبون الملوك والأمراء وهم موقنون بأن مآلهم من حق سيعلو مآلهم ، وذلك ما كان يحول في نفس الرسول الكريم وهو يمالج حداية الأعراب الشاردين في الصحراء طوراً باللين وطوراً بالشدة . ثم هو — في الوقت نفسه — ينصح لقادة الشعوب الأخرى أن يفكروا في هذا الدين الجديد وأن يتنقوه وافرین .

(١) ضيف أخرجه الواقدي بإسناده عن عكرمة قال : وجدت في كتب ابن عباس . . فذكره .

إن الخرافة التي أفسدت عقل بدوى 'تترب إهابه وثيابه رياح' « تجد » هي  
بعضها الخرافة التي تفسد فكر كسرى ، أهل الفرس العظيم .

ما الفارق بين الحمى تصيب ملكاً أو تصيب صعلوكاً ؟ إن الطبيب يصف لها  
— على الحالين — دواء واحداً ، ويتخذ ضد عدواها حصانات واحدة !

وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفي الكبار والصغار من أمراض نفوسهم  
وأن يناولهم جميعاً الدواء الذي يصحون به .

« وَنَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ  
إِلَّا خَسَاراً » .

فلا غرو إذا جمع في مصححه بين الأحمر والأسود ، والسادة والعبيد . أجل ،  
قد يكون أولئك الملوك 'محببين وراء أسوار مشيدة ، وحولهم من الأتباع والجند  
والأبهة والرياش ما يبهر العين ، لكن أى عين تنبهر لهذه المظاهر ؟ إن الطبيب المعالج  
لا يعنيه من مريضه إلا جسده الشاحب العليل والأنبياء لا يرون في القوم إلا أنهم  
جهال يجب أن يتعلموا . سفهاء يجب أن يسترشدوا ، وأن ما حولهم من الدنيا يجعل  
تبعثرهم أخطر ، وجزاءهم على الهدى والضلال أضخم .

على أن هذه القوى المسخرة في حماية الباطل لن يطول أمدها ، إلا كما يطول  
الليل على المؤرق ، ثم تطلع الشمس ، ويمحو الله بالآية المبصرة مدول الظلام .  
ولذلك قال النبي لرسول وإلى اليمن حين جاءوه : « أخبراه أن ديني وسلطاني  
سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهى إلى الخلف والحافر وقولا له : إن أسلمت أعطيتك  
ما تحت يديك وملككتك على قومك <sup>(١)</sup> » .

إنه — وهو في المدينة — يولى ويعزل ، عن حق لا عن غرور ، ليس موصولاً  
بمالك الملك ، مبعوثاً من رب السموات والأرض ؟

(١) ضعيف ، أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢٩٧/٢) عن يزيد بن أبي خبيب مرسلًا



ومن الطبيعي أن يعرف مشركوا العرب أنباء هذه البعوث النبوية ، وأن يرقبوا نتائجها عن كثب ، وقد استبشروا أول الأمر حين بلغهم صنع كسرى بن هرمز وقال بعضهم لبعض : كفيتم الرجل ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك ! وشاعت هذه القالة في مكة والطائف .

ثم مرت الأيام ، وطاح كسرى ، وبقي الإسلام يغزو الأفتدة والبلاد . . . وجاءت الأنباء أن بعوث محمد صلى الله عليه وسلم في بعض الأرجاء أمكنها نشر الإسلام وتثبيت هدايته ، حتى دخلت فيه اليمن وعمان والبحرين ، فارتد استبشار المشركين خذلانا ، وفكرت قبائل شتى في الإنقياد لحكمه ، خصوصاً ورقة الكفر تنكش يوماً بعد يوم أمام موجات الوحي الجارف ، وإن بقيت أخرى مصرة على جاهليتها .

« بَلْ مَتَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ . أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ؟ » . قُلْ : إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدَّعَاءَ إِذَا مَا بُنْذَرُونَ . »

### عمرة القضاء

أرشدت السنة السابعة أن تنقضى ، وحق للمسلمين أن يعودوا إلى مكة ليؤدوا مناسك العمرة التي حرموا من أدائها قبلاً ، لقد تأخروا عاماً وهم كارهون ، لكن مكاسبهم للدعوة في هذه الفترة أربت على الأمانى ، وهام أولاء يسوقون الهدى إلى الحرم مرة أخرى ، ويجرون وراءهم أذيال نصر عريض .

وأحب أهل مكة أن يعزوا أنفسهم وهم يجلون عنها - وفق الاتفاق المبرم - فدخلها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابة معتمرين ، فأشاعوا أن المسلمين يعانون عسرة وجهداً !

قال ابن عباس : صفوا له هند « دار الندوة » لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله المسجد ، اضطجع بردائه ، وأخرج عضده اليمنى ، ثم قال : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة<sup>(١)</sup> ، ثم استلم الركن وأخذ يهرول ، ويهرول أصحابه معه حتى واراها البيت عنهم .

والتطواف بهذه السرعة إظهار لبأس المسلمين ، وتكذيب لإشاعات الضعف ، وقد مضت السنة به بعد ذلك .

وروى<sup>(٢)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة كان عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته وهو ينشد :

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل خير في رسوله !  
بارب إني مؤمن بقبيله أعرف حق الله في قبوله !

(١) ضعيف . رواه ابن هشام ( ٢٥٨/٢ ) عن ابن إسحاق : حدثني من لا أنهم عن ابن عباس مرفوعاً . ورواه ابن جرير ( ٣٠٩/٢ ) عن ابن إسحاق فقال عن الحسن ابن عماره عن الحكم بن عيينة عن مقسم عن ابن عباس : فإن صحت هذه الرواية فهي نقل من الطريق الأولى لأن الحسن بن عماره منهم بالوضع ، وإن لم يصح ففي الطريق الأولى من لم يسم .

وبقي عنه ما في المسند ( رقم ٤٥٣٦ ) عن ابن عباس أن قريشاً قالت : إن محمداً وأصحابه وقد وهنتهم حتى يثرب ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لعامة الذي اعتمر فيه قال لأصحابه : أرملوا بالبيت ليرى المشركون قوتكم ؛ فلما رملوا قالت قريش ما وهنتهم ومسنده صحيح ، علقه البخاري ( ٤١٩/٨ ) .

(٢) عند ابن عثام ( ٢٥٥/٢ ) عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر مرسلًا لكن رواه عبد الرازق من وجهين عن أنس ، والأول صحيح على شرط الشيخين ، والآخر على شرط مسلم كما قال الحافظ في الفتح ( ٥٠٣/٧ — ٤٠٤ ) ومن الوجه الثاني أخرجه الترمذي وحسنه ، والنسائي ( ٣٠/٢ ) .



وأقام المسلمون ثلاثة أيام ، جاء في نهايتها نفر من قریش يذكرونه بالقضاء  
الآجل المضروب ويقولون له : اخرج عنا ، فقال لهم الرسول : لو تركتموني  
فأعرت بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما ، فحضرتوه ؟ (١)

قالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فخرج عنا .

وكان العباس عم رسول الله قد زوجه من ميمونة بنت الحارث ، خالة عبد الله بن  
عباس ، فعقد عليها في مكة ، وبني بها في سرف ، وفي هذه الممرة نزل قوله تعالى :  
« لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالْحَقِّ لِنُدْخُلَ الْمُسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ  
اللَّهُ آمِنِينَ مُحَاقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَمَلِئَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ،  
فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا » .

### غزوة مؤتة

عز على المسلمين مصرع رسولهم إلى أمير بصرى ، والطريقة الشائنة التي عمل  
بها ، فقد أوثق شر حبيب بن عمرو ورباطه ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل أحد غيره .  
من بعوث الرسول الكثيرة إلى الآفاق ، والرسول لا يقتلون ، لذلك كان وقع  
هذه الإهانة شديداً على المسلمين ، فعمزوا على الاقتصاص لرجلهم ، وعلى زلزلة  
الوالي الأثيم الذي صنع ما صنع لحساب الرومان .

وتجهز المسلمون في جيش يعتبر بالنسبة لهم كبيراً ، إذا بلغت عدته ثلاثة آلاف ،

(١) ضعيف ، رواه ابن هشام ( ٢٥٥/٢ ) عن ابن اسحاق بغير إسناد ، والقصة في  
البخارى ( ٤٣/٧ - ٤٠٧ ) من حديث البراء ، و ( ٤١٠/٧ ) عن ابن عمر ، وليس  
في روايتهما : « لو تركتموني . . . » وإنما فيها : فلما أن أقام بها ثلاثاً أمروه أن  
ينخرجوا فخرج .

وخرج أهل المدينة يودعون الجيش الزاحف وهم يقولون : صَبِّحْكُمْ اللَّهُ بِالسَّلَامَةِ  
ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين ، فقال عبد الله بن رواحة يردُّ على هذا الوداع :

لكني أسأل الرحمن مفعرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا !

أو طعنة بيدي حرَّان مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا !

حتى يقال - إذا مروا على جدتي - يا أرشد الله من غارٍ وقد رشدا !

ورتب النبي فادة الجيش ، فجعل الأمير زيد بن حارثة ، وقال : إن أصيب جعفر  
ابن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة <sup>(١)</sup> .

وانطلق الجيش إلى مشارف الشام .

إلا أن أخباره سبقته إلى الروم ، ولا بد أن تهويل كثيرة أحاطت بسمعة  
المسلمين وطاقاتهم الحربية مما جعل القوم يستعدون للقتال بجيش كثيف .

فلما وصل المسلمون إلى «معان» عرفوا أن في انتظارهم مائة ألف من الروم ،  
ومائة ألف أخرى من نصارى العرب .

والمهجوم على جيش تلك عدته مجازفة مخوفة ، فأقام المسلمون ليلتين بـ : «معان»  
يتدبرون أمرهم ، وقال نفر منهم : نكتب إلى رسول الله نخبه بعدد عدونا ، فإما  
أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ، ولم يرفُ ذلك لعبد الله بن  
رواحه فشجع الناس قائلا : يا قوم ، والله إن التي تـكرهون لـتـي خرجتم تطالبون .  
- الشهادة ! - وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، مانقاتلهم إلا بهذا الدين  
أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإما هي إحدى الحسينيين : إما ظهور وإما شهادة .

(١) حديث صحيح أخرجه ، البخاري ( ٤١٢/٧ ) وغيره عن ابن عمر . وأحمد  
( ٢٩٩/٥ ، ٣٠٠ — ٣٠١ ) عن أبي قتادة ، وسنده صحيح .



وكان لهذه الكلمة الملهبة أثرها ، فاخفت من صفوف المسلمين مشاعر التردد وقرروا القتال ، مهما كانت النتائج .

وإن راحة شاعر حاد العاطفة ، وقد أحس منذ خروجه أن الاستشهاد مقبل عليه ، فهو يتأله بقلبه ولسانه ، وقد تكون الحكمة العسكرية في تصرف غير ما أوحى به ، غير أن المسلمين ما إن سمعوا حديث الفداء والموت في سبيل الله حتى جاشت بأنفسهم محبة الآخرة ، ثم ذكروا أنهم نصرُوا في معارك سابقة باستعداد أقل من عدوهم ، فأفدموا مطمئنين .

عن أبي هريرة قال : شهدت مؤتة ، فلما دنا المشركون رأينا مالا قبل لأحده من العدة والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب ، فبرق بصرى ! فقال لي ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعا كثيرة؟ قلت : نعم - وأبو هريرة ممن أسلموا بعد الحديبية - فقال له ثابت . إنك لم تشهد بدرا معنا ، إنا لم ننصر بالكثرة . . .

\* \* \*

والتقى الجمعان ، وعبث أن تنتظر من ثلاثة آلاف يطل أن يضاوخوا في ميدان مكشوف فيألق تربو عليهم سبعين ضعفا .

قاتل زيد بن حارثة براية رسول الله حتى شاط في رماح القوم .  
وتلقف الراية جعفر بن أبي طالب فقبل على الروم يجالدهم بعنف .  
روى أبو داود حديث شاهد عيان يقول : لكانني أنظر إلى جعفر حين اقتحم على فرس له شقراء ثم هقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو ينشد :  
يا حبذا الجفنة واقترابها ! طيبة ، وباردا شرابها !  
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيادة أنسابها !  
على إن لاقيتها ضرابها !

قيل أن رجلا من الروم ضرب به ضربة قطعه نصفين ...

وقيل : أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بمضديه حتى

قتل ، وقد رزق جعفر هذه الشهادة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فلما قُتِلَ حمل عبد الله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فلما أحس دقة الموقف وشدة الضغط عراه بهض للتردد ، ثم أقنع نفسه بورود المصير الذي ذاق صاحبه على الساحة المصطربة وهو يقول :

يا نفس إن لا تقتلى تموتى ! هذا حمام الموت قد صليت !

وما تمنيت فقد أعطيت ! إن تقلى فعلمها هديت !

ثم أقدم وجاءه ابن عم له بقطعة لحم فناولها إياه وهو يقول : شُدَّ بها صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فما كاد يقطع منها مضغة حتى سمع الخطمة في ناحية من الجبهة استعرت بها الحرب ، فقال لنفسه : وأنت في الدنيا ؟ ورمى بالطعام من يده .. ثم انتضى سيفه وتقدم حتى قتل ...

وأخذ الراية التي تداولتها أيدي الأمراء الثلاثة ثابت بن أقرد ، وصاح يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ! قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل ! فاصطلح الناس على « خالد بن الوليد » ، وثابت أي القيادة . لا نكوصا عن الموت بل شعورا

بوجود الأكفأ منه في الجماعة ، وحملانه الراية خشية أن تسقط ، من آيات الجرأة

في هذا الموقف المصيب . وليت كل امرئ يعرف أقدار الناس ينزلهم منازلهم

التي يستحقونها ، فلا يكلف أمتة أن تحمل عجزه وأثرته ..

وأخذ الراية « خالد » فشرع يقاتل ويحتمل للخلوص بالجيش من هذا للأزق المتضايق .

وقتل الانسحاب شاق مرهق ، خصوصا وخالد لا يريد إشعار الروم بهذه الخطمة . روى البخاري عن خالد : اندقت في يدي يوم « مؤتة » تسعة أسياف ،



وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية ، ودخل الليل على المتحاربين ، فكان هدنة مؤقتة ، فلما طلع الصبح كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة ، فجعل المقدمة ساقية والمينة ميسرة .

وجعل هدفه مناوشة الرومان بحيث يلحق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش لإلتحام عام ، وقد أفاحت هذه الخطة في إنقاذ الآلاف القليلة التي معه ، وإنقاذ سمعة المسلمين في أول معركة لهم مع الدولة الكبرى .

والعجيب أن الرومان أعيام هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة ، بل إن بعض فرقم انكشف ، وولى مهزوماً . . . واكتفى خالد بهذه النتيجة ، وآثر ألا ينصرف بمن معه .

عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعى زيدا وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيدا فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب — وميناه تذر فان — قال . ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم (١) .

وروى ابن إسحاق (٢) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد رفعوا إلى الجنة — فيما يرى النائم — على سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريري صاحبيه فقلت : مم هذا ؟ فقيل لي : مضيا ، وتردد عبد الله بعض التردد . ثم مضى .



والدلالة التي تعلو على الريب في هذه المعركة أن شجاعة المسلمين وبصالتهم بلغت

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري ( ٤١٣/٧ ) وغيره .

(٢) رواه بلاغا كما في سيرة ابن هشام ( ٢٥٨/١ - ٢٥٩ ) وغيرها فهو ضعيف الإسناد .

حداً لم تعرفه أمة معاصرة ، وقد أكرمهم هذا الروح العالى إقداماً حقر أمامهم  
كبرياء الأمم التى عاشت مع التاريخ دهرأ ، تصول وتجول لا يفقهها شئ .

إن الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال  
المقاتلون وحدهم ، بل هى قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال فأصبحت  
الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز . وحسبك أن جيش « مؤتة » لما عاد إلى المدينة  
قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ؟ إن  
أولئك الصغار الأفرار يرون انسحاب خالد ومن معه فراراً يُقابل بمخو التراب .

---

أى جبل قوى ثابه هذا الجيل الذى صنمه الإيمان بالحق ؟ أى نجاح بلغته رسالة  
الإسلام فى صياغة أولئك الأطفال المعظام ؟ من آباؤهم ؟ من أمهاتهم ؟ وكيف  
كان الآباء يربون ؟ وكيف كانت الأمهات يبدلان ؟ .

---

إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس . .



نحدث النبى صلى الله عليه وسلم عن قادة الجيش الذين قتلوا ، فقال لأصحابه :  
« ما يسرهم أنهم عندنا (١) » أجل ، إن الجوار الذى صاروا إليه أحب لنفوسهم  
وأقرب لعيونهم من الدنيا وما فيها . أما أسرهم ففى كفالة الله ، وهو نعم المولى  
ونعم النصير .

عن عبد الله بن جعفر - ابن الشهيد - جاءنا النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد  
ثلاث من موت جعفر فقال : « لا تبكوا على أخى بعد اليوم وادهوا إلى  
بنى أخى » . .

---

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه البخارى ( ١٢٥/٦ ) من حديث أنس المتقدم فى رواية  
له ؛ اسكن بلفظ : « ما يسرنى ؛ أو قال : ما يسرم .. » على الشك .



قال عبد الله : فجيء بنا كأننا إفراخ . فقال : ادعوا إلى الخلاق . فجيء بالخلاق فخلق رءوسنا ، ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام - مداعباً : أما محمد فشبيهه عن أبي طالب . وأما عبد الله فشبيهه خلقتي وخلقي . ثم أخذ يدي فأشالها وقال : اللهم اخلف جعفرأ في أهله . وبارك لعبد الله في صفقة يمينه - قالها ثلاث مرات .

قال عبد الله : وجاءت أمنا فذكرت له يتمنا وجهلت تحزته . فقال لها النبي « العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة »؟؟ (١) .

ولم ير المسلمون في نتائج « مؤنة » ما يسكن ثأرتهم ، فإن القبائل المنتصرة بالشمال استظهرت بالرومان على مقاتلتهم ، واستطاعت بذلك النجاة من عدوانها على الحارث ابن عمير ، ولا بد من قذف الرعب في قلوبهم ، وإشعارها بأن بعوث الإسلام لا تأتي هذا الهوان . وهكذا اتجه نشاط المسلمين العسكري إلى ميدان جديد بعيد .

## ذات السلاسل

كانت « مؤنة » في جمادى الأولى من السنة الثامنة ، ولم يلبث المسلمون طويلاً بعدها حتى عادوا إلى مشارف الشام يلاحقون خصومهم قبل أن يستريحوا ، فخرج « عمرو ابن العاص » ليؤدب القبائل الصاربة هناك إلا أنه خشي من كثرة عدوه ، فأرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب مدداً ، وانحاز إلى ماء يسمى السلاسل حتى يجيئه العون .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً من المهاجرين الأوائل - فيهم

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه أحمد ( رقم ١٧٥٠ ) بإسناد صحيح على شرط مسلم وبعضه عند أبي داود والنسائي والحاكم وصححه ؛ ووافقه الذهبي .  
( ٢٦ - فقه السيرة )

أبو بكر وعمر - يقوده أبو عبيدة بن الجراح . ووصاه رسول الله حين وجَّهه  
للمجدة «عمر» فقال : لا تختلفا<sup>(١)</sup> .

فلما وصل أبو عبيدة قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي فقال له أبو عبيدة :  
لا ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه ! فقال عمرو : أنت مدد لي - !  
هو كان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً ، هيناً عليه أمر الدنيا - فقال : يا عمرو ، إن رسول  
صلى الله عليه وسلم قال لي : لا تختلفا . وإنك إن عصيتني أطعك ! قال عمرو : فإني  
أأمير عليك ، وإنما أنت مدد لي . قال : فدونك . ! فصلى عمرو بالناس وتولى قيادهم  
جميعاً . . .

وأخذ عمرو يطارد القبائل الموالية للروم . فتوغل في بلاد بلي وعذرة وبلقين  
سوطي . . وكما انتهى إلى موضع قيل له . كان هناك جمع فلما سمعوا بك تفرقوا !  
وظفر مرة بواحد من هذه الجموع فاقتتلوا ، وحمل عليهم المسلمون فهزموا ، وأعجزوهم  
هرباً في البلاد .

ومع أن عمرأ دوَّخ أولئك الأعراب وشتت شملهم إلا أنه لم يلقهم في معركة  
حاسمة وعلى أية حال فإن سمعة المسلمين انزاح عنها غبار كثير بهذه الغزوة .

وحدث أن عمرو بن العاص احتلم في ليلة باردة . وخشى على نفسه إن اغتسل  
أن يعتل فتيمم وصلى بالناس وكأن بعض الصحابة شك في هذا الصنيع من عمرو ،  
فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول له : إن عمرأ صلى بنا وهو جُنُب ! فقال  
الرسول : يا عمرو . صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فأخبره بالذي منعه من

---

(١) ضعيف ؛ رواية ابن إسحاق عن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين  
التميمي مرسل .



الاغتسال . لقد خاف على نفسه قسوة البرد ، والله يقول : «لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ .  
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» .  
فضحك الرسول ولم يقل شيئاً<sup>(١)</sup> . . .  
وقفه عمرو في هـ — هذه المسألة صحيحة ، فإن التيمم يجوز إذا كان استعمال الماء  
مظنة الضرر .

## الفتح الأعظم

شغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الإسلام على كل  
ذى عقل . وكان وفاؤهم لقربش أمراً مقررأ فيما أحبوا وفيما كرهوا . ورأى الناس  
من ذلك الآيات البينات ..

لكن قريشاً ظلت على جمودها القديم في إدارة سياستها ، غير واعية للأحداث  
الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية ، وتوشك أن تغيره في  
العالم كله .

وقد جرّها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغواً .  
وذلك أنها — مع حلفائها من بني بكر — هاجموا خزاعة — وهي مع المسلمين في حلف —  
واحد — وقتلواهم فأصابوا منهم رجالاً . وانحازت خزاعة إلى الحرم ، إذ لم تكن  
متأهبة للحرب ، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم ، وقريش تمدّهم بالسلاح وتعينهم على البغي .  
وأحس نفر من بني بكر أنهم دخلوا الحرم — حيث لا يجوز قتال — فقالوا :

---

(١) صحيح ، أخرجه أبو داود والدارقطني والحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن  
عمرو بن العاص ، وقد تكلمت على الحديث في « صحيح سنن أبي داود » ( رقم  
٣٦٠ ، ٣٦١ ) .

لترئيسهم نوفل بن معاوية : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال نوفل : لا إله  
اليوم يا بني بكر . . أصيبوا ثأركم . . ١١

وفزعت خزاعة لما حل بها ، فبعثت إلى رسول الله « عمرو بن سالم » يقص  
عليه نبأها . فلما قدم المدينة ، وقف على النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في  
السجد بين ظهراني الناس يقول :

يا رب إني ناشد محمداً	حلف أئبنا وأبيـه الأتلا
تقد كنتم ولداً وكنا ولداً	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
ف نصر هداك الله نصراً أعتدا	و ادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	أبيض مثل البدر يسمو صعدا
إن سم خسفا وجهه تربدا	في فيلق كالبحر يجري مُزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي كداء رعداً	وزعموا أن لست أدموا أحدا
يوم أذل وأقل عدداً	هم يبتقونا بالوتير هجدا

وتقلونا ركعاً ومجداً

فقال له رسول الله . نصرت يا عمرو بن سالم . . (١)

\* \* \*

وأحست قريش — بعد فوات الأوان — خطأها ، فخرج أبو سفيان إلى  
المدينة يصلح ما أفسده قومه ، ويحاول أن يعيد للعقد المهدر حرمة

(١) ضيف . رواه ابن هشام ( ٢ / ٢٦٥ ) وابن جرير ( ٢ / ٢٢٤ - ٢٢٥ )  
عن ابن إسحاق بدون إسناد ، ووصله الطبراني في « المعجم الصغير » ( ص ٢٠٧ ) وكذا  
الكبير من حديث ميمونة بنت الحارث رضي الله تعالى عنها بإسناد ضعيف .



وبلغ المدينة فذهب إلى ابنته أم حبيبة ، وأراد أن يجلس على الفراش ، فطوته  
دونه . فقال : يا بنية ما أدري ، أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ .  
فقلت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس !  
قال : والله لقد أصابك بعدى شر ! ثم خرج حتى أتى رسول الله فـكلمه ، فلم يرد  
عليه شيئاً (١) .

واستشفع أبو سفيان بأبي بكر ليحدث النبي في هذا الشأن فرفض . فتركه  
إلى عمر ، فقال عمر : أنا أشفع لكم عند رسول الله ! والله لو لم أجد إلا الذرَّ  
لجاهدكم به .

فزكهما إلى عليٍّ فرد عليه : والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر  
ما نستطيع أن نـكلمه فيه ثم نصحه أن يعود من حيث جاء . . . فثقل أبو سفيان  
إلى قومه يخبرهم بما لقي من صدود .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس أن يتجهزوا ، وأعلمهم أنه سائر إلى  
مكة ، وأوصاهم بالجد والبدار . وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش  
حتى نبغتها في بلادها ! (٢) .

واستمع المسلمون لأمر نبيهم ، فمضوا يعبثون قواهم للقاء المنتظر ، وهم  
مدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت .

\*\*\*

(١) ضعيف . رواه ابن إسحاق بدون إسناد . كما في سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥)  
وابن جرير (٢/٣٢٥ - ٣٢٦) .

(٢) ضعيف ؛ رواه ابن إسحاق بدون إسناد ؛ ومعناه في حديث ميمونة المخرج آتفاً .

ووقع في هذه الفترة الدقيقة حادث مستغرب . فإن رجلاً من أهل السابقة في  
جهاد المشركين تطوع بإرسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه أن محمداً صائر إليهم  
بجيشه ... !!

وقد رأيت أن المسلمين حراس على إخفاء خطة الغزو . أليس مما يقرب نجاحهم  
ويخفف خسائرهم ؟ ولعله يدفع قريشاً إلى التسليم دون أن تسفك الدماء عبثاً  
وما معنى الكتابة إليهم إلا التحريض على حرب الله ورسوله ، والاشتغال  
من أسباب المقاومة ؟

عن علي بن أبي طالب : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد  
فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة « خاخ » فإن بها ظمينة معها كتاب ، فخذوه منها  
فانطلقنا تسعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فاذا نحن بالظمينة . فقلنا : أخرجني  
الكتاب . فقالت : ما معي ! فقلنا : اخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب !  
فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فاذا فيه « من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض  
أمر رسول الله » فقال : يا حاطب ما هذا ؟ فقال : يا رسول الله لا تعجل علي .  
إني كنت امرأً ملصقاً في قريش - كنت حليفاً لها ولم أكن من صميمها - وكان  
من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم . فأحببت ، إذ  
فأنتي ذلك من النسب فيهم - أن ألتزمهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله  
ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنه قد صدقكم ! فقال عمر : يا رسول الله  
دهني أضرب عنق هذا المنافق ! فقال : إنه قد شهد بذكرك . وما يدريك ! .. لعل  
الله قد اطلع على من شهد بذكرك فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .. ؟



ونزل قول الله تبارك وتعالى : ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوئى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعل ذلك فقد ضلّ سواء السبيل ) (١) .

إن حاطباً خرج عن جادة الصواب بهذا العمل .

وما كان له أن يوادّ المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران وتظاهروا على العدوان وصنعوا بالمسلمين ما « حاطب » أعلم به من غيره .

لكن الإنسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها ، والله أبرّ بعباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعف التى ترو نورهم فيخبو ، وسعهم فيكبو .

وقد استكشف النبي صلى الله عليه وسلم خبيثة حاطب ، فعرف أنه لم يكذب به في اعتذاره ، إنهم مقبلون على معركة كبيرة قد ينهزمون فيها ، فتقوم المصائب القديمة بحماية الأقارب الشاردين ، ويبقى حاطب لا حى له فليخذ تلك اليد عند قریش ، حيلة للمستقبل .

ذلك ما فكر فيه حاطب ، وهو خطأ ، فإن المشركين لم يذكروا في عداوة الإسلام رحماً ولا أهلاً ، وما ينبغي - ولو دارت علينا الدوائر - أن نبقى لهم وداً . وقد خاصمناهم في ذات الله ، وأخذ علينا العهد أن نبذل في حربهم أنفسنا وأموالنا .. ولو جاز اتخاذ يد عندهم فكيف يتوسل بعمل يعدّ خيانة كبيرة فادحة الإضرار بالإسلام ، وأهله ؟ .

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه الشيخان وغيرهما .

على أن حاطباً شفع له ماضيه الكريم ، فحبرت عثرته ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه ، وبهذا التقدير السمع علمنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حينها بعد أن أصابوا طويلاً .

○ ○ ○

سرى القلق في ربوع مكة عقب أوبه أبي سفيان ، ورأى العباس بن عبد المطلب أن يسلم هو وعياله وأن يهجروا مكة إلى المدينة ، فقابلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطريق مقبلاً بجيشه على مكة ، وخرج كذلك أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبي أمية ، فلقيا النبي صلى الله عليه وسلم بالأبواء - وهما ابن عمه وابن عمته - وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة ، فأعرض عنهما لما ذكر من مساوئهما .

لكن علي بن أبي طالب أشار على ابن عمه أبي سفيان بوسيلة يترضى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال له : ائتني من قبل وجهه ، وقل ما قال إخوة يوسف « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً . ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » . وأنشده أبو سفيان أبياتاً جاء فيها :

لعمرك إني حين أحمـل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالدلج الخيران أظلم ليله	فهدأ أواني حين أهدى فأهتدى
هداني هاد غير نفسي ودلني	على الله من طردته كل مطرد

فضرب الرسول على صدره وهو يقول له أنت طردتني كل مطرد (١) .

---

(١) حديث حسن ، أخرجه ابن جرير ( ٢٢٩/٢ ) والحاكم ( ٤٣/٤ - ٤٤ ) من حديث ابن عباس وقال : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي وإنما هو حسن فقط .



وسار الجيش يطوى الوهاد والنجاد ممرعاً إلى مكة ، حتى بلغ «مر الظهران» قريباً منها في العشاء ، فنزل الجيش ، ونصبت الخيام وأوقدت النيران في معسكر يضم عشرة آلاف حتى أضاء منها الوادي ، وأهل مكة في عماية من أمرهم لا يدرون عن القضاء النازل شيئاً ... وعزّ على العباس أن تُجتاح مكة في أعقاب قتال تتفانى فيه ولا يغبها فتيلاً .

فخرج يبحث عن وسيلة تفنّع قريشاً بمسألة للنبي صلى الله عليه وسلم وتدخلها في أمانه .

وصادف ذلك أن ثلاثة من كبراء مكة خرجوا يتعرفون الأخبار ، ويتسمعون ما يقال ، فلما اقتربوا من الوادي راعهم ما به .

قال أبو سفيان زعيم مكة . مارأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً !!

فقال بديل بن ورقاء : هذه — والله — خزاعة حشمتها الحرب .

فرد أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكريها . وكان المسلمون على خطتهم المرسومة يثنون العيون حولهم حتى يأخذوا قريشاً على غرة فلا ترى من التسليم بُدّاً ، فعثرت خيالتهم على رجال قريش أولئك ، ومعهم حكيم بن حزام فأخذتهم ، وعادت بهم مسرعة إلى رسول الله ، ولحق العباس بالأسرى وهو يعلن أنهم في جواره ، فلما دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم حادتهم عامة الابل ، فانشرحت صدورهم بالإسلام ، وإن كان أبو سفيان قد تأخر حتى طلع الصبح ...

ثم سأله الأمان لقريش ، فقال رسول الله : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن <sup>(١)</sup> .

(١) حديث صحيح أخرجه ابن هشام ( ٢٦٨/٢ ) عن ابن إسحاق معضلاً ، لكن وصله عنه ابن جرير ( ٣٣٠/٢ — ٣٣٢ ) عن حسين بن عبد الله بن عبد الله بن =

وإنما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان هذه الميزة إرضاء لعاطفة الفخر في نفسه ، وقد أرضاه بما لا يضر أحداً ولا يكاف جهداً ، ولا عليه أن يتحجب إلى نفس يمثل هذا الثمن الميسور . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستوثق من سير الأمور بعيداً عن الحرب والضرب ، فضم إلى ذلك المسلك مع أبي سفيان أن أوصى العباس باحتجازه في مضيق الوادي حتى يستعرض القوى الزاحفة كلها فلا تبقى في نفسه أثارة لمقاومة ، وهو سيد مكة المتبوع قال العباس : فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : هليم . فيقول مالي ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ! فيقول : مالي ولزينة حتى نفذت القبائل ، متمر به قبيلة إلا سألتني عنها ، فإذا أخبرته قال : مالي وابني فلان ؟ .

حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال : سبحان الله ! يا عباس من هؤلاء ؟ .

قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار .

---

== عباس عن معكرومة عن ابن عباس . وحسين هذا ضعيف ، لكن قال الهيثمي في « المجمع » ١٦٥/٦ - ١٦٧ : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح « فالظاهر أنه عنده من غير هذا الطريق الضعيف ، ورواه أبو داود ( ٤١ / ٢ ) عن ابن إسحاق بإسناد آخر له عن ابن عباس . وفيه رجل لم يسم ، وله عنده إسناد ثالث ورجاله ثقات . لكن لم يصرح فيه ابن إسحاق بالسماع ثم أخرجه هو ومسلم ( ١٧٢/٥ - ١٧٣ ) من حديث أبي هريرة إلا أنه قال : « ومن ألقى السلاح فهو آمن » بدل : « ومن دخل المسجد فهو آمن » .



قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاعة ! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً . .

قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن <sup>(٢)</sup> .

. . .

ودخل أبو سفيان مكة مبهوراً مذعوراً ، وهو يحس أن من ورائه إعصاراً إذا انطلق اجتاح ما أمامه . فما يقف دونه شيء ، ورأى أهل مكة الجيش الفاتح يقبل من بعيد رويداً رويداً فاجتمعوا على ساداتهم ينتظرون الأوامر بالقتال ، فإذا صوت أبي سفيان ينطلق عالياً واضحاً : يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وشُدِّهت امرأته هند بنت عتبة وهي تسمع من زوجها هذا الكلام ، فوثبت إليه وأخذت بشاربه تلويه وصاحت : اقتلوا الحميت الدم الأحمش — أي هذا الزق المتفخخ — قبحت من طليعة قوم ..

ولم يكثر أبو سفيان لسباب امرأته فعاود تحذيره : ويلكم لا تفرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم مالا قبيل لكم به . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ..

قالوا : قاتلك الله ؟ وما تقى عنا دارز ؟ قال . ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

---

(١) حديث صحيح رواه ابن هشام ( ٢ / ٢٦٨ - ٢٦٩ ) عن ابن إسحاق بدون إسناد . لكن رواه ابن جرير والطبراني موصولاً عن ابن عباس كما تقدم آنفاً . وبعضه في صحيح البخاري ( ٨ / ٤ - ٦ ) وابن جرير ( ١ / ٣٣٢ - ٣٣٣ ) عن عروة مرسل . فهو شامد قوي .

وأصبحت « أم القرى » وقد قيد الرعب حركاتها ، واستترخت تجاه القدر  
المنساق إليها . فاختنى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، أو اجتمعوا في المسجد الحرام  
يرقبون وهم واجهون ...

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ، ورسول الله على ناقته ، تتوج هامته  
عمامة دسما ، ورأسه خفيض من شدة التخشم لله ، لقد انحنى على رحله وبدأ عليه  
التواضع الجمّ حتى كاد عشونه يمس واسطة الرحل (١) إن الموكب الفخم للمهيب  
الذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم ، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة  
منه فلا يبقى بمسكة شيء آمن ، إن هذا الفتح المبين أيد كره بماض طويل الفصول  
كيف خرج مطارداً ؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً . . . ! وأى كرامة عظي  
حفه الله بها في هذا الصباح الميمون ! وكلما استشعر هذه النعماء ازداد الله على راحلته  
خشوعاً وانحناء ويبدو أن هناك مواطن أخرى كانت تجيش في بعض الصدور .  
فإن « سعد بن عباد » زعيم الأوس ، ذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا  
في جنب الله ، ثم شعر بزمام القوة في يده فصاح . اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل  
الحرمه ، اليوم أذل الله قريشاً .

وبلغت هذه الكلمة مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : بل اليوم يوم

---

(١) ضعيف ، رواه ابن هشام ( ٢٦٩/٢ ) عن ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي  
بكر مرسل . ووصله الحاكم ( ٤٧/٣ ) وكذا أبو يعلى من حديث أنس بنحوه . وقال  
الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » وأقره الذهبي ! وهو من أوهاههما ، فإن في سنده  
عبد الله بن بكر المقدمي وهو ضعيف كما قال ابن عدي ثم ساق له هذا الحديث كما في الميزان  
وهذا المقدمي غير عبد الله بن أبي بكر شيخ ابن إسحاق ؛ فإن هذا متأخر من طبقة  
الإمام أحمد ، وذاك تابعي صغير يروى عن أنس رضي الله عنه وهو ثقة .



تعظم فيه للكعبة<sup>(١)</sup>. اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً، وأمر أن ينزع اللواء من سعد ويدفع إلى ابنه مخافة أن تكون لسعد صولة في الناس.

ومار رسول الله فدخل مكة من أعلاها<sup>(٢)</sup>. وأمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم<sup>(٣)</sup> فدخلت صائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى.

ودخل «خالد بن الوليد» من أسفل مكة. وكان هناك نفر من قريش، غاظمهم هذا التسليم، فتجمعوا عند «الخدمه» يقودهم «عكرمة» بن أبي جهل و«سهيل» ابن عمرو، و«صفوان» بن أمية، إلا أن الحقيقة الكبيرة صدمت خروجهم فبددته، فإن خالداً حصدهم حصداً حتى لاذ القوم بالفرار. ومن طريف ما وقع أن حماس بن خالد من قبيلة بني بكر، كان قد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين. وكانت امرأته إذا رآته يصلحه ويتمهد تسأله: لماذا تعد ما أرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، وقالت امرأته له يوماً: والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء! فقال إني والله لأرجو أن أخدمك بهضمهم... ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فإلى علة — هذا سلاح كامل وألة (٤)

وذو غرار بن سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئاً من قتال مع رجال عكرمة. ثم أحس بالمشركين يقطايرون من حوله أمام جيش خالد فخرج منهزماً حتى بلغ بيته فقال لامرأته أغلقى على الباب...!

(١) ضعيف، أخرجه البخاري وغيره في حديث عروة مرسل، وقد سبق تخريجه قريباً، وأما باقي الحديث فرواه يحيى بن سعيد الأموي كما في شرح اللواهب للزرقاني (٣٠٦/٣) ولم يتكلم على سنده ولا ساقه لينظر فيه؛ وقد أشار ابن كثير في البداية (٢٩٥/٤) لضعفه.

(٢) صحيح، أخرجه البخاري (١٤/٨، ١٥) عن ابن عمر وعائشة.

(٣) ذكره ابن هشام (٢٨٣/٣) عن ابن إسحاق بدون إسناد.

(٤) ألة: حربة.

فقلت المرأة لفارصها المعلم . فأين ما كنت تقول ؟ فقال - يعتذر - لها :  
 إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة  
 وأبو يزيد فأمّ كالمؤتمنة (١) واستقبلتهم بالسيفوف المسلمة  
 يقطعن كل ساعد وجمجمة ضرباً فلا تسمع إلا غفمة  
 لهم نهيت خلفنا وهممة لم تنطقى باليوم أدنى كلمة ! !

وسكنت مكة واستسلم سادتها وأتباعها . وعلت كلمة الله في جنباتها ، ثم نهض  
 رسول الله إلى البيت العتيق فطوّف به وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله .  
 ويضربها بقوسه ظهر ألبطن ، فتقع على الأرض مهشمة متناثرة .

كانت هذه الحجاره - قبل ساعة - آلهة مقدسة . وهي - الآن - جص  
 وتراب وأنقاض ، يهدمها نبيّ التوحيد وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل  
 إن الباطل كان زهوقاً » . (٢)

ثم أمر بالكعبة ففتحت . فرأى الصورَ تملؤها ، وفيها صورتان لإبراهيم  
 وإسماعيل يستقيمان بالأزلام ! فقال - صاخطاً على المشركين - قاتاهم الله ، والله  
 ما استقيما بهذا قط (٣) ، ومحا ذلك كله (٤) . حتى إذا طهر المسجد من الأوثان  
 أقبل على قریش وهم صفوف صفوف ، يرقبون قضاءه فيهم ، فأمسك بمضادتي

(١) الاسطوانة ، وأبو يزيد : سهيل بن عمر .

(٢) حديث صحيح ؛ أخرجه الشيخان في صحيحهما عن ابن مسعود . ومسلم من حديث  
 أبي هريرة .

(٣) حديث صحيح ؛ أخرجه البخاري عن ابن عباس .

(٤) حديث صحيح ؛ أخرجه أحمد ( ٣٣٥ / ٣ ؛ ٣٣٦ ؛ ٣٨٣ ؛ ٣٩٦ ) من حديث

جابر بسند صحيح ؛ والطيب السبي ( ١ / ٣٥٩ ) من حديث أسامة بن زيد وسنده جيد  
 كما قال الحافظ في « الفتح » ( ٢٦٨ / ٣ ) .



الباب — باب الكعبة — وهم تحته ، فقال . لا إله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم قال يا معشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم قال : فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء (١) .

وعندما كان رسول الله بالمسجد يُجسِّمُ على الوثنية في عاصمتها الكبرى ، اقترب منه ( فضالة بن عمير ) يريد أن يجد له فرصة ليقتله .

فنظر إليه النبيُّ نظرة عرف بها طويته إلا أنه في غمرة النصر الذي أكرمه الله به ، لم يجد في نفسه على الرجل . بل استدعاه ثم سأله . ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لاشيء ! كنت أذكر الله ! فضحك النبيُّ ثم قال : استغفر الله . وتلطَّف معه الرسول ، فوضع يده على صدره ، فانصرف الرجل وهو يقول : مارفع يده عن صدرى حتى مما من خلق الله شيء أحب إلى منه (٢) . وكانت لفضالة في جاهليته هنات ، فمر — وهو راجع إلى أهله — بامرأة لها معه شأن . فلما رآته قالت : هلم إلى الحديث ! فانبعث يقول :

قالت : هلم إلى الحديث ، فقلت لا بأبي عليك الله والإسلام

(١) ضعيف ؛ رواه ابن إسحاق معضلاً كما في « ابن هشام » ( ٢٧٤/٢ ) ؛ وقد ذكره الغزالي في « الإحياء » ( ١٥٨/٣ ) من حديث أبي هريرة دون قوله : « اذهبوا » وقال الحافظ العراقي في تخريج « رواه ابن الحوري في « الوفاء » من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف » ثم ذكره الغزالي من حديث سهل بن عمرو . فقال العراقي : « لم أجده » (٢) ضعيف ؛ رواه ابن هشام ( ٢٧٦/٢ ) بإسناد معضل .

لو رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيناً والشرك يغشى وجهه الإظلام

وصعد بلال فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد  
على آذانهم كأنهم في حلم ، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة  
الشياطين فلا يمكن أن يكون أمام دويها إلا أن يولوا هاربين ، أو يعودوا مؤمنين .  
الله أكبر الله أكبر . الله أكبر الله أكبر .

هذه الصيحات المؤكدة تذكر الناس بالغاية الأولى من محياهم ، وبالمرجع الحق  
بعد مماتهم ، فكم ضلت البشر غايات صغيرة أرخصتهم على ظهر الأرض ركض  
الوحوش في البراري ، واجتذبت انتباههم كله فاستفرقوا في السعي وراء الحطام !  
وامتلكت عواطفهم كلها ، فالحزن يقتلهم للحرمان ، والفرح يقتلهم بالامتلاء ،  
ولم يسفه المرء ، نفسه بالغيوبة في هذه التوافه ؟

إن صوت الحق يستخرجه من وراء هذه الحجب المتراكمة ، ليلقي في روعه  
ما كان ينساه ، وهو تكبير سيد الوجود ورب العالمين ، سيده ومولاه ...  
أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله .

لقد سقط الشركاء جميعاً ، طالما ضرع الناس للوهم ، واعتزوا بالهباء ، وأمّلوا  
الخير فيمن لا يملك لنفسه نفعا ، وانتظروا النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان ذبابة .  
ولم الخبط في هذه المتاهات ؟ إن كان المغفلون يشركون مع الله بعض خلائقه ، أو  
يؤلهونها دونه ؟ فالمسلمون لا يعرفون إلا الله رباً ، ولا يرون غيره موثقلاً .

وانتوحيد المحض ، هو المنهج العنيد للغاية التي استهدفوها .  
ولكن من الأسوة ؟ من الإمام في هذه السبيل ؟ من الطليعة الهادية المؤنسة ؟  
إن المؤذن يستتلي ليدكر الجواب .

أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .



سيرة هذا الرجل النبيل هي المثل الكامل لكل إنسان ينبغي الحياة الصحيحة،  
إن محمداً إنساناً ، يرسم بسنته الفاضلة السلوك الفريد لمن اعتنق الحق وعاش له .  
وهو يهيبُ بكل ذي عقل أن يُقبل على الخير ، وأن ينشط إلى مرضاة ولىِّ  
أمره ، وولىِّ نعمته ، فيحث الناس أولاً على أداء عبادة ميسورة رقيقة .  
حي على الصلاة ، حي على الصلاة .

هذه الصلوات هي لحظات التأمل في ضجيج الدنيا ، هي لحظات المسأب كلما  
انحرف الإنسان عن الجادة . هي لحظات الخضوع لله كلما هاج بالمرء النزق ،  
وطغت على فكره الأثرة فنظر إلى ماحوله ، وكأنه إله صغير . هي لحظات  
الاستمداد والإلهام .

وما أفقر الإنسان - برغم غروره - إلى من يلهمه الرشد فلا يستحق ، ويمده بالقوة  
فلا يعجز ويستكين . ثم يحث الناس - أخيراً - على تجنب الخيبة في شئونهم كلها .  
والخيبة إنما تكون في الجهد الضائع سدى . في العمل الباطل لأنه خطأ ،  
سواء كان الخطأ في الأداء ، أو المقصد . . . وهو يحذر من هذه الخيبة عندما يدعو:  
حي على الفلاح ، حي على الفلاح .

ويوم يخرج العمل من الإنسان ، وهو صحيح في صورته ونيته ، فقد أفلاح ،  
ولو كان من أعمال الدنيا البهجة ، ألم يعلم الله نبيه أن يجعل شئون حياته ، بعد نسكه  
وصلاته خالصة لله ؟ ( قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب  
العالمين ) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

ولاسبيل إلى ذلك إلا بإصغار ما عدا الله من غايات ، والتزام توحيده أبداً ،  
ومن ثم يعود إلى تقرير الغاية والمنهج ، مرة أخرى .  
الله أكبر الله أكبر . . .

لا إله إلا الله . . .

إن كلمات الأذان تمثل العناوين البارزة لرسالة كبيرة في الإصلاح ، ولذلك جاء

في السنن الثابتة أن المسلم عندما يسمعها يقول :

« اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة

وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد <sup>(١)</sup> » .

• • •

وفي يوم الفتح قد ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين ،

ولم يسمعوا صوت بلال يرنّ فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد ، ولم يروا

الأصنام مكبوبة على وجوهها مسواة بالرغام ، ولم يروا عبادها الأقدمين وقد ألقوا

السلم واتجهوا إلى الإسلام ..

إنهم قتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة ، التي نشبت بين الإيمان والكفر .

والكن النصر الذي يحني الأحياء ثماره اليوم لهم فيه نصيب كبير ، وجزاؤهم

عليه مكفول عند من لا يظلم مثقال ذرة .

إنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق

والباطل ، فقد يخترمه الأجل في المراحل الأولى منه ، وقد يصرع في هزيمة عارضة -

كما وقع لسيد الشهداء « حمزة » ومن معه .

والقرآن الكريم ينبه أصحاب الحق إلى أن العول في الحساب الكامل على الدار

الآخرة ، لا على الدار الدنيا ، فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعاً ،

( فاصبرْ إنَّ وعدَ الله حقٌّ ، فإِما نرينَكَ بعضَ الذي نعدُّهمْ أو نتوفينَكَ

فإِلَيْنَا يرجعون ) .

(١) حديث صحيح ؛ أخرجه البخاري في « صحيحه » وفي « أفعال العباد » وأصحاب

السنن الأربعة والطبراني في « الصغير » وابن السني في « عمل اليوم والليلة » وأحمد

والبيهقي في حديث جابر مرفوعاً به ؛ دون قوله : « إنك لا تخلف الميعاد » فتفرد بها

البيهقي وهي شاذة لا تصح .



ودخل رسول الله مكة في رمضان ، وظل بها سائر الشهر يقصر ، ويفطر أكثر من خمسة عشر يوماً ، وكان قد خرج من المدينة صائماً ثم أفطر هو وصحبه في الطريق <sup>(١)</sup> .

فلما استقر الأمر ، شرع يبايع الناس على الإسلام <sup>(٢)</sup> فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء ، فتمت البيعة على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا <sup>(٣)</sup> . وسنة رسول الله في مبايعة النساء أن يأخذ عليهم الميثاق كلاماً لا مصالحة .  
فمن عائشة : « لا والله ما مست يد رسول الله يد امرأة قط » <sup>(٤)</sup> .

• • •

وهكذا دخل أهل مكة في الإسلام ، وإن كان بعضهم بقي على ريبته وجاهليته يتعلق بالأصنام ويستقسم بالأزلام ، وأولئك تركوا الأيام تشفى جهلهم ، ونجى مامات من قلوبهم وألبابهم .

وما دامت الدولة التي تحمى الوثنية وتقاتل دونها قد ذهبت ، فسوف تتلاشى هذه الخرافة من تلقاء نفسها .

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة ، ولقد أفلحت خطة المسلمين في تعمية الأخبار على قريش حتى بوغتوا في عقر دارهم ، فلم يجدوا مناصحاً من الاستسلام ،

(١) أما قصره صلى الله عليه وسلم في مكة فثبت في « البخاري » ( ١٧/٨ ) عن ابن عباس قال : أقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين .

وأما إفطاره فهو في « الصحيحين » من حديث ابن عباس أيضاً .

(٢) حديث حسن رواه أحمد ( ٤١٥/٣ ، ١٦٨/٤ ) من حديث الأسود بن خلف

وسنده حسن .

(٣) ضعيف ؛ رواه ابن جرير ( ٣٢٧/٢ ) بدون إسناد ، أو من حديث قتادة مرسل

والطريق إليه ضعيف .

(٤) صحيح ، أخرجه الشيخان وغيرهما .

فما استطاعوا الجلاذ ولا استجلاب الأمداد ، وفتح العرب جميعاً أعينهم فإذا هم أمام الأمر الواقع ، حتى خُيل إليهم أن النصر معقود بألوية الإسلام فما ينفك عنها !

## معركة حنين

بيد أن هذا الغاب كله كان له رد فعل معاكس لدى القبائل الكبيرة القريبة من مكة ، وفي مقدمتها « هوزان » و « ثقيف » وتعتبر « الطائف » قصبتها وهي أكبر المدن في الجزيرة بعد مكة وبثرب

اجتمع رؤساء هذه القبائل على « مالك بن عوف » سيد « هوزان » ، وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين ، قبل أن تتوطد دعائم الفتح ، وقبل أن يتحركوا لاستئصال ما بقي من معالم الوثنية المدبرة .

وكان « مالك بن عوف » شجاعاً مقداماً ، إلا أنه سقيم الرأي سيء المشورة .

فأمر قومه — وهم خارجون للفرز — أن يأخذوا معهم نساءهم وأموالهم وذريتهم ، ليشر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمة وراثة فلا يفر عنها ...

وقد اعترضه « دريد بن الصمة » ، وهو فارس مجرب محنك ، وقال له : هل يرد للهزم شيء ؟ إن كانت الدائرة لك ، لم ينفك إلا رجل برحه وصيفه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك .

فسفه مالك رأيه ، وأصر على خطته .

وعلم المسلمون بمخرج أعدائهم ، فأرسلوا عيونهم يتعرفون عدتهم وهيئتهم . روى أبو داود أن رجلاً جاء إلى رسول الله فقال له : إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا « هوزان » عن بكرة أبيهم بظعنهم ، وبنعمهم



وشأنهم ؛ اجتمعوا إلى « حنين » ... فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله (١) .

إن السهولة التي تم بها فتح مكة ، وإحساس جمهور المؤمنين أن الجاهلية تلفظ أقدامها الأخيرة فإن تبدى مقاومة تذكر . وظنّ حدثاء العهد بالإسلام أن شيئاً ما لن يقف في طريقه ، كل ذلك جعل الجيش يزحف للقضاء المشركين وهو غير مكترث لما سوف يواجهه ، ولم يكثرث ؟

إنهم — وهم قلة — كانوا يكسبون المارك الطاحنة ، فكيف وهم اليوم يخرجون في عدد لم يجمعوا مثله قبلاً ؟ قيل : إن أبا بكر الصديق لما نظر إلى الجيش قال : لن تغلب اليوم من قلة.. !

ذلك أن المسلمين بلغوا اثني عشر ألفاً ، بمن انضم إليهم من أهل مكة .

### هزيمة

ومار الجيش الوثاق حتى وصل إلى وادي « حنين » .

وكان « مالك بن عوف » ورجاله قد سبقوا إلى احتلال مضائقه ، وانبثوا في الشعاب والأجناب المنيعة ، ثم تهيئوا لاستقبال المسلمين .

وأقبلت الطلائع الفقيرة تدافع نحو الوادي — وهي غافلة عما يمكن فيه — وكان وادياً أجوف منحدراً ، ينحط فيه الركن كلما أوغلوا ، كأنهم يسرون إلى هاوية .

فلما تسكاثرت في دروبه الفرق الزاحفة ، لم يرعهم إلا وابل من السهام يتساقط فوقهم من المسكامن العالية ، وكان غبش الفجر لا يزال يترك بقاياها في الجوالقائم

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود ( ١ / ٣٩١ — ٣٩٢ ) عن سهيل بن الحنظلية

فارتاعت المقدمة لهذه المفاجأة ، فهي في عماية من الليل ، وعماية من أمرها ، لا تعرف إلا أن تستدير ثم تولى الأدبار ..

وانتشرت موجة الفرع ، فكسرت الصفوف المرصوفة وبعثرتها .  
واستغل رجال مالك بن عوف ، هذا الارتباك ، فهاجت كتائبهم ، وحملت الخيل على ما أمامها ، فانكفأ المسلمون مهزومين لا يلوى أحد على أحد ..  
ونظر زعماء مكة إلى الجيش المولى نظرة تشفٍّ وفرح .

وعاد إلى بعضهم كفره بالله ورسوله فقال أبو سفيان : لا تنهى هزيمتهم دون البحر ! ولا عجب فإن الأزلام التي يستقسم بها في جاهليته لا تزال في كنفاته ..  
وقال « كلبدة بن الجعيد » : ألا بطل السحر اليوم .  
فأجابه « صفوان بن أمية » — ولما يزل مشركا — : أسكت فض الله فاك ،  
فو الله لأن ير بنى رجل من « قريش » أحب إلى من أن ير بنى رجل من  
« هوازن » .



وانمحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، وقد أغضبه هذا القرار ،  
فقال : أين أيها الناس ؟ هلموا إليّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ..  
فلا يرد عليه شيء ، وركبت الإبل بعضها بعضاً وهي مولية بأصحابها<sup>(١)</sup> .  
ولمح النبي وراءها رجلاً من « هوزان » على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء في  
رأس رمح طويل ، « وهوازن » خلفه ، إذا أدرك الفارين طعن برمح ، وإذا فاتوه  
رفع رمحه لمن ورائه فاتبعوه .

إن الذي تولى كبر هذه المهزلة الشائنة هم الطلقاء من أهل مكة ورعاع البدو .

---

(١) صحيح أخرجه ابن هشام ( ٢ / ٢٨٩ ) وابن جرير ( ٣ / ٣٤٧ ) كلاهما عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .



ووقف النبي صلى الله عليه وسلم ساكن الجأش ، يدبر الرأى فى خطة ينقذ بها سمعة الإسلام ومستقبله ، وقد أحاط به لفيف من المهاجرين الأولين ، ومن أهل بيته .  
فأمر العباس بن عبد المطلب - وكان جهر الصوت - أن ينادى : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية (١) ..

لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد ، ورجال الفداء عند الصدام فهم - وحدهم - الذين تنجح بهم الرسائل وتفرج الكروب .  
أما هذا الغناء من العوام الحراص على الدنيا ، السعاة إلى المغانم ، فما يقوم بهم أمر ، أو تثبت بهم قدم .

## الثبات والنصر

وفى ضجة الفزع الذى ساد المعركة أولاً ، علمت صيحات العباس ، ووصلت إلى آذان الرجال المشدوهين لما وقع ، فأخذوا يكافحون ليبلغوا مصدر الصوت .  
إذا أراد أحدهم أن يعطف بعيره ليعود به ، لا يقدر من ضغط الفارين ، فما يجد بداً من أن يقذف درعه من عنقه ، ويحمل سيفه وترسه ثم يؤم الصوت .  
واجتمع حول رسول الله عدد من الرجال الذين دعاهم ، وهم يصيحون : لبيك ، حتى قارب القوم مائة ، فاستقبل النبي بهم المشركين ، وقد ملك زمام الموقف وأعاد الكرة عليهم ، فاجتلد الفريقان اجتلاداً شديداً .

وقصد «على» وأحد الأنصار إلى حامل العلم فى طليعة هوازن ، ف ضرب «على» عرقوبى جملة فوقه على عجزه ، ثم استمكن منه الأنصارى فهوى به عن رحله .  
وكان النبي على بغلته يقول :

(١) رواه ابن صحيح إسحاق بسند صحيح عن العباس وقد ساقه ابن جرير وابن هشام عنه ، وهو فى مسلم (١٦٦/٥ - ١٦٧) نحوه .

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب (١)

ويدعو : اللهم نزل نصرك (٢) .

والمهاجرون والأنصار قد التحموا مع رجال هوازن وثقيف .

قال « العباس » : ونظر رسول الله - وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال : الآن حمى الوطيس ، ثم أخذ حصيات ، فرمى بهن في وجوه الكفار ، ثم قال . انهزموا ورب محمد .

قال « العباس » : فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فهاهو إلا أن رماهم فما زلت أجد حدهم قليلا . وأمرهم مدبراً (٣) .

ولم يطل وقت ، حتى كان رجال (ثقيف) ومن معهم يُورغلون مولدين الأدبار فإذا هم يرون الأسرى مكتفين !

وفي هذه للمركة نزل قول الله عز وجل ( لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ) .

• • •

واعتصم بعض المنهزمين بفاحية يقال لها : (أوطاس) .

---

(١) صحيح ؛ أخرجه الشيخان عن البراء بن عازب .

(٢) صحيح تروى به مسلم ( ١٦٨/٥ ) عنه .

(٣) رواه مسلم عن العباس .



فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في أعقابهم (أبا عامر الأشعري) فقاتلهم حتى قتل فأخذ الراية منه ابن عمه (أبو موسى الأشعري) فما زال يناوش القوم حتى بدد شملهم ، وهزموا شر هزيمة<sup>(١)</sup> .

واضطرب (مالك بن عوف) ومن معه من رجالات قومه أن يعضوا في القربى حتى يصلوا إلى (الطائف) فيمتنعوا بحصنها تاركين في - هذا الفرار - مغنم هائلة .

فإن مالكا - كما علمت - خرج يفزو ، ومعه نساء القبيلة وما تملك . فحلف في الميدان أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأكثر من أربعين ألفاً من الغنم ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة هذا إلى جانب ستة آلاف من السبي .

## الغنم

وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم على الناس هذه الغنائم ، وتأني . ويتنهي أن يرجع القوم إليه تائبين ، فيحرزوا ما فقدوا . ومكث ينتظرهم بضع عشرة ليلة فلم يجبه أحد<sup>(٢)</sup> .

فشرع يسكت المتطلمعين من رؤساء القبائل وأشرف مكة ، وبدأ بقسمة المال فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى ، بل أول من حظى بالأنصبة الجزلة . أخذاً (أبو سفيان) مائة من الإبل ، وأربعين أوقية من الفضة فقال : وابن معاوية ؟ فمنح مثلها لابنه معاوية . فقال وابن يزيد ؟ فمنح مثلها لابنه يزيد<sup>(٣)</sup> .

(١) صحيح ، ذكره ابن إسحاق بدون إسناد ، ومعناه في البخاري (٢٣/٨ - ٢٤٥) وابن جرير (٣٥١/٢) من حديث أبي موسى الأشعري .

(٢) صحيح أخرجه البخاري (٢٦/٨ - ٢٧) .

(٣) ذكره ابن هشام (٣٠٨/٢) نحوه عن ابن إسحاق بدون إسناد رواه ابن جرير (٢٥٨/٢) عنه عن عبد الله بن أبي بكر مرسل . وإعطاؤه صلى الله عليه وسلم هذه الفزوة للمؤلفة قرأهم ومنهم أبو سفيان ثابت في مسلم (١٠٨/٣) .

وأقبل رؤساء القبائل وأولو الأئمة ، يتسابقون إلى أخذ ما يمكن أخذه .  
وشاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر .  
فازدحموا عليه يبغون الزيد من المال ، وأكبّ عليه الأعراب يقولون :  
يا رسول الله ، أقسم علينا فيئتنا ، حتى اضطرره إلى شجرة فانتزعت  
رداءه ! فقال :

« أيها الناس ، ردوا عليّ ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لكم هندی عدد  
شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما أفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » .  
ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرّة ، فجعلها بين أصبعيه ، ثم رفعها فقال  
« أيها الناس ، والله مالي من فيئكم ولا هذه البرّة ، إلا الخمس ، والخمس  
مردود عليكم » <sup>(١)</sup> .

إن أعين القوم تكاد تخرج من المهاجر تطلعا إلى الدنيا .  
وهؤلاء الأعراب والطلقاء والرؤساء ، ما أغنوا عن الإسلام شيئا في مآزقه  
الأولى بل كانوا هم العقاب الصلدة التي اعترضت مسيله حتى تحطمت تحت معاول  
المؤمنين الراغبين في ثواب الآخرة . المؤثرين ما عند الله .

ولكنهم اليوم — بعد ما أعلنوا إسلامهم — يبغون من الرسول أن يفتح  
عليهم خزائن الدنيا ؛ فحلف لهم أنه ما يستبقى منها شيئا لشخصه ، ولو أمتلك ملء  
معدة الأودية مالا لوزّعه عليهم .

والحق أن الرسول وسع بجله وكرمه مسالك بينة للطيش والجشع في سبيل  
تألف هؤلاء الناس وتحييدهم في الإسلام .  
ولو عافهم على جبنهم في « حنين » لنال منهم أي منال .

(١) صحيح ؛ رواه أحمد ( رقم ٦٧٧٩ ) والبيهقي ( ٣٣٦/٦ - ٣٣٧ ) بسند حسن  
عن عبد الله بن عمرو ؛ والبخاري ( ١٩٣/٦ - ١٩٤ ) عن جبير بن مطعم إلى قوله  
« كذابا » والباقي عند الحاكم ( ٤٩ / ٣ ) من حديث عبادة بن الصامت ؛ وعند البيهقي  
( ٣٣٩/٦ ) من حديث عمرو بن عبسة .



روى الإمام أحمد<sup>(١)</sup> أن «أبا طاحه» — وهو من فرسان المسلمين المعدودين —  
 لقي «أم سليم» ومعه خنجر، فقال لها: ما هذا؟ قالت: إن دنا مني بعض  
 المشركين أبيع بطنه — وذلك في معركة حنين — فقال أبو طاحه لرسول الله:  
 أما تسمع ما تقول أم سليم؟ فضحك النبي. فقالت أم سليم: يا رسول الله، أقتل  
 من بعدها الطلقاء الذين انهزموا بك! فقال: إن الله قد كفى وأحسن بأم سليم.  
 والعجب أن هؤلاء الذين فروا عند الفزع، هم الذين كثروا عند الطعم:  
 وشاء النبي أن يلفظ معهم، وينسى ماضيهم تكرماً وتأييماً.

وماذا يصنع؟ إن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم،  
 لا من عقولهم فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فها  
 حتى تدخل حظيرتها آمنة! فكذلك هذه الأصناف من البشر، تحتاج إلى فنون  
 من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له.

عن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،  
 وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت  
 إلى صفحة عاتق رسول الله أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبه قال: مر لي  
 من مال الله الذي عندك! فالتفت إليه، فضحك: ثم أمر له بعطاء<sup>(٢)</sup>... إن  
 هذا الأعرابي لا يعجبه المنطق الدقيق، ولا الطابع الرقيق، قدر ما يعجبه عظام  
 يملأ جيوبه، ويسكن مطامعه.

ومن هنا قال صفوان بن أمية: ما زال رسول الله يعطيني من غنائم «حنين»  
 وهو أبغض الخلق إليّ، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه<sup>(٣)</sup>.

(١) في المسند (١٩٠/٣) وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم (١٠٣/٢) وكذا البخاري.

(٣) رواه مسلم (٧٥/٧) والترمذي (٢٤/٢) وأحمد (٤٠١/٣) عن سعيد —

## حكمة هذا التقسيم

وهذه السياسة البعيدة لم تفهم أول الأمر ، بل أطلقت السنة شتى لاعتراض ،  
 هناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضرباً من الإعراض عنهم والإهمال لأسرهم .  
 روى البخارى عن ( عمرو بن تغلب ) قال : أعطى رسول الله قوماً ومنع  
 الآخرين ، فكأنهم عتبوا عليه فقال : إني أعطى قوماً ، أخاف هاهم وجزعهم  
 وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى ، منهم ( عمرو بن تغلب )  
 قال عمرو : فما أحب أن لي بكلمة رسول الله حمر النعم . .  
 فكانت هذه التزكية تطيبها لخاطر الرجل . أرجع لديه من أمن الأموال .  
 وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة .

لقد حرموا جميعاً عطية حنين ، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون  
 مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى تبدل الفرار انتصاراً ، وها هم أولاء .  
 يرون أيدي الفارين تعود ملأى .

أما هم . . فلم يمنحوا شيئاً قط ؟

عن أبي سعيد الخدري : لما أصاب رسول الله الغنائم يوم حنين ، وقسم  
 الغنائم من قريش وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن في الأنصار شيء منها ، قليل  
 ولا كثير ، وجد هذا الحى من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي والله  
 رسول الله قومه . فشى ( سعد بن عباد ) إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن  
 هذا الحى من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم ؟ قال : فيم ؟ قال فيما كان من  
 قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ، ولم يكن فيهم من ذلك شيء .  
 قال رسول الله : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي .

== ابن المعبى أن صفوان بن أمية قال : كذا هو عند مسر وظاهره الانقطاع بين سعيد  
 وصفوان ؛ وعند أحمد والترمذى عن صفوان « وظاهره الاتصال . ولكن الترمذى رجح  
 الأول وأيده ابن العربي في المعارضة فقال : « لأن سعيداً لم يسمع من صفوان شيئاً » .



فقال رسول الله : اجمع لي قومك في هذه الحظيرة ، فإن اجتمعوا فأعلمني !  
فخرج « سعد » فصرخ فيهم فجمعهم في تلك الحظيرة ...  
حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه ، فقال : يا رسول الله اجتمع  
لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم .  
فخرج رسول الله ، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال  
يا معشر الأنصار ألم آنكم ضللاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله  
بين قلوبكم ؟؟؟ قالوا : بلى ! قال رسول الله : ألا تحببون يا معشر الأنصار ؟  
قالوا : وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك ؟ لمن الله ورسوله .  
قال : والله لو شئتم لقاتم فصدقتم وصدقتم : جئنا طريداً فأويناك ، وعائلاً فأصيناك  
وخائفاً فأمناك ، ومخذولاً فنصرناك ...

فقالوا : لمن الله ورسوله .

فقال : أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً  
أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام !! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن  
يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟  
فوالذي نفسي بيده ، لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً ،  
لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار .  
اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .  
فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم . وقالوا : رضينا بالله رباً ، ورسوله قسماً . :  
ثم انصرف ... وتفرقوا ... (١) .

(١) حديث صحيح ؛ رواه أحمد ( ٧٦/٣ — ٧٧ ) وابن هشام ( ٣١٠/٢ — ٣١١ ) وابن جرير ( ٣٦٠/٢ — ٣٦١ ) كلهم عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن  
أبي سعيد الخدري . وذكره ابن كثير في « البداية » ( ٣٥٨/٤ — ٣٥٩ ) من رواية  
يونس بن بكير عن ابن إسحاق والسياق له ثم قاله ابن كثير : « وهو صحيح . والقصة  
في البخاري ( ٢٨/٨ — ٤٢ ) بنحوها مختصراً .

والأنصار — في تاريخ الدعوات — مثل فريدة الرجال الذين تقوم بهم الرسائل العظمى حتى إذا استوت على صوقها ، وتجاوزت أيام محنتها ومؤنتها ، وتدلّت ثمارها وحلا جناها ، جاءت أيد غير أيديهم فقطعت ما تشهى ، ولم تكثف بذلك ! بل لطمت أيدي الغارسين حتى لا تلتقط من الثمار الساقطة قليلاً ولا كثيراً ! !

ولا نقول ذلك تعليقاً على توزيع الغنائم في هذا المقام ، فقد انضح وجه الرشدي في هذه القسمة الحصينة ...

والكنا نذكر في مناقب الأنصار ، وافترض ترفعهم عن الدنيا في سبيل الدين وتأليف الناس عليه ، أن شئون الحكم ابتعدت عنهم ، واحتازها غيرهم وهم لها أكفاء . فلم تمض ثلاثون سنة حتى كانت في أيدي الطلقاء .

ولا ريبة في أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى ، وأن شأن

---

الدنيا أنزل قدراً من أن يأمن عليه رجل العقيدة :

---

غير أننا نتساءل : أكان من مصلحة الرسائل نفسها أن تقع هذه الأثرة ؟ أم كان من سوء حظ الإسلام أن يلقى هذا اللون من الحكم ، فيقصي أصحاب السبق وأولو النصرة ، ويملك زمام الدين آخر الناس دخولا فيه وبصراً به ؟ !

### عودة وفد هوازن

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردهم عليهم سبيهم وثروتهم ! فقال لهم : إن معي من ترون ، وإن أحب الحديث إلى أصدقه . فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً .

فقام رسول الله في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين ، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول



مال يفيء الله عايينا فليفعل ، فقال الناس : قد طيبتنا ذلك يا رسول الله ، فقال لهم إنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم .  
فرجع الناس فكلهم عرفاؤهم ، ثم عادوا إلى رسول الله يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا<sup>(١)</sup> .

## حصار الطائف

أما ثقيف فإنها — بعد أن تراجعت منهزمة في « حنين » و « أوطاس » — دخلت حصونها وتهيأت فيها لحصار طويل . وعرف المسلمون أن القوم لا يزالون على إصرارهم والبقاء على جاهليتهم ، وأن الخسائر التي لحقت بهم لم تكسر شوكتهم ولم ترهق عزيمتهم ، فقرروا السير إليهم ومناجزتهم ، وللمسلمين خبرة قديمة بهذا الأسلوب من القتال ، فقد حاصروا وحوصروا ، وعرفوا أنجح طرائق الهجوم والدفاع ونهض رسول الله بجيشه حتى اقترب من الطائف فحاصر حوفا وأخذت ثقيف من حصونها تقذف بالنبال فأصيب نفر من المسلمين ، واضطر الجيش أن يؤخر موافقه حتى لا يستهدف لقتلهم .

وبظهر أن النبي لم يحرص على اقتحام الحصون واستئزال أهلها قسرا كما فعل بينى إسرائيل . لقد أمل فيهم خيرا . وأدار المعركة حولهم من حدود ضيقة وبضحايا يسيرة وظل يحاصرهم خمس عشرة ليلة . ثم بدا له أن يدعهم وشأنهم ، وأشار على المسلمين بذلك . فرغبوا أولا في إطالة حصارها حتى تفتح عليهم . ثم نزلوا — أخيرا — على رأيه . وروى : أن رسول الله استشار نوفل بن معاوية فقال : يا نوفل . ما ترى في المقام عليهم ؟ فقال . يا رسول الله . ثعالب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته

(١) صحيح أخرجه البخاري (٢٦/٨ — ٢٨) عن مروان والسور بن مخزومة معا

لم يضرك<sup>(١)</sup> ! فأمر النبي عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل<sup>(٢)</sup> .  
فلما قفلت بهم المطايا ، قالوا : يا رسول الله ، أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم  
فقال : اللهم اهد ثقيفاً<sup>(٣)</sup> ! ..

ولم يطل بقاء ثقيف على شركها . فما هي إلا شهور قلائل حتى أرسلوا وفداهم  
إلى المدينة يخبر النبي برغبتهم في الاسلام وانفساح قلوبهم له .

### إلى دار الهجرة

عاد المسلمون من الطائف إلى مكة ، لا يعاودوا المقام فيها بعد أن فتحتها الله عليهم  
بل لينظموا أمورهم ثم يرحلوا إلى مبعدهم الخالد ...

إن صلاتهم بالمدينة أضحت من العمق والقوة ، بحيث لا يرجحها وطن قديم  
ولا ذكريات عزيزة

روى أن النبي لما فتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو ، وقد أهدت به  
الأنصار فتهامسوا فيما بينهم : أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم  
بها ؟ فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا نرى . يا رسول الله ! فلم يزل بهم  
حتى أخبروه فقال . معاذ الله ، الهيا محياكم ، والمات مماتكم<sup>(٤)</sup> !

---

(١) ضعيف جداً ، رواه الواقدي كما في « البداية » ( ٣٥٠ / ٤ ) وهو منهم بالكذب .  
(٢) ضعيف ذكره ابن هشام ( ٣٠٣ / ٢ ) عن ابن إسحاق بلاغاً ، ورواه ابن لهيعة  
عن أبي الأسود عروة . وهو مع إرساله ضعيف .  
(٣) ضعيف ، أخرجه الترمذي ( ٣٧٩ / ٣ ) عن أبي الزبير عن جابر وقال : « حديث  
حسن صحيح » قلت أبو الزبير مدلس وقد عنعنه ، وقد تابعه عبد الرحمن بن سابط عند  
أحمد ( ٣٤٣ / ٢ ) ولا يكتنه لم يسمع من جابر ، كما قال ابن معين .  
(٤) حديث صحيح رواه بهذا السياق ابن هشام بلاغاً ، ووصله مسلم ( ١٧٠ / ٥ ) —  
( ١٧١ ) وغيره من حديث أبي هريرة نحوه . فتصديقه بلفظ : « روى » غير جائز .



ولما كان أهل مكة حدثاء عهد بالإسلام وفقههم في أحكامه ومراميه قليل ،  
فإن النبي خلف فيهم ( معاذ بن جبل ) يعلمهم كتاب ربه وسنة نبيه<sup>(١)</sup> .  
وجعل ( عتاب بن أسيد ) أميراً على مكة<sup>(٢)</sup> وهره يومئذ عشرون سنة .

وكان ( عتاب ) شاب زكياً ، قنوعاً شجاعاً ، وقد تقرر له من مال المسلمين  
درهم كل يوم ، هو مرتب الإمارة ، فقرت بذلك عينه ، بل إنه خطب الناس فقال :  
أيها الناس ، أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله درهماً كل  
يوم ، فليست بي حاجة إلى أحد . . .

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في الشهر الأخير من السنة الثامنة  
لله ما أفسح المدى بين هذه الأوبة للظافرة بعد أن توج الله هامة بالفتح المبين وبين  
مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام !

لقد جاءه مطارداً ، يبغي الأمان ، غريباً مستوحشاً ينشد الإيلاف والايناس  
فأكرم أهله مثواه ، وآووه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، واستخفوا

(١) ضعيف ، ذكره ابن هشام ( ٢ / ٣١١ ) عن ابن إسحاق بدون إسناد ؛ ورواه  
الحاكم ( ٣ / ٢٧٠ ) عن عروة مرسل ؛ وإسناده — على إرساله — ضعيف . وقد روى  
ابن عبد البر في ترجمة معاذ من « الاستيعاب » بإسناد صحيح عن عبد الله ابن كعب بن  
مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل معاذاً إلى اليمن عام فتح مكة . وهذا مرسل أيضاً  
فإذا صح فيكون إرساله بعد استخلافه في مكة والله أعلم .

(٢) إلى هنا حديث حسن ذكره ابن هشام وابن جرير ( ٢ / ٣٦١ — ٣٦٢ ) عن  
ابن إسحاق بدون سند ؛ ورواه الحاكم ( ٣ / ٥٩٤ — ٥٩٥ ) عن مصعب بن عبد الله  
الزبيري مضعلاً . وعمر بن شبة في كتاب مكة عن عمر مولى عفرة مضعلاً أيضاً والمحامي  
في الجزء الخامس من « الأمل » عن أنس بن مالك بسند ضعيف ، ولكنه يتقوى بما قبله  
إن شاء الله ، وأما باقي الحديث ، فلم أجده مستنداً وإن كان مشهوراً .

بعداوة الناس جميعاً من أجله ، وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته مهاجراً خائفاً للمستقبل مرة أخرى . وقد دانت له مكة ، وأقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها ، فأنهضها ليعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيئتها الأولى ( إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ) ..

### موقف المنافقين

وكان حقيقاً بالذين خالجتهم الريبة في رسالة محمد أن يتوسموا في هذه الآيات البينات ما يقربهم من دينه . ويفريهم بالتصديق ونبذ الجفوة والعناد . إلا أن النفوس الخسيسة تزداد شراً وجحوداً كلما ازداد خصومها نجاحاً وصعوداً .

فما تظنه سبب إقبالها ، قد يكون سبب انتكاسها . لذلك لا يستغرب أن يرجع رسول الله إلى المدينة ، فيجد قلوب المنافقين لا تزال مطوية على دخالها تهتم للفتاح العائد ، وهي تود لو لم تر تشجعه . يستوى في ذلك رؤساء المشائر الذين وهى سلطانهم أمام انتشار الإسلام ، وسواد الأعراب الذين يمرحون في البادية كالسوائم الغفل ، لا يكادون يفقهون حديثاً . وثم أمر آخر زاد في غواية المنافقين وتربصهم الشر بالإسلام ونبي الإسلام ، ذلك هو عرفانهم بالخصومة التي نشبت بين المسلمين والرومان ، وإدراكهم لما تحمله في أطوائها من خطورة وعنف .

فالعرب ينظرون إلى دولة الروم نظرة أهل أفريقيا اليوم إلى أوروبا وأمر يكاد ، إنما قوة لا تنال ولا تناوش .

وإن كان الرومان بهذه المثابة المرهوبة إن محمداً — كما عرف القوم من سيرته — لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ، وقد مضى برسالاته يذيب ما اعترضه من عوائق ، فتحا الوثنية ، وأجلى اليهودية ، وقاوم بطش الروم مقاومة الواصل المعتد .



والمناقون مسرورون بهذه الخسومة الجديدة ، يحسبون أن مقبرة الإسلام  
ستحفر فيها ..

لذلك لما أعلن النبي في المدينة أنه منطلق إلى « تبوك » تجمع رهط من المناقين  
فقال بعضهم لبعض - مشيرين إلى المسلمين - أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال  
العرب بعضهم بعضاً ؟

والله لكأننا بكم غداً مقرنين في الجبال ... إرجافاً وترهيباً للمؤمنين !!

## تبوك

عزم النبي أن يرسى العلائق بين الإسلام والنصرانية على دعائم مكينة .  
وهو لا يقبل مساومة في ترك دعاته أحراراً يعرضون دينهم على الناس ، فإن  
راقهم دخوله وإن ساء لهم تركه .

يجب أن تتاح الفرص المعقولة لإفهام الجماهير ما تدعى إليه .  
أما أن تقطع أعناق الدعاة وتقام الأسوار الكثيفة في وجوههم ، فهذا  
ما يقاومه الإسلام بالقوة .

ثم إن الرومان في الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان قوم غزاة  
لا تربطهم بأهل البلاد الأولين إلا صلات الفقر المادي والأدبي .

فالذي يعترض زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك : لم  
سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب ؟ وعن الطريقة التي يباشرون بها حكم  
هذه الأفطار المفلوبة على أمرها ؟

والمقارنة المنصفة تحمل ما يطلبه النبي شيئاً لا غبار عليه .

دعوا العقائد المختلفة تبين هن نفسها ، وتجذب الشعوب إليها ، أو تصرفهم  
عنها ... لكن هذا الطلب قوبل بالرد المسلح .

فلادولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن القرائس التي تضطرب داخل جدرانها

ولا كنيسة الروم ترحب بهذا الجو الجديد .

قلنا في كتابنا : « التمصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » في صدد غزوة تبوك :

« ... والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأى يخالف في الفروع النافمة ، فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها ؟ لأنه - لا يرى بين العباد وربهم وسائط - وينكر عقيدة الفداء التي تركز عليها - لأنه يبني الجزاء على عمل الإنسان وحده - .

فليس للإنسان إلا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ثم هو ينكر مبدأ الشراكة في الألوهية ، فليس للعالم إلا رب واحد ، يخضع له عيسى وأمه ...

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء ، وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها ... وتضمن الكنيسة بعدئذ انفرادها بالضمير البشري ، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده ، ويدعو للصلاة والفلاح .

وترامت إلى النبي في المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر ، وتاريخ النصرانية - منذ تولت الحكم - تؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت ...

فلم ير النبي بداً من استنفار المسلمين ، لملاقاة هذا العدوان المبيت .

والتهبؤ لملاقاة الروم ، جاء في أيام قيظ وقحط .

والسير إليهم يتطلب جهداً مضمناً ونفقة كبيرة .

وقتال الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدة ، بل هو كفاح مريع مع دولة تبسط سيطرتها على جملة قارات ، وتملك موارد ثرة من الرجال والأموال .

على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب ، والسكوت عن إحدى النصارى لهذا الدين ورغبتهم الملحة في القضاء عليه يعتبران نقحاراً وبواراً فليتحامل المسلمون على أنفسهم إذا وليوا جموعاً مستقبلهم بما يفرض من تضحيات وتضحيات .



والظروف المصيبة التي اكتنفت إعداد هذا الجيش سعى جيش العسرة .  
والآيات التي أنزلها الله في كتابه — متعلقة بغزوة العسرة — هي أطول ما نزل  
في قتال بين المسلمين وخصومهم .

وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الإسلام ، وإفهام المسلمين  
مغبة تقصيرهم في أداء هذه الفريضة ، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تقريط  
في حماية دينه ونصرة نبيه ، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة — دون قتال  
الروم — يعتبر مزلة إلى الردة والنفاق .

( يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله  
أثأقتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا  
في الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يُعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً  
غيركم ولا تضره شئاً ، والله على كل شئ قدير ) .

ومضت الآيات تتحدث في صرامة وعنف ، ففضحت المنافقين ، وكشفت  
عن المترددين . وأهانت طلاب الدعة والراحة ، الذين آثروا ظل القعود في  
بيوتهم وحقولهم ، على حر الصحراء ، ووعناء السفر ، ومتاعب الجلال .

( فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا  
بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا في الحر ، قل : نار  
جهم أشد حراً لو كانوا يفقهون ) .

وأنباء جيش العسرة تفيض بها صفحات طوال من سورة التوبة .  
ولعل من البين في أسلوب القرآن وهو يصف هذا الجهاد ، أنه لم تأخذه هوادة  
في التنويه بمن اشتركوا فيه ، والتنديد بمن تخلفوا عنه ، ولا عجب ، فتحدد موقف  
الإسلام من النصرانية ، هو يت في مستقبل الدين كله إلى الأبد .

فإما ثبت المسلمون أمام لدد الكنيسة المتعصبة ، وإما أحرقتهم نارها ، فلم يبق  
لدينهم أثر .

وكان لهذا الحزم أطيب النتائج ، فخرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها ، وانطلقوا صوب الشمال ، حيث تربض جيوش الروم ... » .

\* \* \*

وتجلبت - في هذا الإعداد - طوايا النفوس ، ومقدار ما استودعت من قبل إخلاص وسماحة ونشاط ، فهناك أغنياء أخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش وإمداده بحاجته ، من الرواحل والسلاح والخيل ، منهم « عثمان بن عفان » الذي سبق في بذله سبقاً بعيداً ، حتى أن الرسول عجب من كثرة ما أنفق ، وقال : « اللهم ارض عن عثمان فأني عنه راض » <sup>(١)</sup> .

ومنهم الفقراء الذين شاقهم الجود بأنفسهم في سبيل الله ثم أعجزتهم الوسائل التي تبليهم الميدان فسحت أعينهم الدمع لهذا الحرمان .

روى عن علي بن يزيد أنه قام من الليل يصلي ، فتهجد ما شاء الله ثم بكى وقال : اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به ، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ... وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلة أصابني فيها في مال ، أو جسد ، أو عرض ...

وأصبح الرجل - على عادته - مع الناس فقال رسول الله : أين المتصدق هذه الليلة ؟ فلم يقم أحد ، ثم قال : أين المتصدق ؟ فليقم ، فقام إليه فأخبره .

(١) ضعيف بهذا اللفظ ؛ رواه ابن هشام ( ٢ / ٣١٦ ) بإسناد معضل ، وقد رواه ابن شاهين في كتابه « شرح مذاهب أهل السنة » ( ج ١٨ رقم ٢٣ من نسختي ) من حديث عائشة لكن فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بهذا في مناسبة أخرى . وسنده ضعيف جداً ، بل موضوع وإنما قال صلى الله عليه وسلم بمناسبة جيش العسرة : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » رواه ابن شاهين رقم ٣ والحاكم ( ٣ / ١٠٢ ) وغيرهما من حديث عبد الرحمن بن سمرة ، وصححه الحاكم . ووافقه الذهبي ! وله شواهد ذكرها الحافظ ابن كثير في تاريخه ( ٥ / ٦ ) ، وآخر عند ابن شاهين ( رقم ٦١ ) .



فقال رسول الله : « أبشر ، فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة (١) » .  
وهناك أهل الريبة الذين يلتمسون للفرار الأعذار ، وتقعده بهم وكراهيتهم  
الإسلام عن إسداء أى عون له ، فمهمات أن يُعدوا للخروج عدة ، أو يقيموا  
للخارجين عوداً .

ومن أسخف الأعذار التي تحملها أوائك القاعدون المنافقون ما قال الجد بن  
قيس للنبي — وقد عرض عليه الجهاد — : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ؟  
فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدّ عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن  
رأيت نساء بني الأصفر « الروم » ألا أصبر .  
فأعرض عنه رسول الله (٢) وفيه نزلت الآية .

( وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتُذَنُّ لِي وَلَا تَفْتَنِي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنْ  
جَهَنَّمَ لَحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ) .

وهناك الذين فترت — أول الأمر — همهم ، فلما جدّ الرحيل وانطلق  
الجيش ، أحسوا خطر التخلف على إيمانهم ، فنهضوا يدركون ما يوشك أن يفوتهم  
منهم « أبو خيثمة » عاد يوماً إلى أهله — بعد مسير النبي وصحبه — وكان اليوم  
قائظاً ، فوجد امرأته كاتيهما ، قد أعدتا له الطعام الشهى والماء البارد الروي ،  
ووجد مسكنه مبللاً رطباً ، وسط بستانه الذي أخذ بُسرُهُ الأحمر ينضج ويسودُّ .  
فاستيقظ ضمير الرجل ، وقال : رسول الله في الشمس والريح والحر ،  
وأبو خيثمة في ظل بارد ؟ وطعام مهياً ؟ وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟ والله ما هذا  
بالنصف . !

(١) صحيح ، ذكره ابن إسحاق في « المغاري » بدون إسناد . وقد ورد مسنداً موصولاً  
من حديث مجمع ابن حارثة وعمر بن عوف وأبي عيسى . وعليه بن زيد نفسه وقتيبة كما  
بينه الحافظ في « الإصابة » فليراجعها من شاء .

(٢) ضعيف رواه ابن هشام (٣١٦/٢) عن ابن إسحاق بسنده مرسل . وكذلك  
رواه عنه ابن جرير (٣٦٦/٢ - ٣٦٧) .

ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ، فميتا لي  
زادا ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحله .

وأمرع الرجل المؤمن ، يطلب رسول الله ، حتى أدركه حين نزل تبوك .

\* \* \*

وعانى الجيش الذهاب إلى تبوك مصاعب ثقيلة ، روى الإمام أحمد في تفسير  
قول الله عز وجل ( لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في  
ساعة العسرة ) . قال خرجوا في غزوة « تبوك » الرجال والثلاثة على بعير  
واحد ، وخرجوا في حر شديد ، وأصابهم عطش ، حتى جعلوا ينحرون إبلهم  
لينفضوا أكراشها ، ويشربوا ماءها ، فكان ذلك عسرة في الماء ، وعسرة في  
النفقة ، وعسرة في الظهر .

وعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن ساعة العسرة  
فقال عمر : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا  
أن رقابنا ستقطع . حتى إن الرجل لينحز بعيره فيعتصر فرثه فيشربه . ثم يعمل  
ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله عودك في الدعاء  
خيرا فادع الله لنا ! فقال : أو تحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع رسول الله يديه إلى  
السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء - أي آذنت تمطر - فأطلت ، ثم سكبت فملأوا  
ما معهم ثم ذهبنا ننظر ، فلم نجد ما جاوزت للعسكر <sup>(١)</sup> .

---

(١) ذكره ابن كثير في التاريخ (٩/٥) من رواية عبد الله بن وهب بسنده عن  
ابن عباس ، ثم قال : « إسناده جيد » وهو عذري غير جيد لأنه من رواية عتبة بن  
أبي عتبة . وقد ذكره الحافظ في « اللسان » ( ١٢٩/٤ ) وذكر أن العقيلي أوردته  
في « الضعفاء » ثم ساق له حديثين ثم قال : « ولا يتابع على الحديثين جميعا » نعم قد  
أورد الحديث الهيثمي في « المجمع » ( ١٩٤ / ٦ - ١٩٥ ) ثم قال : رواه البزار  
والطبراني في الأوسط : و « رجال البزار ثقات » فإذا صح هذا - فالحديث حسن إن  
شاء الله أو صحيح .



قال ابن اسحاق : وكان في الجيش رجل منافق فقالوا : ويحك هل بعد هذا من شيء ؟ فقال : سحابة مارة .

وفي الطريق مر المسلمون بالديار التي كانت ثمود تسكنها وهي أطال هامة وآثار بقيت تذكر بغضب الله على من كذبوا رسله وتبعجوا عقابه فقال رسول الله : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم » .

والظاهر أن النبي يريد ألا يغفل المسلمون عن مواطن العظة ، وألا يستهينوا بما خلا قبلهم من مثلات فإن المرء لو قيض الله له أن يزور السجون ، وبشده مثلًا غرفة الإعدام — فليس يليق أن ينظر إلى حبل المشنقة وهو شارد أو ضاحك لا أقل من بعض الأمي لأحوال المجرمين ومصارعهم !

وروى أحمد عن جابر لما مر النبي بالحجر قال : لا تسألوا الآيات — خوارق العادات — فقد سألها قوم صالح ، فبعث الله لهم ناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعمتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهد الله بها من تحت أديم السماء منهم . . . » (٢)

(١) صحيح أخرجه أحمد ( رقم ٥٢٢٥ ، ٥٣٤٣ ، ٥٤٠٤ ، ٥٤٤١ ، ٥٦٤٥ ، ٤٧٠٥ ، ٥٩٣١ ، ٤٥٦١ ) من حديث ابن عمر وهذا أحد ألفاظه ! وأخرجه البخاري ( ١٠٢/٧ ) ومسلم ( ٢٢١/٨ ) نحوه .

(٢) في المسند ( ٤/٣٩٦ ) من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر . وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه ( ٥/١١ ) : « إسناده صحيح » وكذلك صححه الحاكم من هذا الوجه ( ٢/٣٤٠ — ٣٤١ ) ووافقه الذهبي . واقتصر الحافظ في « الفتح » ( ٢٩٤/٦ ) على تحسينه وهذا أقرب . وفي كل ذلك عندي نظر ! فقد تعلمنا منهم أن أبا الزبير مدلس وأنه لا تقبل روايته المعتبرة إلا إذا كانت من رواية الليث بن سعد عنه وهذه ليست منها ! وقد قال الذهبي : « وفي صحيح مسلم عدة أحاديث لم يوضح فيها أبو الزبير السماع عن جابر ولا هي من طريق الليث منه . ففي القاب منها شيء » قلت : فكيف يصح إذن ما ليس منها في صحيح مسلم كهذا ؟ !

والنهي عن سؤال الآيات عود بالناس إلى الأحوال المألوفة ، إذ لا جدوى  
في الخروج عليها وخير للسائلين أن يبذلوا طاقتهم في أداء وما يكلفون به ، وأن  
يرققوا قلوبهم حتى تلين لأمر الله .

فإن من قبلهم شهد العجائب ، ثم أغرتهم فسوة القلب بازدرائها ، فحقت بهم  
العنة .

• • •

وباغ المسلمون « تبوك » فلم يجدوا بها كيداً . أو يواجهوا عدواً  
ولا بد أن الروم آثروا الاختفاء داخل حدودهم عن ملاقات هذه القوة الفتية  
وصالح النبي متنصرة العرب الضاربين في هذه الأرجاء .

قدخل في عهده أهل « أيلة » و « أذرع » و « تباء » و « دومة الجندل » وأيقنت  
القبائل التي تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على ماداتها الأقدمين قدفأت أوانه .  
وغزوة تبوك تشبه غزوة الأحزاب ، فإن بلاء المسلمين أولها كان شديداً . ثم  
جاء ختامها طمأنينة وعزة ومكث الرسول هنالك بضعة عشر يوماً ، يمد بصره  
وراء الصحراء حيث اختفى الرومان ، يرقب منهم أي حركة ، فلما رأى القوم قابضين  
مستكينين ، قرر أن يقفل عائداً إلى المدينة ، موفوراً منصوراً .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ولاحت له معالمها من بعيد . فقال :  
هذه طابة ! وهذا « أحد » جبل يحبنا ونحبه <sup>(١)</sup> ! وتسامع الناس بمقدمه فخرج  
النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع  
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

لقد قوبل جيش العسرة في مرجعه هذا بحفاوة بالغة . إنه أكبر جيش خرج مع  
رسول الله ، إذ وصل تعداده نحو الثلاثين ألفاً ولم ينس النبي في ذهابه وإيابه أصحاب  
القلوب الكبيرة الذين صعب عليهم أن يجاهدوا معه فتخلفوا راغمين والمعبرات تملأ

(١) صحيح . أخرجه الشيخان وغيرهما .



عيونهم عن أنس بن مالك : أن رسول الله رجع من غزوة تبوك ، فدنا من المدينة فقال : إن في المدينة أقواماً ما سرتهم مسيرة ، ولا فطمت وادياً إلا كانوا معكم ، فقالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ . قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر<sup>(١)</sup> .

بهذه المواقعة الرقيقة كرم النبي الرجال الذين شيعوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم فأصلح بالهم وأزاح همّاً ثقيلاً عن أفئدتهم .

أما المنافقون من مؤملي الشر ودعاة الهزيمة ، والأعراب الذين اعتبروا الإسلام نكبة حلت بهم ، فهم يتربصون الدوائر بأهلها أما هؤلاء وأولئك فأمامهم عناء طويل .

### المخلفون<sup>(٢)</sup>

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فجاء المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم . ووكل سرائرهم إلى الله .

وجاءه « كعب بن مالك » فلما سلم عليه ، تبسم تبسم المفضب ، ثم قال له : تعال قال : فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى والله ، إن لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً . واسكني والله ، لقد علمت إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به علي ، ليوشكن الله أن يسخطك علي . وأن حدثتك حديث صدق مجد علي فيه ، إني لأرجو فيه عفو الله عني .

(١) صحيح أخرجه البخاري (١٠٣/٨)

(٢) هذه الرواية من خلاصة لزاد المعاد .

والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله

فيك . ففعلت .

وثار رجال من بني سلمة ، فاتبعوني يؤنبونني ، فقالوا لي : والله ما علمناك كنت

أذنبت ذنباً قبل هذا . ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بما اعتذر إليه المخافون ، فقد كان كافيك ذنبك ، استغفار رسول الله صلى الله

عليه وسلم لك قال : فوالله ما زالوا يؤنبونني ، حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي .

ثم قلت لهم : هل لقي هذا معنى أحد ؟ قالوا . نعم رجلان ، فالأمثل ما قلت فقل

لهما مثل الذي قيل لك ، فقلت . من هما ؟ قالوا « مرارة بن الربيع العامري » و « هلال

بن أمية الواقفي » فذكروا رجلين صالحين شهدا بدرأ ، فيهما أسوة !! .

فمضيت حين ذكر وهما لي .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا - نحن الثلاثة - من بين

من تخلف عنه .

فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي الأرض ، فما هي بالتى أعرف !

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحبائى فاستكانا وتعدا في بيوتهما يبكيان .

وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلهم ، فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين

وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم

عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة . فأقول في نفسي . هل حرك شفيعه برد السلام أم لا ؟

ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلى ، وإذا التفت

نحوه ، أعرض عني .

حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط



أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي - فسألت عليه ، فوالله ما رد علي السلام !!  
فقلت : يا أبا قتادة أنشدك الله ، هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت .

فعدت له ، فنشده فسكت فعدت له فنشده ، فقال : الله ورسوله أعلم !

ففاضت عيني ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

فبينما أنا أمشي بسوق المدينة . وإذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه  
بالمدينة يقول : من يدل علي « كعب بن مالك » ؟ فطلق الناس بشيرون له حتى  
إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان ، فإذا فيه : أما بعد فإنه بلغني أن  
صاحبك قد جفك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيمة ، فالحق بنا نواسك » .

فقلت لما قرأتها - : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيمنت بها التنور فسجرتها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الحسين إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يأتيني فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تترك امرأتك ، فقلت :  
أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا ، ولكن اعزلها ولا تقر بها .

وأرسل إلي صاحبي مثل ذلك . فقلت لامرأتي : الحق بأهلك . فكوني  
عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر .

فجاءت امرأة هلال بن أمية ، فقالت يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ  
ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك قالت :  
إنه - والله - مابه حركة إلى شيء . والله ، مازال يبكي ، منذ كان من أمره  
ما كان ، إلى يومه هذا .

قال « كعب » : قال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟ فقلت : والله لا استأذنت فيها  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا  
استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟ ولبت بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون  
ليلة من حين نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا .

فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ، على سطح بيت من بيوتنا ، وبيننا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى ، قد ضاقت على نفسي وضافت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر !

فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج من الله .

وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله عليهما حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون . وأركض إلى رجل فرساً ، وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على ذروة الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزعته له ثوبين فكسوته إياهما يبشراه ، والله ما أملك غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فتلقاني الناس فوجافوجا ، يهنئونني بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك . قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، وحوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صاحفني وهنأني ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، ولست أنساها لطلحة .

فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : — وهو يبرق وجهه من السرور — : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال : قلت : أهو من عندك يا رسول الله ، أم من عندك الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه .

قال جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخير .



فقلت يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق . وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فو الله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ما أبلانى ، والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومى هذا كذبا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت ، فأنزل الله تعالى على رسوله ( لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأَنْصار ) . إلى قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ) فو الله ما أنعم الله على نعمة قط — بعد أن هدانى للإسلام — أعظم فى نفسى من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبتة ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، قال : ( سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ) إلى قوله ( فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ) .

قال كعب : وكان تخلفنا — أيها الثلاثة — عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ أمرنا ، حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله ( وعلى الثلاثة الذين خلفوا ) . وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه . (١)

### مسجد الضرار

ملك النبي صلى الله عليه وسلم مع الذين يتظاهرون بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء ، يقبل منهم أعذارهم — وهى مختلفة — ويتكرم عن فضحهم وهم يتفلتون من قيود السمع والطاعة . فإذا تلبس أحدهم بخيانته تهدر دمه ، رغب

(١) صحيح أخرجه البخارى (٩٢/٨ - ١٠٠) بطوله وكذا مسلم (١٠٦/٨ - ١١٣)

في التجاوز عنه حتى لا يقال : إن محمداً يقتل أصحابه وما هم في صحبته من شيء .  
ولكن هكذا سيقول الناس .

ولو أن هؤلاء المنافقين كانوا على قليل من الخير ، لأسرهم هذا الحلم وانخلعوا  
من خداعهم الصغير وأقبلوا على الإسلام طيبين خالصين بيد أن هذا الأسلوب  
العالى في معاملتهم لم يزد هم على الله ورسوله إلا جرأة فزاد افتياتهم وربت  
شرورهم ، ولم يبق بد من كشف خبثهم ، وإشعار جمهور الأمة بما تنطوى عليه  
نفوسهم وأعمالهم .

وقد نزلت الآيات أخيراً تندد بما فعل أولئك المنافقون ، وتمزق الأستار  
التي يقوارون خلفها ، وكانت ألعينهم قبل « تبوك » وبعدها هي النهاية  
الحاسمة للسماحة التي مرحوا في سعتها طويلاً ولم يقدروها حق قدرها . فأمر النبي  
صلى الله عليه وسلم أن يعلن على الناس ذبذبتهم ونكوصهم وكأف ألا يقبل  
منهم وألا يصلى عليهم ، بل عرّف أن استغفاره لهم أن يجاب ، ثم طوّل المسلمون  
كافة أن يقطعوهم .

ومن أعجب ما تفتت عنه حيل المنافقين أن يبنوا مسجداً يلتقون فيه وحدهم ،  
ويمكرون فيه بالإسلام تحت ستار التجمع على العبادة ، وقد ذهبوا للرسول قبل  
رحيله إلى تبوك يقولون له بنيينا مسجداً لذى العلة والحاجة واليلة المطيرة ومحب أن  
تأتينا فتصلى لنا فيه ؟ فاعتذر لهم بأنه على جناح سفر وحال شغل . وقال لو قدمنا  
— إن شاء الله — أتيناكم ، فصلينا لكم فيه (٢)

فلما آب النبي صلى الله عليه وسلم بحيشه ، وتخرج موقف المنافقين وانكشف  
خبائهم ، أرسل اثنين من أصحابه إلى هذا المسجد وأمرهم أن يحرقوه ويهدموه ،

(١) ضعيف رواه ابن هشام ( ٣٢٢/٢ ) عن ابن إسحاق بدون إسناد . لا كذا كره  
ابن كثير في التفسير ( ٣٨٨/٢ ) من ابن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله  
ابن أبي بكر وعاصم بن عمر وابن قتادة وغيرهم مراسلاً . والله أعلم .



وجاء الصاحبان إلى المسجد يحملان الشعل الحارقة وأخذوا يأتیان عليه ، وفيه أهله الذين فروا مذعورين لم رأى اللهيب ، يدمر آخر ما شاد النفاق من حيل .

ونزل قوله تعالى : ( والذين اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَايْتَحِلْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى . وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ه لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا \* لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ... )

### طلیعة الوفود

استغرق المسير إلى تبوك والمآب منها أياماً طويلاً ، فقد خرج المسلمون إليها في رجب ، وعادوا في رمضان ليؤدوا ما عليهم من فريضة الصيام ، ولم يلبثوا طويلاً حتى جاءت البشريات بأن وفد ثقیف قدم إلى المدينة ليفاوض رسول الله على الدخول في الإسلام ، لقد استجاب الله دعوة نبيه لأهل الطائف أن يسلم قيادهم للحق فيأتوا طائعين ، وكان أهل الطائف — بعد أن انقض الحصار المضروب عليهم — قد أخذوا يتروّون في شأنهم ومصيرهم ، إلا أن جمهورهم لما يزل على ولائه للأصنام وصدوده عن الإسلام .

وحاول رئيسهم « عروة بن مسعود » أن يتحدث إليهم في نبذ هذه الجاهلية ، وعروة فيهم سيد مطاع محبوب ، خير أن نخوة الامتناع استبدت بهم ، فلما أظهر الرجل دخوله في الإسلام ودعاهم إلى ذلك ، رموه بالنبل فقتلوه ..

ولم ييأس العقلاء من رشد قومهم ، ولم تستطع ثقیف كذلك تجاهل ما حولها ، فإن دولة الأصنام تدبر في كل مكان . وأمر الإسلام يعلو يوماً بعد يوم .

فاجتمع عمرو بن أمية بـ « عبد ياليل بن عمر » وقال له : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما رأيت ، وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحرهم طاقة ، فانظروا في أمركم .

ورأت ثقيف أن تبعث وفدها إلى رسول الله ليصل إلى وضع تقرُّ به ،  
وتألف الوفد من ممثلين لعشائر ثقيف كلها ، حتى يلتزموا ما يصل إليه من شروط .  
وجادل الوفد رسول الله جدالاً طويلاً يبغي أن يظفر منه بإقرار لبعض مآثر  
الجاهلية ، ورسول الله يأبى أشد الإباء . وطلبوا منه أن يدع « اللات » ثلاث سنين  
ثم يهدمها ، ثم ساوموه على سنتين ، ثم سنة ، ثم شهر واحد بعد مقدمهم ، والنبي  
يأبى إلا هدمها دون توقيت أمد معين .

فلما يئسوا سألوه ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، أجابهم إلى ذلك بإرسال من  
يكسرها لهم ! .

وسألوه أن يضع عنهم الصلاة ! فقال رسول الله : لا خير في دين  
بلا صلاة<sup>(١)</sup>

• • •

وعاد الوفد إلى الطائف ، ومعه المغيرة بن شعبه وأبو سفيان بن حرب ليهدما  
« اللات » وكان هدم « اللات » يوماً مشهوداً ، فان نسوة ثقيف خرجن حاسرات  
الرءوس يبكين ويصرخن وهن يرين الفئوس تهدم الهن ، وطالما خشعن له وذبحن  
حوله وسقن له النذور ، ويروى أن المغيرة كلما هوى بالقأس على بنيان الصنم قال  
أبو سفيان واهالك ! آهالك ! تأسفاً ولعله كان يسخر أو يواسي نساء ثقيف . .  
ولا مرأى في أن استسلام ثقيف ثم دخولها الاسلام يُعدُّ كسباً كبيراً ،  
وفتحاً جديداً فلم يبق قبيل عزيز الجانب في الجزيرة إلا وقد دان لله ورسوله .  
أما القبائل التي لمسا نزل على جاهليتها . فهي أوزاع توشك أن تستبين الحق  
وتستريح له . إن الليل المضروب عليها لن يطول سواده بل تباشير الفجر قد خالطته  
هنا وهناك حتى لم يبق لظلمته مكان تتشبث به .

(١) ضعيف ، ذكره ابن هشام ( ٢٢٥/٢ - ٣٢٦ ) عن ابن إسحاق معضلاً ، والجملة  
الآخيرة وصلها أبو داود ( ٤٢/٢ ) وأحمد ( ٢١٨/٥ ) عن الحسن بن عثمان بن أبي العاص  
مرزوقاً نحوه . ورجاله ثقات لكن الحسن وهو البصري مدلس وقد عمنه .



قال ابن إسحاق : لما افتتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبليست ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهادبهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل - وقادة العرب لا ينكرون ذلك - وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله وخلافه .

فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام ، عرفت العرب أنها لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله أفواجاً يضربون إليه من كل وجه .

يقول سبحانه وتعالى لنبيه ( إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ه وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ه فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ) .

بعدكم من السنين بلغ النبي هذه المرحلة ؟ بعد اثنين وعشرين سنة من الدعاية الحثيثة ، والتذكير الدائم ، وتحمل الأذى ، وكفاج العدوان ...  
فإن كانت هناك بقايا من العافلين لا تزال تضرع للأصنام وتحيا على الفوضى ، فإن فطامها عن هذه الرذائل لا ينكره ذواب أمرة ، ومن ثم اتجه الإسلام إلى ضرورة تطهير الجزيرة كلها من عبادة الأوثان ، وإشعار المشركين بأن أمامهم مهلة محدودة للتخلص من أدرانها .. ثم تعرفهم كذلك بأن الأصنام التي كانوا يقدسونها حول الكعبة قد أزيلت فأصبحت الكعبة قبلة مسجد يؤمه الموحدون ، وليست مطاف جهال يقبركون بالحجارة ، وأن تقاليد العري التي شاعت في الجاهلية جعلت المطاف يزدحم بالسوءات المكشوفة قد نبذها الإسلام ، فلن يسمح في عهده بالتبذل القديم .

وأقبل موسم الحج في السنة الثامنة ، والمشركون على ما أفوا ، إنهم يؤثمون البيت العتيق ، ولا يتعظون من مصير الأصنام التي تكسرت ! أين الآلهة التي

قضوا أعمارهم ينحنون لها ويتوسلون بها ؟ لقد هُشمت ودبست ! ومع ذلك فإن عبادها لبثوا مشركين . . . وقد تكون في نفوسهم حسرات لخلو الكعبة منها إن من حق المسلمين أن يضموا حداً لهذه الممازل ، وأن يزيحوا عن كرامته البشر هذا الهوان .

### حج أبي بكر

بعث رسول الله أبا بكر أميراً على الحج ليقم بالمسلمين المناسك ، فخرج من المدينة يسوق البدن أمامه ، مواياً وجهه شطر المسجد الحرام ، ونزل الوحي بسورة براءة بعد انصراف أبي بكر ووفد الجميع ، فأشير على رسول الله أن يبعث بالآيات إليه ليقراها على أهل الموسم كافة . . .

ورأى رسول الله أن يرسل بها على بن أبي طالب قائلاً : لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي <sup>(١)</sup> ، وذلك من رسول الله تمشٍ مع عادة العرب في هجده الهدماء والأموال .

الأتري أنه قبل هجرته وكل إلى على ردّ الأمانات إلى أهل مكة ؟ إن أوامر القربي تقتضي التكافل التام في هذه الشؤون ، فكان الرسول أدنى بيده ما أدامه على عنه ، وكأنه ، قال بلسانه في الموسم ماسية قرؤه على بين الناس .

ورعاية هذا الإلهام ليست فريضة بل هي من النبي زيادة حيطة وإعذار . قال ابن إسحاق : ثم دعا على بن أبي طالب فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأدّن في الناس يوم الفجر إذا اجتمعوا بـ « مني » : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

فخرج على يمتطي العضباء - ذقة رسول الله - حتى أدرك أبا بكر بالطريق .

(١) حديث حسن رواه ابن هشام ( ٣٢٨/٢ ) عن ابن إسحاق عن أبي جعفر محمد بن علي مرسل ، لكن له شواهد يتقوى بها ذكرها ابن كثير في تاريخه ( ٣٧/٥ - ٣٨ ) .



فلما رآه أبو بكر سألته : أمير أم مأمور ؟ قال : بل مأمور ، ثم مضى <sup>(١)</sup> .  
أبو بكر - كما كلفه رسول الله - يقيم للناس المناسك ، وعلى يؤذن في الناس  
بما أمر به ، ويقرأ على العرب صدر الصورة التي فصلت في أمرهم وأجهزت على  
الوثنية في بلادهم .

وكان هناك مؤذنون آخرون بهم أبو بكر في الجامع الكبيرة يعينون علياً على  
إبلاغ رسالاته ويصيحون هنا وهناك . لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت  
عريان ، وعن زيد بن يفيع سألنا علياً . بأي شيء بعثت في الحجة ؟ قال : بعثت  
بأربع ؟ لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع  
مسلم وكافر في المسجد الحرام بعد عامه هذا ، ومن كان بينه وبين النبي عهد فعنده  
إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر <sup>(٢)</sup> .



وقد تكلمنا في موضع آخر عن مكانة المعاهدات <sup>(٣)</sup> في الإسلام ، وشرحنها  
ما تضمنه صدر سورة التوبة من أحكام .  
وليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية ، عمل  
إنساني نبيل . وأن اعتراضاً عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير الأمم ويقضي لها  
السمو والكرامة .

وبحسب الإسلام أنه ظل اثنين وعشرين عاماً يحارب الخرافة بالتعليم والتربية  
كما أتيحت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب ، وبالقصاص والقتل كما وقف  
في طريقه الجهل والضلال يبطلون سعيه أو يصدون عنه .

(١) حديث حسن ، وهو تمام حديث أبي جعفر المتقدم .

(٢) صحيح . أخرجه أحمد ( رقم ٥٩٤ ) والترمذي ( ١١٦/٤ ) وصححه .

(٣) كتابنا « تأملات في الدين والحياة » .

وقد منح الإسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة ، وترك من يرتد عنه يرجع إليها إذا شاء ، ولم يفعل ذلك إعزازاً لها ، إنما هو حسن ظن بعقل الإنسان وضميره . . . .

فقل من يسهون أنفسهم ، ويتركون الله العظيم ، إلى صورة من حجر أو خشب أو طعام .

فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شيء ، وأنهم يستغلون الحق الممنوح لهم في الفتنة والعدوان والقتل ... لم يبق لتركهم من حكمة .

إن الكلاب العقور لا يترك طليقا ، فإذا أملت من قيده فأهدر دمه ، فمن السفه اعتبار ما حدث جريمة قتل .

والذين يظنون ، أو يحلو لهم الظن بأن الاملام عندما طارد الوثنية ، خنق حرية الرأي . هم أشخاص واهمون أو مغرضون .

وعلى هدى التجارب والمصائب التي عاناها المسلمون طوال اثنين وعشرين عاما تعرف سر الفضب الذي اشتعل آخر الأمر ، ولم نزل الوحي يعالني المشركين بالقطيعة ، ويرفض منهم كل اعتذار ؟ ثم يسرد ما أملفوا من سيئات على أنه خليقة فيهم ، ولم ينفكوا عنها يوما ، ولا ينفكوا عنها أبداً .

ومن ثم فلا مكان لأصنامهم بعد المهمة المضروبة لهم ( براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين \* فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين \* وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله يرى من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم ) ...

ومن قبل هذا النذير الخوف ومن بعده كانت أفواج الوافدين تنطلق صوب المدينة تباع رسول الله على أن تخلع رداء الجاهلية ، وتدخل في الدين الحق .



وهذه الوفود المقبلة ، عرفت — خلال السنين السابقة — طرفاً يسيراً عن الإسلام . . .

فقد شاع في أرجاء الجزيرة كلها نبأ الرسالة الجديدة ، وما تضمنته من عقائد ، وما تقرضه على أتباعهم من تعاليم .

وتتبع المحبون والمبغضون كفاحها الموصول في طلب الحياة ، ومبلغ ما بذلت وبذل أعداؤها حتى انتهت الأمور بهذا الختام المبين .

ونحن نعلم أن الحزب الذي يبدأ نشاطه بأنصار قلائل يتضاعف الإقبال عليه عندما تلمع له وقفات مشرفة ، ويتاح له نصر كبير .

فكيف إذا اختفى خصومه ، وتألقت مجومه ؟ .

فلا جرم أن المدينة تندفق عليهم اسبول الراغبين في اعتناق هذا الدين ، وأول الراغبين في مسالمة ، ورسم سياسة تقوم على التعاون معه .

ولسنا بسبيل إحصاء هذه الوفود القادمة من المشرق والمغرب .

لكننا نسوق مثلين لوفدين : أحدهما وثني ، أقبل يبغى الإسلام ، والآخر نصراني ، جاء يستطلع النبأ ويفاوض ويعاهد بعد جدال ولجاجة .

## وفد للأميين ووفد لأهل الكتاب

أرسلت قبيلة سعد بن بكر « ضمام بن ثعلبة » وفداً إلى رسول الله .

فامتطى « ضمام » بعيره ، حتى دخل المدينة فأناخه على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله جالس في أصحابه .

وكان « ضمام » رجلاً جليداً . أشعر ، ذا خديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله في أصحابه . فقال : أيكم عبد المطلب ؟

فقال رسول الله : أنا ابن عبد المطلب ! قال : أحمد ؟ قال : نعم !

قال : يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك المسألة ، فلا تجدن في نفسك .

قال : لا أجد في نفسي ، فسل عما بدالك .

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك  
يا الله بعثك إلينا رسولا ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فأنتدك إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك  
آله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده ، ولا نشرك به شيئا ، وأن نخضع هذه  
الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟

قال : اللهم نعم .

وفي رواية أنه قال : يا محمد أتانا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ؟  
قال . صدق ! قال : فمن خلق السماء ؟ قل الله ! قال : فمن خلق الأرض ؟  
قل : الله ! قل : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله  
قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آله أرسلك ؟  
قال : نعم . . .

قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا قال :  
صدق ! قال : فبالذي أرسلك : آله أمرك بهذا ؟ قال ، نعم !  
ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو ، حتى إذا فرغ قال :  
فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض  
وأجتنب ما نهيتني عنه . ثم لا أزيد ولا أنقص ، وانصرف إلى بيته راجعاً .  
فقال رسول الله : إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة <sup>(١)</sup> .

فأتى ضمام بغيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه .  
فكان أول ما تكلم به أن قال : بُئست اللات والعزى !! قالوا : مه يا ضمام !

---

(١) قال الحافظ ابن كثير (٦٩/٥) : « هذا يدل على أنه ( يعني ضماما ) رجع إلى قومه قبل الفتح لأن « العزى » خربها خالد بن الوليد أيام الفتح :



اتَّقِ البرص ، اتَّقِ الجذام ، اتَّقِ الجنون .. قال : ويلكم ، إنهما - والله -  
لا يضران ولا ينفعان .

إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى  
أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم  
من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ...

قال : فوالله ما أمسى فى الحى من ذلك اليوم رجل ولا امرأة إلا مسلماً<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

ذاك وفد يمثل بساطة الأميين فى منطقهم ، وسلامة طويتهم فى جدلهم وتساؤلهم  
وخلو أذهانهم من العقد التى تعترض الحق فى مسيله السمع .  
ولا نكران فى أن جهاد الدعوة القديم ، له أثره فى الوصول إلى هذه النتائج  
السريمة .

وهذا طبعى فإن تغيير دين ليس كتجديد زى ، و « ضام بن ثعلبة » كان  
يستحضر فى ذهنه وهو يسأل النبىؐ ثم وهو يخاطب قومه أن هذه الرسالة الجديدة  
مرت بأطوار شتى من الحن والفتن ، كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها ، فليس  
إيمانه وإيمان قومه ، وليد مداعة من كلام .

ذاك وفد الأميين ، وهو مثل لوفود أخرى كبرت أو صغرت ، أمت المدينة ،  
اترى هذا النبىؐ وتبايعه ، ثم تؤوب إلى قومها ، حاملة الهدى والخير .

\* \* \*

أما أهل الكتاب فإن قلة منهم شرحت صدراً بالحق ، وسارعت إلى اعتناقه  
ومؤازرته ، والكثرة الباقية ، اختلفت عداوتها له ، شدة وفتوراً .

---

(١) حديث حسن . بهذا التمام ، رواه أبو داود (٧٩/١) والحاكم (٣/ ٥٤ - ٥٥)  
وأحمد ( رقم ٢٣٨٠ ) من حديث ابن عباس ، وقال الحاكم : « صحيح » ووافقه الذهبي  
ورواه ( مسلم ٣٧/١ ) وغيره مختصراً ، والرواية الأخرى له .

أبى اليهود إلا إبادة الإسلام ، فوقعوا في شرور نيتهم ، وباد سلطانهم العسكري والسياسي ، قبل أن يدركوا هذه الغاية .

وقبلهم الإسلام في دولته القـائمة أفراداً يبقون على ديانتهم ما أحبوا ، ولا يـمكـنـون من تجمع على عدوان ودس .

وذلك حقه لا ريب !!

ولم تصدر الحقوق الشخصية ليهودي تحت سلطان الإسلام ، وحسبك أن النبي نفسه — لكي يقترض من يهودي — ارتبته درعه<sup>(١)</sup> ... وما فكر قط في إخراجهم بما يملك من سلطان بعيد ...

وكان النصراني أخف خصومة ، حيث ابتعدوا عن سلطان الكنيسة ... فأسلم بعضهم عن طوعية وإعجاب بما في الإسلام من سهولة واستقامة ... وبقي الآخرون على ما ورثوا ...

وسارت الملاقة بين الدينين في مجراها الذي أبنا عنه آنفاً ، حتى تحولت إلى حرب طاحنة بين المسلمين والرومان ...

وكانت النصرانية — مع تفوق الرومان السياسي والعسكري — تعود شمل الجزيرة وجنوبها ...

فرأى المسلمون — وهم في حرب مع دولة الروم — أن يحددوا موقفهم مع نصارى الجنوب ، خصوصاً وأن الروم كانوا يقدقون العطايا على مبشرهم هناك ، ويبنون لهم الكنائس ، ويسيطون عليهم الكرامات ، ويشجعونهم على المضي في تنصير القبائل المتوطنة بهذه الأرجاء .

فارسى النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران كتاباً جاء فيه «باسم الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ..

---

(١) صحيح أخرجه البخاري وغيره .



وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ...

فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب ، والسلام<sup>(١)</sup> :

فأرسلت نجران — وهي كعبة النصرانية جنوبا — وفداها إلى المدينة ليقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتفاهم معه ، ووافى الوفد المدينة بعد العصر ، ودخل المسجد :

فكان أول ما صنع أن أتجه إلى بيت المقدس يصلي لله على ما تقضى به طقوس المسيحية ، وأراد الناس منهم ، فقل رسول الله . دعوهم<sup>(٢)</sup> ... حتى انتهوا من عبادتهم ...

ورآهم النبي صلى الله عليه وسلم قد لبسوا الملاحات أردية الكهنوت الفاخرة ، وتحملوا بنحواتهم الذهب ، وجاءوا يخبون في الحرير ، وتبدو لهم — بين القلائس والطيارس — ميماء التكلف الشديد .

فأبى أن يتحدث معهم ، حتى يرجعوا إلى ملابس سفرهم ، ويدعوا هذه الزينة<sup>(٣)</sup> ...

والأغرب أن بعضهم سأل النبي ، أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما يعبد عيسى ابن مريم ؟ وإلى ذلك تدعونا ؟

(١) ضعيف ، رواه البيهقي عن يونس بن بكير عن سلسلة من يسوع عن أبيه عن جده . وهذا سند مجهول . سلسلة هذا ، ومن فوقه ، لم أجد من ترجمهم ، وأبو يسوع لم يورده الحافظ في « الكنى » من الصحابة . قاله أعلم . ثم رأيت ابن كثير قد ذكره في التفسير (٣٦٩/١) ووقع فيه : « سلسلة من عبد يسوع » ولعله الصواب .

(٢) ضعيف ، أخرجه ابن هشام (٤٦/٢) عن ابن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر ابن الزبير قال : فدكره . وهذا مرسل أو معضل .

(٣) هذا من حديث عبد يسوع السابق !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثني ولا أسرنى <sup>(١)</sup> .

وأنزل الله عز وجل في ذلك : ( مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ ) .

وعرض النبي صلى الله عليه وسلم على أخصار « نجران » وسائر الوفود أن يسلموا فقالوا له . أسلمنا قبلك ، قال : كذبتُم ، يمنعكم من الإسلام ادعائكم لله ولداً ، وعبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير .

فجادلوه في عيسى ، وقالوا ، مَنْ أبوه ؟ <sup>(٢)</sup> فروى أن النبي ردَّ عليهم قائلاً : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، وَأَنَّ عِيسَى يَأْتِي عَلَيْهِ الْفَنَاءُ ؟ قالوا : بلى ، هَالِكٌ : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا قِيمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَكْلُوهُ وَيَحْفَظُهُ وَيَرْزُقُهُ ؟ قالوا : بلى . قال : فَهَلْ يَمْلِكُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ؟ قالوا : لا .

قال : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ؟ قالوا : بلى قال : فَهَلْ يَعْلَمُ عِيسَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً إِلَّا مَا عُلِّمَ ؟ قالوا : لا .. !

---

(١) ضعيف ، رواه محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس كما في تفسير ابن كثير ، وفيه محمد بن أبي محمد وهر الأنصاري ؛ قال الذهبي : « لا يعرف » وأما ابن حبان فوثقه !  
(٢) إلى هنا رواه ابن إسحاق في مرسل محمد بن جعفر بن الزبير السابق . وأما الرواية الأخرى فلم أجدها الآن مسندة بهذا التمام وإنما جاء بعضها في حديث عبد يسوع المتقدم .



قال : أستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى !

قال : أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع ولدها . ثم غذى كما يغذى الصبي . ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى .

قالوا : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

فقالوا : ألسن تقول في عيسى : إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ؟ قال : بلى .

فلما رأى النبي أن الجدل يتبادى بالقوم . وأنهم مصرون على اعتبار عيسى إلهاً أو نداً للاله قال لهم : أقيموا غداً حتى أخبركم .

فنزلت آيات المباهلة ( إن مثله عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ) .

فأصبح رسول الله من الغد ، وقد أقبل بنفسه ، وحفيديه : الحسن ، والحسين ، وابنته فاطمة .

واستعد أن يشترك مع وفد نجران في صلاة جامعة تستنزل فيها لعنة الله على المفتريين .

واستمع وفد نجران إلى هذا الاقتراح ، فأوجسوا خيفة من قبوله ! من يدري ؟ قد يكون محمد صادقاً في أن عيسى بشر مثله ويكونون - هم - واهمين في انتحال الألوهية له .

فلماذا يبتهلون إلى الله أن يحقهم ؟

ونظروا إلى محمد وطفليه وابنته ، فشعروا أن الكاذب منهما لن يهلك وحده بل ستهلك معه أسرته ، فخشوا على أولادهم وأهليهم البوار ، إن هم قبلوا هذه المباهلة ثم خلصوا نجياً .

قال بعضهم للآخر : إن كان هذا الرجل ملكاً ، فلن نأمن طعننا عليه وخصامنا له . فإن دولته مقبلة ، وربما أصابنا قومه بجائحة .

وإن كان نبياً مرسلًا فلا عناء ، فلن يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك . فما الرأي ؟

فجاءه متحدث القوم شرحبيل بن وداعة ، وقال له : رأيت خيراً من ملاعنتك فقال للنبي : ما هو ؟ قال : أدعُك الحكم فينا ففهما قضيت فهو جاز ! فقال رسول الله : لعل وراءك أحداً يثرّب عليك ؟ فقال شرحبيل : مل عنى فلما سأل الرسول عنه خبر أن أهل الوادي لا يصدرون ولا يردون إلا عن رأيه ، فقال : جاهد موفق .

ورجع رسول الله ولم يلاعنهم ، وعقد معهم صلحاً أصبحوا - بمقتضاه - من رعايا الدولة الإسلامية .

وجاء في شروط هذا الصلح « أن لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبي ، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وتبعهم . وأن لا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفية ، ولا راهب من رهبانيتها ، ولا ماتحت أيديهم من قليل أو كثير . وليس عليهم ريبة ولادم جاهلية ولا يحشرون - يكافون بجهاد - ولا يعشرون - يكلفون بزكاة - ولا يطأ أرضهم جيش .

ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا فذمتي منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .



وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتى الله بأمره  
ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم خير منقلبين بظلم » .

وشهد على هذه المعاهدة أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن  
عوف ، والأفرع بن حابس ، والمغيرة بن شعبة .

فماذا كاف به نصارى نجران بإزاء هذه الحقوق ؟ أن يدفعوا للدولة ألفى حلة  
فى السنة ! وهى بدل تافه عن الزكاة التى يدفعها المسلمون وخدمهم ، والجهاد الذى  
يحملونه وخدمهم .

وتلك هى الجزية التى ضربت على نجران ، بعد المفاوضات التى رأيت .  
وبذلك قطع الإسلام الصلة بين أولئك العرب المتنصرين وبين دولة الروم التى  
يشتبك معها فى الحرب ، بعد ما ضمن الحرية الدينية لمن سألوه وكفوا عنه .  
ونحن نسأل — على وجه التحدى — هل عاملت الطوائف المسيحية بعضها  
بعضاً بهذه السماحة الرائعة ؟ أم كان ذلك مساكاً أضاء به الإسلام وحده ظلمات  
القرون الأولى ؟

ثم نسأل مرة أخرى : هل احترام أهل الكتاب ما عليهم من واجب ، وهل  
أنصفوا الدين الذى رعى ذمامهم ؟

لقد دخلت السنة العاشرة على الإسلام وهو يبسط تعاليمه على حساب الوثنية  
المتقلصة فإذا بعض القبائل فى الجنوب تنور ضده تحسب أن رجلاً من قريش ملك  
العرب بادعاء النبوة ، فليس يعجزها أن تقدم من مقاليدكم من يزعم النبوة  
كذلك ! ! الله ! ملك مثل ما ملك محمد بن عبد الله .

ومن المؤسف أن النصارى فى جنوب الجزيرة ساعدوا فى إشعال هذه الثورات ،  
وأن نصارى نجران كاتبوا الأسود العنسى فسار إليهم — وهو أحد المتنبيين —  
ثم رحل عنهم إلى اليمن ، فملكها حتى قتله امرأته هناك وأراحت الأرض منه .

أ كانت هذه الفتن معاونة لنصارى الشمال فى حربهم ضد الإسلام ؛ أم كانت  
مشغباً بمليه الكرمه أجرد فحسب ؟

وما فعله نصارى نجران فى تأييد الأسود العنسى ؛ فعل مثله نصارى تغلب فى  
تأييد مسيلمة الكذاب حين ادعى — هو الآخر — أنه نبي ١

ونحن نفهم أن يرفض أهل نجران وبنو تغلب الدخول فى الإسلام ، وأن  
يؤثروا البقاء على ما اقتنعوا به من ديانتهم الموروثة ، لكننا لم نفهم بته أن يكذب  
رجل بصحف الوحي العالى وأن يؤمن — مثلاً — بالبعكوكة (١) .

ذاك إن كانوا قد آمنوا حقاً بالأسود ومسيلمة ..

أما إذا كان الأمر لا يعدوا الإعانة على حرب الإسلام بأى سلاح ومع أى  
حليف ، فهذه مسألة (٢) أخرى يختار فى علاجها أطباء القلوب .

---

(١) صحيفة هزلية .

(٢) راجع كتابنا « التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » .



( ٨ )

أَمْرَاتُ الْمُؤْمِنِينَ

أثار بعض الكتابين غباراً حول مبدأ تعدد الزوجات ، وحاولوا تقييد ما أباحه الإسلام من ذلك أو منعه ، محتجين - قارة - بأن الإسلام لم تثبت فيه هذه الإباحة بصورة حاسمة ، وقارة أخرى ، بأن تطورا الحياة وصالح الجماعة يقتضيان أن يكتفى الرجل بامرأة واحدة لا يعدوها . وحسبه أن يوفق في رعايتها وكفالة أولاده منها ... !

ولاشك أن هذه الأفكار تولدت في بيئاتنا نتيجة عوامل شتى تحتاج إلى حسن النظر وقوة الرد ، ومنذ سنين حاول خصوم التعدد أن يستصدروا قانوناً بذلك ، ثم توقفت محاولاتهم أمام غضب العلماء ، وهياج الجماعات المشتغلة بالشئون الإسلامية . وقد كتبت آنذاك في طبيعة التعدد أرى إثباتها هنا بين يدي الموضوع الذي نتحدث فيه ، لما لها من صلة ظاهرة به .

« للحياة قوانين عمرانية واقتصادية ثابتة ، تفرض نفسها على الناس حتماً ، عرفها فاستعدوا لمواجهتها ، أم جهلوا فظهرت بينهم آثارها .

وصلة الرجل للفر د بعدد من النساء ، من الأمور التي ثبت فيها الأحوال الاجتماعية . ويعتبر تجاهلها مقاومة هابثة للأسر الواقع .

وذلك أن النسبة بين عدد الرجال والنساء ، إما أن تكون متساوية ، وإما أن تكون راجعة في إحدى الناحيتين .

فإذا كانت متساوية ، أو كان عدد النساء أقل ، فإن تعدد الزوجات لابد أن يختفى من تلقاء نفسه ، وستفرض الطبيعة توزيعها العادل قسراً .

ويكتفى كل أمرى - طوعاً أو كرهاً - بما عنده .

أما إذا كان عدد النساء أربى من عدد الرجال ، فنحن بين واحد من ثلاثة :

١ - إما أن نقضى على بعض من الحرمان حتى الموت .

٢ - وإما أن نبيح اتخاذ الخليلات ، ونقر جريمة الزنا .



٣ — وإما أن نسمح بتعدد الزوجات .

ونظن أن المرأة - قبل الرجل - تأتي حياة الحرمان ، وتأتي فراش الجريمة والعصيان . فلم يبق أمامها إلا أن تشرك غيرها في رجل يحتضنها وينتسب إليه أولادها . ولا مناص بعدئذ من الاعتراف بمبدأ التعدد الذي صرح به الإسلام .

ثم إن هناك اختلافاً كبيراً بين أنصبة الرجال من الحساسية الجنسية ، فهناك رجال أوتوا حظاً من كمال الصحة وبقظة الغريزة ونعومة العيش . لم يؤتوا غيرهم . والمساواة بين رجل بارد للشاعر من نشأته ، وآخر قريب الاستثارة ، واسع الطاقة ، أمر بعيد عن العدالة ، ألسنا نبيع لذوى الشهية المتطلعة مقادير من الطعام ، لا نبيحها للمعوقين والضعفاء ؟

فهذه بتلك .

وتم حكمة أخرى . قد تكون الزوجة على حال من الضعف أو المرض أو العقم أو تأخر السن ، فلماذا تُترك لهذه الأعداء ؟

إن من حق العشرة القديمة أن تبقى في كنف الرجل ، وأن تأتي إلى جانبها امرأة أخرى تؤدي وظيفة الزوجة أداء كاملاً .



ومع المبررات الكثيرة للتعدد ، فإن الإسلام الذي أباحه ، رفض رفضاً باتاً أن يجعله امتداداً لشهوات بعض الرجال وميلهم إلى المزيد من التمتع والتسلط .

فالغريم على قدر الغنى ، والمتع الميسرة تتبعها حقوق ثقيلة .

ومن ثم فلا بد - عند التعدد - من تيقن العدالة التي تحرسه .

أما إذا ظلم الرجل نفسه أو أولاده أو زوجاته ، فلا تعدد هناك .

الذي يعدد يجب أن يكون قادراً على النفقة اللازمة .

وإذا كان الشارع يعتبر المعجز عن النفقة هذراً عن الافتران بواحدة ، فهو —  
من باب أولى — مانع من الزواج بما فوقها .

إن الشارع يوصي الشباب الأعزب بالصيام ، مادام لا يستطيع الزواج ، ويأمر  
العاجز عن الواحدة بالاستعفاف .

( وَلاِِسْتَعْفَفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُفْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ) .  
فكيف الحل بمن عنده واحدة ؟ إنه بالصبر أحق ، وبلاستعفاف أولى .. وكثرة  
الأولاد تدفع — عادة — كثرة الزوجات ، والإسلام يوجب رعاية العدل مع الأولاد  
في التربية ، والتكريم ، ومسائل المعيشة ، مهما اختلفت أمهاتهم ، وفي الأثر « لعن  
الله من استعق أولاده » <sup>(١)</sup> فعلى الأب المكثّر أن يحذر هتقى الميل مع الهوى ..  
وكذلك يوجب الإسلام العدل مع الزوجات .

ولئن كان الميل القلبي أعصى من أن يتحكم فيه إنسان ، إن هناك من الأعمال  
والأحوال ما يستطيع كل زوج فيه أن يرضى الحدود للمشروعة ، وأن يزن تصرفه  
بالقسط . وأن يحشى الله فيما استرعاه من أهل ومال .  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله سائل كل امرئ عما استرعاه .  
حفظ ذلك أم ضيعه » <sup>(٢)</sup> .

(١) لا أعرفه . ومحوه مارواه الطبراني عن أبي هريرة عرفوعاً : « أعيثوا أولادكم  
على البر ، من شاء استخرج العقوق من ولده » لكن في سنده من لا يعرفون .  
(٢) عزاه في الجامع الصغير للنسائي وابن حبان في صحيحه عن أنس . وقد فتشت عنه  
في سنن النسائي الصغير في مظانه فلم أجده ، فقلعه في سننه الكبرى التي لم تطبع وقد  
وقفت في الوقوف على إسناداه فأخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » ( ٢٣٥/٩ ) عن  
النسائي بسنده عن قتادة عن أنس . وكذلك رواه أبو نعيم أيضاً ( ٢٨١/٦ ) من غير  
طريق النسائي . والسند صحيح إن كان قتادة سمي من أنس فإنه موصوف بشيء من التدليس .



وقال : « بحسب امرئ من الإنم أن يضع من يعول »<sup>(١)</sup> .

تلك حدود العدل الذي قرنه الله بالتعدد ، فمن استطاع النهوض بأعبائها فليتزوج مثنى وثلاث ورباع ، وإلا فليكتف بقريته الغدة (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) .

وقرأت لبعض الصحافيين يعترض على مبدأ التعدد ، لماذا يعدد الرجال الزوجات ولا تعدد النساء الأزواج ؟ ولقد نظرت إلى هؤلاء المتسائلين فوجدت جمهورهم بين داعر أو ديوث أو قواد ، وعجبت لأهم يعيشون في عالم من الزنا ويكرهون أشد الكره إقامة أمر الأسرة على العفاف . .

والجواب على هذا التساؤل المريض أن الهدف الأعلى من التواصل الجنسي هو إنشاء الأسرة وتربية الأولاد في جوٍّ من الحضانة النظيفة وهذا لن يكون في بيت امرأة يطرقها نفر من الناس . . . يجتلدون للاستحواذ عليها ولا يعرف ، لأيم ولد منها . . ثم إن دور المرأة في هذه الناحية دور القابل من الفاعل ، والمقود المحمول من القائد الحامل . وإنك لتتصور قاطرة تجر أربع عربات ، ولا تتصور عربة تشد أربع قاطرات ، ومن الكفر بطبائع الأشياء المماراة في أن الرجال قوامون على النساء .

• • •

على أنه من المؤسف حقاً ، أن يهدر العوام هذه الحدود ، وأن يتجهوا إلى التعدد دون وعى لمعنى العدل المفروض ، بل تلبية لنداء الشهوة ، ولو أدى إلى الافتيات والجور الصارخ .

فالرجل قد يعجز عن نفقة نفسه ، ثم هو يسعى إلى الزواج •  
وقد يعجز عن رعاية واحدة ، ثم هو يبحث عن غيرها ! !

(١) « كفى بالمرء إثماً أن يضع من يقوت » أخرجه أبو داود ( ٢٦٨/١ ) وغيره . حديث ابن عمر وصححه الحاكم ( ٤١٥/١ ) ووافقه الذهبي ورواه مسلم ( ٧٨/٣ ) من طريق أخرى عنه نحوه .

وقد يهيف على بعض أولاده في التعليم ، وفي توزيع الثروة تمشيًا مع هواه وقد يتزوج الأخرى ليهجر الأولى ويذرهما كالمعلقة .

وربما ترى الرجل يستطيع البناء بأربع . والإنفاق على ما ينبجس من بنين وبنات . ومع ذلك الاقتدار ، فهو يحيا على التسوُّل الجنسي والتقلب في أحضان الساقطات فما دواء هذه الفوضى ؟

هل منع التعدد يشفي الأمة من هذه الأدواء ؟

كلا . إن تقييد مباح ليس مما يعي سياسة التشريع في الإسلام . إلا أن مبدأ التعدد لو صكت الدين عن إبداء الرأي فيه ، لوجب أن نبدي — نحن — الرأي فيه ونقول بإباحته ، صيانة للمصلحة العامة التي أوضحناها في صدر هذا الكلام .

ولكن إقرار القاعدة شيء ، ومواءمة تطبيقها شيء آخر . . . وعندما يحىء دور التشريع في إصلاح مجتمعنا وإقامة عوجه — من هذه الناحية — فلتتجه همه الباحثين إلى ضبط وسائل العدل ومظاهره إن أرادوا . أما الخبط في مبدأ التعدد نفسه ، ومحاولة النيل منه فهو عبث .

وأستطيع القول بأنه أثر من آثار الغزو الصليبي الحديث لبلاد الإسلام . فان النصرانية — دون سائر الأديان من عهد نوح — انفردت بتحريم<sup>(١)</sup> التعدد ، وحبس الرجل — مهما كان شأنه — على امرأة واحدة ، وترك المجتمع بعد ذلك ، يعالج كثرة النساء ، وهياج الفرائز بوسائله الأخرى .

وفي طبقات كثيرة الآن ، ينظر إلى التعدد على أنه منكر ! وإلى الزنا على أنه مسلاة تافهة ! أي المشكلة الآن ، مشكلة الدين كله ، والأخلاق كلها . .

---

(١) نحن نعتقد أن التعدد هو حكم الله في الأديان كلها — ومن بينها النصرانية — ولا نقيم وزنا لما عداه من قوانين وضعية .



وتقييد التعدد - والحالة هذه - محاولة سمجة ، لتلويث المجتمع على حساب الإسلام وباسم القاتون .

إن جمهوراً كبيراً من النبين والصالحين تزوج بواحدة وبأكثر من واحدة ، ولم يחדش ذلك تقواه ، وفي صحف العهد القديم الموجودة الآن ما يؤيد ذلك . والإسلام لا يرى التبتل عن النساء عبادة - كما يفعل الرهبان - ولا الزواج إلى أربع معصية ، كما يُنسب إلى النصرانية .

إنما المعصية في ترك الغريزة الجنسية تنزه كيف تشاء ، أو في كبتهما لتسرب وراء وراء ، كما تتسرب المياه الجوفية تحت أديم الغبراء .

• • •

والمحفوظ من سيرة نبي الإسلام أنه تزوج بالسيدة خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكانت - هي - في سن الأربعين ، وظل معها وحدها ، لا يضم إليها أخرى حتى تجاوزت السيدة الفضلى الخامسة والستين .

وماتت ، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - فوق الخمسين . ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لئداً ، أن ينسب إليه دنسا ، أو يتهمة بريية . في هذه الفترة الخصيبة الرحبة من عمر الإنسان كان رونق العفاف والشرف يتألق في جبينه حيث سار .

ولو أنه أحب الزوج بأخرى ما عاقه مانع من شرع أو عقل أو عادة . فإن التعدد كان مألوفاً بين العرب ، معروفاً في ديانة أبي الأنبياء إبراهيم ، إلا أنه ظل مكتفياً بمن استراح إليها واطمأن بصحبته ، ولو أنها طعنت في السن وبقي هو في كمال قوته وتمام رجواته . ولهذا المسلك دلالة القاطمة .

فلما انتقلت خديجة ، وأحب النبي أن يتزوج ، لم يكن البحث عن الجمال في مظهره هو الباعث له على تخير شريكته في حياته ، أو شريكاته ، ولو قد فعل ذلك ما تعرض للوم .

بيد أن الباعث الأول كان الارتباط بالرجال الذين آزره في دعوته وطاؤه  
في رسالته .

فاختار « عائشة » بنت أبي بكر — على صغر سنها — واختار حفصة بنت  
عمر على قلة وسامتها ...

ثم اختار أم « سلمة » أرملة قائده الذي استشهد في سبيل الله ، وعانت معه  
امراته ما عانت في الهجرة إلى الحبشة ، وفي الهجرة إلى المدينة .

ومن قبل هؤلاء كانت معه « سودة » وهي امرأة نزلت عن حظها من الرجال  
لكبرها وعزوفها .

والعيشة مع أولئك الأربع لا تقوم على متاع ملحوظ ودنيا سارة .  
ولو قد قامت على ذلك ما كان على رسول الله من حرج ، فلاي مؤمن أن  
يستمتع بأربع نسوة ، وتحقيق العدل متيقن في سيرة رسول الله .

قد تقول : لكن الرسول مات عن تسع نسوة فكيف وقع هذا ، ولم نال  
ما لم ينال غيره ؟؟

أليس هذا فتحاً لباب التشهي ، وإجابة لدواعي الملة ؟

ونقول : أين مكان المتعة في حياة رجل لم يسترح يوماً من عناء الكفاح  
للموصول والجهاد المضني ؟

إن حملة الرسائل الإنسانية المحدودة تعيهم هموم العيش ومشكلات الشعوب  
فلا يحظون بساعة راحة إلا ليستجموا قليلاً .. ثم ينهضوا لاستئناف اللغوب !  
فكيف بضاحب الرسالة العظمى ؟ ولقد اقي من العرب ما رأيت !

ونسأل أيضاً : ما مكان المتعة في حياة رجل عزف عنها وهو شاب ، فكيف  
يفرق فيها وهو شيخ ؟

إن الظروف التي أحاطت بالزوجات الخمس الأخرى ، تجعل البناء بهن بعض



ما كلف الرسول بتجشمه من سياسة الأفراد والجماعات ، وبعض ما كلف بتحقيقه من إقامة الخير ومحو الضرر .

خذ مثلاً زواجه بزَيْنَب بنت جَحْش ، كان هذا الزواج امتحاناً قاسياً لرسول الله ، أمره الله به لإبطال تقليد شائع عند العرب ، وأقدم عليه الرسول وهو شديد التحرج والحياء والأذى .

و « زَيْنَب » هذه من قريبات الرسول ، فهو يعرفها حق المعرفة من طفولتها ، وقد رغب في أن يزوجه من زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك ورفض أخوها ، اهتزازاً بما لأسرة زَيْنَب من مكانة ، فهي من ذؤابة قريش ، وما زيد ؟ إنه كان عبداً ، ولو أن الرسول أكرمه فيما بعد وألحقه بنسبه فصار يدعى زيد بن محمد !!

إلا أن زَيْنَب لم تجد بداً من الإنصياع لأمر النبي ، فقد أراد أن يحطم الاعتزاز بالأنساب وأن ينكح زيدا زَيْنَب افرضت وفي نفسها غضاضة ، وقبل أخوها وهو يؤدي حق السمع والطاعة فحسب ، بعد ما نزل قوله تعالى :

( وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَا لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا )

ودخل زيد بزَيْنَب . فوجد امرأة مصروفة الفؤاد عنه ، تسلمه جسدها ، وتحرمه العطف والتقدير ، ثارت رجواته وقرر ألا يبقى معها ، وتدخل النبي بين الحين والحين لإصلاح ذات البين دون حدوى .

في هذه الحال أوحى الله لنبيه أن يدع زيدا يطلق زوجته ، وأن يتزوجها هو بعد إنتهاؤها منه ..

فاعترى الرسول همٌ مقلق لهذا الأمر الغريب ، وساوره التوجس من الإقدام عليه بل أخناه في نفسه خوفاً من مغيبته ، فسيقول الناس : تزوج امرأة ابنه . . . هو لا تحمل !!

ولكن هذا الذى سيقوله الناس هو ما أراد الله هدمه ، ويجب على النبي أن ينفذه دون تهيب .

وقد تريت النبي في إنفاذ أمر الله ، وامله ارتقب من الله — لفرط تخرجه — أن يعفيه منه ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فعندما جاء زيد يشكو امرأته ويعرض نيته في تطليقها ، قال له النبي : أمسك عليك زوجك واتق الله .

عند ذلك نزل الوحي يلوم الرسول على توقفه ، ويعتب عليه تصرفه ، ويحضه على إرضاء رغبة زيد في فراق امرأته ويكلفه بتزوجها ، ولو قال الناس : تزوج امرأة ابنه ، فإن إدعاء البنوة لون من التزوير ، تواضع عليه العرب مراغبة للحق ، وينبغي أن يقلعوا عنه ، وأن يهدروا نتائجه ، وليكن عمل الرسول بنفسه ، وبمن التصق به أول ما يهدم مآثر الجاهلية في العرف الشائع ..

هذه هي القصة كما بدأ القرآن الكريم برؤيتها .

( وَإِذْ يَقُولُ الذِّى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ) .

على أن الغريب في هذه القصة ما أدخله المفسرون عليها من دسائس الشهوة ومظاهر الحب الرخيص ، فقد زعموا أن الرسول أحب زينب ، ثم كتم هذا الحب ، ثم ظهر ، فتزوجها بعد ما طلقت !

ثم زعموا أن صدر الآية السابقة جاء عتاباً له على هذه العاطفة المكبوتة .

ونحن نعجب أشد العجب لهذا الخبط الهائل ، ومحاولة تلبيس الحق بالباطل .

من كان يمنع محمداً من الزواج بزينب وهي من أسرته — بنت عمته — وهو

الذى ساقها إلى رجل لم تكن فيه رغبة ، وطيب خاطرها لترضى به .

أبعد أن يقدمها لغيره يطمع فيها ؟



ثم لننظر إلى الآية وما يزعمون أنها تضمنته من عقاب .

إنهم يقولون : الذي كان يخفيه النبي في نفسه ، ويخشى فيه الناس دون الله هو ميله لزينب ، أى أن الله — بزعمهم — يعتب عليه عدم التصريح بهذا الميل !  
وتقول : هل الأصل الخلق أن الرجل إذا أحب امرأة لفظ بين الناس مشهراً بنفسه وبمن أحب ؟ وخصوصاً إذا كان ذا عاطفة منحرفة ، جعلته يحب امرأة رجل آخر ؟

هل يلوم الله رجلاً ، لأنه أحب امرأة آخر ، فكتم هذا الحب في نفسه أكان يرفع درجته ، لو أنه صاغ فيها قصائد غزل ؟  
هذا والله هو السفه ١ .

وهذا السفه هو ما يريد بعض المغفلين أن يفسروا به القرآن !!  
إن الله لا يعاتب أحداً على كتمان حب طائش ، وإما سياق الواقعة هو كما قصصنا عليك .  
فالذي أخفاه النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه تأذيه من هذا الزواج المفروض ، وتراخيه في إنفاذ أمر الله به ، وخوفه من لفظ الناس عندما يجدون نظام القبلى — كما ألفوه — قد أنهار .

وقد أفهم الله نبيه ، أن أمره لا يجوز أن يقفه توهم شيء ما . وأنه — بإزاء التكليف الأعلى — لا مفر له من السمع والطاعة ، شأن من سبقه من المرسلين .

وإذا عدت إلى الآية التي تتضمن القصة ، وجدتها ختمت بقوله تعالى :

( وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ) أى من حقه أن يقع حتماً .

ثم أعقبا ما يؤكد هذا المعنى :

( مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ) .

إليك عندما تثبت في قلب رجل تقول له : لا تخش إلا الله .  
إنك لا تقول ذلك له وهو بصدد ارتكاب معصية ، إنما تقول ذلك له ، وهو  
مبتدأ القيام بعمل فاضل كبير يخالف التقاليد المتوارثة .

وظاهر في هذه الآيات كلها إن الله لا يجريء نبيه على التدله بحب امرأة « إنما  
يجريءه على إبطال عادة سيئة يتمسك الناس بها ، ويراد منه كذلك ، أن ينزل على  
حكمها ، ولذلك يقول الله — بعد ذلك بمشقة — وهو يهدم نظام التبني .

( مَا كَانَ مُحَمَّدٌ<sup>ص</sup> أَبَا أَحَدٍ<sup>ص</sup> مِنْ رِجَالِكُمْ<sup>ص</sup> وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ<sup>ص</sup> وَخَاتَمَ  
النَّبِيِّينَ<sup>ص</sup> وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَاصِمًا<sup>ص</sup> ) .

أما السيدات الأخريات التي بنى بهن الرسول . فهن نساء تنميمن أصول عريقة  
حتى ليعتبرن بنات ملوك !

وقد أطاحت بهن — عند دخول الإسلام — ملابسات ، لا يليق أن يجملها  
قائد دعوة .

فأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب سيد قریش وقائدها عشر بن سنة في حرب  
الإسلام أو يزيد ، أنذا أسلمت وراغمت أباه وقومها في ذات الله ، ثم هاجرت  
إلى الحبشة تاركة مكة حيث يسود أبوها وتعلو كلمته ؟

أترى مثل هذه السيدة إذا مات زوجها ترك لمن يخدم مكانها ؟  
لقد ضمها النبي إلى زوجاته ، إعزازاً لشأنها ، وتقديراً لصنيعها .

و « صفية » بنت يحيى ، كان أبوها ملك اليهود .  
وفي الصراع بين بني إسرائيل والإسلام هلك أبوها وأخوها وزوجها ،  
ووقعت في سهم جندي ، لا يعرف إلا أنها أسيرة حرب ، من حقه ، بملك اليمين ،  
أن يسلك . معها كيف يشاء .

فإذا رقى النبي لحالها ، ووهبها حريتها ، ثم جبر كسر ها وقدر ماضيها ، فتزوجها  
لمستطيع — بإحسانه وإكرامه — تطيب خاطر ها ، فهل ذلك مما يلام عليه ؟



و «جويرية» بنت الحارث ، إن أباه زعيم بني المصطلق ، وقد انتهت حربها مع المسلمين هزيمة نكراء ، وكادت قبيلته تهون وتذل عقب هذه الهزيمة ، فوامى النبي صلى الله عليه وسلم القائد المهزوم ، ثم أصهر إليه حتى يشعر المسلمين بما ينبغي لأنبائه من كرامة ومعونة ، رقد وقع ما أحبه النبي ، فعادت الحرية إلى القبيلة رجالاً ونساء ، إذ تخرج المسلمون أن يسيثوا إلى قوم تزوج النبي أبنتهم .

\*\*\*

وقد يسبق إلى أذهان البعداء عن السيرة ، أن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاصة ، قامت على التوسع في المطاعم والمشارب .. والمتع الأخرى . والصورة التي قد ترسم بآدى الأمر لرجل عنده عدة نساء ، أنه مغمور بالسعادة المادية يقوم بيته على الموائد الحافلة باللحوم والفواكه ، ويرتوى من الأشربة التي تسرى في أوصاله بالنشوة . ثم يتقلب بين أحضان البيضاوات والشقراوات ويصبح يستقبل الدنيا بعد ذلك خالى البلى . ! !

وقد تكون هذه الصورة مساوية أو مقاربة لما يدور في قصور الملوك .  
لكن حذار أن تسفه نفسك فتحسب شبةً من هذا العيش الرخى في بيوت محمد بن عبد الله .

إنقل على عجل إلى لون آخر من الحياة الخشنة لترى فيه رجلاً تعلقت همته بالحق وحده ، فهو يتمتع بمعرفته . ويحتمد لجمع الناس عليه ، وقرّة عينه في خطوة تقربه من غايته شبراً ، أما أهواء الدنيا فهي تحت قدميه ودبر أذنيه .

إذا استطاعت قذائف المدافع على ظهر الأرض أن تبلغ النجوم البعيدة ، استطاعت مغربات الحياة أن تقترب من قلب محمد الزكى النقي .

ذاك إنسان اصطافته العناية ، فهو يخلق في مدى آخر ، يقول فيه : « مالى والدنيا إنما أنا كر جل قال تحت ظل شجرة ثم راح وتركها » (١) .  
يربط همم البشر بالمثل العليا ، وما تصير إليه عند الله فيقول : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولغدوة في سبيل الله أوروحة خير من الدنيا وما فيها » (٢) .

وحياته مع زوجاته نهج من الشظف لا يطيقه أحد .  
روى البخارى عن أنس بن مالك قال ما أعلم النبي رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط !  
وعن عائشة قالت : إن كنا لننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار !  
فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء .  
وقالت عائشة أيضاً : لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في رفقٍ شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفقٍ لي . .  
أما الفراش الذي يأوى إليه هذا النبي فهو آدم — جلد — حشوه ليف (٣)  
يثوى فيه قليلاً ، فما إن يستدفئ به حتى يسمع الصارخ — الديك — فينهض متأهباً لصلاة الفجر ..

ولا نغنى بهذا الوصف أن الإسلام يعاف الطيبات أو أن نبيه يسُنُّ للناس تركها .

(١) صحيح ، أخرجه الترمذى ( ٢٧٨ / ٣ ) وصححه وابن ماجه ( ٢ / ٥٢٥ ) —  
( ٢٥٦ ) والحاكم ( ٤ / ٣١٠ ) وأحمد ( رقم ٩ / ٤٧ ، ٤٢٠٨ ) عن ابن مسعود ، وله شاهد عن ابن عباس رواه أحمد ( ٢٨٤٤ ) وإسناده حسن وصححه الحاكم على شرط البخارى ومسلم ! ووافقه الذهبي :

(٢) صحيح أخرجه البخارى ( ١١ / ١٩٤ ) بتمامه ومسلم ( ٦ / ٣٥ ) بالشطر الثانى عن سهل بن سعد .

(٣) صحيح أخرجه البخارى ( ١١ / ٢٤٥ ) عن عائشة أيضاً .



كلا ، فشريعة الإسلام في هذا بينه نية ، وإنما نسرد الواقع من حياة رجل صدفت نفسه عما يقتتل الناس عليه ، إن الرجل قد يترك لأولاده الصغار لعبة يفرحون بها ويختصمون عليها ، لأن طبيعة رجوانته في شغل عن عبث الصبية . إن بعض الخنزعين والمفكرين يذهلون عن الطعام المهيأ لهم ، لا ازدراء له ، ولكن استغراقاً فيما ملك عليهم مشاعرهم .

وكأنى أنجيل هذا النبي . وهو يرى سواد الناس يتفانون على الحطام الذاهب فيهرز رأسه أسفاً ، ويقول : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً (١) . ثم يضرع إلى الله : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » (٢) .

إن من الزرابة بالعقل والجور الفاحش على القاريخ أن يحىء رجل من عرض الطريق ، فيرى أو يقال له : إن محمداً كان لديه نسوة عديدات . فيظن المسكين أن ذلك دلالة استكثار من الشهوات وتشبع من الدنيا .

\* \* \*

ولا يحسبنَّ أحد هذا الاخشيان فعل من لا يجد ! وأنه لو فتحت إلى بيوت هذا النبي صلى الله عليه وسلم نافذة تطلُّ على بمجوحة الحياة الرغدة ، لاستمتعوا كتنز ، واستمتع اسوته وابتهجوا .

لا ، كان قادراً أن يحجز من المال الذي يمر به وبحكم فيه ما يشاء ، لو يشاء ، لكن هذا النبي السمع كان فوق التطلع إلى الذات الصغيرة ، لأن عينيه ترمقان هدفاً أسى ولوسيقى إليه خزائن الأرض لفكر — قبل كل شيء — في إشباع نهمة الناس منها .

---

(١) صحيح ، أخرجه البخاري ( ١١ / ٧٦٨ ) من حديث أبي هريرة وأنس .  
 (٢) صحيح ، أخرجه البخاري ( ١١ / ٢٤٦ ) ومسلم ( ٨ / ٢١٧ ) واللفظ له من حديث أبي هريرة ، وليس هو تمام الحديث الذي قبله كما قد يتبادر من عبارة المؤلف ، بل كل من الحديثين مستقل عن الآخر ، ولا يدري المتقدم منهما من المتأخر .

عن أبي ذر : كنت أمسى مع النبي في حرّة المدينة ، فاستقبلنا أحدٌ ، فقال :  
يا أبا ذر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : ما يسرني أن عندى مثل أحد هذا  
ذهباً ، تمضى على ثلاثة وعندى منه دينارٌ — إلا شيئاً أرصده لدينٍ — إلا أن  
أقول به في عباد الله هكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه .

ثم مشى فقال : إن الأَكْثَرِينَ هم الأَفْلُون يوم القيامة ، إلا من قال ، هكذا  
وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل ما هم <sup>(١)</sup> . . .

إن أشهى الطعام في قم الرجل الشبعان الممتلئ لا مذاقه ، وقد كان هذا النبيُّ  
شبعان القلب ، فما يخفُّ إليه غيره من زينة الدنيا لا يحرك منه شعرة ، فلا غرو  
إذا يمشي ما يصل إليه على المحتاجين والمترقبين ، أما هو فغناه في قلبه .

ذاك أدبٌ أخذَه الله به من قديم ، منذ قال له :

( وَلَا تُمَدِّنْ هَيْئَتَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زُحْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
لَتَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى \* وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا  
لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ) .

غاية ما يبغيه هذا النبي أن ينجو من مآسى الدنيا ومظالم البشر ، فلا تستذله ، أو  
تستذل أهله فاقة !

إنه يعيش على قاعده « ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى » <sup>(٢)</sup> ، وفي حدود هذا  
القليل الكافي ، يود أن يخلص من عقابيل الخلق ، لاله ولا عليه ، ولذلك كان  
يدعو الله :

(١) صحيح أخرجه البخاري ( ٢٢٠ / ١١ — ٢٢٢ ) ومسلم ( ٧٥ / ٣ ) عن أبي ذر .  
(٢) هذا حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم بسند صحيح ، فكان ينبغي  
التصريح بذلك أخرجه أحمد ( ٢٩٧ / ٥ ) وكذا الطيالسي ( رقم ٩٧٩ ) في حديث لأبي  
الدرداء . وسنده صحيح على شرط مسلم وعزاه المنذرى ( ٣٩ / ٢ ) لأبن حبان في صحيحه  
والحافظ ؛ ورواه أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري وكذا الضياء المقدسي في « الأحاديث  
المختارة » والطبراني من حديث أبي أمامة .



« اللهم إني أعوذ بك من الفقر والفاقة والذلة ، وأن أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل علي » (١) .

ويقول : اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعافية والغنى » (٢) - الاستغناء -

\* \* \*

وهذا المنهج الصارم في المعيشة تقاضى نساءه أن يتحملن شدة ما كن يعرفنها من قبل ، لقد جنن إليه من بيوتات كبيرة .

وأكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة ، إمام مع آبائهن ، وإمام مع رجالهن السابقين .

فلا عجب إذا تاملن من هذه الحياة الجديدة ، وطابن الرغد والنعمومة ، واجتمعن - على ما يبينهن من خلاف - ليسألن الرسول مزيداً من النفقة !

إنهن في بيت أعظم رجل في العرب ، فيجب أن تتكافأ معيشتهم مع مكاتبتهم وقد تزعم هذه المطالب عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وتبعهن الباقيات !!

(١) صحيح وهو مركب من حديثين ، والأول عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : فذكره دون قوله . « الفاقة » وقوله في آخره « أو أجهل .. » أخرجه هكذا أبو داود ( ٢٤١/١ ) والنسائي ( ٣١٥/٢ ) والحاكم ( ٥٤١/١ ) وأحمد ( ٣٠٥/٢ ، ٣٢٥ ، ٣٥٤ ) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو كما قال . والثاني عن أم سلمة قالت : ما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال : اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي » رواه أبو داود ( ٣٢٨/٢ - ٣٢٩ ) والنسائي ( ٣١٧/٢ ، ٣٢٢ ) وغيرهما وقال الحاكم « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي وهو كما قال وصححه الترمذي .

(٢) صحيح بلفظ : « والعفاف » بدل « والعافية » كذلك أخرجه مسلم ( ٨١/٨ ) والترمذي ( ٢٥٦/٤ ) وصححه وابن ماجه ( ٤٣٠/٢ ) وأحمد ( ٣٦٩٢ ، ٣٩٠٤ ) عن ابن مسعود .

وحزن رسول الله لهذه المظاهرة ، إنه المسلم الأول على ظهر الأرض ، وأبصار المؤمنين والمؤمنات تنو إليه من كل ناحية ، وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها وسط ألوف مؤلفة من الخصوم المتربصين .

فإذا لم يعيش بيته عيشة المجاهد المحصور ، فكيف يواصل الكفاح ويكلف الرجال والنساء من أمته أن يذهلوا عن كل شيء إلا السير بدينهم حتى يبلغ مأمنه ؟  
لذلك رفض النبي الاستجابة لرغبات نساؤه في توسيع النفقة . وكره منهن هذا التطلع فقرر مقاطعتهم ، حتى شاع بين الناس أن النبي طاق نساءه جملة ١١١ وفزع أبو بكر وعمر لهذه الإشاعة فابته كليهما عند رسول الله . فذهبا يستأذنان ليدخلا عليه ، وايتعرا فاجلية الخبر . فلما دخلا وجدا النبي صامتا ، وحوله نساؤه واجبات !! وسأله عمر : أطلقت نساءك يا رسول الله ؟ قال : لا .

إلا أن جو الحزن كان ينجم على المكان . فقال عمر : لأكلمن رسول الله لعله يضحك !

فقال : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد — يعني زوجته — سألتني النفقة آفقا فوجأت عنقها ، فضحك النبي حتى بدا نأجذه . وقال : هن حولي يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يؤدبها ، وقام عمر إلى حفصة .

كلاهما يقول : تسألن النبي ما ليس عنده ؟

فهى النبي الأبوين أن يصنعا بينتيهما شيئا . وكانت نساؤه — ناديات — : يقلن والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

وهجرهن النبي شهرا لا يتصل بهن حتى يشعرن بما فعلن ونزلت آيات التخيير من عند الله تطلب إليهن جميعا إما التجرد للدار الآخرة مع رسول هذه طريقته في حياته ! وإما اللحاق بأهلن حيث الملابس الحسنة والمأككل الدسمة .

وكان هذا الدرس كافيا ليمحو آخر ما في أنفسهن من رغبة لم تتجاوز المباحات الشهوة ! فاخترن — جميعا — البقاء مع النبي على قاعدته العتيدة « ما قل وكفى



خير مما كثر وألهمي» (١) وعشني مع الجهاد والتهجد ، والبذل والمواساة ، والتواضع والخدمة .

( يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتمالين أمتن كنن وأسرر كنن سراحاً جملاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً . ) (٢)  
فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة ... وعشني مع النبي ، معينات على الحق ،  
راغبات في الثواب .

\* \* \*

وبهذا التفاني في خدمة الرسالة ، والإهمال لمطالب النفس ، رفع الله درجاتهن فلم يصبحن زوجات رجل يطلبن في ظله المتاع . بل صرن شريكات في حياة فاضلة غالية ، واستحققن قول الله عز وجل : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ... »

وتوكيداً لهذه الأمومة الروحية ، شرع الحجاب الدقيق على أمهات المؤمنين فلا يجوز لأحد من الأجانب أن يلتقي بهن ولو مع محرم .  
وسؤالهن في شئون الدين والدنيا ، إنما يكون من وراء الحجاب . كما لا يجوز للأحد — بعد وفاة الرسول — أن يتزوج بإحداهن .

وبهذا التشريع الصارم ، قطع دابر الفضوليين والثقلاء الذين يكثرون التردد على بيوت الزعماء ، كما قطع دابر المتربصين منهم الذين ينشدون الرفعة من وراء الافتزان بأولئك النساء ، ولا نستغرب مثل هذا التشريع ! فقد تأدت الجرأة بيمض الناس أن يقول أحدهم : لو قبض النبي تزوجت عائشة . ! ومن حق النبي أن يصفى شعوره ، وأن يصد عنه وعن أهله أولئك الأعراب السفهاء .

(١) سبق تخريجه ص ٤٨٠ .

(٢) رواه مسلم ( ١٨٧/٤ ) من حديث جابر ، وهو في البخاري ( ٤٢٢/٨ ) عن عائشة مختصراً .

ولم يعقب الرسول من زوجاته أولئك ولدا .  
أما بناته الثلاثي أعقبهن من خديجة فقد متن وهو حي ، عدا فاطمة ، فإنها  
بقيت بعده شهوراً ثم كانت أول أهله لحوقاً به ..

• • •

ودخل رسول الله بريم التي بعث بها المقوقس إليه بعد أن أسلمت ، وحملت  
منه ، ثم وضعت له ابناً أسماه إبراهيم ، باسم جده أبي الأنبياء ، ولم يعمر طويلاً بل  
مات وهو رضيع .

قال أنس : لقد رأيته وهو يجود بنفسه بين يدي رسول الله ..  
فدمعت عليه عينا النبي ثم قال : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا  
ما يرضى ربنا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون . (١)

واتفق أن الشمس كسفت في ذلك اليوم ، فتحدث الناس أن الشمس كسفت  
لموت ابن النبي ، فقام النبي مصلياً بالناس ثم قال : يا أيها الناس إن الشمس والقمر  
آيتان من آيات الله عز وجل ، لا ينكسفان لموت بشر ، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك  
فصلوا حتى تنجلي .. (٢)

### استقرار

زالت غيرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة كما نزول بقايا الليل أمام طلائع الشروق  
وصحت العقول العليقة فلم تعد تخشى وترجو إلا الله بعد ما ظلت دهوراً تعبد أصناماً  
جامدة ، وسمع الأذان للصلاة يشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التي أحيها

(١) صحيح أخرجه البخاري (١٣٥/٣) عن أنس .

(٢) صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث المغيرة بن شعبه وصح عن جماعة من  
الصحابة ذكرت ألفاظهم والطرق إليهم في كتابي «صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم»  
لصلاة الكسوف وما رأى فيها من الآيات .



الإيمان الجديد . وانطلق القراء شمالاً وجنوباً يتلون آيات الكتاب ، وقيمون أحكام الله ، ويعلمون العرب ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم .

إن هذه الجزيرة - منذ نشأ فوقها عمران - لم تهتز بمثل هذه النهضة المباركة ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها .

وكان النبي ﷺ في المدينة يستقبل الوفود ويشيعها بعد ما ينفخ فيها من روحه الكبير ويزودها بحكمته الباهرة فتعود من حيث أنت لتنشئ في مواطنها القصية معادل للإسلام ، وصحائف بيضاء في تاريخ أمة .

ولم يكتب النبي ﷺ بترقب الوفود المقبلة . بل أرسل رجاله الكبار إلى الجنوب ليزيد رقعة الإسلام هناك انسلخا .

فإن في اليمن وما حولها قبائل كثيفة العدد ولأهل الكتاب السابقين نشاط قديم وقد نشأ الإسلام هناك حقاً ، وتقلص ظل الفرس لغير عودة . إلا أن هذه البقاع النائية تحتاج مزيداً من رعاية وتفقد .

ومن ثم بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد . ثم معاذ بن جبل وأباموسى الأشعرى . ثم علياً بن أبي طالب (١) .

وكان هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله ﷺ يشعره أن مقامه في الدنيا يوشك على النهاية ! فإنه بعد أن علم معاذ بن جبل كيف يدعو من يلقاهم . وكيف يعرفهم حينهم خرج معه إلى ظاهر المدينة يوصيه . ومعاذ راكب ، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته ! .

فلما فرغ قال : يا معاذ إنك عسى أن لا تلتقاني بعد عامي هذا ! ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى ! فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله .

ثم التفت النبي ﷺ بوجهه نحو المدينة فقال : إن أولى الناس بي المتقون ، من كانوا وحيث كانوا . (٢)

(١) بعث هؤلاء الأربعة في صحيح البخارى (٤٩/٨ - ٥٧) .

(٢) صحيح أخرجه أحمد (٢٣٥/٥) بسند صحيح عن معاذ .

وقد وقع ما أوماً إليه الرسول ، فإن معاذاً أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع  
ثم كانت وفاة النبي بعد الحج الأكبر بأحد وثمانين يوماً ، ومعاذ باليمن ...  
وقد كان للعناية باليمن ما يبررها ، فقد ظهر فيها وفي بني حنيفة دجالان  
يزعمان النبوة .

ولم يكن لكلا الدجالين من خلال الرجولة وآيات الخير ما يجمع عليه حنفة  
من الرجال .

ولكن داء العصبية العمياء ، جعل قبيلة كبيراً من الرعاع يقول :  
نحن نعلم أن مسيامة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة ، خير من صادق مضر !!  
وقد اشتعلت فتن المتنبيين حينئذ ، ثم داستها أقدام المجاهدين بعد ، فأخذت  
جذونها ، وذهبت نبوة مسيامة وغيره . كما تذهب بولة شاة على أديم الثرى ..

### حجة الوداع

أعلن رسول الله نيته بالحج ، وأشعر الناس بذلك حتى يصحبه من شاء .  
فترك المدينة أواخر ذي القعدة ، بعد أن أمر عليها في غيابه « بأبادجانة » (١)  
والحج هذه المرة ، جاء مغيراً لما ألقته العرب أيام جاهليتها .  
انتهت العهود المعطاة للمشركين ، وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام .  
فأصبح أهل الموسم — قاطبة — من الموحدين الذين لا يعبدون مع الله شيئاً  
وأقبلت وفود الله من كل صوب تيمم وجهها شطر البيت العتيق ، وهي تعلم أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو في هذا العام أمير حجهم ومعلمهم مناسكهم !!  
ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الألوف المؤلفة وهي تلبى وتهرع إلى  
طاعة الله . فشرح صدره انقيادها للحق ، واهتداؤها إلى الإسلام وعزم أن يعرض  
في قلوبهم لباب الدين ، وأن ينتهز هـ — هذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبدد

(١) لم أجد من أسند هذا ؛ وإنما ذكره ابن هشام ( ٣٥٠ / ٢ ) معضلاً ولم يجوز به .  
فإنه قال : « فاستعمل على المدينة أبا دجانه الساعدي ويقال : سباع بن عرفة الغفاري » .



آخر ما أبقت الجاهلية من مخلفات في النفوس وتؤكد ما يحرص الإسلام على إشاعته من آداب وعلائق وأحكام .

فألقي هذه الخطبة الجامعة<sup>(١)</sup> :

«أيها الناس اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري ، لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا ، بهذا الموقف أبداً . .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت . .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون .

قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضاع دم ريبة ابن المختار بن عبد المطلب — وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل — فهو أول ما أبدا به من دماء الجاهلية . . .

أما بعد — أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به ، مما تحقرون من أعمالكم افاحذروه على دينكم !!

أيها الناس : ( إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ،

---

(١) رواها ابن هشام عن إسحاق بدون إسناد وقد جاء سندها في أحاديث متفرقة يطول الكلام في بيانها . وتفصيل ذلك في كتابي الكبير « حجة الوداع » أرجو الله أن يوفقني لإتمامه . وقسم كبير منها في حديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه وقد جمعت طرقه وألفاظه في رسالة لطيفة طبعت في المطبعة السلفية بمصر .

يُحِلُّونَهُ عَامًا ، وَيَحْرُمُونَهُ عَامًا ، لِيُؤَاظِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ( وَيَحْرُمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله ، اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب — الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس : فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة .

فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين ، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان (١) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً . وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي فإنني قد بلغت ..

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به . فلن تضلوا أبداً ، أسراً بيننا ، كتاب الله وسنة نبيه ..

أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لأمرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟

قالوا : اللهم نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد .

\* \* \*

قال ابن اسحاق : كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو بعرفة — ربيعة بن أمية بن خلف .

يقول له رسول الله : قل : يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون أي شهر

(١) عوان : أسيرات .



هذا ؟ فيقول لهم .. فيقولون : الشهر الحرام !! فيقول : قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا ...  
ثم يقول : قل يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هل تدرون أى بلد هذا ؟ فيصرخ به ! فيقولون : البلد الحرام ، فيقول : قل : إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا !

ثم يقول : يا أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أى يوم هذا ؟ فيقول لهم .. فيقولون : يوم الحج الأكبر ! فيقول قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ...

o o o

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد — بعد بلاء طويل في إبلاغ الرسالة — أن يفرغ في آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصح .

كان يحس أن هذا الركب سينطلق في بيداء الحياة وحده ، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذى انطلق به القطار ، يوصيه بالرشد ، ويذكره بما ينفعه أبداً . وكان هذا النبي الطيب ، كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس ، عاود صيحات الإنذار ، واستثار أقصى ما في الأعماق من انتباه ، ثم شاق الهدى والعلم ... وقطع المعاذير المتحلة ، وانزع — بعد ذلك — شهادة من الناس على أنفسهم وعليه أنهم قد سمعوا ، وأنه قد بلغ ...

لقد ظل ثلاثاً وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء ويتلو على القاصي والداني آى الكتاب الذى نزل به الروح الأمين على قلبه ، ويفسل أدران الجاهلية التى التاث بها كل شيء ، ويربى من هؤلاء العرب ، الجيل الذى يفقه الحقائق ويفقه العالم فيها ..

وها هو ذا يقود الحبيج في أول موسم يخلص فيه من الشرك ، ويتمحض فيه لله الواحد القهار ..

وها هو ذا ، على ناقته العضباء ، يستنصت الجماهير المائجة ، ليؤكد المعاني التي  
بعث بها . والتي عرفهم عليها ، ويخلى ذمته من عهدة البلاغ والتبيان التي نيطت بعنقه .

• • •

لقد أجيبت دعوة أبي الأنبياء إبراهيم ، حين هتف وهو يبني البيت العتيق :  
( رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ) .

إن العزيز الحكيم تجلى باسميه الجليلين على هذه الديار ، فوهب العزة والحكمة  
أو قل : القوة والسياسة ، لمحمد بن عبد الله ، فعالج بها الآثام الجائئة على صدر  
الأرض ، فما استعصى على الأناة والحلم ، استكان للتأديب والحكم .

وبهذا المنهج الجامع ، بين العدل والرحمة ، أخذت رقعة الباطل ، تنكش  
رويداً رويداً حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها ، وثبت الإسلام . ثم أصاح العرب  
بعد ما لان قيادهم — إلى صوت الحق الأخير في حجة الوداع .

• • •

وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة نزل قول الله عز وجل :  
( الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ  
الْإِسْلَامَ دِينًا .. ) .

وعندما سمعها عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال  
إلا النقصان . وكأنه استشعر وفاة النبي صلوات الله عليه وسلامه .

والحق أن مشاعر التوديع للحياة والأحياء كانت تمنضح بها بعض العبارات التي  
ترد على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، منها ما سبق ذكره في خطبته بالموسم .  
ومنها ما يقع في أثناء تعليمه الوفود المحتشدة حوله ، كقوله عند جرة العقبة : خذوا  
عني مناسككم ، فلعلني لا أحج بعد عامي هذا <sup>(١)</sup> .

(١) صحيح رواه مسلم وغيره من حديث جابر للشار إليه آنفاً .



## إلى المدينة

فلما قضى الرسول صلى الله عليه وسلم مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة  
لا يأخذ حظاً من الراحة ، بل ليستأنف حياة الكفاح والكدح لله .

إن المبطلين لا يدعون لأهل الحق مهلة يستجمعون فيها .

وأصحاب الرسالات أنفسهم ، لا يستعبدون نشاطهم في القعود عن العمل ، بل  
يستمدون الطاقة على العمل من الشعور بالواجب .

وراحتهم الكاملة ، يوم يرون بواكير نجاحه دائية القطاف .!

قفل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ليعبىء جيشاً آخر يقاتل به الروم .

فإن كبرياء هذه الدولة على الإسلام ، جعلتها تأبى عليه حق الحياة ، وحملها على أن  
تقتل من أتباعها من يدخل فيه .

كان « فروة بن عمر الجذامي » والياً من قبل الروم على « معان » وما حولها  
من أرض الشام « فاعتنق الإسلام » وبعث إلى النبي يخبره بذلك .

وغضب الرومان فجردوا على « فروة » حملة جاءت به وألقى في السجن حتى  
صدر الحكم بقتله ، فضرب عنقه على ماء لهم يقال له : « عفراء » بفلسطين وترك

مصلوباً ، ليرهب غيره أن يسلك مسلكه ! وقيل : إنه لما قدم للقتل قال :

بلغ سرّاة المسلمين بأننى مسلم لربى ، أعظمى ودمائى

فأعد رسول الله جيشاً كبيراً وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة .

وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يبنى بذلك

إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود . حتى لا يحسبن

أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه  
الختوف فحسب .

ولما كان « أسامة » شاباً لا يتجاوز الثمانية عشر . فإن بعض الجهال ساءتهم هذه الإمارة ، واعترضوا أن يقود الرجال الكبار شاباً حدث .

ولا شك أن النبی لا يلتفت في ولايته إلا إلى الجدارة .

فمن استحق منصباً بكفايته ، قدمه له ، غير مكترث بحداثة سنه .

فإن كبر السن لا يهب للأغبياء عقلاً ، ولا الصغر ينقص الأتقياء فضلاً .

فما الحداثة عن حلم بمناعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — رداً على انتقاد الفاسقين — « أن

طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبل ، وأيم الله إن كان خليقاً بالإمارة ، وإن ابنه من بعده خليقاً بها ، وإن كان لمن أحب الناس إلى »<sup>(١)</sup> .

وانتدب الناس يلتفون حول « أسامة » وينتظمون في جيشه .

إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرهتهم على

التريث حتى يعرفوا ما يقضى به الله ...

---

(١) صحيح أخرجه البيهاري ( ١٢٤/٨ ) عن عبد الله بن عمر وصححه الترمذي



( ٩ )

الرفيق الأعلى

شعر رسول الله بوهكة المرض الذي نزل به أواخر صفر من السنة الحادية عشرة . وبدأت آلامه مُصدّاعاً حاداً ، عاناه في سكون ، حتى ثقل عليه الوجع ، وهو في بيت زوجته ميمونة . . فلم يستطع الخروج .  
وأذن له نساؤه أن يُمرّض في بيت عائشة ، لما رأين من ارتياحه إلى خدمته .  
فخرج من عند ميمونة بين الفضل بن العباس ، وعلى بن أبي طالب .  
وكان الألم قد أوهى قواه . فلم يستطع مسيراً .  
فانتقل بينهما معصوب الرأس ، تخطّ قدماه على الأرض . . . حتى انتهى إلى بيته (١) .

واشتدت وطأة المرض على رسول الله ، واتّقدت حرارة العلة في بدنه .  
فطلب أن يأتوه بماء يتبرد به . . . ماء كثير !! أهريقوا على سبع قرب من آبار مشى . .

قالت عائشة : فأقعذناه في مخضب لحفصة ، ثم صببنا عليه الماء . حتى طفق يقول . حسبكم ، حسبكم (٢) . .

وعندما أحس الرسول بأن سورة الحرة تخلصت عن بدنه ، استدعى الفضل ابن عمه العباس . فقال : خذ يدي يا فضل — وهو موعوك معصوب الرأس — قال الفضل : فأخذت يده حتى دخل المسجد ، وجلس على المنبر . ثم قال : ناد في الناس . فاجتمعوا إليه .

وكانت ظهيرة تظللها لكآبة وتغمرها الرقة . اشترأبت فيها الأعناق إلى الرجل الذي أحيى موات القلوب ، وأخرجهم وذرياتهم ونساءهم ، من الظلمات إلى النور تطلعت إليه الأهين الحائرة ، فرأته متعباً .

(١) صحيح : رواه ابن هشام ( ٣٦٦/٢ ، ٣٦٨ ) عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن عائشة ، ورواه الحاكم ( ٥٦/٣ ) من طريق أخرى عنها وصححها .  
(٢) صحيح : أخرجه ابن إسحاق عن عائشة بسنده السابق . وهو في البخاري ( ١١٥/٨ — ١١٦ ) ومسلم ( ٢١/٢ — ٢٢ ) نحوه .



انهزمت العافية في بدنه الجلد ، أمام سطوة المرض العاتى .  
إلا أنه أخذ يحدّثهم ويربّهم ، على عهدهم به دائماً . وأنصتوا ، فإذا هم يسمعون  
منه عجباً .. إنه لما أحس بدنوّ أجله ، أحب أن يلتقى الله وليس هناك بشر يطلبه بتبعة .  
إنه تحرّى العدالة في شئونه كلها لكن من يدرى ؟ ربما عرض له سهو مما  
يعرض لبني آدم ، أو خطأ ، فجار ، وهو الذى يبرأ من الجور وذويه !!

إذن ليخطب الناس في هذا حتى يستريح ضميره .. قال :  
« أما بعد أيها الناس : فإني أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو  
فمن كنت جللت له ظهراً ، فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن كنت شتمت  
له عرضاً ، فهذا عرضي فليستقد منه ! »

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني . ألا وإن أحبكم إليّ من  
أخذ مني حقاً ! إن كان له ، أحلني منه فلقيت الله وأنا طيب النفس .  
وقد أرى أن هذا غير مغن عنى حتى أقوم فيكم مراراً .

قال الفضل : ثم نزل فصلي الظهر . ثم وجع فجلس على المنبر . فعاد لمقاتته الأولى  
في الشحناء وغيرها .

فقام رجل فقال : يا رسول الله : إن لي عندك ثلاثة دراهم ؟ فقال : أعطه يا فضل .  
ثم قال النبي : أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده . ولا يقل : فضوح الدنيا .  
ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة !

فقام رجل فقال : يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غلّتها في سبيل الله .  
قال : ولم غلّتها ؟ قال : كنت إليها محتاجاً .. قال : خذها منه يا فضل !  
ثم قال : أيها الناس ، من خشى من نفسه شيئاً فليقم أدع له .

فقام رجل فقال : يا رسول الله . إني لكذاب . إني لفاحش ، إني لنؤوم !  
فقال النبي : اللهم ارزقه صدقاً ، وإيماناً ، وأذهب عنه النوم .

ثم قام رجل آخر فقال : والله يا رسول الله إني لكذاب ، وإني لمناق ، وما من شيء إلا قد جنيتة .

فقام عمر بن الخطاب فقال له : فضحت نفسك . فقال النبي : يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقاً . وإيماناً ، وصبراً أمره إني خير<sup>(١)</sup> .

• • •

وعاد النبي ﷺ إلى بيته اللاصق بالمسجد لينام في فراش السقام وهو الذي لم يتعود أن يركن إليه أو يهدأ فيه .

كانت هناك مهام كثيرة ، ترتقب صحوه ليبيت فيها ولكن أعباء الأمة حبسته في قيودها ، فلم يستطع منها فكاً .

وإذا استطاع أن يخرج في فترات قليلة تخف فيها حدة لارض . فإلى المسجد ليلقي نظرات أخيرة على الأمة التي صنعها ، والرجال الذين أحبهم :

هن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوماً على المنبر فقال :

إن عبداً خيره الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا ما شاء ، وبين ما عند الله ، فاختار ما عند الله ..

فبكى أبو بكر ثم قال : فدينك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله ..

(١) ضعيف جداً أخرجه العقيلي في « الضعفاء » والبيهقي في الدلائل من طريق القاسم ابن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس عن أخيه الفضل قال ابن الديلمي : عطاء هذا هو عدي عطاء بن يسار ، وليس له أصل من حديث عطاء ابن أبي رباح ، ولا عطاء بن يسار ، وأخاف أن يكون عطاء الخراساني لأنه يرسل عن ابن عباس . قال الذهبي : قلت : « أخاف أن يكون كذباً مختلفاً » وقال الحافظ ابن كثير في التاريخ ( ٢٣١/٥ ) « وفي إسناده ومثله غرابة شديدة » .



قال أبو سعيد : فتعجبنا له ، وقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد يخير ويقول : فدينك بآبائنا وأمهاتنا !

قال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الخير ، وكان أبو بكر أعلمنا به .  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أمنَّ الناس على في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام .

وفي رواية : ولكن صحبة ، وإخاء إيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده .. (١)

وحدث في أثناء المرض أن صرت أوقات هادئة ، خيلت لحبي الرسول صلى الله عليه وسلم أن أمانهم في عافيته نجحت ، وأنه يوشك أن يقوم ليستأنف كفاحه في سبيل الله ، وليظل يحبهم بعطفه وحرصه وإيناسه ورحمته .

فمن عبد الله بن كعب بن مالك ، أن ابن عباس أخبره أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه الذي توفي فيه .

فقال الناس : يا أبا حسن ، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً .

فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال : ألا ترى ؟ إنك بعد ثلاث عبد الله وإني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفي في وجهه هذا ، وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ..

---

(١) صحيح ، أخرجه البخاري ( ٧ / ٩ — ١٠ : ١٨٣ ) والسياق له ، ومسلم ( ١٠٨ / ٧ ) عن أبي سعيد ؛ والرواية الأخرى عند ابن هشام ( ٢ / ٣٦٩ ) عن ابن إسحاق بسنده عن بعض آل أبي سعيد بن العلى . وهو ضعيف لجهالة هذا البعض وقد رواه أحمد ( ٤ / ٢١١ — ٢١٢ ) من طريق ابن أبي العلى عن أبيه . ورجله ثقات غير الابن المذكور فلم أعرفه وقد قال ابن كثير ( ٥ / ٢٣٠ ) . وقالوا : صوابه . « أبو سعيد بن العلى » .

فأذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسله فيمن يكون هذا الأمر ، فإن كان فينا علمنا ذلك وإن كان في غيرنا استوصى بنا خيراً ، قال علي : والله لئن سألتها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً ، والله لا أسأله رسول الله أبداً<sup>(١)</sup> .

وظاهر أن العباس يعني الخلافة ! فقد شعر الرجل بأن النبي في مرض الموت ، وخبرته بأقاربه حين يحتضرون جعلته صادق الحدس في تبين مصايرهم .

ولما كان عميد بني هاشم ، فقد أحمه أن يعرف لمن ستكون سيادة الناس بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد اتجه إلى علي بيته مكنون نفسه لأن عالياً — بسابقته وكفايته ومنزلة في الناس ، وموضعه من الرسول — يعد أول بني هاشم ترشيحاً لهذا الأمر .

بيد أن علياً كره أن يكلم النبي في ذلك ، وآثر ترك الأمر لجمهور المسلمين . وكان النبي نفسه قد هم بكتابة عهد يمنع شغب الطامعين في الحكم ، ثم بدله فاختار أن يدع المسلمين وشأنهم ، ينتخبون لقيادتهم من يحبون<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

وزادت وطأة المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعانى من برحائه أليماً مضاعفاً ، حتى تأذت فاطمة ابنته من شدة ما يلقى ، فقالت : وا كرب أبتاه ! فقال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ..<sup>(٣)</sup>

وترامت الأخبار إلى جيش أسامة ، فشاع الحزن والاضطراب في صفوفه عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : لما ثقل رسول الله ، هبطت وهبط

(١) صحيح ، أخرجه البخاري ( ١١٦/٨ — ١١٧ ) .

(٢) يشير إلى حديث ابن عباس مرفوعاً : هلموا أكتب لكم كتاباً ... أخرجه

البخاري ( ١١٠/٨ ) .

(٣) صحيح ، رواه البخاري ( ١٢١/٨ ) وغيره عن أنس .



الناس معي إلى المدينة ، فدخلنا على رسول الله وقد أصمت لا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على ، فعرفت أنه يدعو (١) .

وأغنى عليه مرة فله أهله ، فلما أفاق كره ذلك منهم (٢) .

وكان إلى جواره قدج فيه ماء ، يعمس فيه يده ثم يمسح وجهه بالماء ويقول اللهم أغنى على سكرة الموت (٣) .

وحين عجز النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة بالناس ، استقدم أبا بكر ليؤمهم .

فخشيت عائشة أن يكره الناس أباهما ويتشاءمون من طلقته .

فقلت : إن أبا بكر رجل رقيق وإنه متى يقم مقامك لا يطيق !

فقال : مرو أبا بكر فليصل بالناس .

فكررت عائشة اعتراضها . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

إنكن صواحب يوسف . مرو أبا بكر فليصل بالناس (٤) .

وصلى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة .

وهذه الأيام التي تخلف فيها النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يؤم المسلمين ،

كانت من أشد الأيام ثقلا عليه . وصح عنه أنه قال : إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم (٥) .

(١) صحيح : رواه الترمذی (٤/٣٥٠) وحسنه وابن هشام (٢/٣٧٠) .

(٢) صحيح رواه البخاری (٨/١٠٢) عن عائشة .

(٣) ضعيف أخرجه الترمذی (٢/١٢٨) وغيره من طريق موسى بن سرجس عن القاسم بن محمد عن عائشة . وقال : «حديث غريب» يعني ضعيف لأن موسى هذا لم يوثقه أحد فهو مجهول .

(٤) صحيح أخرجه البخاری (٢/١٣٠) ومسلم (٢/٢٠ - ٢٤) عن عائشة .

(٥) أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود .

ومع فيح الحى وحدة مسما لبدنه ، فقد ظل يقظ الذهن ، مهموماً بتعاليم  
الرسالة ، حريصاً على تذكير الناس بها .

وكان يخشى أن ترتكس أمته ، فتتعلق بالأشخاص و « الأضرحة » كما  
ارتكس أهل الكتاب الأولون .

وشدته في إخلاص التوحيد لله هي التي جعلته ، وهو يعالج مكرات الموت ،  
يرهب المسلمين من هذا المزلق .

عن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح  
خميصة له على وجهه فإذا اغتم ، كشفها عن وجهه فقال - وهو كذلك - « لعنة الله  
على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يحذر ما صنعوا (١) - » .

وكان يخشى أن تغلب شهوات الفئ والكبر على أمته .

فإن الذين يتبعون شهوات الفئ ، ينسون الصلاة ، والذين يتبعون شهوات  
الكبر ، يطفون على ما تحت أيديهم من خدم ومرءوسين ورقيق .

والأمة التي تستبد بها هذه الشهوات ، لا تصلح للحياة ، ولا تصلح بها حياة .  
ومن اليسير أن يتركها الله تلقى جزاء ما تصنع ، وهو خزي الدنيا ، وعذاب  
الآخرة .

هذه الخشية ، حملت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن  
ينبه المسلمين إلى معاهد الخير ليتمسكوا بها .

عن أنس بن مالك قال : كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين

---

(١) صحيح أخرجه البخارى (٤٢٢/١) ومسلم (٦٧/٢) .



حضره الموت - الصلاة وما ملكت أيمانكم . حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرغ بها صدره ، وما يكاد يفيض بها لسانه <sup>(١)</sup> .

• • •

وربما غلبه الشوق لحضور الجماعة ورؤية الأصحاب في أيامه الأخيرة فتحامل على جسمه المهوك ، وانسل إلى المسجد من حجرة عائشة ، فصلى بالناس وهو قاعد .

قال ابن عباس : لما مرض النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يصلي بالناس ثم وجد خفة فخرج . —

فلما أحس به أبو بكر ، أراد أن ينكص ، فأومأ إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فجلس إلى جنب أبي بكر عن يساره واستفتح من الآية التي انتهى إليها أبو بكر فكان أبو بكر يأتهم بالنبي ، والناس يأتون بأبي بكر <sup>(٢)</sup> .

على أن أبا بكر ظل يصلي بالناس هذه الأوقات التي مرض فيها رسول الله صلى

(١) صحيح ؛ أخرجه ابن ماجه ( ١٥٥/٢ ) واحمد ( ١١٧ / ٣ ) وغيرهما عن قتادة عن انس ، وفيه خلاف على قتادة بينه الحافظ ابن كثير في « البداية » ( ٢٣٨/٥ — ٢٣٩ ) وذكر عن البيهقي انه قال : « والصحيح ما رواه عفان عن همام عن قتادة عن أبي الخليل عن سفينة عن أم سلمة به » قلت : وهذا سند متصل صحيح . وله شاهد من حديث علي نحوه رواه ابن ماجه واحمد ( رقم ٥٨٥ ) وإسناده صحيح .

(٢) صحيح ؛ أخرجه احمد ( ٢٠٥٥ ؛ ٢٣٣٠ ؛ ٣٣٥٥ ) وابن ماجه ( ٣٨٣ / ١ ) عن طريق أبي إسحاق عن الأرقم بن شرحبيل عن ابن عباس ، ورجاله ثقات لكن أعله البوصيري بأن أبا إسحاق — وهو السبيعي — اختلط بآخره عمره وكان مدلساً وقد رواه بالضعف ، قلت . لكن تابعه عبد الله بن أبي الشعر إلا انه قال ؛ عن ابن عباس عن العباس ؛ فجعله من سند العباس وهذا اختلاف يسير لا يضر في صحة الحديث إن شاء الله ؛ وقد رواه عن هذا الوجه احمد أيضاً ( ١٧٨٤ ؛ ١٧٨٥ ) .

صلى الله عليه وسلم حتى صبيحة اليوم الذى قبض فيه وكان الرسول معلق القلب  
بشئون أمته .

وكان الله أراد أن يطمئنه على كمال انتيادها وحسن اتباعها ، فأشهره آخر وقت  
حضره وهو فى الدنيا ، إذ أقبل المؤمنون من بيوتهم إلى المسجد فجر الاثنين  
الذى قبض فيه ، واصطفوا لصلاتهم خشعاً مخبئين ، وراء إمام رقيق التلاوة فياض  
الإخلاص ، ورفع النبي صلى الله عليه وسلم الست المصروب على منزل عائشة ، وفتح  
الباب وبرز للناس .

فكاد المسلمون يفتنون فى صلاتهم ابتهاجاً برويقه ، وتفرجوا يفسحون له مكاناً  
فأشار بيده : أن اثبتوا على صلاتكم ، وتبسم فرحاً من هيئتهم فى صلاتهم . قال  
أنس بن مالك : ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه فى تلك الساعة<sup>(١)</sup> .

ثم رجع وانصرف الناس ، وهم يظنون أن رسول الله قد أفاق من وجعه .  
واطمأن أبو بكر لهذا الظن ، فرجع إلى أهله بالسبح - فى ضواحي المدينة<sup>(٢)</sup> .  
قالت عائشة : وعاد رسول الله من المسجد ، فاضطجع فى حجرى .

ودخل علينا رجل من آل أبى بكر فى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله  
إلى يده نظراً عرفت منه أنه يريد .

فأخذته فأنقته له ثم أعطيته إياه .

فاستن به كأشد ما رأيت به يستن بسواك قبله ، ثم وضعه .

ووجدت رسول الله يثقل فى حجرى .

---

(١) صحيح إخرجه البخارى ( ١٠ / ٢ — ١٣١ ) ؛ ٨ / ١١٧ ) ومسلم ( ٢ / ٢٤ -  
٢٥ ) وغيرهما عن أنس بن مالك ، ورواه ابن ميثاق ( ٣ / ٣٧٠ - ٣٧١ ) عن ابن  
إسحاق عن الزهري عن أنس بلفظ الكتاب . وفيه انقطاع .  
(٢) هو من تمام حديث أنس عن ابن إسحاق .



فذهبت أنظر في وجهه .

فإذا نظره قد شخص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

قلت : خيرت فاخترت ، والذي بعثك بالحق ..

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وتسرب النبا الفادح من البيت المحزون ، وله طنين في الآذان . وثقل ترزح  
تحتة النفوس ، وتدور به البصائر والأبصار .

وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت ، فتركهم لوعة الشكل حيارى ،  
لا يدرون ما يفعلون .

ووقف عمر بن الخطاب — وقد أخرجه الخبر عن وعيه — يقول : إن رجلاً  
من المناققين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ، وإن رسول الله مات  
ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة .  
ثم رجع بعد أن قيل قد مات ..

والله ليرجمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم  
يزعمون أنه مات !

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس .  
فلم يلتفت إلى شيء ، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة  
وهو مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة .

---

(١) صحيح ؛ رواه ابن هشام ( ٣٧١/٢ ) عن ابن إسحاق بسنده الصحيح - عنها  
وهو في البخاري ( ١٠٧/٨ ، ١١١ - ١١٢ ؛ ١١٣ ؛ ١١٧ ؛ ١١٨ ) نحوه مفروقاً ..  
وهذا آخر حديث في الكتاب . وبه ينهى التخريج والحمد لله على توفيقه وسبحانك اللهم  
وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ؛ استغفرك وانتوب إليك .

فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي  
أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن يصيبك بعدها موت أبداً .  
ورد الثوب على وجهه ، ثم خرج وعمر يسلم الناس ، فقال : على رسلك  
يا عمر فأنصت .

لكن عمر ظلي مهتاجاً مندفعاً في كلامه .

فلما رآه أبو بكر كذلك ، أقبل على الناس وشرع يتكلم ، فلما سمعه الناس  
انصرفوا عن عمر وأقبلوا عليه .

وحدث أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً ، فإن  
محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا هذه الآية :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ • أَفَإِنْ مَاتَ  
أَوْ قُتِلَ أُنْقِلْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ  
شَيْئًا • وَسَيُجْزَى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ • »



## خاتمة

لم تمض أيام معدودات على وفاة الرسول حتى اشتبك الإسلام في صراع رهيب مع الوثنية التي عاودتها الحياة فجأة ، والصليبية الرابضة في شمال الجزيرة تمنع الدخول في الإسلام وتحبط دعايته بالقوة .

ولم تشهد الصحراء في حياة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه مثيلاً لهذه المعارك الطاحنة .

فقد اتسعت ميادينها ، وتماهت أمدادها ، وفدحت مغارمها ، وكثرت ضحاياها . إلا أن الرجال الذين رباهم محمد صلى الله عليه وسلم على معرفة الحق والفناء فيه ، صدقوا الله في عملهم ، ونهضوا كأعني الأبطال بالاثقال الباهظة التي رُموا بها . ضربوا الوثنية في الجزيرة ضربة كسرت فقارها ، واعتصرت روحها ، فهمدت إلى الأبد .

وطردوا الرومان عن الحدود التي توردوا بها ، وتجهروا فيها . ثم عادوا إلى المدينة لا يستجمعوا ، بل لينتشروا خلال المعمور من أرض الله يؤمئذ ، في نظام رتيب ، وبوحى شريعة محكمة . وما هي إلا سنوات قلائل ، حتى كان الإسلام ملء البر والبحر ، ملء السمع والبصر .

والآن وقد مرت قرون أربعة عشر على هذه الحقبة الزاهرة . إن الإسلام — بعد مجد كبير — لا يحكم أمتة فضلاً عن أن يوجه العالم إلى برٍّ يذكر أو خير يشكر .

والأديان الأخرى تعيش على هامش الحياة .  
فالحضارات القائمة أو المتربصة ، لا تمكن الدين من زمامها .  
والوثنية في الهند وفي الشرق الأقصى وفي بقاع أخرى لا تزال تظلل الجوانب  
الداكنة من حياة العامة ومسالك الجماهير .

واليهودية تنحاز بأبنائها جانبا ، لتغرس في قلوبهم الحقد على البشر ، والنفاذ  
من خلل الصفوف المتناحرة بأكبر غنم لإسرائيل .  
أما الصليبية ، فهي كالنبات المتسلق في خط الإستواء .

تعتمد في بقائها على الالتحاق بالفلسفات السائدة والنظم الغالبة ، كي تضمن  
حياة أى حياة ، لدعائهم الأولى من تراث وثني وقرابين .

والمسلمون سرت إليهم لوثات الاحتراف والتعلق بالقشور والمراسم .  
وردتهم ردائل الضعف والجهالة ، إلى أحوال أشبه بما كان يسود اليهود  
والنصارى على عصر النبوة والخلافة الراشدة .

وقلة يسيرة منهم ، هي التي بقيت إلى يوم الناس هذا ، تغالب الجاهلية  
وتتشبث بالحق .

وإذا كان مما يعين على الأمل أن الإسلام ظل من الناحية العلمية محفوظا في  
مصدره الخطيرين : الكتاب والسنة ، فإن هذا العلم المصون لا يغنى أبدا عن العمل .  
على أن الذين يعملون للإسلام عملا صحيحا ، يلقون مقاومة عنيفة من شتى  
الجهات الأخرى ، أعني الجهات التي قاومت امتداده من أربعة عشر قرنا ، ولم  
تبرد عداوتها له يوما !!

\* \* \*

قد يسأل سائل : هل العالم اليوم بحاجة إلى هذا الإسلام ؟  
ونقول : إذا كان العالم بحاجة إلى أن يعرف الله ويستمدد لثقائه ويقدم حسابا  
على ما أدى في هذه الدنيا فلا بد له من الإسلام .



إن الارتقاء المادى ، لا يغنى فتيلًا عن التقيد بهذه الحقائق الكبيرة .  
قد يقال : لـسكن من الناس من لا يؤمن بإله قائم أو يوم آخر .  
ومنهم من يؤمن بذلك على نحو غير ما جاء به الإسلام .  
فدعوا الناس وما يرون . .  
ونقول : لير الناس ما يشاءون ، ولكن ليس من حق العميان أن يخلعوا عيني  
المبصر ، أو يضيقوا عليه الخناق ، لأنه يرى ما لا يرون !  
فليدعوه يمشى بهدى بصره ، وليدعوه كذلك ، يصف ما يرى في طريقه  
وما يتوقع .  
فمن تبعه من غير استكراه ، فلينطلق معه ، وإلا فليدعه ، ويرفع من أمامه  
العوائق ، وذلك ما يبغيه الإسلام فحسب . .  
إن المبطلين يكرهون الإسلام لأنه حق ناطق ، يجادل عن نفسه ، ويستعلن  
بما فيه ، ويرفض أن يتوارى أو يصمت .  
هذه الخاصة فى الإسلام ، خاصة إحقاق الحق وإبطال الباطل ، أزعجت أعداءه  
وجعلتهم يختلفون له التهم .  
فإذا رفض المهادنة ، فهو مهاجم ، وإذا أبى أن يموت أمام كيد الخصوم ، فهو  
ينشر بالإكراه !  
وذاك سر الخرافة التى راجت ، أن الإسلام ساد بالسيف .  
والإسلام إنما امتشق الحسام لينجو به من غوائل الرعاع والقطاع .  
ولو ترك من خير ترويع ، ما أثقل عاتقه برمح ، ولا كفى من السنان باللسان  
نعم ، إنه كان فى هذه السبيل صارماً . .  
وهل ينتظر منه إلا ذلك فى ملاقاته خصوم يجرون وراءهم كبرياء القرون  
الطوال وتعصبها ؟ وضلالات تسمى وراء غابات متشابكة من الرجال والسلاح ؟

إذنه لولا هذه الصرامة ، ما بقيت أصوله العلمية والنفسيه سليمة إلى اليوم .  
فإن الديانات التي ضعفت قبله ، أفلح أعداؤها في جرها عن أصولها جراثيماً  
فلم تعد إلى قواعدها سالمة .. ؟

أما الإسلام ، فإنك واجده اليوم ، ولو في كتابه ، إن لم يكن في أصحابه .

\* \* \*

قد تظن أنك درست حياة محمد صلى الله عليه وسلم إذا تابعت تاريخه من  
الولد إلى الوفاة ، وهذا خطأ بالغ ، إنك لن تفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن  
الكريم والسنة المطهرة .

وبقدر ما تنال من ذلك ، تكون صلتك بنبي الإسلام ...



# فهرس

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
١٠٧	عمار بن ياسر	٣	مقدمة
١٠٨	بلال	٩	حول احاديث هذا الكتاب
١٠٩	خياب	١٥	رسالة وإمام
١١١	مفاوضات	١٦	الوثنية تسود الحضارات القديمة
١١٥	الهجرة إلى الحبشة	٢٠	طبيعته الرسالة الخاتمة
١٢١	إسلام حمزه وعمر	٢٤	العرب حين البعثة
١٢٣	المقاطعة العامة	٢٧	رسول معام
١٢٨	عام الحزن	٤٦	النبي وخوارق العادات
١٣٠	في الطائف	٥٧	من الميلاد إلى البعث
١٣٤	الإصرار والمعراج	٦٣	شق الصدر
١٢٩	حكمة الإصرار	٦٨	بحيرا الراهب
١٤٠	إكمال البناء	٦٩	حياة الكدح
١٤٢	سلامة الفطرة	٧٤	حرب الفجار
١٤٣	فرض الصلاة	٧٤	حلف الفضول
١٤٤	قريش والإصرار	٧٦	قوة ونشاط
١٤٦	الهجرة العامة: مقدماتها ونتائجها	٧٨	خديجة
١٥١	فروق بين البلدين	٨١	السكينة
١٥٢	صنع اليهود	٨٥	باحثون عن الحق
١٥٤	بيعة العقبة الأولى	٨٨	في غار حراء
١٥٦	بيعة العقبة الكبرى	٩٠	ورقة بن نوفل
١٦٣	طلائع الهجرة	٩٣	جهاد الدعوة
١٦٧	في دار الندوة	٩٦	إلام يدعو الناس ؟
١٦٨	هجرة الرسول	٩٨	الرعيل الأول
١٧١	درس في سياسة الأمور	١٠٠	إظهار الدعوة
١٧٢	في الغار	١٠٣	أبو طالب
١٧٤	في الطريق إلى المدينة	١٠٦	الاضطهاد
١٧٦	دعاء		



صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٣٦٨	مع اليهود مرة أخرى	١٧٩	الوصول إلى المدينة
٣٧٩	عودة مهاجري الحبشة	١٨١	الاستقرار بالمدينة
٣٨١	تأديب الأعراب	١٨٧	أسس البناء للتجمع الجديد
٣٨٤	مكاتبه الملوكة والأمراء	١٨٩	المسجد
٣٩٣	عمرة القضاء	١٠١	الأخوة
٣٩٥	غزوة مؤتة	١٩٥	غير المسلمين
٤٠١	ذات السلاسل	٢٠٠	المصطفون الأخيار
٤٠٥	الفتح الأعظم	٢٠٥	معنى العبادة
٤٢٠	معركة حنين	٢١٢	قيادة تهوى إليها الافةة
٤٢١	هزيمة	٢٢١	الكفاح الدامى
٤٢٣	الثبات والنصر	٢٢٧	سرايا
٤٢٥	الغنائم	٢٢٩	صربية عبد الله بن جحش
٤٢٨	حكمة هذا التقسيم	٢٣٣	معركة بدر
٤٣٠	عودة وفد هوازن	٢٥٠	محاسبة وعتاب
٤٣١	حصار الطائف	٢٥٥	فى أعقاب بدر
٤٣٢	إلى دار الهجرة	٢٥٧	بدء الصراع بين اليهود والمسلمين
٤٣٤	موقف المنافقين	٢٦٤	مناوشات مع قریش
٤٣٥	قيوك ز ريب	٢٦٨	معركة أحد
٤٤٣	المخالفون	٢٨٠	عبر المحنة
٤٤٧	مسجد الضرار	٢٨٩	شهداء أحد
٤٤٩	طليعة الوفود	٢٩٤	آثار أحد
٤٥٢	حج أبى بكر	٣٠١	إجلاء بنى النضير
٤٥٥	وفد اللاميين ووفد لاهل الكتاب	٣٠٥	بدر الآخرة
٤٦٤	اممات المؤمنين	٣٠٦	دومة الجندل
٤٨٤	استقرار	٣١١	حديث الإفك
٤٨٦	حجة الوداع	٣١٦	غزوة الأحزاب
٤٩١	إلى المدينة	٣٣٥	مع قريظة
٤٩٣	الرفيق الأعلى	٣٤٧	طور جديد
٥٠٥	خاتمة	٣٤٨	عمرة الحديبية